المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

جيل ليبوفيتسكى

المرأة الثالثة

ديمومة الأنثوى وثورته

ترجمة

دينا مندور



مراجعة وتقديم

جمال شحيد

2112

المرأة الثالثة

ديمومة الأنثوي وثورته

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

– العدد: 2112
– المرأة الثالثة: ديمومة الأنثوى وثورته
– جيل ليبوفيتسكى
– دينا مندور
– جمال شحيد
– الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

LA TROISIÉME FEMME: Permanence et révolution du féminin

Par: Gilles Lipovetsky

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المرأة الثالثة

ديمومة الأنثوى وثورته

تـــــأليف: جيـــــل ليبوفيتســـــكى

ترجمـــــــة: دينـــــا منـــــدور

مراجعـــة وتقـــديم: جمـــــال شـــــحيد



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ليبوفيتسكي، جيل
المرأة الثالثة: تأليف: جيل ليبوفيتسكي ، ترجمة: دينا مندور ، مراجعة وتقديم: جمال شحيد.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٢
٣٠٤ ص ، ٢٤ سم
(أ) مندور ، دينا (ترجمة)
(ب) شحيد ، جمال (تقديم ومراجعة)
(ج) العنوان ٣٠١,١٤٠٣

رقم الإيداع ٣٢٩٧ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977- 704 - 950- 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات



مقدمة المراجع

إشكالية المرأة الثالثة

سعدتُ عندما علمت أن المركز القومى للترجمة فى مصر فى صدد ترجمة كتاب"المرأة الثالثة" لجيل ليبوفيتسكى، أستاذ الفلسفة المعاصرة فى جامعة جرينوبل، ومؤلف مجموعة من الكتب تتعلق بهموم الإنسان الأوروبى المعاصر؛ ومنها كتاب "عصر الفراغ: محاولات فى الفردية المعاصرة" (1983)، "مملكة الزائل: الموضة ومصيرها فى المجتمعات الحديثة" (1987)، "انحسار الواجب" (1992)، "تحولات الثقافة الليبرالية: الأخلاق ووسائل الإعلام والشركات" (2002)، "الكماليات الخالدة" (2003)، "الأزمنة شديدة الحداثة" (2004)، "السعادة المفارقة: محاولة فى المجتمع شديد الاستهلاك" (2006)، "مجتمعات الخيبة" (2006)، "الشاشة الكوكبية: ثقافة وسائل الإعلام والعصر الشديد الحداثة" (2007)(*)، "عالم الثقافة: ردّ على مجتمع تائه" (2008)، "الغرب المعولم: سجال حول الثقافة الكوكبية" (2010)، "الشاشة الكوكبية: السينما وثقافة وسائل الإعلام"(2011).

أما كتاب "المرأة الثالثة" فقد أصدرته دار جاليمار للنشر عام 1997، ثم تحوّل إلى سلسلة فوليو للجيب التى يُقْبل عليها عدد هائل من القراء، وتُترجم إلى لغات كثيرة، ومنها العربية التى أنجزتها السيّدة دينا فتحى مندور للمركز القومى للترجمة.

يتألف الكتاب من أربعة أقسام هى: (1) الجنس والحب والغواية، (2) الجنس الجميل، (3) تتويج المرأة ربة المنزل، (4) هل نتجه نحو تأنيث السلطة؟ ويقصد الكاتب بهذه المقولة تحولا حصل فى وضع المرأة بعد القرون الوسطى فى أوروبا؛ فالمرأة الأولى هى التى صنّفها مجتمع الرجال على أنها مؤبلسة ودونية وتستحق

(*) صدر الكتاب فى المركز القومى للترجمة بعنوان (شاشة العالم).

اللعنة، واستمرت هذه النظرة السلبية حتى نهايات القرون الوسطى، والمرأة الثانية هى التى أشاد بها الرجل، وتغنى بمفاتنها وتظاهر بأنه يعبدها على أمل الإيقاع بها، واستمرت هذه الحقبة فى تاريخ المرأة من بدايات النهضة الأوروبية حتى عقد السبعينيات من القرن العشرين، أما المرأة الثالثة فهى وليدة العقود الثلاثة الأخيرة التى نجح التحكّم فيها بالحمل والولادة، والتى عملت فيها المرأة بكثافة خارج المنزل، وحصلت على أرفع الشهادات الجامعية أسوة بالرجل. ويرى ليبوفيتسكى أن النقلة الكبرى فى وضع المرأة الثالثة هى تحكّمها بذاتها وتحقيقها شخصيتها دون تدخّل الرجل فى قراراتها الشخصية؛ فانتقلت هذه المرأة من الوضع الدونى القروسطى والرومانسى النهضوى إلى الوضع الراقى، فصارت تشارك فى السلطة ومجالس الإدارة، وتسهم فى تطوير الاقتصاد، وتتعامل مع الرجل بـ"ندّية". وهكذا أسقطت الحواجز التى حالت دون أن تحقق ذاتها، ويتوقف الكاتب عند الصورة الأيقونية للمرأة الثالثة، فيرى أن التنحيف والموضة صارا هاجسا ملحا فى حياة المرأة الأوروبية المعاصرة، ولا سيما المدينية منها، وأصبحا ذا سطوة استبدادية استعبدا المرأة وحوّلاها إلى دمية استعراضية.

وتصدّت بعض الكاتبات والصحفيات لمقولات ليبوفيتسكى، ومنهن جيزيل حليمى التى اعتبرت الكتاب خديعة كبرى، لا سيما نظريته حول القيمة المفرطة التى أولاها للحبّ عند المرأة، وانتقدته المؤرخة ميشيل بيرو لأنه خلط، كما قالت بين النسوية الأمريكية والنسوية الأوروبية، واعترضت فرانسين ديكاريير، وهى أستاذة الدراسات النسوية فى قسم علم الاجتماع التابع لجامعة كيبيك فى مونريال، على نظريته المتعلقة بالأنثى الخالدة، كما سخرت من نظريته القائلة بتفوق المرأة على الرجل فى الشئون المنزلية، وقالت: "من المضحك الظنّ بأن الرجال لن يتمكنوا أبدا من طىّ غسيل العائلة، أسوة بما قيل منذ خمسين عاما حول عجز النساء عن قيادة السيارة"، وانتقدته الصحفية الكندية باسكال نافارو زاعمة أنه يحبّذ سلطة الإغواء عند المرأة، وأنه يقرّ بالإقبال الجنونى عند النساء على شراء مستحضرات التجميل، ولامته

على قوله بأن الحركة النسوية هى فردية أساسا، واعتبرت أن الجهود التى بذلتها هذه الحركة فى المجالين السياسى والاجتماعى توخت إعادة تنظيم المجتمع وإزالة التمييز بين الجنسين. ورأت أن تحليل ليبوفيتسكى يمكن أن يطبّق على المرأة البيضاء البشرة والبرجوازية والفرنسية، ولكنه لا يصحّ إن طُبق على نساء باقى القارات والمناطق غير الأوروبية فى العالم.

فى تطرق ليبوفيتسكى لمقولة الحداثة المعزّزة، يحلل التحولات التى أصابت النظام الرأسمالى؛ فيرى أن المجتمع المعاصر صار مجتمعا استهلاكيا مفرطا فى استهلاكه، ورمى بثقله على الحياة اليومية، وركّز على الماركات الصناعية المتجددة بسرعة جنونية، فنشأ مستهلك يتهافت على الشراء، ويصبو إلى الكماليات، ولكنه يفضّل أن يشترى بأرخص الأسعار، ويطلق على هذا المجتمع المفرط الاستهلاك عبارة "السعادة المفارقة" التى تدفع الكثيرين إلى التغنّى بهذه السعادة، على الرغم من ازدياد حالات الانهيار العصبى والشعور بالمقت والقلق والأسى.

ولا يرى ليبوفيتسكى أن حصول المرأة على حقوقها فى المساواة والندّية قد أدّى إلى جرح الهوية الذكورية وإلى امتهان كرامة الذكورة، وإنما قلّل أو أزال التصرفات العنترية التى كان يتبجّح بها الرجل، وفتح المجال أمام الأزمنة الديموقراطية، كما ورد فى نهاية كتاب "المرأة الثالثة".

لقد بذلت السيّدة دينا فتحى مندور جهودا جبّارة فى ترجمة هذا الكتاب الدقيق، وبخاصة عندما يغوص فى مسائل التنظير ومفرداته الأوروبية الحديثة؛ فقدّمت لقراء العربية ترجمة واضحة ودقيقة علميا، ترجمةً حافظت على رصانة الأسلوب وبساطته.

جمال شحيد



مقدمة الترجمة

يعد كتاب المرأة الثالثة من أهم الكتب المعاصرة التى تناولت الحالة النسائية، بسبب القيمة التى يشغلها مؤلفه الفيلسوف الفرنسى جيل ليبوفيتسكى فى الفكر الأوروبى المعاصر، وبسبب تعرضه للواقع الأنثوى بمختلف جوانبه، وهو السبب الذى دفع المركز القومى للترجمة فى القاهرة للموافقة على نشره. لم تكن ترجمة هذا الكتاب ونقله من الفرنسية سهلة المنال، وذلك لاعتبارات عدة، أولها، خصوصية وصعوبة لغة الكاتب نفسه على الفرنسيين – كعادة الفلاسفة – وثانيها، اختلاف البيئة الثقافية ومرتكزاتها عن بيئتنا العربية ليس فقط على مستوى المصطلح والتراكيب، وإنما على مستوى المفاهيم ذاتها والتحضر الذى حققه المجتمع، والحقوق التى حازتها المرأة لم تكن نتاجا سهلا، فقد استغرقت عهودا طويلة من النضال السياسى والاجتماعى والفكرى، وليس هذا غريبا على المجتمع الفرنسى الذى لم يتوقف عن التطور منذ ثورته ضد الملكية.

وإذ أعبر عن خالص امتنانى وعرفانى للمركز القومى للكتاب فى باريس لما يقدمه من دعم للمترجمين وتشجيعهم فى مختلف اللغات من خلال منحهم دورات تدريبية وإتاحة الفرص لهم من خلال ورش عمل علمية تصقل قدراتهم، وهو ما كنت سعيدة الحظ بما أتاحه المركز لى، حيث وفر لى فرصة الالتقاء بكبار المترجمين العرب والفرنسيين ممن لهم باع طويل فى حركة الترجمة، إلى جانب خمسة من المترجمين الشباب وجميعهم يقومون بالترجمة من العربية إلى الفرنسية والعكس. وكذلك فرصة الالتقاء بالمؤلف لمناقشته فيما واجهنى من مشكلات والاستنارة بآرائه ورؤاه ؛ ذلك أننى رأيت أنه كان من غير الممكن أن نقدم نتاج الفكر الأوروبى المعاصر دون أن نقف بتأن وتؤدة وعمق أمام فكر هذا الفيلسوف، وهو ما أتاحه لى

لقائى به ونقاشى معه؛ مما كان له أكبر الأثر فى أن تخرج الترجمة التى شرفت بالقيام بها على النحو الذى كنت أطمح إلى تحقيقه.

القاهرة، الأول من يناير ٢٠١٢

دينا مندور

La Traductrice remercie le Centre National du Livrea Paris pour le soutien fourni.

إهداء

إلى ابنتى ساندرا



المقدمة

إن الأسباب التى تدفع رجلا من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى التفكير والكتابة عن المرأة فى عصره ليست سرًا. كيف لا نتساءل حول المكانة الجديدة للنساء وعلاقتهن بالرجال فيما غيّر نصف القرن الأخير الوضع النسائى أكثر مما فعلت الألفيات السابقة؟ فالنساء كن "عبيدات" مخلوقات للإنجاب، ثم تجاوزن هذه العبودية الأزلية. وكانت النساء يحلمن بالأمومة والبقاء فى المنزل، ثم رغبن فى ممارسة نشاط مهنى، وكن خاضعات لأخلاقيات صارمة، ثم ناضلن من أجل الحصول على الحرية الجنسية باعتبارها حقًا من حقوق المواطنة، كما كن محصورات فى القطاعات النسائية، وها هن يفتحن ثغرات فى القلاع الذكورية، ويحصلن على الشهادات نفسها، ويطالبن بالندية فى مجال السياسة؛ فلم يحصل أى تزعزع اجتماعى وقع فى هذا العصر، ويماثل التحرر النسائى فى عمقه وسرعته وفى ثراء مستقبله. وإذا كانت محصلة هذا القرن ليست مشرفة كثيرًا فيما يتعلق باحترام حقوق الإنسان، فمن الذى يمكنه أن يعارض الارتقاء النسائى. ويعد القرن العشرون القرن العظيم للنساء، والذى ثوّر مصيرهن وهويتهن أكثر مما فعلت قرون أخرى، مهما كانت أشكال التقدم المنتشرة فى الأفق، فمن غير الوارد أن تستطيع التغلب على ما شهدته المجتمعات الديمقراطية فى العقود الثلاثة الأخيرة، على هذا الصعيد.

وفى المجتمعات الغربية المعاصرة، بزغ مظهر اجتماعى جديد للإناث، يؤسس لقطيعة مهمة فى "تاريخ النساء"، ويعبر عن تقدم ديمقراطى حتمى ينطبق على الوضع الاجتماعى والهوياتى لهن. هذه الصورة الاجتماعية- التاريخية أسميناها المرأة الثالثة. فللمرة الأولى لا تنتظم الوضعية الاجتماعية النسائية كاملة بشكل مسبق ولا تتناسق مع النظام الاجتماعى والطبيعة. وخلفًا للعالم المغلق الذى كان، ها هو عالم منفتح واحتمالى، يؤسسه منطق من اللاتحديد الاجتماعى، والحكم الفردى الحر،

يضارع مبدأ العالم الذكورى ذاته. وإذا كان هناك معنى من وراء الحديث عن الثورة الديمقراطية فى موضوع التركيب الاجتماعى للجنسين، فذلك يرجع أولا، إلى خضوعها " للمصير" ذاته الموسوم بسلطة الامتلاك الحر للذات وضرورة تكوين المرء لذاته خارج إطار الإملائية الاجتماعية.

ولكن صعود المرأة – الفرد الفاعل لا يعنى إبطال آليات التمايز الاجتماعى بين الجنسين، فمع تزايد مطالب الحرية والمساواة، يعاد تشكيل الفصل الاجتماعى بين الجنسين، ويعاد تفعيله تحت مسميات جديدة. وفى كل مكان باتت أشكال الانفصال بين الجنسين أقل رؤية، وأقل حصرية، وأكثر ضبابية، ولكنها لم تنحط بأى شكل من الأشكال. فحتى وقت قريب كان ما يثير الدهشة هو التفكير فيما قد يغير جذريًا الحالة النسائية، ثم انقلب الموقف بدرجة ما، وفى أيامنا هذه، إن الاستمرارية النسبية لأدوار الجنس هى التى تبدو كأنها الظاهرة الأكثر لغزية، والأكثر ثراءً بالنتائج النظرية، والأكثر قدرة على أن تجعلنا نفهم الاقتصاد الجديد للهوية النسائية فى مجتمعات المساواة. وأصبح التفكير فى "ثباتية" الإناث، بشكل مفارق، هو المسألة الأساسية التى تعطى كل المعنى للمكانة الجديدة للنساء فى قلب المجتمعات التى يحكمها الحراك الدائم والتوجه نحو المستقبل.

من المعروف أن عددًا من المواقع والتخصيصات النسائية قد انهارت، كما بقيت مجموعة من الوظائف التقليدية، وذلك لا يرجع إلى جمود تاريخى بقدر ما يرجع إلى احتمالية ارتباطها بالمرجعيات الجديدة للاستقلالية الفردية. حان الوقت كى نتخلى عن تأويل بقاء ثنائية النوع فى قلب مجتمعاتنا كأشياء بائدة أو كـ "تأخر" محكوم عليه، لا محالة، بالتلاشى تحت وطأة الفعل التحررى لقيم الحداثة. إن ما يمتد من الماضى ليس باهتًا، وإنما تحمله ديناميكية المعنى، وهويات جنسية واستقلالية ذاتية، وإذا كانت النساء يحملن علاقات مميزة بالنظام المنزلى، والعاطفى أو الجمالى، فذلك لا يرجع إلى مجرد ضغط اجتماعى، ولكن لأن تلك العلاقات تنتظم بطريقة لم تعد تعيق مبدأ الامتلاك الحر للذات، وتعمل باعتبارها موجهات للهوية والمعنى والسلطة

الخاصة: فمن داخل الثقافة الفردانية- الديمقراطية تتشكل من جديد مسيرة التمايز بين الرجال والنساء.

هل ينبغى أن نرى فى البقاء الراسخ للفصل الاجتماعى بين الذكور والإناث، نتيجة لفعل عوامل أخرى سوى العوامل الاجتماعية؟ فلنقلها سريعًا: إننا وضعنا، عمدًا، بين قوسين، الاحتمالات البيولوجية المتغيرة للظاهرة، عند الإجابة على هذا السؤال. وهذا ليس من قبيل الثقافوية، ولكن بحرص يتعلق بالتماسك وبالمنهج، فى المقام الأول. وبالنسبة لمسألة أثر نزعة التحديد البيولوجى على النظام الاجتماعى والنفسى، امتنعنا عن الرد، لأن حالة المعرفة لا تسمح بوجود إثباتات مقنعة بشكل كاف، كما أنه لا يوجد تفسير ذو طابع بيولوجى يستطيع عرض مظاهر العصر الثقافية المتنوعة، وكذلك المدلولات التى تعكسها. ومهما يكن من أمر، لا تدعى التحليلات المقترحة هنا استعراض حقيقة قصوى، ولكنها فقط تأويل اجتماعى، وظرفى، للغز الثنائية الحديثة للجنسين ومصائرهما.

وفى قلب الحداثة المفرطة ينتظم من جديد التباين فى مواقف النوع. إن الرموز العميقة للإناث لا تزول إلا حين تتفرغ من المعنى الوجودى وتصطدم مباشرة بمبادئ الهيمنة الفردية، كذلك بقيت الوظائف والأدوار القديمة، وتواكبت بطريقة غير مسبوقة مع الأدوار الحديثة، وكنا نعتقد أن الحداثة ألغت الفصل الجنسى للمعايير؛ وفى الواقع، إنها وفقت بين الجديد والقديم، وهى من أعادت كتل "التراث" إلى داخل العالم الفردانى. من هنا يتأكد مطلب إعادة النظر فى أساس الافتراضات التى تؤكد حتمية المسيرة نحو عدم التمييز فى الأدوار والمكانات لكل من الجنسين. وفى الصراع الذى تتقابل فيه ديناميكية المساواة والمنطق الاجتماعى لآخرية الجنسين، فإن أحدهما لا يتغلب على الآخر: بل ينتصران معًا، إنها حداثة ديمقراطية، وليست إمكانية تبادل فى الأدوار الجنسية، ولكنها إعادة تشكيل للفروق الممايزة الدقيقة والأقل تعطيلا توجيهيًا، كما لم تعد تشكل عقبة أمام مبدأ الامتلاك الحر للذات.

وفى الحالة الاجتماعية المعاصرة، تتقارب وضعيات التكيف الاجتماعى لكل من الجنس والجنس الآخر، ولكن الفواصل الأصلية تستمر، ولو بشكل طفيف، فى إنتاج فروق قوية فى السلوك، والتوجهات، والمسيرات. وما يعتبر حقيقة بالنسبة لنظريات الخواء يعد كذلك أيضًا فى إطار الإجراءات المعاصرة للفرق بين الجنسين. وفى "الأنظمة" المزودة بالحساسية تجاه الظروف الأصلية يطبّق القانون ذاته أمام الأسباب الصغرى، وهناك آثار كبرى ومتغيرات طفيفة تقلب المسارات النهائية رأسًا على عقب. وهكذا، فإن التباين بين الجنسين ليس فى طريقه إلى التلاشى؛ حتى وإن أصبح كل ما يفعله هذا متاحًا لذاك، إلا أن الفصل البنيوى والهوياتى بين الذكور والإناث فى الأذواق والأولويات الوجودية وتراتبية الدوافع يعاد إنتاجه، حتى وإن تقلص حجمه. ومن خلال الدراسات الأربع التالية، والتى ركزت على عوامل متعددة مثل الحب، والغواية، والجمال الجسدى، والعلاقة بالعمل، وبالعائلة والسلطة، فرض استخلاص واحد نفسه: لم تبلغ ديناميكية الديمقراطية نهايتها، وإذا وظفت لتقليص التعارض بين الجنسين، إلا أنها لم تعمل كثيرًا على تلاقيهما؛ فتشكيل الهويات وفقًا للجنس ينتج من جديد أكثر مما يتفتت، واقتصاد آخرية المذكر/ المؤنث لم تقوضه مطلقًا مسيرة المساواة. ولا يزال الرجل يرتبط أساسيًا بالأدوار العامة و"الأدواتية"، والمرأة بالأدوار الخاصة والجمالية والعاطفية، وبعيدًا عن أن تمثل الحداثة قطيعة مطلقة مع الماضى التاريخى، فإنها قد أعادت تدويره باستمرار. إن عصر المرأة - الفرد الفاعل يوفق بين الانقطاع والاستمرارية، وبين الحتمية واللاتوقعية، وبين المساواة والاختلاف؛ فالمرأة الثالثة قد نجحت فى التوفيق بين المرأة التى تعد امرأة أخرى، بشكل جذرى، والمرأة التى تتجدد دائمًا.

الفصل الأول

الحب والجنس والغواية

(١)

تقول هي: ما الحب؟

لم ينجح أي إبداع شعرى فى التعبير بعمق عن حساسية العلاقة بين الرجل والمرأة وأساليبها، كما فعل الإبداع الغربى فى مجال الحب. فمنذ القرن الثانى عشر لم يتوقف الاحتفاء بالحب والتغنى به وأمثلته، فالحب ألهب الرغبات والقلوب، وأعاد صياغة الطريقة التى يكون بها الرجل رجلا والمرأة امرأة، وكيف يمارس كل منهما طبيعته الذكورية والأنثوية، ويغذى أحلامهم الأكثر جنونًا. ومع بلاغة التعبير عن الولع لم يتشكل فقط نوع جديد من العلاقات بين الجنسين، بل تشكل نوع من أكثر الأنواع تميزًا فى المغامرة الغربية الحديثة.

ففى القرون التسعة من تاريخ الثقافة العشقية عرفت هذه الثقافة تحولات شتى فى مركز ثقلها وفى القطعيات اللغوية والمسلكية وفى طرقها، ولكنها عرفت أيضًا أشكالا من الاستمرار الطويل والترقب والتحول على مدار تلك الفترة الطويلة. إن الحب، خلال فترة تشكله خارج جدية الحياة، كما كان فى القرون الوسطى، تحول إلى تواصل مشخصن للغاية، ووظف كل ما لدى الفرد إزاء الآخر. انتقل الحب من إطاره الأرستقراطى إلى الإطار العام لينتشر بين جميع الطبقات؛ فكان يستبعد الزواج فارضًا نفسه كأساس حصرى؛ وتماشى مع الحط من قيمة الزخم الجنسى، وتصالح مع إيروس. فى عصر الكاتدرائيات ارتبط أساس الحب بالسمو وندرة سمات العشاق؛ أما فى العصر الحديث فقد أصبح رغبة لاعقلانية ومفارقة لا تتضمن تبريرًا آخر إلا نفسها[١]. "الحب الناعم" كما ظهر فى القرون الوسطى، والحب المتصنع والحب الرومانسى والحب "المتحرر" إبان القرن العشرين[٢] كلها لحظات جوهرية قد ميزت

---

(١) Niclas Luhmann, *Amour comme passion,* Paris,Aubier, 1990

(٢) حول هذا التقسيم التاريخى انظر ,ibid, Niclas Luhmann.

تاريخ الحب طوال مسيرته، وكلها تحولات عميقة فى قوانينه الرمزية التى لم تسلم من انقطاعات فى علاقتها بالحياة الجنسية نفسها، وخاصة منذ نهاية القرن الثامن عشر [١].

تلك التحولات، وإن كانت عميقة، يجب ألا تفقدنا النظرة القائلة بأن الابتكار الغربى للحب قد أورث الحساسية البشرية أسلوبًا ومثالا أعلى لا يزول تقريبًا، وخلف التحولات فى أشكال السلوك والقطيعات الدلالية، حافظ الحب على سمات شبه دائمة، وتمحور حول تطلعات ومثل عليا أكثر استقرارًا من كونها متغيرة. وهكذا فقد كان الحب شيئا أكثر من الجاذبية الجنسية فحسب؛ كما كان متجردًا ومترفعًا عن حسابات المصالح المالية والاجتماعية والزواجية. وحسب الطبيعة، فإنه لا يعترف إلا بحرية الاختيار لدى العشاق واستقلالية العواطف، ولن يكون ذاته بالفعل إلا فى الإخلاص والحصرية، فمن يحب حقًا لا يحب أكثر من شخص واحد فى آن، وأخيرًا فإنه يهدف إلى تبادل المشاعر، أى أن يحب الإنسان وأن يكون محبوبًا. ويرتكز المثال الأعلى على مفهوم حب متبادل، حب يرتكز على "التساوى والتشارك"، وهناك شىء فى الحب العشقى يتجاوز تحولاته التاريخية، وهو أن" الحب سيظل دائمًا هو الحب".

بالتوازى مع استمرار تلك المثل، فإن ثقافة الحب ظلت تتشكل وفقًا لمنطق اجتماعى ثابت، وهو التباين فى أدوار كل من الرجال والنساء، ففى موضوع الغواية يأخذ الرجل زمام المبادرة، ومغازلة المرأة، والتغلب على أشكال مقاومتها، وعلى المرأة أن تجعله يعبدها، وأن تبقى المتوله صابرًا، وقد تمنحه حظواتها. أما فيما يتعلق بالأخلاق الجنسية، فإنها تتم وفقًا لمعيار اجتماعى مزدوج: تسامح تجاه النزوات الذكورية، وصرامة إزاء حرية النساء. وللاحتفاء بالمساواة والحرية لدى العشاق، فإن الحب ليس إلا إجراءً تم انشاؤه اجتماعيًا انطلاقًا من عدم المساواة البنيوية فى مكانتى الرجال والنساء.

---

(١) Edward Shorter, *Naissance de la famille modern*. Paris, Seuil. 1997

الفصل نفسه ينظم العلاقة الوجودية والهوياتية للجنسين، كما ينظم المشاعر ذاتها. لاشك أن حرقات الانتظار، والحب الصاعق، و"التبلور"، والغيرة، كلها مشاعر مشتركة لدى الجنسين. إلا أن الرجال والنساء، على مدار التاريخ، لم يعطوا الحب المكانة ذاتها لا من حيث الأهمية، ولا من حيث الدلالة؛ ولهذا السبب فإن بايرون Bayronكان يقول إن الحب لدى الرجل ليس إلا انشغالا من بين انشغالات عديدة، في حين أنه يملأ الكيان الأنثوى. وأضاف ستاندال Stendhal فيما يتعلق بأفكار المرأة قائلا:" إن تسعة عشر حلمًا من أصل عشرين حلمًا لدى المرأة تتعلق بالحب[١]". حتى وإن كان النموذج العشقى يظهر، وكأنه "متساو ومتبادل" فإن عدم التناظر فى الإنجازات وفى الأحلام والتطلعات لدى الجنسين هو الذى يشكل منذ قرون الواقع الاجتماعى والمعيش للظاهرة.

من عقيدة الحب إلى الحب السجين

الشغف الأنثوى فى الحب

كتب نيتشه Nietzsche: "إن لكلمة "حب" اللفظ ذاته ويحمل معنيين مختلفين لدى الرجل والمرأة[٢]" ويضيف "عند المرأة الحب هو تضحية ونهاية غير مشروطة "وهو منح كامل للجسد وللروح معًا ". وهذا لا ينطبق إطلاقًا على الرجل الذى يبتغى امتلاك المرأة، والاستحواذ عليها، بغية إثراء ذاته وتنمية قدرته على العيش:" المرأة تعطى نفسها، أما الرجل فيزداد بها[٣]". هذا ما كتبته سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir عن الحب كما كتبت صفحات أخرى عن التمايز الجنسى فى الأدوار

---

(١) *De l'amour*, Livre 1, chap. 7.

(٢) *Le Gai Savoir*, Livre 5, 363.

(٣) *Ibid*

العشقية، وعن الدلالة غير المتكافئة للحب لدى كلٍ من الجنسين[1]. فعند الذكور، لا يظهر الحب كرسالة وتصوف ومثال حياة قادر على امتصاص الوجود بأكمله: فهو بالأحرى مثال عارض وليس سببًا حصريًا للحياة، بينما يختلف سلوك المرأة العاشقة تمامًا، فهى لا تحيا إلا من أجل الحب ولا تفكر إلا فى الحب، ذلك أن حياتها كلها تشيّد بناءً على الحبيب، الذى يمثل الهدف الأساسى والوحيد لوجودها. كتبت جولى دى ليسبيناس Jolie de Lespinasse قائلة: "أنا لا أعرف شيئًا إلا أن أحب". وقالت جيرمين دى ستالGermaine de Stael: "لا وجود للنساء إلا من خلال الحب، فتاريخ حياتهن يبدأ وينتهى بالحب". وتؤكد سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir أن الحب فى حياة النساء يحتل فى الغالب مكانة أقل بكثير من مكانة الأطفال أو الحياة المادية أو الاهتمامات المنزلية. يبقى فى الحقيقة أن النساء اللواتى لم يحلمن بالحب الأكبر هن نادرات، ونادرات أيضًا أولئك اللواتى فى فترة من حياتهن لم يعبرن عن حبهن الحب. تتأكد لدى المرأة الحاجة إلى حب أكثر ثباتًا وأكثر تبعية وأكثر نهمًا مما هى عند الرجل. من هنا يأتى اليأس الأنثوى إذا باتت حياتها بلا حب؛ ذلك أن كونستانس دى سالم Constance de Salm قالت: "إذا جردت من عظمة الحب، فقد جردتُ من نفسى، فلم أعد سوى امرأة عادية"[2].

منذ قرون، وخاصة منذ القرن الثامن عشر، رفعت قيمة المرأة ككائن حساس قدره الحب؛ فهى تمثل التجسيد الأقصى للعشق، والحب المطلق الجوهرى. ففى القرن الثامن عشر، "مدموازيل دى ليسبيناس" و"مدموازيل دى لابوبيلينيير" و"الأميرة دى كوندى" أفصحن[3] MLLe de Lespinasse, Mme de La Popeliniere, la princesse de Conde، كما فعلت "جولييت درووJuliette Drouet" فى القرن التاسع عشر، عن الحب العبادى، وعن ذوبان الذات فى الآخر، وعن التبعية التامة

---

(1) *Le deuxieme Sex*, Paris, Gallimard, 1949, t.2, chap.12

(2) عن Evelyne Sullerot, *Histoire et mythologie de l'amour*, Paris, Hachette, 1974, p.254

(3) Edmond et Jules de Goncourt, *La Femme au 18e siècle* (1862), Paris, Flammarion, 1982, p.181-188

للمحبوب، وعن الحاجة للحب دون حدود فى حالة من التفانى المطلق. هذه الرسالة الأنثوية فى مجال الحب سيحتفى بها مرارًا على مدار القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين بفضل الثقافة الجماهيرية. قالت مارلين ديتريش Marlene Dietrich: " أنا لا أعرف سوى الحب ولا شيء آخر"، كما تغنت إيديث بياف Edith Piaf بصوتها الذى لا ينسى بالنشيد الأنثوى للحب، وبالحب الكامل انطلاقًا من تبعيتها للآخر: "قد أفعل أى شيء إذا طلبته أنت منى".

فى المجتمعات الحديثة فرض الحب نفسه كقطب يشكِل الهوية الأنثوية. المرأة التى ينظر إليها كمخلوق فوضوى ولاعقلانى، من شأنها أن تكون مستعدة حسب طبيعتها لأشكال من شغف القلب:" لقد رأيت الحب، والغيرة، والتطير، والغضب لدى النساء يصل لدرجة لا يشعر الرجل بها قط[١]"، وقال روسو Rousseau: إن لسوفى "قلبًا فى غاية الرقة التى تمنحها فى بعض الأحيان نشاطًا تخيليًا يصعب كبحه"[٢]. فالاحتياج إلى الحب والحنان والرقة يظهر بصورة جليةً كصفات أنثوية مميزة:" فالحنان والتعاطف والرأفة والحب هى المشاعر التى تحس بها المرأة وتثيرها فى أغلب الأحيان[٣]". ومنذ العصر الكلاسيكى، نظر إلى التعبير عن المشاعر على أنه شيء يتناسب مع المرأة أكثر من تناسبه مع الرجل، لأن الرجال يميلون فى تصريحاتهم الحميمة إلى قدر أكبر من التحفظ والرزانة وضبط النفس أكثر من النساء[٤]. ففى القرن التاسع عشر، أعلن "بالزاك" Balzac أن "حياة المرأة هى الحب". ولأن المرأة، كما قال ميشيليه Michelet: "لا يمكنها العيش دون الرجل ودون المنزل، ومثالها الأعلى لا يمكن أن يكون سوى الحب: "ما هدفها فى الحياة؟ ما رسالتها؟ الأولى هى أن تحب، والثانية أن تحب رجلا واحدًا؛ والرسالة الثالثة هى أن تحب طوال

---

(١) Diderot, *Sur les femmes*, in *oeuvres*, Paris, Gallimard, La Pleiade, p.949

(٢) Rousseau, *Emile*, Gallimard, Folio Essaia, p.582

(٣) Pierre Roussel, *Systeme Physique et moral de la femme* (1755), Ed. de Paris, 1860, p.36

(٤) Maurice Daumas, *La Tendresse amoureuse, 16-18e siècle*, Paris, Perrin, 1996, p.176

الوقت[1]". ونجد أن الرؤى التقليدية للمرأة ككائن للغلو وللشطط، وأن الأيديولوجيات الحديثة التى ترفض أن تعتبر المرأة فردًا مستقلا يعيش بنفسه ولنفسه قد ساهمت فى الجمع بين الهوية الأنثوية ووظيفة الحب". كل ما تتلقاه المرأة من تعليم لا بد وأن يتعلق بالرجل، أن تعجبه، وأن تكون مفيدة له، وأن تمارس الجنس معه، وأن يكرمها الرجل، وأن تربيه فى شبابه وترعاه عندما يكبر، وأن تسدى النصح له، وأن تعزيه، وأن تجعل الحياة جميلة ورقيقة له، هذه هى وظائف المرأة على مر الأزمان[2]". هذا ما كتبه روسو Rousseau: فالتمايز الجنسى للأدوار العاطفية يترسخ فى تصور الأنوثة التى يكمن جوهرها فى منح نفسها وفى العيش من أجل الآخر وفى تكريس حياتها لإسعاد الرجل. وحينما نحتفى بسلطة العاطفة لدى المرأة، وعندما نختزلها فى الحب، فإن المحدثين قد شرعوا بقاءها فى الفضاء الخاص، ذلك أن أيديولوجيا الحب قد أسهمت فى إعادة رسم التمثيل الاجتماعى للمرأة التابعة طبيعيًا للرجل والعاجزة عن الوصول إلى التسيد الكامل لذاتها.

لا يمكن الفصل بين المكانة المتميزة للحب فى هوية المرأة وأحلامها عن مجموعة من الظواهر التى يتجلى فيها بخاصة تعيين المرأة لتلعب دور الزوجة على وجه الخصوص، كما يتجلى فى خمول النساء البرجوازيات الوظيفى وحاجتهن إلى الهروب إلى المتخيل، يضاف إلى كل هذا أيضًا الترويج الحديث للمثال الأعلى السعادة الفردية والشرعنة التدريجية للزواج عن حب. انتشر فى نهاية القرن الثامن عشر ما أسماه شورتر Shorter "الثورة الجنسية الأولى" وصاحبها اهتمام أكبر بالعواطف الشخصية، والتزام أنثوى أكمل بالعلاقة العشقية و"بحياة جنسية عاطفية" تحبذ انتعاش الذات والحب الرومانسى والخيار الحر للشريك على حساب الاعتبارات المادية والرضوخ للقواعد التقليدية. وقد نجم عن ذلك تزايد فى النشاط الجنسى قبل

Michelet, *L'amour* (1858), Paris, p.61.(1)

Emile, op. cit., p. 539.(2)

الزواج وقفزة نوعية فى أعداد المواليد غير الشرعيين[1]. شيئًا فشيئًا، وكلما تراجعت عادة فرض أزواج على الشابات، حلمن بحياة زوجية يتخللها الحب، وتطلعن إلى مزيد من الحميمية فى العلاقات الخاصة وإلى سماع كلام الحب، وإلى التعبير عن مشاعرهن. فما من فتاة شابة لم تحلم بأن تحب، وأن تجد الحب الأكبر، وأن تتزوج من فارس أحلامها. إن الاستثمار الأنثوى الزائد للحب يعبر عن القدرة المتنامية للمثل العليا فى السعادة والاكتمال الحميمى. إن الظاهرة مهما وسمتها علاقة تبعية الطرف للآخر، فإنها تبقى تعبيرًا عن العالم الفردانى الحديث.

ونجد أيضًا أن الرومانسية الأنثوية العاطفية، انطلاقًا من نهاية القرن التاسع عشر وجدت نفسها متخمة بروايات الهروب الواسعة الانتشار والكتب التى كانت تنشر كحلقات مسلسلة فى المجلات الخاصة بالنساء وبأدب كامل معد للنساء ومتمحور حول حياة الزوجين وحول اللواعج والزنا. وفى نهاية القرن التاسع عشر رأينا فتيات شابات يقضين كل أنهر الآحاد متمددات على أسرتهن ليلتهمن قصصًا مسلسلة صدرت فى صحف اليوم السابق[2].على سبيل المثال فإن رواية "لأوجونى مارليت" نشرت فى عام ١٨٦٦ أعيد طبعها فى ألمانيا اثنتين وعشرين مرة خلال عشرين سنة[2]. فكان هناك نهم فى القراءات الروائية التى عبرت بشدة عن العشق وأحلام النساء فى الحب. من هنا تولد الاهتمام بمسألة القراءات النسائية على مدار القرن التاسع عشر، وذلك، كما يقال، لأن الروايات الأدبية تخل بخيال الفتيات الشابات، وتقضى على براءتهن، وتثير لديهن أفكارًا سرية ورغبات مجهولة لديهن؛ لذا أصبح لزامًا التحكم فيما يقرأن. فى أوساط الأسر البرجوازية نجد الأهل يمنعون بناتهم من قراءة روايات: لوتى، وبورجيه، وموباسان، وزولا Loti, Bourget, Maupassant, Zola؛ فالمؤمنون والمعادون للأكليروس اتفقوا على الفكرة القائلة بأن "الفتاة الشريفة لا تقرأ أبدًا كتبًا عن الحب". وحتى الروايات التى لا تحوى أى شىء غير أخلاقى

---

(١) Edward Shorter, *Naissance de la famille moderne, op. cit*

(٢) Anne-Marie Thiesse, *Le Roman du quotidian*. Paris. Le Chemin Vert, 1984, p.125-127

وضعت على القائمة السوداء لأن "مجرد وجود كلمات مثل "حب"، "علاقة"، "خطوبة"... إلخ، حسب ما كتب م.دو لاسو فى كتابه قواعد أساسية لفتاة شابة، هذه الروايات تبعث لدى الطفل الغارق ذهنه فيها تأثيرًا سحريًا مؤذيًا لا يمكن تفسيره بشكل صحيح"؛ وذهب الأمرب "إليزابيث دى جرامون" Elisabeth de Gramont فى مذكراتها إلى القول "إن المرأة التى تقرأ رواية لم تعد امرأة شريفة(١)".

من البديهى أن تلك الأحكام لم تستطع وقف الحمى النسائية للقراءة، فكان عدد من الفتيات يقرأن الروايات العاطفية الأكثر مبيعًا على غفلة من أهلهن. وفى القرن العشرين ازدادت ذائقة النساء الرومانسية أيضًا، كما شهد بذلك انطلاق صحافة القلب، وما أطلق عليه "أدب ماء الورد" والروايات التى تحوى صورًا، والتى انتشرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فى عام ١٩٣٩ تجاوزت رواية "بوح Confidences، " المليون نسخة. وفى سنوات الستينيات كانت روايات "ديلىDelly " و"ماكس دى فوزيت Max du Veuzit " تطبع مرارًا وتقبل عليها الفتيات الشابات بكثرة؛ وفى الولايات المتحدة الأمريكية ازدهر سوق الروايات العاطفية أكثر من أى وقت مضى؛ بعض النساء كن يشترين حوالى ٨٠ كتابًا سنويًا(٢). فى الوقت نفسه قدر عدد قراء الروايات المصورة، وفى إيطاليا، بـ ١٢ مليون شخص؛ فقد صدر ١٠٠٠٠ كتابٍ فى الفترة من ١٩٦٤ وحتى نهاية السبعينيات. وفى عام ١٩٥٨ ظهرت المجموعة القصصية "آرليكان Harlequin"، وحققت فى عام ١٩٧٧ توزيعًا وصل إلى ١٠٠ مليون نسخة. "باربرا كارتلاند Barbara Cartlan " باعت ٤٠٠ مليون نسخة من كتبها. هذه المنشورات نشرت على نطاق واسع المثال الأنثوى الرومانسى، كما نشرت فضائل الإخلاص والعذرية وصورة "المرأة البريئة(٣)" التى تنتظر تحقيق ذاتها بقدوم الرجل الخارق. إن أنماط الرومانسية العاطفية وكليشيهات الحب الصاعق

---

(١) عن Anne Martin-Fugier, *LaBourgeoise*, Paris, Grasset, Biblio- Essais, 1983, p.292 , 289.

(٢) Germaine Greer, *La femme eunuque,* Paris, Laffont, 1970, p.218.

(٣) Colette Dowling, *The Cinderella Complex,* New York, Pocket Books, 1981.

ومشاهد العناق الطاهر والتنهّدات والنظرات الملتهبة، والحلم برجل رقيق وثرى أصبحت فى القرن العشرين بمثابة هروب واستهلاك أنثويين جماهيريين. وتعممت بناءً على ذلك عاطفية وردية وأيديولوجيا تماهيان بين السعادة النسائية والاكتمال العشقى.

تفكيك الحب

قال "رامبو Rimbeau": "يجب إعادة اكتشاف الحب". ولم يمض سوى قرن واحد حتى أعيد توزيع الأدوار فى العلاقة العاطفية بشكل غير متكافئ وسط معارضة اجتماعية حقيقية، كذلك انطلقت حركة نسوية جديدة خلال سنوات الستينيات صوبت سهامها نحو الطريقة التى كان ينظر بها المجتمع إلى المرأة، وكيف كان يخضعها للمثال الرومانسى العاطفى أكثر من التصويب نحو الحب ذاته. وفى فورة السنوات المتمردة توقفت العقيدة الأنثوية للحب عن التقدم وحدها وتم تحليلها على أنها شكل من أشكال التخدير للنساء. "إن حبهم هو بمثابة سجن"، هذا ما هتفت به مناضلات حركة تحرر المرأة (MLF) وأضفن أن "الزواج هو شكل من أشكال العبودية والجنسية العاطفية"[١]، كما كثر التنديد بالخرافات المتعلقة بالحب، والتى كانت تنشرها الثقافة الجماهيرية، وكذلك انتقادات الأدوار النمطية التى تروع المتخيل، والتى تجعل المرأة تعيش حالة من الاغتراب حتى عن نفسها، وتعيد تشكيل الوضعيات التقليدية للمرأة التابعة للرجل[٢]. إن الحب الذى تم دمجه باستعباد النساء واستلابهن تأرجح فى فضاء من التجرد من الغموض والتفكيك. ولم يعد من مجال للتورية، فقد أوضحت الناشطة النسائية الأمريكية "تى جراس أتكينسون Ti-Grace Atkinson" أن الحب هو رد فعل الضحية على اغتصابها[٣]." ونظر المجتمع للحب حينئذ على أن دوره

---

(١) François Picq, Libérations des femmes : les années mouvement, Paris, Seuil, p.74 et 81

(٢) En France, Anne-Marie Dardigna, *Femmes, femmes sur papier glace*, Paris, Maspero, 1974 ; aux États-Unis, Germaine Gréer, *La Femme eunuque,* op. cit., p.218-240.

(٣) عن Germaine Greer, *ibid.*, p.216.

يقوم على استكمال المرأة وتربيتها؛ وبات يتهمه بالعمل على تشيىء المرأة والحط من قدر الحياة الأصيلة، وعندئذ تماهى الحب على أنه روحانية للقلب وتفسير للسياسة الذكورية.

فى الوقت نفسه تحولت السمة السائدة من الشأن العاطفى إلى الشأن الجنسى، ولم تعد المسألة الجوهرية هى: "اعشق حتى تفقد عقلك"، بل "استمتع دون أى قيود". وأصبحت مصطلحات الحب مهمشة بالمقارنة بالتعبيرات البلاغية الشهوية، وأعيد النظر فى الخصوصية العاطفية والوفاء باعتبارها قيمًا برجوازية؛ وأصبحت موضتها بالية؛ وصار مزعجًا أن يبوح الإنسان بحبه، وأن يوفق بين الحب والديمومة على عكس المنظور الذى اتخذه بارت Barthes ليعلن من خلاله عن مولد خلاعة جديدة وهى: خلاعة العاطفية(١).

ما من مكان للأوهام، وحتى فى غمرة الفترة الاحتجاجية لم تتخل النساء عن أحلامهن فى الحب، وبات الخطاب العاطفى مواريًا، وليس التوقعات والقيم العشقية. ولم ترد الريبية الجديدة المتعلقة بالبلاغة الرومانسية وجنسنة الخطابات على تراجع الآمال العشقية، بل ردت على رفض التقاليد "الخاطئة" وعلى الارتقاء بقيم التقارب والحميمية، وعلى تعزيز الحاجة إلى تواصل أكثر أصالة. ومع انحسار الدلالة العاطفية، فإن قضية تذويت الحب العشقى الذى انتشر منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تقم إلا بمتابعة ديناميكيتها، وتباعدت النساء عن اللغة الرومانسية، وصرن يقبلن بصعوبة التخلى عن الدراسة والعمل لحساب الحب المقدس؛ ولكن تعلقهن المتميز بالمثال العشقى الأعلى استمر، وبقين يحلمن بالحب الأكبر، حتى وإن كان خارج الزواج.

يبقى أن الحب دخل عندئذ فى دائرة غير مسبوقة من التسييس والثورية الثقافية، ففى البداية كان الهدف هو تحرير الممارسة الجنسية من كل القيود الأخلاقية

---

(١) Roland Barthes, Fragments d'un discours amoureux, Paris, Seuil, 1977, p.207-211.

والزواجية والجنسية المغايرة التى كانت تعطل استقلالية المرأة؛ وهذا دلّ أيضًا على تخليص الحب لدى المرأة من الانغلاق المنزلى ومن مثال التفانى التقليدى. وفى النهاية فإن التطلعات الأكثر راديكالية نادت بتدمير التنميطات الجنسية وإبطال ما يعرف بـ "سجن النوع الجنسى" الساحق للفرديات عن طريق التعريفات المصطنعة للذكورة والأنوثة.

من الواضح أن تلك الشعارات لم تبق حبرًا على ورق؛ فخلال بضعة عقود حصلت النساء على مجموعة من الحقوق التى طالما كانت مستنكرة، فالاعتراف بالنشاط المهنى للمرأة وشرعنة منع الحمل والإجهاض، وتحرير الأخلاق الجنسية، كل هذه الأمور تدل على أن ثورة قد حصلت. ومنذئذ حصلت النساء على حق تأكيد استقلاليتهن الشخصية والاقتصادية، وحقهن فى حياة جنسية خارج مؤسسة الزواج، وفى ممارسة الجنس دون هاجس من أن "يحبلن"، وأن يمارسن المتعة دون أن يشعرن بالخجل، بل وأن يعشقن نساء مثلهن. من وجهة النظر تلك فإنه لا يمكن إنكار أن التمايز بين الجنسين قد تضاءل جدًا، فلم تعد عذرية المرأة إلزامًا أخلاقيًا، وزالت عمليًا العلاقات الجنسية الأولى المتأخرة جدًا للمرأة، فقد اقترب سن الفتاة عند تجربتها الأولى من مثيلتها لدى الفتى[1]، ذلك أن الحياة العاطفية لم تنجُ من عملية المساواة الديمقراطية فى ظروف كلا الجنسين.

فليكن، ولكن إلى أين تذهب الأمور؟ خلال نصف قرن تقلص التمايز العشقى بين الجنسين بكل تأكيد، ولكنه لم يختف تمامًا؛ وإنما أصبح أقل علانية وأقل تشددًا وأقل تعرضًا للتجريم، ولكنه لم يختف تمامًا. استمر تقدم التساوى فى الظروف، دون أن يتضاءل التمييز بين الجنسين، فلم يمض وقت طويل إلا وكان الكثيرون، وبينهم كاتب هذه السطور، يعتبرون أن التمايز الجنسى فى مجتمعاتنا يمكن أن يندرج ضمن ظواهر عتيقة، وبالتالى ثانوية، عندما نستعيدها مقارنة بالمبدأ القائل بالمساواة

---

(1) *Les comportements sexuels en France*, sous la direction d'Alfred Spira, Paris, La Documentation Française, 1993, p. 123.

الديمقراطية بين الجنسين؛ ذلك أن أبواب المستقبل انفتحت كما يبدو على التشابه الحتمى بين الجنسين. ويجب أن يكون المرء على قدر كبير من السذاجة للدخول فى هذه الترسيمة، لأن إعادة التشكيل الاجتماعى لعدم التناظر بين الأدوار الجنسية فرض نفسه بإصرار، فكيف لنا أن نكتفى بنظريات تفسر التفكك الاجتماعى المتعلق بالجنس على أنها فقط فترات تاريخية قدّر لها الزوال عاجلا أو آجلا؟ انطلاقًا من ذلك فإن عملية التفكير الكبرى اليوم لا تكمن فى خلخلة الأدوار العشقية للجنسين، بل فى الحفاظ على التفاوت الجنسى الذى- لكى يكون أقل تضخمًا- يجب أن يبقى واقعيًا على الصعيد الاجتماعى. حان الوقت لإعادة اعتبار تأثير المنطق الديمقراطى والفردى على "التقليد" والغيرية الاجتماعية لدى الجنسين. من هنا فإن السؤال المحورى هو: كيف ولماذا نعيد تشكيل التمايز الجنسى للثقافة العشقية فى عالم مبنى على مثال من المساواة والحرية للطرفين؟ كيف نتصور مصير الحب فى مجتمعات تقدس حرية التصرف الشخصى لدى الرجال والنساء على حد سواء؟

القلب والجنس

الأمر يستحق منا التوقف عنده، على الرغم من تقلبات "الثورة الجنسية" وهبة التطلعات إلى المساواة، لم ينجح عصرنا فى تدمير الوضع التقليدى السائد للنساء فى تطلعاتهن العشقية، لقد تحدث الناس كثيرًا عن "الرجل الجديد" و"المرأة الجديدة"، ولكن التمايز الجنسى لدوريهما العاطفيين هو ما يحكمنا دائمًا، فكما تتزايد المناداة بالمساواة، نجد عدم المساواة فى الأدوار العاطفية للرجل والمرأة تستمر أيضًا، حتى ولو خفت حدتها عما كانت عليه فى الماضى.

هل يريد الناس الاقتناع بذلك؟ ما علينا إلا أن نراقب الصحافة النسائية التى تتكلم زواياها عن القلب وعن شهاداتها الحميمية وتحقيقاتها التى أجريت على الحياة العاطفية لدى الشخصيات الشهيرة فى هذا العالم. ومما لا شك فيه أن النساء يحتفظن بعلاقة مميزة مع الحب، فهن يحببن الحب، وهن يبدين اهتمامًا كبيرًا ولافتًا أكثر من الرجال فيما يتعلق بأحاديث القلب وأحلامه وأسراره. انظروا إلى الأدب المسمى بـ "أدب ماء الورد"، فإن جمهوره هو من النساء حصرًا، وفيما يتعلق بالبوح عن الحياة العاطفية والجنسية نجد أن معظمه قد صرحت به نساء، وحتى الرجال فقد اختاروا النساء ليفضوا لهن بأسرارهم[1]. فى الحياة العادية، تفضل النساء الحديث فيما بينهن عن حياتهن الحميمية فيحللنها ويفسرنها ويسهبن فى تفاصيلها كما يطيب لهن، هذا النوع من الأحاديث نادرًا ما يدور بين الرجال، بينما هو سلعة رائجة عند النساء. بالتأكيد نرى الآن رجالا يبوحون بلواعجهم العشقية فى البرامج التليفزيونية، وربما يترددون أقل من ذى قبل فى الحديث إلى أقربائهم عن مشكلاتهم العاطفية، إلا أن هذا النوع من الأحاديث بين الرجال يظل استثنائيًا وليس شائعًا، ويدور فى مناسبات معينة وليس بانتظام؛ فالرجال يتطرقون إلى المسائل العاطفية بتحفظ، أما النساء فيتطرقن إليها بتفصيل واضح، والكبت لدى البعض يقابله بوح لدى البعض الآخر. ومهما تقدمت الثقافة النفسية وتراجعت قيم العنتريات الذكورية، فإن التمايز الكلاسيكى الذى يفضله "بارسون Parsons" لم يفقد ألقه فى هذا الصدد[2]، ذلك أن الرجال لا يزالون يعرفون أنفسهم من خلال التوجه الأدواتى، بينما تعرف المرأة نفسها من خلال الوظيفة التعبيرية. إن الشرعنة المعاصرة للتعبير عن الحياة الحميمية لم يخلق أبدًا حالة من القبول بتبادل الأدوار؛ وإن ما نلاحظه من إعادة التوزيع الاجتماعى للأدوار

---

(1) *Ibid.*, p.175

(2) Talcott Parsons et Robert Bales, Family, Socialization and Interaction Process, New York, Free Press of Glencoce, 1955.

العاطفية يترجم على قدر كبير قوة الاستمرار الموروث أكثر من ترجمته لقطيعة تاريخية.

إن التوقعات والمتطلبات فى مجال الحياة العاطفية توضح على صعيد آخر استمرارية التركيز الزائد للمرأة فى مجال الحب، وفى الحياة المشتركة نجد المرأة أكثر إحساسًا من الرجل فيما يتعلق بكلمات الحب والإفصاح عنه، فهى تعبر عن احتياجها للحب، وكذلك عن خيباتها وعن إحباطاتها الناجمة عن عادات الحياة اليومية أكثر من الرجل، فتقول المرأة: "إنه لم يعد يكلمنى عن الحب"، وهى كلمة تعبر فيها عن يأسها، فهذا الإعلاء الأنثوى من شأن الحب يتماشى مع "الشكوى المديدة للمرأة من الافتقار إلى الحب[1]"، ومع اتهامها المستمر للرجل بأنه أنانى ويخلو من الرومانسية، ولا يعبر عن مشاعره ويتجاهل الحياة العاطفية لاهتمامه بعمله المهنى. تأتى تلك الشكاوى عادة من النساء ونادرًا ما تأتى من الرجال، ذلك أن الرجال لم يألفوا الخيال، ويتأقلمون بشكل أفضل مع العلاقات "الرتيبة"، ومع مسرحة أقل للعواطف. أما المرأة فتعيش بصعوبة عندما تنقص كلمات الحب وعندما تنضب المشاعر؛ فهى تحلم بالحب الكبير أكثر مما يفعله الرجل، وغالبًا ما تلوم الرجل على رغبته فى التوقى والهرب والتمنع عن الغوص فى الحب، ومهما ازداد تأثير ثقافة المساواة بين الرجل والمرأة، فإنها لم تنجح فى خلق تشابه فى المتطلبات العاطفية بين الجنسين.

وهذا يعنى أننا إذا تتبعنا الماضى التاريخى نجد أن الحب يمثل مكونًا رئيسيًا لهوية المرأة، فطرح القيم الديمقراطية قد أطلق نوعًا من المطالبة القوية بتملك الذات فى الحياة المهنية والعائلية والجنسية، ولكن دونما إبطال للمطالب العاطفية الأنثوية والتى تدل، فى هذا الصدد، على رغبتها فى التخلى عن الذات، فمن ناحية تصاعد المطلب الأنثوى لامتلاك الذات كمسألة اجتماعية، ومن ناحية أخرى تنامت تطلعات التخلى عن الذات فيما يتعلق بالحياة العاطفية، ومن هنا فإن الأنثى باتت تتشكل فى الرغبة فى

---

(1) Denise Bombardier, La Déroute des sexes, Paris, Seuil, 1993, p. 11-37.

امتلاك مصيرها الفردى إلى جانب الرغبة فى ترك زمام أمرها عاطفيًا، فكلاهما يؤمنان لها طريقًا سلطانيًا لعيش حياة ثرية وتامة.

إذا صح أن تعريف المرأة لم يكف عن أن يكون النوع الذى لا يملك نفسه، وذلك دائمًا فى امتداد ثقافة عمرها ألف سنة – وهو النوع الذى يعتبر تجريده من ذاته جوهريًا، بسبب آخرية جسد تخترقه قوى لا يمكن السيطرة عليها تتعلق بعملية الإنجاب[١]. "التوتر الذهنى" والشبق والهستيريا جميعها أعراض مرضية طالما ارتبطت بالمرأة، وفسرت فى الماضى على أنها استعراض للتجرد من الذات، وعن عدم الانتماء الجسدى أمام الرجل الفاعل، ولهذه الأسباب ذاتها تظهر المرأة تقليديًا باعتبارها أكثر عاطفية من الرجل، "فالمرأة تحمل بداخلها عضوًا قد يتعرض لانقباضات رهيبة تسيطر عليها وتثير فى مخيلتها أشباحًا شتى[٢]". إن المرأة مخلوق خارج ذاته، مخلوق غير مستقر وتسيطر عليه قوى الحياة والنوع التى لا يمكن التحكم بها؛ لذا فهى فريسة الهستيريا ومكتوب عليها أن تعشق دون التحكم بذاتها، فعندها تتجاور النشوة والرؤيا والنبوة والوحى والشعر الجامح والهستيريا[٣]". إن هذه الترسيمة، بمعنى من المعانى، تتكرر فى هذه الأيام مع فارق صغير وهو أن التخلى عن الذات الذى تعبر عنه المطلب العاطفى الأنثوى لم تعد تشعر به بشكل طبيعى، بل ترغب فيه على المستوى النفسى، إنه نوع من الإخلاص للتقليد العاطفى لدى المرأة الذى لم يعد يطرح كأمر يتناقض مع كيانها الفاعل، بل كأمر يتوافق مع القيم الحديثة للسيادة الفردية.

إن استمرارية المكون الرومانسى لهوية المرأة لا يستبعد عددًا من التغيرات الجوهرية، فمنذ ثلاثة عقود تفصل النساء بين الحب والزواج أكثر فأكثر، مفضلات فى

---

(١) تلك النقطة أثارتها بشدة Gladys Swain, *Dialogue avec l'insensé*, Paris, Gallimard, 1994, p. 215-236.

(٢) Diderot, *sur les femmes*, op. cit., p. 952.

(٣) *Ibid.*, p. 953

معظم الأحيان المعاشرة غير الزوجية على خاتم الزواج. وفى الوقت نفسه، فإن وجود المرأة لم يعد يتشكل حصريًا حول المثال العاطفى والعائلى، أى أن انتظار الرجل والعيش فى كنفه والتضحية من أجله بالدراسة والنشاط الوظيفى والاستقلالية المالية قد انتهت كلها كأمر مسلم به. قالت لو أندريس سالومى Lou Andreas-Salome : "الحب هو كل ما فى الوجود". أية امرأة تلك التى تجد نفسها فى عبارة كهذه؟ إن مفاهيم التحقق والاستقلالية ينخران إيمان المرأة بالحب لصالح حب لم يعد دون أية شروط ودون خضور كلى ودون إيثارية تامة، فعندما تخلص الحب عند المرأة من أخلاق التضحية بالذات صار يتماشى مع تطلعات الاستقلالية الفردية.

وإذا كان الحب فى صورته المقدسة قد انتهى، فهذا لا يعنى أن قوة التطلعات والمطالب العاطفية لدى المرأة قد زالت، وتثبت ذلك مواقف الجنس الثانى الجديدة إزاء الطلاق، فمن المعروف أن النساء هن اللواتى يأخذن فى الأغلب زمام المبادرة فى طلب الطلاق والانفصال[1]. إن أسباب **الانفصال** عديدة والصعوبات الملموسة فى حياة المرأة المتزوجة (كالمسئولية المزدوجة، والعنف الجسدى المحتمل، وغيرها) تشكل جزءًا من الظاهرة، ولكن المنطق الوحيد "مصالح" لا يكفى لكى نلاحظ أن المرأة، عمومًا، هى التى تطرد شريكها أو أنها هى التى تغادر وتبادر إلى الانفصال. ومن اللافت أن نلاحظ أن النساء يعترفن أكثر بكثير من الرجال بإخفاقهن الزوجى كزواج مقدر له الفشل بكل الطرق على أى حال، ويقدمنه أيضًا على أنه مأساة "سببها الطرف الآخر"، ويقترب من كونه كارثة، أما الرجال فيميلون أكثر إلى تقديم قصتهم على أنها "مأساة"، ويبدون أكثر دهشة من النساء أمام طلب الطلاق[2]. تلك الاختلافات بين أدائيهما، وكذلك المبادرة الأنثوية لفسخ الزواج، تترسخ فى أكثر

---

(1) حين يقدم طلب الطلاق من أحد الطرفين فيكون هذا الطرف هو المرأة بنسبة ٧ من أصل ١٠ انظر (*LesFemmes*, Insee, Contours et caracteres, 1991, p. 28). وفى الولايات المتحدة تراوح نسبة مبادرات النساء اللواتى يطلبن الطلاق بين ٥٥، ٦٥%.

(2) حول المقابلة بين مأساة أنثوية/ دراما ذكورية (انظر Irene Thery, *LeDémariage*, Paris, Odile Jacob, 1993, p.242-266)

الأحوال فى الطريقة المختلفة التى يمارس بها الرجل والمرأة الحياة الزوجية والحميمية العاطفية. ومع اندماجهن فى ثقافة تحتفى بالمشاعر والعلاقات العاطفية، فإن النساء يشعرن أكثر من الرجال بإفلاس الحياة المشتركة، ورحن يفضلن الوحدة وقسوة الانفصال على حياة تفتقر إلى الحب، وتشوبها المخاصمات ليلا ونهارًا. وكلما ازدادت استقلالية المرأة، قل استعدادها لعيش حياة زوجية ممزقة لا تتوافق مع احتياجها للحنان والتفاهم والتقارب مع الطرف الآخر. وبعيدًا عن انغلاق المرأة على نفسها فإن الديناميكية الفردية أفرزت مزيدًا من الاحتياجات إزاء الآخر، واستعدادًا أقل لتحمل حياة زوجية غير مرضية ولا تحقق وعود الحب والتواصل الشخصى. إن انتشار النظام الاجتماعى القائل بتملك الذات لم يلغ أولوية التوقعات العاطفية والتواصلية لدى المرأة؛ فقد جعلها تشمل جميع شرائح المجتمع.

إيروس" .والعاطفة آخرية الجنسين

إن العلاقة بالجنس توضح استمرارية الاختلاف بين الجنسين فى نظرتهما للحب، وماذا نتعلم من التحقيقات التى أجريت حديثًا حول السلوكيات الجنسية؟ نجد أولا أن النساء أقل ممارسة للخيانة من الرجال: ٦% من الرجال المتزوجين يقيمون علاقات جنسية خارج إطار الزواج فى مقابل ٣% من النساء فى غضون الاثنى عشر شهرًا الأخيرة(١). ثانيًا غالبًا ما يكون لديهن عشاق عرفنهن على مدار حياتهن بنسبة أقل من مثيلها عند الرجال: ١١ للرجال مقابل ٣ للنساء(٢). هذا الفرق لا يترجم التباهى الذكورى أو النفاق الأنثوى فقط، بل يعبر أيضًا عن الطريقتين المتباعدتين اللتين يوفق بهما كل من الجنسين بين المشاعر والممارسة الجنسية. إن النساء فى الواقع أقل إقبالا من الرجال على المغامرات الجنسية دون أن يقعن فى الحب؛ فهن

---

(١) تلك النسبة ارتفعت إلى ١٣ وإلى ٧ عند الرجال والنساء المتعايشين بلا زواج Andre Bejin,“Les couples francais sont-ils fideles?“*Panaromiques*, n. 25, 1996, p.71

(٢) *Les comportements sexuels en France*, op. cit., p. 134.

أقل تقبلا من الرجال لفكرة إقامة علاقة جنسية دون أساس عاطفى؛ فكل امرأتين من أصل ثلاث يرين أنهن تولعن برفيقهن الأول، وامرأة واحدة من أصل ١٠ نساء كانت غير مكترثة لهذا الأمر مقابل رجل واحد من أصل ثلاثة رجال.هن أيضًا أقل نسبة من الرجال فى اعتقادهن بأن الخيانات العابرة تقوى من علاقة الحب. إذن ينساق الرجال أكثر لعلاقات جنسية مع شريكات متعددات، بينما تظل النساء بعيدات عن هذا المتخيل[١]، ويظهر بجلاء أن الرجال والنساء لا يملكان وجهة النظر ذاتها عن الحياة الجنسية، لاسيما فيما يخص علاقتها بالحياة العاطفية، ولم يلغ التحرر الجنسى المعاصر الماضى، بل اعتبر الحب كأساس مميز للإيروس عند المرأة.

لنحذر الفكرة القائلة بوجود "أنثى خالدة"، ففى أيامنا هذه نزعت المرأة بشدة الطابع المأساوى عن غريزتها الشهوانية، ولم تعد مغامراتها العاطفية تتضمن الحب الأكبر، واستطاعت أن تفسح المجال لنفسها دون التفكير فى أى مشروع مستقبلى؛ فهناك علاقات حب تمارسها فى العطلات، وعلاقات عابرة وحالات هروب ليلى، كل هذا لم يعد بعيدًا عن المرأة وباتت تمارسه دون حرج أو شعور بالذنب، ولكن هذا لا يعنى تلاشى الفرق بين الرجال والنساء فى طريقة تعاطى الحب الجسدى، واستمرت الشبقية النسائية تتغذى بالمعانى والصور العاطفية. قليلات هن اللواتى ينظرن للعلاقة الجنسية على أنها مجرد انجذاب جسدى، أو أنها هدف فى حد ذاته، أو مجرد تبادل للمتعة: وبالمقابل كثيرات من لا يفصلن بين الانشراح الجنسى الكامل والالتزام العاطفى، ولم يعد محظورًا بالنسبة للمرأة ممارسة الجنس مع شريك لا تحبه، فالأفلام السينمائية والروايات الأدبية شاهدة على بطلات بتن ينخرطن فى مغامرات جنسية دون التقيد باستمراريتها. إلا إنه يندر أن تتقبل المرأة مفهوم المتعة البسيطة الناتجة عن الإثارة البحتة فى الجنس، ونادرًا ما يكون هذا هدفًا بعينه، ونادرًا ما يعطيها فى هذه الحالة إشباعًا كاملا. ومهما بلغت قوة "التحرر الجنسى"، تظل المرأة مرتبطة بشبقية عاطفية، وتظهر أقل تجميعًا للعشاق مما يفعله الرجل، ومع كونه أقل وضوحًا

---

(١) *Ibid*., p. 126, 145 , 200

مما كان عليه فى الماضى، فإن الفرق بين الجنسين فيما يتعلق بالأدوار العاطفية لم يختف، فإذا كانت النساء يملن دائمًا إلى ربط الجنس بالعاطفة، فإن الرجال يقدمون على الفصل بينهما بيسر بالغ.

وإذا عدنا إلى ألق سنوات الستينيات لوجدنا أن جدلا بدأ فى اجتماعات وجرائد النساء الملتزمات بالاحتجاج الراديكالى على النظام البرجوازى، كيف يمكن أن نفسر كون الانعتاق الجنسى للنساء قد أثلج صدر الرجال فى حين أنه أثار الحرج وعدم الإشباع لدى النساء؟ بعض المناضلات قد تساءلن واعترفن بأنهن سقطن فى الفخ؛ فقد آمنَّ بحياة جنسية بلا محرمات وبلا ارتباط عميق، ولكن النتيجة فى المحصلة كانت عدم الشعور بالانشراح ما دام لم يؤخذ الحب بالحسبان. لقد أخطأن فى اختيار ثورتهن؛ ذلك أن الجنس وحده، ودون ارتباط عاطفى ربما يناسب الرجل، ولكنه لا يشبع الرغبات العميقة فى نفس المرأة. وبعد مرور ثلاثين عامًا ظل جوهر المشكلة على حاله، ولكن مع تناقص فى البلاغة الثورية استمرت النساء فى إلقاء اللوم على الرجال لعدم تعبيرهم عن مشاعرهم، وعبرت الأفلام السينمائية والبوح النسائى عن مآزق الجنس العابر والإيروس الخالى من الرومانسية.

فى منتصف الثمانينيات أجرى تحقيق جعل الرجال يغوصون فى الذهول؛ فقد طرحت صحفية أمريكية السؤال التالى على قارئاتها: "هل تقبلن بأن يضمكن الرجال بحنان دون الوصول إلى العملية الجنسية؟ ٧ نساء من أصل ١٠ رددن بالإيجاب. بعد ذلك بقليل وفى فرنسا ظهرت النسبة نفسها من النساء اللواتى فضلن التدليل والرقة على العملية الجنسية؛ أكثر من امرأة فرنسية واحدة من أصل ٣ نساء أكدن أن باستطاعتهن الاستغناء عن العملية الجنسية إذا تلقين الكثير من الحنان والمداعبات[1]". لنتأمل هذا التعليق من متخصص فى علم الجنس: إنها إشارة إلى أن الممارسة الجنسية فى مجتمعاتنا وصلت إلى الصفر، وأنها فقيرة وأن الرجال خرقاء، ولكن كيف نعتمد على هذا التأويل إذا وجدنا نسبة كبيرة من النساء اعترفن ببلوغ

---

(1) *Marie-Claire, n ; 392, avril 1985*

النشوة فى علاقاتهن الجنسية الأخيرة ومعظمهن صرحن أنهن راضيات عن حياتهن الجنسية[١]؟ ومع تفضيلهن للمداعبات الرقيقة، لم تعبر النساء عن حالة من البؤس الجنسى، ولكن عن أولوية الحياة العاطفية والتواصل والمشاعر؛ فالأمر بالنسبة لهن ليس خيبة على مستوى الجنس، بل إعلاء من شأن القلب، والمشكلة ليست شعور الجسد بملل قاتل، بل إحباطه من ممارسة الجنس بدون حنان.

إنها الثورة الجنسية، والفصل مرة أخرى بين الممارسة الجنسية والأدوار العاطفية، ولكن ما من شك فى أن الفرق بين الجنسين فى علاقتهما بشئون الحب قد تقلص بشدة فى أثناء نصف القرن هذا، ولم يعد تبنى المرأة لعادات التحرر يستوجب السخرية والعار؛ كما لم تعد أحلام المرأة مسلطة حصرًاعلى حياتها العاطفية؛ كذلك تخلت المرأة عن كونها متسامحة أكثر من الرجل فى مواجهتها للخيانة الزوجية. فى الوقت ذاته لم يعد الرجال يتمسكون بكون زوجاتهم عذراوات، وباتوا يتحدثون عن حياتهم العاطفية، ويفضلون الزواج المبنى على علاقة عاطفية مثلهم مثل النساء، وبقيت الإشارة إلى أن هذا التقارب المؤكد بين الجنسين لا يعنى إمكانية تبادلهما للأدوار العاطفية، وعلى الرغم من أن التمايز بين الرجل والمرأة لا يزال موجودًا، فإنه أصبح أقل وضوحًا وصراحة وحسمًا، فلم يعد أى منهما يتحدث عن الحب ويعيشه بشكل متماثل، وهذا يتعلق بقواعد اجتماعية وليس بأصل فى التكوين الجينى للجنسين، وإن عشرات الآلاف من سنوات التاريخ تثبت بوضوح أن العلاقة المميزة التى كنتها المرأة للحب لا يمكن أن تنحصر فى حتمية بيولوجية معينة. ولابد أن نلاحظ أن انعتاق المرأ ة والتشريح النفسى للذكر لا يشكلان ما يمكن أن نسميه "نموذجًا للتشابة بين الجنسين[٢]":فهذا ليس مدمجًا بموضع الأدوار العاطفية.

وقد استمرت بشكل مؤكد مشاعر الآخرية بين الجنسين إزاء كل شىء وضده، إلى جانب أن المسألة التاريخية للمساواة الديمقراطية قد غيرت نهائيًاعلامات الآخر.

---

(١) *Les comportement sexuels en France*, op. cit., p. 157 , 202

(٢) Elisabith Badinter, *L'un est l'autre*, Paris, Odibe Jacob, 1968.

ومع هدم منطق تغاير الجنسين، والذى يشكل مجتمعات ما قبل الحداثة لصالح تشكيل هوية عميقة للأفراد وللجنسين، فإن تحقيق المساواة قد ولد نوعًا من انفتاح كل جنس على الآخر، ومن اكتشاف الذات من خلال الآخر، ونرى أن العالم المغلق للتباين المزعج للجنسين قد حل محله عالم من الانتماء يكون فيه الآخر مساويًا للأنا تمامًا(١). ومع ذلك فإن عدم الإدراك المميز للجنسين وعدم وضوح الآخر لم ينقشع؛ فالرجال لايزالون يرون النساء محاطات بالألغاز والتناقضات، والمفاجآت ويعتبروهن "معقدات" وانفعاليات و"مقتحمات"؛ بينما تلوم النساء الرجال على عدم اهتمامهم بعلم النفس والعواطف ويلمن أنانيتهم و"جفافهم" العاطفى. العملية الرائعة لتحقيق المساواة فى الظروف بين الجنسين لم تنجح فى جعل الجنسين يتعرفان على بعضهما تعرفًا عميقًا، كما لم تنجح فى إزالة الغموض وعدم التفاهم المتبادل، فلم يصبح كل منهما صورة تعكس الآخر، إن حدود عملية تعرية التباين بين الجنسين أصبحت هى الظاهرة الأكثر غموضًا. وفقًا لعلم الإناسة نشعر بأننا متشابهان، ولكن وفقًا لعلم النفس نحن غير متشابهين؛ فالتوفيق المدعو "بالخنوثة" لم يتم.

النساء والإباحية

إن سلوك المرأة السلبى بوجه عام تجاه الإباحية يعطى فرصة جديدة للتأكيد على العلاقة التباينية بين الجنسين فى مجال العشق، وكما نعرف فإن الإقبال على المواد الإباحية هو ظاهرة منتشرة بين الرجال أكثر من انتشارها بين النساء، ليس فقط أن عددًا قليلا من النساء هن من اجتزن عتبة دكاكين بيع المواد الجنسية، لكن غالبًا ما تثير مشاهد hard حالة من الانزعاج عند المرأة تشبه أحيانًا الشعور بالاشمئزاز والنفور، كذلك فإن العروض hi-fi التى تقدم الصرخات الشهوانية قد تثير الرجال وتشعرهم بالمتعة والتسلية بينما لا تروق لغالبية النساء.

---

(١) ظهر التحليل الكلاسيكى لـ Marcel Gauchet, " Tocqueville, l'Amerique et nous", *Libre*, n.7, 1980.

هل يرتبط رد الفعل هذا بتأصل قديم لأخلاقيات نسائية معادية لفجور الحواس؟ ما من إجابة مؤكدة، وربما نهمل الحديث عن موضوع مهم وهو تحشم المرأة المبالغ فيه، وكأن النساء هن كائنات مكبوتات جنسيًا منذ الأبد. اللافت فى الأمر أن النساء الشبقات اللواتى ينفرن من الصرامة الطهرانية، ويعشن حياة عاطفية متحررة، نجدهن يعبرن عن تحفظ وضيق وفقدان الشغف بالجنس الإباحى. إن ما يزعج النساء فى الجنس الإباحى لا يرتبط برفضهن للممارسة الجنسية ذاتها، وإنما يرتبط بتلاشى البصمة الشخصية الذى تشعر به النساء فى الجنس الإباحى وبما يطلق عليه ظاهرة "بافلوف". فالمرأة لا تمانع إطلاقًا قراءة الأدبيات الإباحية أو مشاهدة الأفلام الشبقية، لكن ما ترفضه النساء هو الممارسة الآلية للجنس العنيف، وكذلك كل ما يتعلق بالحالات الجسمية الخاصة للمرأة (كالنساء فى حالة الحمل وخلافه)، ويظل هذا النوع من الجنس بعيدًا عن متخيل المرأة. إن الاستخدام المفرط للحواس ليس هو ما يصدم جمهور النساء، ولكن ما يصدمه هو بالتأكيد قصور هذا النوع من الممارسة الجنسية، والتى تنحصر فى عدد من الوظائف المجهولة الهوية والفقيرة فى وقعها الخيالى والجمالى والعاطفى. والتحفظات التى تبديها المرأة تجاه هذا النوع من الممارسة الجنسية لا يعود أصله إلى غلبة النظرة الأخلاقية لدى المرأة، بل إلى أهمية الدلالات العاطفية لممارساتها الجنسية. إن اللقطات الإباحية عندما تخلو من البعد الشعورى والعاطفى، تظهر كصور جنسية كاريكاتورية أكثر منها دعوة إلى المتعة، وتصبح بالأحرى أداة تنفير بدلا من أن تكون أداة تحفيز شهوانى.

كل هذا لا يمنع النساء من مشاهدة أفلام البورنو: يقال إن ٤٠% من أفلام البورنو فى ألمانيا وفى الولايات المتحدة الأمريكية تستأجرها النساء، ولكن كيف تتناسب هذه الحقيقة مع ما تبديه النساء من آراء غير متحمسة فى هذا الصدد؟ وعلينا الحذر من أن نرى فى هذه المبادرات علامة تشير إلى تلاق بين الجنسين، فما من إضفاء للصفات الذكورية يظهر فى علاقة المرأة بالممارسة الجنسية. المرأة التى تشاهد أفلام البورنو لا تشبه نظيرها الرجل، فسلوكها يخضع إلى رغبة فى الإثارة

الجنسية بقدر ما يخضع لرغبة فى الإطالة وتكثيف علاقة بين الشريكين، وفى خلق تواطؤ شهوانى بينها وبين شريكها الذكر، والنساء عامة لا يستأجرن أفلام البورنو للمشاهدة المنفردة، بل يشاهدنها برفقة عشاقهن أو أزواجهن؛ تلك المشاهدة فى صحبة تجعل الجنس العنيف يفقد بعضًا من صفته اللاشخصية، فيبدو وكأنه لعبة يلعبها اثنان، وكأنه وسيلة للتبادل وللتواصل، ومقوم من مقومات التعبير الشهوانى بين اثنين. إن البعد العاطفى بين الرجل والمرأة، والذى ألغته الإباحية نجده يتشكل من جديد بفضل ظروف تقبل المجتمع له، فالبورنو الذى أعيد تشكيله بسبب هذه الوساطة العلائقية لم يعد يقتصر على مشهد لبلوغ انتعاض فاقد للطابع الشخصى.

إن رفض النساء للإباحية لا يرجع فقط لكونها ممارسة جنسية بلا شاعرية عاطفية، بل إنهن يرين فيها إهانة وتشويهًا لصورتهن كما يرينها دافعًا للاغتصاب والعنف:" إن الإباحية هى النظرية والاغتصاب والتطبيق"[١]. وتمثل الإباحية منظومة للحط من قدر المرأة، وذلك بتقديمها لأنماط المرأة الضحية الراغبة فى أن تقبل بالسيطرة عليها والخضوع والاغتصاب. ولكن ما الذى يمكن أن تعبر عنه الإباحية انطلاقًا من هذا المنظور؟ إنها لا تقدم أخلاقيات المتعة بقدر ما تقدم سياسة ذكورية مكرسة لتقديس الهيمنة الذكورية، وذلك بإظهار المرأة فى صورة العاهرة والذليلة والهشة والغبية والمستغلة والمسلعة لدى الرجال. إن عدم ارتياح المرأة إزاء الممارسة الجنسية العنيفة ربما نتج عن تلك التمثيلات المخزية والمشينة للجنس الآخر.

وقد نتساءل أحيانًا إذا كان "الرفض" النسائى للإباحية يرجع حقيقة إلى جرح ذى أصل أخلاقى. ذلك أن شعورهن بالسخط كرد فعل يعتبر ثانويًا إذا ما قورن بعدم الاهتمام والملل واللامبالاة التى تستقبل بها المرأة الصور الخليعة. إذن ما يسيطر عليها ليس الإساءة الأخلاقية، وإنما شعور بأنها ليست معنية بالأمر، وأن ترى كغريبة وكامرأة من الخارج ما هو أقرب الأشياء إلى الذات. ففى عرض هذه الأجساد لا تجد

---

(١) عبارة شهيرة لـ Robin Morgan; انظر Pornography and Rape", in Going Too Far: *the personal Chronicle of a Feminist,* New York, Ramdom House, 1977. Theory and Practrice: "

النساء ذواتهن، ولا يشعرن بأى تجسيد لهويتهن، وذلك لأن الإباحية تتماشى، بنيويًا، مع النفى الجنسى للفرق الذكورى - الأنثوى. إن ما يولد خصوصية الشبقية عند المرأة، والتمهيدات، والكلمات، والتوقعات، والرقة العشقية، والمداعبات، تتلاشى جميعها لصالح متعة قضيبية قصدية. فالمرأة فى الإباحية بعد أن تتحول إلى آلة جنسية فعالة وذات نشاط عال وسريعة ومستعدة للتبادلات مع الشركاء تصبح "غير موجودة"؛ فهى لم تعد إلا الطرف الثانى للممارسة الجنسية الذكورية ولتخيلاتها الأدواتية[١]. وإذا اقترن "العنف" بالممارسة الإباحية " فإنه فى هذه الحالة يتماشى مع هذا الإقصاء لآخرية المرأة ومع تلك اللامبالاة إزاء التمايز بين الجنسين أكثر من تماشيه مع التقليل الخادع من قدر النساء. كيف يتسنى لنا أن نندهش أمام السلوك السلبى للنساء إزاء الإباحية، وهى التى تنزع تحديدًا إلى نفى الرغبة الأنثوية؟

هل نتجه نحو تشيىء الرجل ؟

صحيح أن الكثير من كتابات النساء تسعى إلى التنديد بمقاومة النساء للإباحية. تلك المقاومة ليست إلا تعبيرًا عن القهر الثقافى الذى تتعرض له المرأة وعن الخوف من أن تظهر فى صورة لا تتفق والنموذج المثالى للمرأة العفيفة والرومانسية. ويتضح الرفض الأنثوى للإباحية بشكل أدق لكون ممارسة المرأة للعادة السرية لا تزال من المحرمات. على عكس الرجال الذين ينظرون إلى الصور الجنسية ليتمكنوا من الاستمناء، فالمرأة "تصاب بالشلل" إذا شاهدت مشهدًا إباحيًا كما لا تزال غير قادرة على أى ممارسة جنسية دون الشريك[٢]. فلنحرر النساء من تلك المعيارية التى تفقدهن الرغبة الجنسية، ولنكسر حظر الاستمناء وحينها تتمكن النساء من تقبل الإباحية

---

(١) Pascal Bruckner et Alain Finkielkraut Le Nouveau Desordre amoureux, Paris, Seuil, 1977, p. 71-73.

(٢) Lisa Polac,"How Dirty Pictures Changed My Life", *in Debating sexual Correctness* (sous la direction d'Adele m.Stan), New York, Delta, 1995, p.244.

كالرجال. وتتأكد الفكرة القائلة بعدم وجود أى اختلاف شبقى جذرى بين الجنسين، وأى تعارض بين الرغبة الجنسية الذكورية والرغبة الجنسية النسائية، وبين الشبقية المرئية والشبقية الانفعالية وبين التسليع الذكورى للجنس والعاطفية الأنثوية فجميعها ليست سوى نماذج موروثة لابد من تجاوزها.

وحاليًا قد تأكدت أشكال شتى من التطور لتحقيق المساواة بين الرجال والنساء فى هذا المجال، ويؤكد عدد من النسويين والنسويات أنه منذ أن أتيحت الفرصة للنساء باتت النساء يعاملنِ الرجال كسلع جنسية؛ فهناك عدد من نجمات هوليوود اتخذن أصدقاء رجال يصغرونهن بكثير، كما أشارت بعض التحقيقات إلى أن النساء يتمنين رؤية المزيد من الرجال عراة فى الأفلام؛ وبعض القارئات كن يطالبن المجلات المصورة بعرض صورٍ للانتصاب؛ وبدأت المجلات والأفلام الإباحية المقدمة للمرأة ترى النور؛ وفيما بينهن لم تعد النساء يترددن فى "تشيىء" الرجال واستخدامهم على أنهم "سلع" جميلة، وفى وصف طول أعضائهم الذكورية والتباهى بمغامرتهن العاطفية، ويجب ألا ننسى gogo boys و Chippendales، حيث كانت عروضهم مخصصة لإمتاع النساء، ومن شأنها أن تكون برهانًا حيًا على شبقية نسائية نشيطة ومرئية وهادفة(١).

ومع ذلك فإن المهم فى الأمر لم يكن وجود تلك الظواهر؛ ذلك أن هامشيتها الشديدة هى أكثر تعبيرًا، وذلك أن شكلها الأكثر تطلبًا والأكثر سياسية يفوق ما تتضمنه، لماذا لا تعرض الصحف النسائية رجالا "مسلعين" عارين على طريقة playmates؟ ولماذا لا توجد شوارع ساخنة مخصصة للنساء؟ ووفقًا للمنطق التجارى البحت، فإنه إذا توافر الطلب فسيعقبه توافر العرض، إلا إن غياب هذا النوع من الأسواق بواسطة سلطة المعايير القمعية غير كاف، والحقيقة تتجه نحو ضعف هذه التوجهات "الهادفة" التى لا تتلاءم كثيرًا مع شبقية أنثوية تتسم جوهريًا بالحاجة إلى الاستمرار والتقارب والانفعال.

---

(١) Naomi Wolf, Fire with Fire, Londres, Vintage, 1994, p.239-241.

إن الأسباب التى حجبت المرأة عن الصور الإباحية هى فى حقيقتها الأسباب نفسها التى جعلتها تتحول من "نزوات عابرة " وغُفلَيَة ومؤقتة، وفى الحالتين فإن الشبقية المستنفرة تتسم بغفلية وعدم التزام تامين. إن زوال تحريم ممارسة الاستمناء عند النساء – والذى تحقق بشكل واسع – لن يغير كثيرًا من سلوك المرأة تجاه الممارسة الإباحية، إن كان صحيحًا أن الشبقية النسائية تجد حقيقتها فى التعبير العاطفى، وليس فى الاستمناء وفى حميمية العلاقة مع الشريك وليس فى العملية الشهوانية. وهذا بالضبط لأن الجنس العنيف قد ألغى الشبقية الأنثوية التى تستخدمها النساء الآن لخلق صورٍ وسيناريوهات جنسية أخرى، وحتى عروض "الإستربتيز" الذكورية الحديثة يجب ألا ينظر إليها على أنها نصر جديد فى سبيل الالتقاء بين الجنسين، فطموحات الجنسين لا تتساوى إلا فى ظاهرها فقط، خلافًا لـpeep shows التى يجربها الرجال فى كبائن فردية من أجل الإثارة؛ فإن الإستربتيز الذكورى يعرض وسط مجموعات نسائية تستمتع بالعبث بأجساد الرجال؛ فتلك العروض تخلق نوعًا من التواطؤ النسائى ومساحة من العلاقات بينهن، حتى ولو أدى ذلك إلى تسليع الرجل، فما يقدم على أنه دلالة للتشابه بين الجنسين هو يعبر بالأحرى عن الاختلاف الراسخ للشبقية النسائية.

الحب والحداثة والفردية

لقد أصبح السؤال ملحًا، كيف نستطيع أن نفسر استمرارية التركيز الزائد للنساء فى الحب؟ ولماذا لا يزال يساهم فى تشكيل هوية المرأة فى الوقت الذى تتزايد فيه مطالبتها بأداء نفس أدوار وأنشطة الرجل؟ وهل يتعين تأويل عدم التماثل المستمر فى الأدوار العاطفية باعتباره مرحلة أخيرة لتاريخ طويل أم إنه منطق مستقبلى يندرج فى ديناميكية المجتمعات الديمقراطية؟

وجها الحب:

اعتدنا ربط أهمية الحب فى حياة النساء بقدر اجتماعى يتميز بالتبعية والانغلاق داخل المنزل، والعجز عن تجاوز ذاتهن فى مشروعات متميزة، لأنه ما من أى نهاية اجتماعية مجيدة تنتظرهن، فالنساء يبنين أحلامهن حول شئون القلب، وكما كتب ديدرو Didero "إن أشكال التسلية فى حياة مزدحمة ومليئة بالنزاعات تحطم أهواءنا، فالمرأة تخفى أهواءها" وهذه نقطة ثابتة تجعل خمولها وطيش وظائفها يحظى بالتركيز[١]. وفى القرن التالى، لم تقل مارى باشكيرتسف Marie Bashkirtseff شيئًا آخر: "أعتقد أن من يعمل طوال الوقت ومن هو دائمًا منشغل بالأفكار المتعلقة بالمجد لا يمكن أن يحب كما يفعل من ليس لديه إلا أن يحب[٢]". وقد عمقت سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir وجهة النظر هذه. بما أن المرأة لا تستطيع إلا أن تكون موضوعًا على الهامش دون انخراط حقيقى فى العالم، فإنها وجدت خلاصها فى تقديس الحب. إن توقعات الأنثى من الحب تترسخ فى احتياجها إلى تجاوز كونها كيانًا تابعًا نسبيًا، راضية بدور التبعية العاطفية الراسخة، فبما أن المرأة محكوم عليها أن تعيش حالة التبعية، فلم يتبق لها إلا التلاشى التام معتبرة المحبوب مطلقًا تكرس له حياتها، وبذا وجدت "سببًا للحياة" ومخرجًا من حياتها المملة والمخيبة للآمال[٣].

ما من شك فى أن حصر المرأة فى الأدوار الهامشية والمنزلية قد ساهم بطريقة حاسمة فى ارتباط هويتها كأنثى بالحب، ولكن هل يسعنا تفسير انخراط المرأة فى الحب كنوع من العبودية والاستلاب ونكران الذات؟ وفى الوقت ذاته كيف لا نؤكد أن قانون الغرام هو الذى أتاح للنساء اكتساب صورة اجتماعية أكثر إيجابية ومنحها مزيدًا من هوامش الحرية، وكذلك امتلاك مساحات جديدة لمبادلة الغزل ولاحقًا فى حرية اختيار الشريك. فى مرحلة المغازلة، على الأقل، تحظى المرأة بمكانة مرموقة

---

(١) Diderot, *Sur les femmes*, op. cit. p. 950

(٢) عن Evelyne Sullerot, *Histoire et mythologie de l'amour,* op. cit., p.203.

(٣) Simone de Beauvoir, *Le deuxieme Sexe,* op. cit., p. 478-480

إزاء الرجل؛ إذ كانت هى المالكة لزمام العلاقة مع الرجل فهى ليست مأخوذة ولا ممنوحة، فهى من تختار منح نفسها للحبيب، وهى من تتلقى الثناء من الحبيب، وهى من تدير اللعبة معه وتتقبل – حين تريد – عطاياه وهباته ولا يملك العاشق إلا الاكتفاء بما تريد هى منحه. إن شريعة الحب قد أقصت مظاهر الفظاظة والنزق الذكورى، كما فرض الاحتفاء الشاعرى بالمعشوقة وبالسلوكيات الذكورية الأكثر عذوبة والأكثر احترامًا للنساء، فهن اللواتى يحتفين بالحب لأنه يحمل فى طياته اعترافًا بحقهن فى ممارسة قدرٍ من السيطرة على الرجال، ولأنه ينادى بسلوك ذكورى يأخذ فى الاعتبار حساسية المرأة وفطنتها وكذلك قرارها الحر[١].

عندما نفهم العبادة الأنثوية للحب على أنها رغبة فى "نكران الذات" و"إهمالا كاملا للذات لمصلحة الرجل السيد"[٢]، فنحن نتستر على بعدٍ جوهرى للمشكلة فهذا لا يعنى أن المرأة لا ترى فى الحُب اعترافًا وتقييمًا لذاتها باعتبارها كيانًا فرديًا وغير قابل للمبادلة، فها هى كيان محتفى به ومميز عن الآخرين ومختار بفضل سماته المتميزة. ومما سبق نستطيع القول إن التركيز النفسى للمرأة فى الشعور العاطفى ليس رغبة فى تدمير الذات بقدر ما هو رغبة فى إعادة الاكتشاف والتثمين لذاتها كشخصية فريدة بكل ما يحمله المعنى من إشباعات نرجسية[٣]. ولا شك فى أن ارتباط المرأة بالحب قد أتاح أشكالا من "إنكار الذات"؛ يبقى أن هذا الالتزام المرتبط برغبة فى قيمة ذاتية مضافة وتوقعات نرجسية للاحتفاء بالذات وبأحلام عاطفية شديدة محتملة تدفع الأنا نحو الحياة الحقيقية، وهو الذى نشر العلاقة العشقية للنساء بالحب.

ونشأت من هنا نظرة تتعلق بنزعتين متناقضتين تنظمان العلاقة المميزة للمرأة بالعشق الرومانسى؛ فإحداهما تندرج فى استمرارية المتخيل التقليدى الذى يكرس المرأة

---

(١) فى هذا المنظور، انظر George Duby, "Le modele courtois", in *Histoire des femmes*, t. 2, p. 261-276, Michele Sarde, *Regards sur les Françaises* , Paris, Stock, 1983.

(٢) Simone de Beauvoir, *Le deuxième sexe,* op. cit., p. 478

(٣) Rene Nelli, "L'amour courtois" in sexualite humaine, Paris, Aubier, 1970, p.109

للتبعية إزاء الآخر وللتجريد الموضوعى ولإهمال ذاتها، والأخرى تفتح الطريق أمام اعتراف بالاستقلالية النسائية وبامتلاك الذات. فمن جهة استمر منطق عتيق فى التخلى عن الذات، ومن جهة أخرى تم التعبير عن منطق معاصر للاعتراف بالذات وتقييمه وتكثيف الحياة الذاتية والمجتمعية. يتعين تفسير العبادة النسائية للحب باعتبارها طفرة فى القيم الحديثة بقيت على الأقل مخلصة لمنطق التشارك التقليدى بين الجنسين.

مستقبل الحب ومعنى الحياة

إن إعادة تأويل القيمة التى توليها النساء للحب تفرض نفسها لا سيما وأن الاضطربات المعاصرة لثقافة الفردانية لم تنجح فى الإسراع من إفقادها قيمتها، فباتت النساء يرفضن فكرة إنكار الذات، ورحن يسعين إلى كسب استقلالية مادية وإلى تثبيت أقدامهن على المستوى المهنى وإلى الدخول فى المحافل السياسية، ومع هذا فإن طموحاتهن العاطفية لا تزال مختلفة عن نظيراتها عند الرجال. لماذا يا ترى استمرار هذا الاختلاف بين الرجال والنساء؟ نحن لا نجهل بالطبع الإجابة التى تحملها الأفكار التقدمية المألوفة: فطالما فقد الالتزام النسائى فى الحب ركيزته الطبيعية، والتى لا يتوقف فيها مثال المساواة عن جعل التمايزات القديمة بين الجنسين تتراجع أو تزول، فهذا قد يعنى "استمرارًا" مرتبطًا بوزن التاريخ العريق، إذ إنه نموذج مآله الانحسار؛ لأنه يتعارض مع المسيرة الحتمية للثورة الديمقراطية.

لنقل دون مواربة: إن هذه الطريقة فى إدراك الأمر لا يمكن أن تكون مُرضية، وذلك لأن الاستمرار هو مشكلة فى حد ذاته، ولكن الربط بين التركيز النفسى الزائد للمرأة فى الحب وبين علاقات مجتمعية تسيطر عليها قيم تاريخية موروثة لهو أمر بديهى. ولماذا لا يتلاشى هذا الربط مثل غيره من المعايير الأخرى التى تترسخ فى التراث وتصبح نسيًا منسيًا؟ وهذا هو لب الموضوع. فنحن نعلم جميعًا أن أدوار

الجنس فى مجتمعاتنا لم يعد من الممكن أن تمس، فديناميكية المساواة بين الجنسين نجحت فى الحط من قدر " الأخلاق المزدوجة" فى الجنس، بين أمور أخرى، كما حطت من قدر ضرورة العذرية وقصر دور المرأة على المنزل إلى جانب عدد من الحصون الذكورية التقليدية، ولكن لماذا لم تهتم هذه الحركة بالتغاير العاطفى؟ ولماذا نشهد تارة انهيارًا فى المبادئ الاجتماعية المتوارثة وطورًا استمرارًا لها؟ مع الطرح الدائم للمقولة الشائعة حول "التأخر" التاريخى للثقافة، والذى يتجسد كتغطية للعيوب أكثر من كونه تفسيرًا للظاهرة، وأما بالنسبة لما ننظر إليه على أنه بقايا ماض بسيطة، فإنه قد حان الوقت لاعتبارها مشكلة حقيقية، ويجب علينا ألا نعتبر أن المشكلة تتعلق بتغيير الأدوار بين الجنسين، بل بلغز استمرار الفروق داخل المجتمعات التى تنادى بالمساواة.

إن تغيرًا كاملا فى المنظور قد فرض نفسه، فإذا كان التوزيع غير المتكافئ للأدوار العاطفية استمر، فإن أسبابه لا ترجع إلى "نزعة محافظة" فى العقليات بقدر ما تعود إلى تناغم الحب مع المرجعيات الأصلية للثقافة الفردانية الحديثة، وامتدت المكانة التى اكتسبتها المرأة فى الثقافة الرومانسية بسبب تناغمها مع الطموحات التى تصبو نحو الحرية والسعادة الداخلية للإنسان وأكثر من كونها إجراءً موروثًا من الماضى. لا ريب أن التجربة العاطفية ترتبط "بالخضوع" وفى بعض الأحيان بالتبعية التامة للآخر، ولكنها تجسد فى الوقت ذاته وباقتدار الولع الفردانى "بالحياة الحقيقية"، كما تمثل نشرًا حرًا للميول والرغبات الشخصية، فعندما يفتح الحب المجال للإمكانات، وعندما يهز المنظومات المعدة مسبقًا، فإنه يبشر بحياة زاخرة إلى جانب تجربة كثيفة لوحدانية الأنا، ويضاف إلى هذا أن الحب فى حياة المرأة أصبح فى الوقت الحاضر يتماشى مع مشاريع الاستقلالية الفردية ومع إمكانية ارتباطات مهنية واجتماعية. إن استمرار تقديس المرأة للحب، لا يعنى أنه يمثل تقليدًا هزيلا، بل إعادة صياغة لنظام قديم بناءً على متطلبات جديدة للفردانية القائمة بذاتها، كما لا يعنى أعراضًا مرضية للاستسلام

لمعايير غريبة عن الأنا، ولكنه يعنى مطالبةً بتحقيق الذات بشكل تام وتأكيدًا على أولوية السعادة الداخلية والتكثيف العاطفى.

لماذا انحدرت هوية المرأة العاطفية التقليدية فى ظل هذه الظروف؟ (إن المعايير الثقافية فى مجتمعاتنا تهين المثل العليا للسعادة، وتحط من امتلاك الإنسان لذاته، فإنها باتت مهملة. وبالمقابل فإن بعض هذه المعايير - كالحب مثلا- يمكن أن تتوافق مع المرجعيات الفردانية فتدوم إذا اتبعت منطقًا غير متماثل أو "منطقًا تقليديًا" بين الجنسين[1]. على هذا الصعيد فإن المثال الأعلى للمساواة يمثل وزنًا هزيلا بالمقارنة مع وزن المتطلبات الحتمية للهوية النوعية ولتحقيق الذات الداخلية. إن تعلق النساء المتميز بالحب بصفته مؤشرًا على تحقيق الهوية والمشاعر التى تمنع الانفتاح على حياة اجتماعية مستقلة، لا يمكن دمجه بصعود مخالف للتاريخ ومحكوم عليه بأن تسحقه مدحلة المساواة المنافية للعقل. ففى قلب الثقافة الحديثة للاستقلالية التى تنادى بحياة حرة وكثيفة وذاتية، يمتد التقدير الأنثوى للحب، أما عدم التماثل بين الرجل والمرأة فى علاقتهما بالحب، فيحظى بفرص كبرى للدوام أكثر من احتمالات تفتته.

إن الارتباط العاطفى يقدم فضيلة أثمن من غيرها تتمثل فى إثراء الحياة الشخصية بفضاء رحب من المعانى حرمت منه مجتمعاتنا الخائبة؛ فسلطان الحب على النساء لم يمتد فقط لتوافقه مع متطلبات الاستقلالية الحديثة، ولكن أيضًا لأنه يسمح بالهروب إلى صحراء الذات المستسلمة لنفسها فقط. ومع تزويد الوجود ببعد المثال الأعلى والمعنى، يمنح الحب الأمل فى خلق قدرة عظيمة على العيش، وذلك بتجاوز المرء لذاته فى اتجاه الآخر، وعلى النقيض من القاعدة الشكلية، فإن علاقة النساء بالحب يمكن توظيفها كتقليد حى يتجدد تملكه، ومصدر لا ينفذ لمعنى يثرى الحياة

---

(1) لفهم الموقف الذى يتبناه Luc Ferry ، والقائل بأن الحداثة لا تتعرف من خلال اجتثاث أشكال التبعية، ولكن من خلال إعادة صياغتها بالطريقة التى تلائم استقلالية الوعى (انظر *L'homme-Dieu*, Paris, Grasset, 1996).

ويوفق بين استقلالية ذاتية، والذاتية العشقية البينية، ففى جميع الأحوال لايزال هناك الكثير من الجوانب التى ينبغى توفرها لضمان تجديد الهوية العشقية للمرأة.

(٢)

مصير الغواية

الغواية منطق يتجلى فيه التقسيم الاجتماعى بين الجنسين أكثر مما يتجلى فى علاقة الشعور بالحب، فهى دائمًا تبدو، بداية من سننها التقليدية للعلاقات الريفية حتى غزل البلاط المهذب كمسرح قائم على التعارض الثنائى بين الرجل والمرأة، وقد تغيرت أنماط التقارب والمغازلة على مر الزمان، مع بقاء الاختلاف الإغوائى بين الرجل والمرأة على حاله.

ومن المعروف أنه بداية من القرن الثانى عشر أوجد نموذج غزل البلاط الملكى ثقافة إغوائية جديدة، حيث حل محل الاغتصاب وخطف النساء عنوة - وكانا كثيرين حتئذ[١]- هذا بالإضافة إلى أساليب الرجال السريعة والمباشرة فى المغازلة، وخاصة فى الأوساط الراقية من المجتمع، حل نمط سلوك يدعو الرجال إلى التحلى بالتواضع والرصانة والصبر والرقة فى التعامل مع السيدات والتوله والاحتفاء الشاعرى بالحبيبة، ولكن مع ذلك، فإن تلاشى تلك الصفات الرجولية فى مناورات الإغواء لم يحدث تغييرًا يذكر على المنظومة غير المتماثلة التى خولت للرجل منذ أقدم العصور سلطة الإقدام على الخطوة الأولى وليس على المرأة سوى الانتظار. وقد كتب أوفيد Ovide فيما مضى: "أن الرجل الذى ينتظر المبادرة من المرأة يفعل ذلك لاعتماده على وسامته، لأن الأصل أن يبدأ الرجل وعليه قول عبارات الطلب وما على المرأة إلا تلقى طلبات الحب[٢]". ولم يكن لقيم الغزل الكورتوازى تلك، فى هذا الصدد، سوى إضفاء صفة الشاعرية وترميز هذا التمايز الجنسى، وكان عليه هو القيام بالخطوة

---

(١) George Duby, *Le Chevalier, la Femme et le Pretre*, Paris, Hachette, 1981, p. 43-46.

(٢) *L'art d'aimer*, Livre premier

الأولى وإطراء الجميلة والتعبير عن لهيب قلبه؛ وعليها هى انتظار المبادرة الرجولية وإخفاء رغبتها والتمنع أمام العاشق والإمساك بزمام اللعبة مانحة أفضالها تدريجيًا.

هذا التوزيع غير المتكافئ فى الأدوار الإغوائية يتماشى فى جوهره مع تكليف الرجال منذ أغوار التاريخ بشن الحروب، وإذا كان الدور "الهجومى" هو دور الرجل فى الغواية فهذا يعنى أنّ عليه أن يبدى- بصفته محاربًا- عدوانية وشجاعة وإقدامًا؛ فالمبادرة الإغوائية تبدو كفرض رجولى مرتبط بالقيم الحربية، ولأن الغواية الغزلية الكورتوازية تتخذ من سجال وفن المعارك نموذجًا[١]، فلابد أن يظهر الرجل فى صورة "العاشق المقدام" (برانتوم)، وأن "يحاصر" المرأة وأن "يشن هجومًا"، و"يقوض" حصون الحياء لديها، وأن يحتلها، ولأن الرجل هو القطب النشط والمقتحم، فعليه أن يؤكد وجوده فى كل مكان كالرجل الأول، وهكذا ظل الرجل يطالب بالأسبقية فى المشاعر العاطفية حتى منتصف القرن الثانى عشر[٢].

وإذا انحسر دور المرأة إلى مجرد الانتظار والمقاومة فيرجع ذلك إلى القيود الأخلاقية وإلى حيائها أيضًا، الذى يعتبر طبيعيًا لدى الجنس الآخر، منذ الكاتب اللاتينى بلين، ولكى توقع المرأة الرجل الذى اختارته فى شباكها فليس بوسعها أن تعلن رغبتها، بل عليها التظاهر بلعب دور الفريسة، حيث يتعين على النساء أن يظهرن تمنعهن، وأن يكثرن من العقبات وألا يستسلمن بسرعة ولا بسهولة لطلبات الرجل؛ أحدهما يقوم بالخطوة الأولى والآخر يتمنع، أحدهما يلح والآخر يقبل ثم يستدرك ليستسلم فى النهاية. وترتيب الغواية هذا برمته مبنى وفقًا لنسق دائم من التعارض المتمايز بين مفهوم الذكر ومفهوم الأنثى، لأن التكوينات الأساسية للغواية أكثر تجذرًا من إجراءات أخرى، فإنها ارتبطت بتاريخ ثابت.

---

(١) Denise de Rougement, *L'Amour et L'Occident* (1939), Paris, UGE, coll. 10 /18, p.206-207.

(٢) Maurice Daumas, La Tendresse amoureuse..., op. cit., p.136

حواء الجديدة ووداع "دون جوان"

هذا الإجراء الذى دام طويلا، هل لا يزال يلازمنا؟ وكيف ستتوافق الألعاب الإغوائية للرجال والنساء فى مجتمعات مأخوذة بشغف المساواة بين الجنسين؟ كلها أسئلة تفرض نفسها بفعل التحولات العميقة التى زعزعت نطاق تبادل الغزل بين الجنسين منذ عشرات السنين.

ومنذ وقت بعيد اعتمدت مناورات الغواية الذكورية على الغنائية العاطفية وتمجيد صورة المرأة، فمغازلتها والتمتع بما تمنحه من أفضال يقتضى أن يغرقها الرجل بعبارات الإطراء ويقنعها بصدق شعوره، ومن هنا جاء دور سكب العبرات وإطلاق التنهدات وتأجيج الاعتراضات والتوسلات ووعود الزواج التى لا مفر منها. تلك كانت طريقة دون جوان: وما عساه أن يفعل إلا امتداح جمال ضحاياه المقبلات والتأكيد لهن على إخلاص قلبه ووعدهن بالزواج إنه "دون جوان" أو "مزواج الجنس البشرى بكامله[1]". لاقت تلك السياسات انتشارًا واسعًا فى القرن التاسع عشر؛ حيث كانت أخلاقيات الناس أكثر انفتاحًا، بينما ندد بها وفضحها النساء اللاتى انخدعن بها دون كلل. "لقد أغوانى مقابل وعده بالزواج" إنه اعتراض يتكرر كاللازمة[2]. لقد تمحورت الغواية من جانب الرجل حول ثلاثة مبادئ أساسية هى إعلان الحب، ومغازلة المرأة، ووعد بالزواج .

الإغواء المسترخى

أنهى العصر الحديث جُلّ تلك الترسانة الذكورية، وكان ينبغى التعبير عن حمية مشاعره الإنسانية، ولكنها لم تعد ضروريةً، وأصبحت، إن صح التعبير، تعطى

---

(1) Moliere, Dom Juan, acte 2, scene 4.

(2) Francoise Barret-Ducrocq, *L'Amour sous Victoria*, Paris, Plon, 1989, p. 117-144.

نتيجة عكسية، فكانت الإشادة بالحبيبة الجميلة فيما مضى أمرًا لازمًا؛ أما اليوم فإن الثناء المبالغ يتفه قائله أكثر مما يمدح المرأة(١). أيعد بالزواج؟ لم يعد لتلك الحيلة أى معنى بعد أن تحرر الجنس، وبات للمرأة استقلالية اقتصادية، حتى على مستوى المفردات ظهر هذا التحول: فمنذ عقد الخمسينيات من القرن العشرين لم يعد الرجل "يغازل"، بل أصبح "يكتسح". فعملية المغازلة كانت تنطوى على مسرحة وزمانية محسوبة وبلاغة فى التعبير عن المشاعر، وهى الجوانب التى أفرغها "الاكتساح" من محتواها، ومما تشمله من ألاعيب طائشة وخالية من الشعرية. إن تحرر المرأة والثورة الجنسية وثقافة المتع والاستقلالية الذاتية والصدق مع الذات، هذه العوامل جميعها قد قوضت البرتوكولات القديمة للإغواء، التى صار ينظر إليها على أنها مخادعة وممايزة بين الجنسين ومتكلفة. وها هى الغواية تستسلم – ومن قبلها الحب والأدب – إلى إلغاء سمة الرسمية ونزع صفة التسامى التى ميزت الثقافة الديمقراطية؛ فينبغى أن تغوى بلا تفخيم ولا بكلمة "أحبك"، ودون وعود ودون طقوس مصطنعة. فقط على المرء أن يكون ذاته؛ فنحن نعيش زمن الغواية المتخففة وبحدودها الدنيا، غواية ما بعد الرومانسية.

لا شيء يفصح عن المنطق الدونى الذى يشكل الغواية المعاصرة، إلا المكانة الجديدة التى احتلها المرح، ففيما مضى كى يغازل الرجل المرأة لابد وأن يظهر فى صورة العاشق المتيم وأن يتحدث عن الحب، أما الآن فعليه أن يضحكها؛ إنه لزمن آخر، إنه لإغواء مختلف. فقد أصبح للمرح تأثير إغوائى يتفوق على المبالغات العاطفية الجياشة، حيث كشفت استطلاعات الرأى أنه اعتبارًا من سنوات الستينيات ولّت النساء أهمية "للحس الفكاهى" لدى شركائهن(٢)، وبعد ثلاثين عامًا تأكدت هذه النزعة؛ إذ يشغل حس المرح مكانة متميزة بين أكثر ما تفضله المرأة من صفات عند

(١) Pascal Bruckner, Alain Finkielkraut, *Le Nouveau Desordre amoureux,* op. cit., p. 292.

(٢) Vance Packard, *Le Sexe sauvage*, Paris, Calmann-Levy, 1969, p.147.

الرجل[1]. فى الماضى كان يسبغ على الحب وجود شاعرى وقدسى وشبه دينى؛ أما الآن فينبغى خلق جو حيوى وفكاهى، وعلى الرجل أن يكون خفيف الظل و"ظريفًا" وأن يتعامل مع الأمور بمرونة. إنه تكريس للمرح يعكس القوة الجديدة لقيم المتعة والتسلية، كما يعكس هيمنة مرجعية الحاضر و"الهروب" و"الاتصال" و"العفوية" المصاحبة لعصر الاستهلاك والاتصال الجماهيرى. وحين تسيطر حيثيات اللهو وسمات الشخصية غير التقليدية، فإن نموذج العلاقة بين الرجل والمرأة ينزع إلى التخلص من رصانته الرومانسية القديمة، حينها يمكن للتسلية والضحك والمرح أن ينتصر.

فى الوقت الذى تندد فيه النساء بالتراتبية والتمييز بين الجنسين، فإنهن لم يعدن يجدن أنفسهن فى الطقوس غير المتكافئة فى المغازلة، بل على العكس حبذن الشكل الهادئ والطريف فى التواصل، فأسسن بذلك علاقة أكثر "تكافؤًا" بين الرجال والنساء. إن تكريس المرح الذكورى فى المناورات الإغوائية يعبر عن التطلعات النسائية الجديدة التى لا تتميز بانتظار علامات التبجيل بقدر ما تتميز بالاحتياج إلى التقارب وإلى الاعتراف المتكافئ. وفى ارتقاء المرح ما هو أكثر من مجرد تثمين للانبساط المسل، بل هناك الرغبة الأنثوية فى علاقات أقل مرجعية وأكثر تحررًا وفى علاقات أكثر تواطؤًا مع الرجل. من هنا يتجلى الاتجاه المرحى الإغوائى كمظهر نمطى مواكبًا لشغف النساء الجديد بالديمقراطية.

بعد تخلص الغواية من لزوميات البلاغة العاطفية، أخذت تنتشر بزمنية غير مسبوقة؛ فقد كان غزو النساء فى الماضى أشبه بحصار عسكرى يتطلب "الصبر

---

(1) "مع الرجل، تحب ٣٢% من النساء الكلام، و ١٩% الضحك، و ١٥% ممارسة العلاقة الجنسية، و ١٥% السفر فى الـ week-end" ((Gerard Mermet, *Francoscopie* 1993, Paris, Larousse, 1994, p. 139). ومن الآن صرحت الفرنسيات بإعجابهن الشديد بروح الدعابة فى شريكهن أكثر من مظهره أو نجاحه الاجتماعى. وفى تراتبية الصفات المفضلة، تلت روح الدعابة الذكاء مباشرة. وفى الاحتفال بتوزيع جوائز الأكثر إغراءً، اختارت الفرنسيات Thierry Lhermitte رقم واحد قبل Kevin Costner, Richard Gere, *Questions des femmes*, n.1, Avril .1996)

وطول الأناة"، لكن انحلال القيود الجماعية المكبلة للحياة الجنسية ساهم إلى حد كبير فى هجر هذه الأوضاع المتوارثة من جيل إلى جيل. ومذّاك خضعت الغواية قطعًا لعملية تسريع يشهد عليها تقليص الفترة الفاصلة بين بداية العلاقة العاطفية و"مآلها". لقد بلور التسريع وانتفاء صفة المثالية للغواية الاتجاه الحديث ذاته نحو "انكماش المسافة"[1] ونحو الصدق والبعد عن مسرحة الأنماط الثقافية، وكفت النساء فى معرض المطالبة بالحرية والتلقائية العاطفية عن الشعور بوجوب تأخير إشباع رغباتهن، وإثارة مشاعر الهوى دون إشباعها والإمعان فى تأجيج توق الشريك، وتخلت شيئًا فشيئًا عن التماهي فى صورة قلعة يستولي عليها. والسلوك الذى طالما اعتبر سلوكًا أنثويًا خالصًا- أى الغنج[2]، أخذ فى التلاشى، ممهدًا لسلوكيات أكثر مباشرة وأكثر آنية وأكثر قربًا من سلوكيات الرجال.

حتى جوهر الوضعية الإغوائية، أى النشاط الذكورى والسلبية الأنثوية قد أصابه بعض من التآكل، فمنذ سنوات الأربعينيات قدمت السينما سلوكيات نسائية جديدة تخالف السمات التقليدية للإغواء؛ ففى فيلم "مرفأ القلق" نجد "لورون باكال" تسأل "أومفرى بوجار": "ألديك ولاعة؟" أى أنها- على عكس المألوف- هى التى اتخذت المبادرة لتحقيق لقاء غرامي، وهى ديناميكية لا تفتأ تزداد. لم يعد أحد يحصى عدد الأفلام السينمائية والتليفزيونية الأمريكية التى تقوم الشخصيات النسائية فيها بالخطوات الأولى؛ وقد بدأ الدور النشط للمرأة فى المرحلة الأولى من إقامة العلاقات الخاصة يتأكد أكثر فأكثر فى الثقافة الجماهيرية. وفى الوقت ذاته لم تعد الصحافة النسائية تتردد فى إزالة تأثيم اللواتى يأخذن زمام المبادرة، وكما لم تعد النساء يخشين إدراج إعلانات مبوبة حميمية، لم يعدن كذلك يخجلن من الاعتراف بالقيام بالخطوة الأولى. كانت عبارات الإطراء فى الماضى تشكل جزءًا من ضروريات الغواية

---

(1) Daniel Bell, *Les Contradictions culturelles du capitalisme*, Paris, PUF, 1979, p. 117-127.

(2) Simmel يرى أن "جوهر الغنج الأنثوى يرتكز فى وضع التقبل التلميحي والرفض التلميحى فى وضع مقابلة بشكل متناوب، وفى اجتذاب الرجل دون ترك الأمور تصل إلى الفعل القاطع، وفى صده دون جعله يفقد الأمل ("La sociabilite." in *sociologie et Epistemologie,* Paris, PUF, 1981, p. 130)

الذكورية، بينما نجد الآن أحيانًا نساءً يطرين الرجال على جاذبيتهم الجسدية أو على أناقتهم. فما كان يوصم بأنه سلوك "امرأة لعوب" اكتسب الآن شرعية اجتماعية نسبية، فلم تعد "المبادرات النسائية" تنعت بالسلوك الشائن أو المستهجن. لقد نجحت ديناميكية التكافؤ في طمس معالم السمة الجوهرية للعلاقة الغزلية حتى ولو كان ذلك بشكل جزئي، وبالأخص التعارض المتميز بين النشاط الذكوري والسلبية الأنثوية.

"دون جوان" المتعب

أثّرت تغيرات أخرى على علاقة الرجال بالغواية، فقيمة غزو النساء ودلالته هما ما يسجلان تبديلا ملحوظًا، وهكذا نرى أن المقالات الرافضة للوهن الذكوري في الصحافة النسائية تعددت، فنقرأ على سبيل المثال "لم يعد هناك رجال"، و"أين ذهب الرجال؟" إلى جانب النصوص الساخرة عن "التخشب" الذكوري الجديد[1]. قدمت السينما نماذج أقل من الماضي عن أمثال "الذي لا يشق له الغبار"، و"زير النساء" المستعد دائمًا لإثراء لائحة ضحاياه، ونسمع في حوارات النساء الشابات شكاوهن من عدم استدراجهن وأخريات يتأسفن على سلوكيات التحاشي والهروب الذكورية؛ فعم الشعور بأن محاولات الصيد الذكورية باتت أكثر ندرة وفردية، وفي جميع أحوالها، أقل ارتباطًا بالسلوكيات الذكورية "اللاإرادية".

أهو كلام فارغ؟ أهي كليشيهات إعلامية؟ الشيء المؤكد، إذا اطلعنا على بعض الاستطلاعات[2]، هو أن "ملاحقة الفتيات" اليوم، أصبحت أكثر إشكالا مما كانت عليه في الماضي، فمنذ فترة ليست ببعيدة، كانت المغازلة تعتبر طريقة لإثبات الذات والتكيف الاجتماعي بالنسبة للرجال. إن هذا العصر تناءى عنا دون أن نشعر؛ فأكثر أنماط استدراج النساء "عدوانية" باتت تنتمي أكثر فأكثر إلى فئة السلوكيات

---

(1) Michele Fitoussi, *Le Ras-le-bol des superwomen*, Paris, Calmann-Levy, 1987, p. 107.

(2) صرح ٢٣% من الشباب أنهم لا يعاكسون الفتيات إطلاقًا، و٤٨% بأنهم نادرًا ما يفعلون (*Vingt ans*, novembre 1993)

السوقية التى ترتبط بالطبقات الاجتماعية السفلى. فالصفير لفتاة والتعليق على شكل جسدها واعتراض امرأة فى الشارع أو فى المترو، إلى جانب العديد من السلوكيات التى تصورنا زوالها، لا تزال تمثل نمطًا لذكورية الطبقات الدنيا. وفى الملاهى الليلية لم يعد الرجل يدعو الفتاة للرقص؛ بالتأكيد لم تختف "الثرثرة" و"الالتصاق" بالمرأة، ولكن هذه السلوكيات لم تعد بديهية؛ بل صارت تحدث دون فرض نفسها من بديهيات الجنس القوى، كما دخلت الثقافة الذكورية للاستدراج فى حلقة من التراجع اللافت: وعلى غرار أبطال حداثيين آخرين، فإن "دون جوان" بات يعانى من تعب شديد.

أحيانًا ما يُؤول هذا "الهروب" الذكورى باعتباره مظهرًا لضيق نفسى وهوياتى يرتبط بزعزعة الأدوار الجنسية التقليدية، وربما أثار تحرر النساء ورواج نموذج "الرجل الوديع" بلبلة ذكورية استثنائية[١]، ولأن النساء أصبحن متحررات فإنهن صرن سهلات المنال باعتبارهن شريكات فى المغامرة الجنسية، إلا أنهن، فى الوقت ذاته، بتن مرعبات وأكثر تهديدًا للرجل، فهناك عدد من الرجال لم يعودوا يفهمون ما تريده النساء منهم؛ فإذا لاحقوا المرأة واستدرجوها اتهموا بالعنترية؛ وإذا ظلوا على صمتهم تأسفت النساء على "اختفاء الذكورة". ومع حيرة الرجل أمام "المرأة الجديدة" المستقلة، التى ترفض أن تعيش فى ظله، بات مضطربًا وهشًا وغير مستقر إزاء هويته وقلقًا على طاقاته الرجولية، أما "الذكر الوديع" فقد أقلع عن أى سلوك عدوانى وأصبح خدومًا و"مرهفًا" ولم تعد لديه طاقة أو حيوية كى يمنحها للمرأة، وهكذا فقد نشهد تنامى السلبية الذكورية "بإيقاع مطرد"[٢].

- أهو هاجس لدى النساء؟ مع ذلك، انحسرت صور المرأة المرعبة والمرأة القاتلة فى الأفلام السينمائية والروايات؛ أهو قلق عند الرجال متعلق بهويتهم؟ هل بات أمرًا مؤكدًا أن الشباب لم يعودوا يألفون تقديس الهيمنة والتفوق الذكورى؟ فى الحقيقة إن أزمة الذكورية بعيدة عن أن تكون حدثًا اجتماعيًا جماهيريًا، بل إن الانتقاص من

---

(١) Robert Bly, *L'homme sauvage et l'Enfant*, Paris, Seuil, 1992.

(٢) *Ibid.*, p.92.

سلوكيات العناتر، وكذلك استقلالية النساء الجديدة لم يؤديا إطلاقًا إلى إضعاف كبير للهوية الذكرية، وبخاصة فإن أكثر الذين يضيقون بالحالة الذكورية الجديدة هم ممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الأكثر تهميشًا، أو بمعنى آخر هم الرجال "المتشبثون" أكثر من غيرهم بالإثبات التقليدى للقدرات الذكورية، أما الآخرون فقد وجدوا إشارات جديدة نحو تأكيد الذات وتثمينها[١]. إن الاضطراب الشديد الذى يعانى منه الرجال يمثل ظاهرة طرفية أكثر من كونها مركزية، ولا يمكن أن يكون مرتبطًا بتفسير معنى "العطالة " الذكورية المعاصرة، والتى تلاحظ قليلا أو كثيرًا عند هؤلاء الذين لا يظهرون أى قلق إزاء هويتهم. إن فكرة صعود أزمة الذكورة والرجل المجروح والشكاء لهى فكرة خادعة، حتى وإن أصبحت إطارات الذكورة مشوشة، فإن غالبية الرجال لا يعانون من شقاء هوياتى، ولكن من صعوبات علائقية ومهنية، مثلهم مثل النساء. ولنحذر من الخلط بين المشكلات النفسية للحميمية العلائقية وبين الجراح الهوياتية.

إن "بلادة" الغواية الذكورية يجب ألا ترتبط بالإرعاب الأنثوى الرادع، ولكن بضغط ثقافة تفضل العلائقية، والصدق مع النفس، والإنصات لها، والاتصال الحميم. ففى العصور السابقة كانت للنساء قيمة الغنائم؛ فكانت تسمح للرجل بالتبختر وإظهار الرغبة والإعجاب، وإثارة الدهشة بين المتفرجين، وكما قال فيبلين Veblen فإن المشروع الإغوائى الذكورى كان متضمنًا فى "سباق نحو التقدير، ونحو المقارنة المثيرة"[٢] بهدف المنافسة على النفوذ. والغزوات النسائية كانت تلعب تقريبًا الدور نفسه الذى تلعبه الأشياء القيّمة؛ إذ تخدم "نية إعلاء المنزلة". هذا الاحتياج إلى المجاهرة والنجاح المرئى، ولكن أيضًا الاحتياج إلى التأكيد الرجولى وتشريفه لم يختف بالطبع، ولكننا نستطيع أن نفترض أن العلاقة بالمرأة قد تحولت بنفس الشكل الذى

---

(١) Francois de Singly, "Les habits neufs de la domination masculine », *Esprit*, novembre 1993, p. 60-61

(٢) Thorstein Veblen, *Theorie de la classe de loisir*, Paris, Gallimard, 1970, p. 23.

تحولت فيه العلاقة بالاستهلاك، وصار من المهم أن يستهلك المرء الآن من أجل الاستهلاك أكثر منه من أجل المركز الاجتماعى[1]، فهذا التحول ذاته يلاحظ، حسب الحالات، فى علاقة الرجل بالمرأة. إن متعة العيش الرغيد، وتغليب النظرة النفسية، وثقافة الجسد كل هذه المرجعيات أدت إلى تراجع الرغبات الذكورية كثيرًا لصالح نوعية العلاقات والبحث عن المعنى الخاص، والدليل على ذلك، من بين العديد من الدلائل، تطلع الشبيبة المتزايد والمبكر إلى "الاستقرار" والإخلاص. وبعد الحمى الكمية أتت أولوية نوعية المشاعر وتثمين الحياة الزوجية، فليس السيف الإلهى هو الذى سحق "دون جوان"، ولكنه الاحتياج الأكبر لمعنى خاص واتصالى.

لا شك أن استعراض الرجل لغزواته لهو دائمًا مدعاة للفخر، ويبقى أن الذكورة تبدو أقل تماهيًا من ذى قبل مع النموذج الدون جوانى الشديد الغفلية والتكرارية، والبالغ الغربة عن الذات وعن ارتعاشاتها الانفعالية. من هنا ظهر تقلص جديد فى الفروق بين الجنسين؛ فالرجال كانوا يريدون التجميع و"إبراز" مغامراتهم؛ بينما كانت النساء يحلمن بحب لا شائبة فيه ومع بعض الابتعاد عن النموذج الدون جوانى، خطا الرجال خطوة نحو القيم الأنثوية من استمرارية وارتباط شعورى، ولا تعبّر السلوكيات الذكورية الجديدة عن إفلاس رجولى هوياتى أو قلق إزاء النساء، لكنها تعبر عن تقدم لتساوى ظروف كلا الجنسين فى مجال الحياة العشقية.

من المستحيل أيضًا عدم الربط بين تراجع الفكر الدون جوانى وبين الدلالة الجديدة للمتخيل – الاجتماعى فى الحياة الجنسية، وإذا قارنا عصرنا بالنزعة الثورية الثقافية والشهوانية لسنوات الستينيات والسبعينيات لوجدنا أنه شهد أهمية نسبية للمرجعية الجنسية، ولم تعد قضايا التحرر الجنسى والتمتع الشبقى تمثل محور السجالات الجماعية؛ وظهرت اتجاهات جديدة مثل "no sex"، وردّ الاعتبار للعفة والزهد. فيما أثيرت فى الولايات المتحدة ظاهرة "low sexual desire"، أوردت

---

(1) هذه النقطة وردت فى كتابنا السابق *L'Empire de l'ephemere*, Paris, Gallimard, 1987, p. 203-207

الصحافة فى ألمانيا شهادات عدة لفتيان يرون أن "مرة واحدة فى الأسبوع تكفى تمامًا"[1]: شهدنا زوال الحماسة العاطفية واختفاء الأدلجة فيما يتعلق بمسائل الشهوة؛ فقد فقد الجنس مقامه السامى القديم، وأصبح أقل تركيزًا لدى الجماعات والأفراد، إذ نظر إليه أكثر فأكثر كفضاء متخفف من كل قوة تجاوزية ومن كل صلة بالخطيئة الدينية. بالطبع ليس الخوف من الإيدز هو سب عدم الإقبال على الجنس، ولكن بشكل أكثر عمقًا هو انحسار المحرمات الدينية والأخلاقية الكبرى، وصيرورة الحرية الجنسية أمرًا عاديًا، وانهيار المتخيل المعارض، كما توافق الميل النفسى الذكورى نحو خفض الإستراتيجيات الإغوائية مع تلك اللحظة التاريخية؛ إذ لم تعد الغريزة تنقل أى معنى اجتماعى سامٍ أو مخرب أو تحريرى. فحين أصبح "كل شىء مباحًا" كف غزو النساء عن أن يمثل أولوية ذكورية؛ وعندما لم يعد الجنس ذا معنى جماعى، تكثف البحث الذكورى عن معنى للحياة الحميمية؛ ولمّا فقد إيروس قداسته، بدأ شحوب صورة دون جوان.

الغواية والأنثى الخالدة

يتماشى حق النساء فى المبادرة العاطفية وتراجع "الغنج" من جهة؛ وعدم التثمين النسبى "للرفرفة" الذكورية من جهة أخرى، هذا ما يعزز مقولة اللاتمايز فى الأدوار الإغوائية التى طرحتها إيفيلين سيليرو Evelyne Sullerot فى سنوات الستينيات قائلة: "إن الفروق اللازمة للغواية ستتشكل فى حميمية كل زوجين، وتقل تدريجيًا على مستوى التجمعات النسائية والتجمعات الذكورية[2]". وبعد آلاف السنين من التقنين التمايزى وفقًا لنوع الجنس، استطاعت الغواية الإفلات من معايير النوع، وانتشرت وفقًا لمبدأ "كل وله إغواؤه" تلك الفكرة كتب لها النجاح مع فروق نظرية

---

(1) وفقًا لمنظمة الصحة العالمية، هناك ما بين ١٥ و ٢٠% من الرجال والنساء قد لا يشعرون بالرغبة الجنسية.

(2) Evelyne Sullerot, *Demain les femmes*, Paris, Laffont-Gonthier, 1965, p. 106.

طفيفة حتمية: وهكذا تكلم بعضهم عن تأنيث الرجال، وعن استرجال النساء، وعن تجانس الأدوار النوعية، وعن "المساواة الإغوائية[1]". انتهت الامتثالية مطابقة، وانتهت القيود الحديدية للجنسين والتمايز وفقًا للنوع، وحان وقت انعكاسية الأدوار الإغوائية؛ وهى الفكرة التى لا يعوزها التأصيل بالتأكيد؛ بقى أن نعلم كيف توافقت تلك الفكرة مع الحراك الفعال لمجتمعاتنا.

الاختلاف الإغوائى

لا ينبغى البدء بحجب الأحداث جميعها، إذا صح أن عددًا من النساء فى أيامنا هذه يعترفن، بلا حرج، بالأخذ بزمام المناورة الأولى، يتعين الإقرار بأنهن لا يزلن نادرات وحذرات وانتقائيات بالمقارنة بالمناورات التى يقوم بها الرجال. وحالات المبادرة النسائية لا تتوجه أبدًا تقريبًا إلى أشخاص مجهولين، بل إلى رجال يعرفنهن من قبل، وبعيدًا عن كونها قاعدة، فإن المبادرة النسائية تمارس لعدم وجود حل آخر، يلجأن إليه أخيرًا، عندما يبدو على الرجال السلبية الشديدة أو الخجل الشديد. أجل، حظيت النساء بحق التعبير عن رغباتهن بشكل أكثر انفتاحًا، ولكن مسرح الغواية لم يصبح مع ذلك متكافئًا؛ فالمبادرة لا تزال من نصيب الرجال، والظاهرة اللافتة للنظر هى أن النساء يفضلن أن يظل الأمر على حاله: فعلى عكس معايير أخرى غير متكافئة – لم يستنكرن النساء تقريبًا التباعد الجنسى فى الأدوار الإغوائية، فما من ملصقات مسيئة، وما من خطابات نسوية تندد بالتفضيل الذكورى الذى لا يطاق "للإيقاع بهن".

بالتأكيد لم يعد يليق بالنساء بأنهن عاجزات على "الهجوم"، ولكن هذا التحرر يتعرض فورًا لمشكلة، ما عدا فى حالة إعجابهن "الحقيقى" بالشريك حينها فقط يعلنَّ عن استعدادهن للعب الدور التقليدى الذى مُنح للرجال. فالاختلاف مع الذكور واضح

---

(1) Pascal Bruckner, Alain FinKielkraut, op. cit., p. 292, 299

وضوح الشمس؛ فالخطوة الذكورية الأولى غالبًا ما تنفصل عن الارتباط العاطفى، لا بل ترتبط تقريبًا بانجذاب جنسى شديد؛ ولا تكون مدفوعة بالسحر الفردى للمرأة بقدر ما تدفعها متعة المغامرة، وذائقة التجديد أو الغزو. وفى المحصلة، نرى أن صدفة "المناسبة" والجاذبية والإثارة المرتبطة "بالتجربة" جميعها تكفى ليقوم الرجل بمناورات الإقدام، أما بالنسبة للمرأة، فالأمر مختلف، فهى تظل متعلقة بانتقائية الرغبة، وباختيار أكثر تطلبًا وأكثر شخصانية وأكثر تميزًا، كى لا تستبعد إمكانية المبادرة.

يضاف إلى ذلك أن الرجال والنساء لا يمتلكون الأسلحة ذاتها للقيام بالعملية الإغوائية؛ فالغواية عند الإناث تركز فى الأساس على المظهر والإستراتيجيات التى تعلى من القيمة الجمالية، بينما عند الذكور تكون لائحة الوسائل أكثر اتساعًا: فهناك الوضع الاجتماعى والسلطة والمال والنفوذ والشهرة والمرح جميعها توظف كأدوات للغواية. فى الوقت ذاته لا نرى تأكيدًا دائمًا لهذه الوظيفة عند الإناث؛ فالسلطة تزيد من غواية الرجال، بينما تقللها عند النساء كما لاحظت "فرانسواز جيرو" Francoise Giroud. واعترفت النساء بلاشك وأكثر من أى وقت مضى بأنهن يتأثرن بالمظهر الذكورى، ولم يعد الرجال يرون ممارسة النساء للعديد من المسئوليات أمرًا كريهًا، ويبقى أن وضعيات وتوقعات الجنسين الإغوائية لا يمكن أن تتراكب؛ فالجمال وسحر الهيئة لا يمثلان القيمة الإغوائية ذاتها عند الجنسين: فهما أمران إستراتيجيان عند النساء، واختياريان عند الرجال. علاوة على ذلك، فإن النساء لا يخفين إلا الإعجاب الذى يولينه لرجل يلعب فى الغالب دورًا مهمًا فى تشكيل رغبتهن. بينما الحال مختلف عند الرجال؛ أى أن الغواية الأنثوية ومشاعر الإعجاب هما ظاهرتان منفصلتان. وعلى الرغم من التغيرات الملحوظة جميعها، فإنه من الجميل والجيد أن يظل التباين الإغوائى بين الجنسين قائمًا، وأن يستمر فى تحقيق انتصار.

ويوضح موضوع المرح أيضًا الفصل المستمر بين الجنسين فيما يتعلق بالغواية، فكما رأينا، ترى النساء الآن فى المرح عاملا أساسيًا فى الغواية الذكورية،

ولكن هذا لا ينطبق على الجانب الآخر[1]، فالمميزات الجسدية للمرأة لها تأثير إغوائى يفوق بكثير مميزاتها الروحية. هذا الاختلاف فى تقدير الحس الفكاهى يعيد التقسيم التقليدى لأدوار الجنسين، ولكن فى صورة عادات جديدة. ومع إثبات الرجال لامتلاكهم روح الدعابة، يجدون أنفسهم من جديد فى دور الفاعل أو "المقتحم" إغوائيًا؛ فهو لا يسمح لهم فقط بتسلية النساء والتألق وفرض ذواتهم، ولكن أيضًا بإثبات قوة فردية ما، لأن روح الدعابة تجسد سمات عدم الاحترام والوقاحة وحرية التفكير والقدرة على المباعدة عن الواقع، وهى سمات متوقعة من الرجال بحكم التقليد. إن الجاذبية التى تمارسها الدعابة الذكورية على النساء تعبر، على نحو جديد، عن استمرارية مقتضيات السمات الرجولية من جرأة وثقة بالذات وهيمنة وتميز بالنسبة للآخرين، حتى وإن كان تثمين قانون الدعابة عند النساء يعبر عن مطلب تبادلى أكثر "تكافؤًا"، إلا أنه مع ذلك لا يكف عن التشبه بالمنطق القديم للمثل العليا والأنماط الذكورية.

هناك ظواهر أخرى تذهب فى الاتجاه نفسه، ففى الحركات الأكثر حميمية فى المغازلة يظل الرجل فى حاجة إلى إبرازها، وإلى الاحتفاظ بالمبادرات: ففى "المرة الأولى" تنتمى "ظواهر" التقبيل، والمداعبة، ونزع الثياب عن الآخر حكرًا بالأحرى على الرجل. فى الوقت ذاته لم تختف كل لزوميات الغزل الذكورى، حتى وإن أصبحت تلك الطقوس أكثر اختيارية عن ذى قبل، يبقى أن الرجال هم من يقدمون الزهور للنساء، وهم من يدعونهن غالبًا إلى المطاعم، وهم من يرتبون قضاء ليلة فى الفندق، وأن طرد المرأة لمن يخطب ودها ببعض القسوة ليس بالأمر الصادم. لنقلب الموقف قائلين: إن السلوك الذكورى يحمل اسم الخسة أو الفظاظة. والخلاصة تفرض نفسها: وهى أن عالم الغواية لا ينفك يتشكل وفقًا لمنطق جنسى ثنائى فى التوقعات

---

(1) مع النساء، يحب ٣٠% من الرجال ممارسة العلاقة الجنسية أولاً، و٢١% يحبون السفر فى week-end، و١٩% مشاركة الهواية ذاتها، و١٨% يحبون الكلام، ١٠% الضحك. (Gerard Mermet, *Francoscopie* 1993, op. cit.)

والممارسات، وإذا نظرنا للأمر نظرة من أعلى نرى تقدم اللا تميز في الأدوار؛ وإذا نظرنا من قريب وبإمعان يظهر لنا أن الانفصال البنيوى فى مقام كل من الجنسين يمتد. وهناك هوامش فى الحرية وتذبذب الأدوار بدأت تشكل جزءًا من النظام. والفصل فى النوع بات بالتأكيد أقل حصرية، وأكثر مرونة، ولكن دون أن تنجح ديناميكية المساواة كثيرًا فى هدم النظام العتيق للاختلاف الإغوائى.

طالما سيكون هناك نساء

إنه لخطأ فاحش أن نخلط بين استمرارية التباين فى الأدوار الإغوائية وبين نمط بالٍ ومحتضر، والشىء الأكثر اتضاحًا فى هذه الظاهرة هو، فى الحقيقة، الانخراط القوى للنساء فى هذا النظام غير المتناظر؛ فالنساء هن من يتمسكن بصيانته وليس الرجال، فقلب أدوار المبادرة بشكل عام قد أثار الحماسة عند الرجال أكثر من الاستبعاد. وفى عمق الأمر، تستمر مكانة النساء فى لعبة المغازلة، لأن النساء يتمنين أن تظل هكذا، وذلك لأن دور "الانتظار" الذى حدد لهن لا يتضمن أى كبح للنفس، ولا أى شكل للخضوع، ولكنه بالأحرى شكل لتثمين ذات المرأة. إن سلبية الدور النسائى تعد طريقة لتظل النساء مكآفأت ومكرمات؛ وهى طريقة أيضًا للتعبير عن أن الجنس ليس هو الشىء الأولى أو الحصرى لرغبتهن، وأنهن يتقن للشعور بالتدانى العاطفى أكثر من توقهن لولوج غرفة النوم. ما من تشيىء للنساء، وما من إخضاع لنظام مفروض وتسفيلى، ولكنها السلطة المعترف بها لإدراة اللعبة، وللبقاء سيدة القرار النهائى، وكذلك متعة أن تكون محطًا للالتماس. يتأصل الدور السلبى للإناث فى تقاليد موروثة بلا شك، ولكن تلك التقاليد تسمح باكتمال المتطلبات والتطلعات الجوهرية للفردانية النسائية الحرة والسيادية؛ إنها الرغبات الفردانية ذاتها هى التى تتضمن الآن إعادة التقديم الاجتماعى للفصل فى الأدوار بين الجنسين فى المناورات العاطفية. واستمرارية التقسيم الإغوائى لا تستمر بسبب الجمود الاجتماعى، ولكن لتوافقه مع الرغبات الحديثة للتثمين وللسيادة الحرة للذات.

ومنذ فجر التاريخ، جسدت الإناث الغواية، وما من شيء يسمح بالتنبؤ بتغير ما، حتى الحريات الجديدة التى تتصرف بها النساء فى علاقاتهن بالرجال تعيد تدوين تماهيهن التقليدى فى القطب الإغوائى، ولكن بطريقة أخرى. والفكرة القائلة بأن سيطرة المساواة والاستقلالية تميل إلى إضفاء صفة الذكورة على المرأة لم تصمد فى الاختبار، وذلك أن المرأة بقيت هى "القارة السوداء"، والنوع غير المحدد والغامض، والذى يغوى الذكور، حتى وإن تم ذلك فى تخريب الأدوار الموروثة. أى رجل ذلك الذى لم يقع فريسة الغواية عند عكس الأدوار فى المبادلة العاطفية؟ والذى لم يضطرب أمام مبادرة امرأة؟ ومع تصرف النساء كرجال، وتقلدهن دورًا فعالاً، فإنهن لم يفقدن كثيرًا قدرتهن النوعية على رفع يد الذكور. بلا شك أن التحرر الأنثوى قد أثار بعض الرعب عند الذكور، ولكنه تصاحب مع سحر إغوائى جديد، حتى عندما تأخذ المرأة بزمام المبادرة، فإنها لا تشغل مكانة تكافئ مكانة الرجل، فطالما ينبثق انفصال عن المعيار، وتجاوز صغير خلاق باعث للغواية، فنشأ معطى جديد، وهو أن الإناث يستطعن من الآن أن يلعبن على سجلات مختلفة، على سجل المرأة – المرأة "السلبية"، كما على سجل "سيدة اللعبة". إن سر الأنوثة، ببعده الخالد من عدم اليقين وعدم التوقع، يعاد تشكيله، بالتالى، عبر فتح أدوارها وتكاثرها، ومهما كانت قوة ثقافة المساواة والصدق مع الذات، تبقى المرأة شخصًا لا يمكن الإمساك به، ولغزًا لا تشوبه أية شائبة.

(٣)
النسوية والحرب بين الجنسين

"الشأن الشخصى أصبح سياسيًا": هذا بلا شك هو واحد من أكثر المبادئ تأثيرًا على النسوية فى النصف الثانى من القرن العشرين، فعلى مدار سنوات الستينيات، طرحت إشكالية جديدة لم تعد تعتبر الجنسانية مكانًا مغلقًا لمجال خاص، ولكن تعتبرها علاقة سلطة بين الجنسين، وإجراءً ذا أصل سياسى ومكونًا للنظام البطريركى. فعبر الحياة الجنسية يمارس الرجال السلطة على الإناث، وبعيدًا عن اختزال الجنس فى وظيفة طبيعية، بدا وكأنه التأثير والأداة للسلطة القضيبية، وكأنه نقطة عبور إلى علاقات سيطرة يمارسها الرجال على النساء، فالقوانين والتمثيلات والأخلاق وعلم النفس والأدوار المتعلقة بالجنسانية، تلتقى جميعها لتأكيد السيادة الرجولية وتبعية النساء[١]. وفى ظاهر الأمر يحتوى مجال الجنس على جزء يرتبط بحسابات المتعة؛ وفى عمقه، يتشكل الجنس وفقًا لحسابات القدرة المتوجهة نحو تسفيل المرأة و"استعمارها داخليًا"، وكما قال أنصار النسوية فى مايو ١٩٦٨: "تتصدر السلطة قضيب الرجل".

من هنا كان جسد المرأة فى قلب الكفاح الذى قاده التيار النسوى الجديد، وتكاثرت الكتابات التى توبخ القضيبية النفسية، والتى تطالب بحق النساء فى استقلالية جنسية كاملة، فانتظمت تحركات جماعية كبرى ضد منع الإجهاض والتشريعات المتعلقة بالاغتصاب. وفى كل مكان فى المجتمعات الديمقراطية حصلت المرأة على حق التحكم فى الإنجاب والوضعية الحرة لجسدها، وتم أيضًا رفض العنف

Kate Millett, *La Politique du male*, Paris, Stock, 1971(١)

كقدر لوضع النساء[١]. سيست النساء مشكلات الجنس وأتحن للعامة فرصة إبصار المآسى الحميمية، وذلك من خلال صراعهن للحصول على اعتراف بحقوق جديدة تتعلق بالجسد، وتنديدهن بالطبيعة البطريركية لقوانين العقوبات، وكسرهن جدار الصمت حول الإجهاض والاغتصاب والعنف العائلى. إنه تعميم للخاص وتخصيص للسياسة: فالنسوية قدمت "الحرب السياسية فى الشأن الخاص... والحرب الجنسية فى الفضاء العام[٢]".

لا نزال فى المكان نفسه، ولم تعد البلاغة الثورية تحتل مكان الصدارة بلا شك، ولم تعد النسوية حركة اجتماعية بارزة، ومع ذلك تابعت سيرورة تسييس الجنس مسيرتها، وشهدت الديمقراطيات تشريعات جديدة تتصدى للتحرش الجنسى وزنى المحارم والاغتصاب، كما نادى أنصار النسوية بمنع الإباحية، وازدهر موضوع الحرب بين الجنسين أكثر من أى وقت مضى فيما وراء الأطلنطى، ولكن إذا كان العنف الممارس ضد المرأة وجرائم الاغتصاب والتحرش الجنسى أصبحت تثير تساؤلات وتسنّ قوانين جديدة، إلا أنها لم تحظ بنفس الصدى الجماعى. ومن الواضح أن الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا لم تبديان الوجه ذاته فيما يتعلق بهذه النقطة، حيث انتشرت الخصومة بين الجنسين وعرفت أنواعًا مختلفة من الشدة. من هنا ظهرت ضرورة التساؤل حول معنى تسييس الجنس وطرقه فى المجتمعات الديمقراطية المعاصرة، وكيف نقيّم قانونيًا المعارك النسوية الجديدة؟ وأى ديمقراطية جنسية ترتسم فى الأفق؟ وهل نتجه نحو سيناريو على الطريقة الأمريكية، أم سيتمكن العالم القديم من الإفلات من المزايدات ومن الدراما النفسية فى الحرب بين الجنسين؟

---

(١) Janine Mossuz-Lavau, *Les Lois de l'amour* ; *les politique de la sexualite en France (1950-1990)*, Paris, Payot, 1991.

(٢) Genevieve Fraisse, "Sur l'incompatibilite supposee de l'amour et du feminisme », *Esprit*, mai 1993, p.75

هوس الضحية

الحملات النسوية الجديدة والاستثناء الأمريكى

اجتاح وباء جديد ذو طبيعة وانتشار غير مسبوقين العالم الجديد: ويتمثل فى حمى شعور المرأة بأنها ضحية؛ ترتبط الظاهرة فى المقام الأول بانحراف فى حق المسئولية الذى يدفع المواطنين والمستهلكين أكثر فأكثر إلى اعتبار أنفسهم ضحايا للخدمات والمنتجات والمواقف المختلفة، وإلى تحديد المذنبين والمسئولين من الأفراد أو المؤسسات، وإلى إقامة دعاوى قضائية والمطالبة بتعويض عن خسائر مباشرة وغير مباشرة، ولكنها تدل أيضًا على وجود حساسية نسوية جديدة تلامس المحنة التى تقاسيها النساء وتندد بالاعتداءات الإجرامية التى تتعرض لها المرأة، ويمكننا تبين ذلك على ضوء هذه الإحصائيات المرعبة. فى الولايات المتحدة الأمريكية حوالى امرأة واحدة من كل اثنتين ربما تعرضت للاغتصاب أو لمحاولة الاغتصاب، و ٤٠% كن ضحية لتحرش جنسى؛ ١٥٠٠٠٠ يمتن كل عام بمرض فقد الشهية، ويعانين من طغيان الهزال؛ و ٢٨% من الأزواج أفصحوا عن أن علاقاتهم يميزها العنف و ٥٠% من النساء تعرضن للضرب مرة واحدة على الأقل خلال حياتهن الزوجية؛ وزوج واحد من أصل ٧ أزواج يمارس سلطته الزوجية بطريقة عنيفة، وتزايدت جرائم القتل الجنسى إلى ١٦٠% بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٨٤، وقفزت جرائم الاغتصاب لتسجل نسبة أعلى أربع مرات من مجمل الجرائم الأخرى. وكلها معطيات دفعت بأنصار النسوية العتاة إلى الحديث عن "الحرب على النساء "[1]، دون أن يتمسكوا كثيرًا بالفروق الدقيقة.

إذن مسألة الاغتصاب تُظهر بشكل مثالى عقدة الضحية المعاصرة، وهناك استطلاعات مرعبة تعلن أن طالبة واحدة من بين كل أربع طالبات يتعرضن إما

---

(1) على سبيل المثال، Marilyn French, *La Guerre contre les femmes*, Paris, L'Archipel, 1992.

للاغتصاب أو لمحاولة الاغتصاب، وكنا نتصور بسذاجة حتى هذه اللحظة أن جرائم الاغتصاب ترتكب من مجهولين وفى خلوات مظلمة. إنه لخطأ بالغ، فقد أكدت الاستطلاعات أن ما بين ٦٠% و ٨٠% من حوادث الاغتصاب يرتكبها "مقربون" للضحية[١] وأن ٩ مرات من أصل ١٠ مرات فى الحرم الجامعى يكون المعتدى معروفًا لدى الفتاة[٢]. هذا النوع من جرائم الاغتصاب حمل منذئذ اسم date rape، أو الاغتصاب بين المقربين؛ إنه يتمحور فى روح "المرأة الضحية"، وقد تفحص المسألة بدقة فى الجامعات والاستطلاعات والمقالات والكتب؛ فقد نظم الطلاب عروضًا واجتماعات تكشف فيها الفتيات اللواتى تعرضن للاغتصاب، بعد تشجيعهن والتصفيق لهن من قبل الحضور، يكشفن مأساتهن الفردية، وتظهر النساء المعتدى عليهن كناجيات من حادث وهن يرتدين تى شيرت وبوستر مصممين بعلامة المساندة، وفيما مضى، كان مشروع تغيير الحياة يثير حمية الفتيات الثائرات؛ والآن فإن النساء المعذبات واللواتى يشعرن بالخزى داخل أجسادهن، هن من يحتفى بهن.

إن الحديث عن هستيريا الضحية لا يعنى أن العنف الممارس على المرأة هو شيء من وحى الخيال؛ فسوء المعاملة والاعتداءات الجنسية أمر لا يمكن إنكاره. فى المقابل نرى أن الإحصائيات المخيفة التى يلوح بها أنصار النسوية قابلة للجدل، ويجب ألا تخدعنا حيادية الأرقام، فوراء موضوعية الأرقام الظاهرية يتوارى مشروع أيديولوجى لإعادة كتابة الواقع. إن التوسع المبالغ فيه لمفهوم الاعتداء الجنسى وإعادة صياغة معايير ما هو طبيعى وما هو إجرامى وتفسر حوادث الاغتصاب أكثر من ضغط العنف الذكورى، وإذا كنا لم نعد نفسر الاغتصاب باستخدام العنف الجسدى أو التهديد به، ولكن بأشكال "الإكراه والإلحاح الشفوى"، وبالضغط والتلاعب النفسى فكيف نندهش من التخفيف النسبى للاعتداءات الجنسية؟ وإذا كان تعليق الرجل

---

(١) منذ سنوات السبعينيات، كانت Brownmiller تؤكد أن امرأة واحدة تقريبًا مغتصبة من أصل ٢ اغتصبت من رجل معروف لها *(Against ourWill: Men, Women and Rape, New York, Simon and Schuster, 1975).*

(٢) هذا هو ما أظهرته نتائج البحث الشهير المنشور فى *Ms. Magazine* 1985

لصورة شابة جذابة على حائط مكتبه يعتبر شكلا من أشكال التحرش الجنسى، فمن الذى يمكن أن يندهش من تصاعد الظاهرة؟ وعندما تعرض النسوية المفرطة مفاهيم العنف وتخفض عتبة التسامح، وتجرم التصرفات التى يعتبرها الضمير الجمعى تصرفات "طبيعية"، لم تعد تظهر الواقع، بل تضفى عليه صفات شيطانية، ولم تعد تكشف النقاب عن وجة خفى للهيمنة الذكورية، بل تخلق حالة من الإثارة وعلم الضحية ومتخيلا حول الضحية، وإذا أردنا دليلا على ذلك، نجده فى أن ثلاثة أرباع الفتيات "المغتصبات" لا يعرفن أنفسهن كذلك عند الإجابة على أسئلة المحققين. باختصار، كن يغتصبن دون أن يعلمن ذلك! وهناك ٤ من أصل ١٠ فتيات يستمررن فى علاقات جنسية مع مغتصبيهن المزعومين! إن ما تعنيه تلك الأرقام لأقلنا فضولا هو أن الاغتصاب موضوع البحث ليس واحدًا منها، فهو لا يوجد إلا بغرض فرض تعريف جديد، تعريف يتسع لدرجة العبث[1]، فالوباء المزعوم لحوادث الاغتصاب ليس إلا "إعادة صياغة مفهوم" القهر الجنسى. ومن هنا تتشكل الفجوة الهائلة بين الأرقام المدرجة فى دراسات أنصار النسوية وأعداد الشكاوى الرسمية المسجلة؛ فعلى سبيل المثال، تؤكد الدراسات أن واحدة من بين كل أربع طالبات تتعرض للاغتصاب أو لمحاولة اغتصاب؛ بينما تحصى فى الواقع حادثة اغتصاب من أصل اثنتين لكل حرم جامعى وسنويًا! فبعد "المرأة المخدوعة" نحن فى عصر النسوية المخادعة.

إن ثقافة شعور المرأة بأنها ضحية تتشكل وفقا لمنطق أنثوى متشدد؛ فكل رجل هو مغتصب محتمل ومتحرش؛ وكل امرأة هى امرأة مقهورة، وكلما كان الرجال شبقين ووقحين وعنيفين، كانت النساء يقدمن كمخلوقات بريئات وطيبات ومتجردات من العدوانية؛ فكل الشرور تنبت من الذكور، حتى العلاقة الجنسية ذاتها لم تسلم من تلك المسرحية، فقد أكدت أندريا دوركين وكاترين ماك كينون Andrea Dworkin Catherine Mac Kinnon, أن الفرق بين الاغتصاب والعلاقة الجنسية الطبيعية

(1) تلك النقطة تناولها بالتفصيل Charles Krauthammer ("La deviance redefinie a la hausse", *Le Debat*, n.81, sept.-oct. 1994).

أقل من سُمك ورقة السيجارة، وأن القضيب ما هو إلا سلاح، وكل ولوج للرجل داخل المرأة يجانب الاغتصاب. هل المرأة راضية بذلك؟ فجريمة "الغزو" الحربى تظل كاملة. فضلا عن ذلك، فالاغتصاب ذاته قد يعتبر أكثر فأكثر أمرًا طبيعيًا من منظور الرجال، ٥٠% من الطلاب يرون أنه من الطبيعى أن يغتصبوا المرأة حين يشعرون بالإثارة أمامها، وطالب واحد من أصل ٧ طلاب أعلنوا أنهم لا يقبلون كلمة "لا" التى تقولها الفتاة[١]. إن الفكر المريع للنسوية الجديدة يشكل، فى الحركة نفسها، الشعور المتخيل للمرأة بأنها ضحية ويشكل أبلسة للذكور.

حتى هذه اللحظة لم يبلغ هذا الوباء ضفاف العالم القديم. بلا شك شهدت فرنسا، شأنها شأن عدد من الدول الأوروبية الأخرى، تزايدًا فى عدد دعاوى الاغتصاب[٢]. فى الوقت ذاته، اعترف القانون بالاغتصاب الزواجى كما أصبح التحرش الجنسى جنحة، ولكن أوروبا حتى هذه اللحظة فى مأمن نسبى من التطرفية النسوية. وموضوع الاغتصاب بين المقربين لا يلاقى أى صدى؛ فلم يصاحب قانون التحرش الجنسى أى جدل، ولا أى فصل جوهرى، والمنشورات حول هذا الموضوع كانت نادرة وليست محل نقاش. أما فى الولايات المتحدة، فعلى العكس، لم نعد نحصى الاستقصاءات التحذيرية حول هذا الأمر؛ فالمقالات تعد بالمئات والآلاف؛ فقضية "أنيتا هيل "Anita Hill ضد القاضى" توماس"Thomas ألهبت المشاعر وحبست أنفاس ١٢٠ مليون مشاهد. واليوم ها هى "باولا جونز"Paula Jones تتحمل نفقات حملة إعلامية للمطالبة بـ ٧٠٠٠٠٠ دولار من "بيل كلينتون"Bill Clinton عن الخسائر التى لحقت بها جراء التحرش الجنسى، و"لورينا بوبيت" Lorina Bobbit التى أدينت لقطعها قضيب زوجها برئت ووافقت على براعتها ٦ مواطنات

---

(١) Naomi Wolf, *The Beauty Myth*, Londres, Vintage, 1990, p. 167.

(٢) تم فى فرنسا إحصاء ١٠٣٨ شكوى فى عام ١٩٧٠، و ٢٨٥٩ فى ١٩٨٤، و ٤٥٨٢ فى ١٩٩٠، ومن ناحية أخرى، تعلن سيدة واحدة من أصل ٢٠ أنها أجبرت على بعض العلاقات *(Les comportements sexuels en France*, op. cit. p. 216)

أمريكيات من أصل ١٠. فالنسوية في أمريكا هي بلا أدنى شك الأكثر هجومية والأكثر مؤسساتية، وفي الوقت ذاته تكتسب النساء هناك حالة الضحية أكثر من أي مكان آخر. ففي أي دولة أخرى لا يقارن الفعل الجنسي بين الرجل والمرأة بالاغتصاب؛ كما لا يحمل الفعل الجنسي في أي مكان آخر الكثير من المراهنات، ولا يحتمل الكثير من الاستقصاءات التي تذهب العقل، ولا يثير المشاعر ووسائل الإعلام كثيرًا. وقد أشارت أقلام متميزة إلى حالة "التفرد" أو بالأحرى" الاستثناء"[١] الفرنسي في العلاقة بين الجنسين. وقد نتساءل أحيانًا، وفقًا للوضع العالمي، إذا كان من الأنسب عدم الحديث عن الاستثناء الأمريكي، حيث إضفاء طابع المأساة والشعور بوضع الضحية في مجال الجنس له إبراز لا يقارن. في هذا الصدد نرى أن التفرد الأمريكي يعيش اليوم ولا ندري إذا كان سيعيش غدًا أيضًا؛ أما النموذج الفرنسي فيتضاءل وضوحه؛ إذ إن عددًا من الفروق الطفيفة هي التي تميزه عن غيره من نماذج دول أوروبية أخرى، فالفرق الجوهري ليس بين فرنسا والآخرين أو أنه لم يعد كذلك، بل هو بين أمريكا ونموذجها الحربوي وبين أوروبا واعتدالها النسبي في تقديمها لأشكال التعارض بين الجنسين.

ومهما كان الأمر، فإن الشعور الهاجسي لدى المرأة بأنها ضحية يجب تعديله، على الأقل جزئيًا، ويجب تصويب الرؤية المتفائلة التي وفقًا لها تزيل مسيرة المساواة حتمًا الانفصال والصراعات الكبرى بين الجنسين، فكلما تقاربت الظروف الاجتماعية للجنسين، وكلما امتد شعورهما بالغيرية، استمر الخوف والشك في الآخر في الظهور للعيان، ولم يعد من الممكن الاعتقاد بأن ديناميكية الديمقراطية تتوافق آليًا مع تآكل فكرة التباين بين الجنسين: وتتشكل هذه الفكرة من جديد ليس من الخارج، ولكن من قلب الثقافة الديمقراطية. وحين يتوفر ما يجعل كلا منهما منفتحًا على الآخر سيتوفر

---

(١) Mona Ozouf, *Les mots des femmes ; essai sur la singularite francaise*, Paris, Fayard, 1995.; Elizabith Badinter, « L'exception francaise », *Le Debat*, n.87, nov.-dec. 1995, p. 123-126.

الحق فى الاختلاف، وستتوفر التقديسات الخاصة باعتبارها مسارات لتأكيد الهوية؛ وحين تزول الأيديولوجيات التاريخية الكبرى فقد تجد النسوية المباينة بعض الصدى الاجتماعى، وذلك لأنها تلبى التطلعات المعاصرة، فى الاستقلالية والهوية. ما الذى يؤكد عليه التيار النسوى المغالى سوى استقلالية الإناث فى علاقتهن بالذكور؟ ما الذى يهدف إليه سوى الاعتراف بالرغبة ورهافة الحس واللغة الأنثوية المتحررة من السيطرة الذكورية؟ ورغمًا عن حملات النسوية ضد كونية حقوق الإنسان وضد انغلاق النمط التقليدى للنساء فى أصل من الطبيعة التى تنقلها، فقد تغذت النسوية المباينة خفيةً بالمثل العليا الشخصية الحديثة. ما الذى يجعل النسوية "الثقافية" تعتبر بالضرورة فشلا للمساواة- ذلك أنها تحبس الجنسين فى عالمين كتيمين- وتعتبر أيضًا "منتجًا" كمسيرة التساوى فى الظروف، لا سيما عندما يطلق هذا التساوى ديناميكية المطالبات الهوياتية. بلا شك نرى أن التقديس المباين هو فى جلّه ذو جوانب سطحية، إذا ما قورن بكل ما يقارب، فعليًا، بين الجنسين اليوم؛ والأكثر من ذلك أن الظاهرة فى أشكالها الراديكالية لا تخص إلا مجموعات قليلة، ولكن لنحذر من الاعتقاد أن السمة "غير المتكافئة" والجوهرانية تجبرها على تلاشى حتمى. إن انحسار الأيديولوجيات التحريرية الكبرى والتشريع الاجتماعى للمثلية الجنسية، والمطالبات بالهوية والاحترام والأمان الفردى تمثل مشاعر وتوجهات لعصر ينبغى له أن يكمِّل، بكثافات متفاوتة، هذا النمط من إعادة تسجيل الغيرية بين الجنسين فى قلب مجتمعات المساواة.

النسوية الحديثة والفردانية الإجرائية

أحيانًا ما نؤول الموجة العارمة لشعور المرأة بأنها ضحية وكأنه علامة انحسار للقيم الاحتياجية الحديثة، ومن خلال التماهى مع حالة المضطهدة يتشكل تراجع لمثل الفردانية والديمقراطية العليا، ولجوء للاستقلالية الفردية والمسئولية إزاء وجودها

الخاص[١]. وبعد المثال البطولي والبّاء للمحدثين ستأتي "إرادة العجز"، ونفوذ المرأة ضحية القدر، وفي سنوات الستينيات والسبعينيات كانت النسوية تسعى لتحرير الحياة الجنسية من المعايير الأخلاقية وتعمل على تأخير الهيمنة الاجتماعية على الحياة الخاصة؛ على العكس، في أيامنا هذه، تطالب النسوية دائمًا بسيطرة عامة متزايدة على الحياة الخاصة: كإصدار قوانين تتعلق بالتحرش الجنسي ووضع معايير للسلوك القويم واللغة القويمة، ومطالب بمنع الإباحية، وكلها توجهات تدخلية غالبًا ما تكون محل تنديد باعتبارها إرهابًا فكريًا وأخلاقيًا جديدًا يهدد النظام الليبرالي لمجتمعاتنا. ومع تأكيد النسوية الجديدة على أن "كل شيء هو سياسي" فإن جزءًا منها سيتعلق بالمشروع الشمولي، وسيؤدي ميله الثقيل إلى دمج الشأن الخاص بالدولة، وإلغاء الحق الفردي في الحياة الخاصة، والتأطير الكلي للأفراد بواسطة المعايير العامة[٢]. والأكثر عدائية ذهبوا إلى الحديث عن "النسوية النازية"(Rush Limbaugh)

ما من شك في أن هذا العصر شهد تزايدًا في المطالبات بالتنظيم العام للسلوكيات الخاصة؛ وصحيح أيضًا أنه من خلال بارانويا شعور المرأة بأنها ضحية غالبًا ما تقدم النساء عن أنفسهن صورة لمخلوقات عاجزات عن الدفاع عن أنفسهن، ومتطلعات للحماية أكثر من أن يمتلكن مصيرهن. ولكن هل يدفعنا ذلك إلى الحديث عن تراجع المثال الأعلى للاستقلالية الفردية؟ وهل نستطيع بكل بساطة أن نخلط بين هواجس الاغتصاب المعاصرة والتحرش الجنسي وبين "التطلع إلى حالة الضحية"، وانحسار فكرة الاستقلالية؟ بودّنا أن نعرض هنا تأويلا آخر. ما الذي تعبر عنه النسوية القائلة بأن المرأة ضحية سوى أن ذلك احتياج متزايد للحقوق الفردية المزودة بإرادة ناشطة لتعديل الاستخدامات والقوانين، وإصلاح تربية الرجال وإعادتها، وحتى تغيير

---

(١) عن هذه المشكلة، انظر المقال المثير لـ Tzvetan Todorov, "Du culte de la difference a la sacralisation de la victime", *Esprit*, juin 1995 ;, *L'Homme depayse*, Paris, Seuil, 1996, p.213-230.

(٢) Wendy Kaminer, "The Privacy Problem", in *Debating Sexual Corrctness*, op. cit. p. 138-143; Camille Pagila, *Vamps& Tramps*, New York, Vintage, 1994, p.23.

الحركات والاندفاعات الذكورية؟ إن ثقافة الشكوى لا يمكن اختزالها فى تثمين العجز والسلبية إذا كان صحيحًا أنها تترادف مع رفض للأخلاقيات العنترية، وكذلك مع المشروع الإرادوى لترقية العلاقات الجديدة بين الرجال والنساء. وصحيح أننا نستطيع أن نعتبر عددًا من الاحتجاجات المتعلقة بالتحرش الجنسى والاغتصاب بين المقربين بشعة؛ وقد نرثى لهذا المناخ الذى تطارد فيه الساحرات، ومناخ التخويف، لا بل الإرهاب الذى يحكم التصحيح السياسى. بقى أن النساء عندما اعتبرن أفرادًا مهانين، فإنهن لم يتنكبن للمثل الاستقلالية العليا، بل أبقين عليها وركزن على ضرورة كبرى للاحترام والأمان، ونددن بالعنف الذكورى وتمرن على المعايير الموروثة من التكيف الاجتماعى، ونادين بأنماط سلوكية جديدة بين الجنسين. إن علم الضحية النسوى ينبع دائمًا من الطموح الديمقراطى لتنظيم عالم قائم على المثال الأعلى لامتلاك الذات والإنتاج الذاتى للمجتمع من خلال الفعل المستقل للأفراد، ولم يتوقف عن المشاركة فى المشروع الفردانى الحديث لكسب حقوق جديدة وتحقيق سيادة المجموعة الاجتماعية على نفسها.

هناك كثير من التهور فى التلويح بشبح الشمولية، فى هذ الصدد، حتى وإن كان "طفيفًا"، فعلى الرغم من تعدد المطالبات بالتحكم العام فى الحياة الخاصة، لا نرى، بنيويًا، المطلب المتعلق بالمشروع الشمولى، فلا التماهى الاجتماعى والسلطوى يعمل، ولا إلغاء المعارضات والمطالبات المتباينة الناجمة عن الشأن الاجتماعى. وعلى العكس من ذلك، استمر الترتيب الديمقراطى للمجتمع المدنى فى علاقته بالسلطة السياسية، وأعيد النظر فى وضع المعايير القائمة، واكتسبت حقوق جديدة، واعترف بتطلعات الأقليات[1]. ما من أى بعث شمولى ولكن هناك انطلاقة ديمقراطيات قانونية تتماشى مع تفجر المطلب الاجتماعى بالحقوق واللجوء المتباطئ إلى الإجراءات القضائية. فما يتزايد ليس نفوذ الدولة وإنما سوق القضايا والوظائف

---

(1) استعدنا هنا سطور التحليل الكلاسيكى لـ Claude Lefort (L'Invention democratique, Paris, Fayard, 1981).

القضائية، وحماية حقوق الأفراد، والفعل المستقل للنساء المطالبات بالعدالة. إن اتساع مفهوم الضحية دفع النساء فى كل مكان إلى تشكيل جانب مدنى والشروع فى الإجراءات والمطالبة بالتعويضات المدنية. وإذا كان صحيحًا أن عددًا من مظاهر ثقافة المرأة الضحية قد نقلت صورة طفولية وعاجزة للمرأة، فذلك يجب ألا يخفى الوجه الآخر للظاهرة، أى تطور فعالية إجرائية، وفردانية قضائية، ويكون على النقيض تمامًا من السلوكيات التقليدية للإذعان، فلنتجنب الحديث عن تقهقر المثال الأعلى المتعلق بامتلاك مصيرها: ففى الحقيقة، لم يفعل هذا المصير شيئًا إلا التجسد بطريقة جديدة فى الاحتجاجات الأهلية والمطالبة بالحقوق. واستبدلت بالمزايدات الأيديولوجية السياسية مزايدات مفاهيم الاستقلالية بواسطة القانون: لا تراجع للاستقلالية، ولكن هناك مطالبات زائدة بحقوق المرأة.

من المستحيل رد روح هذا العصر إلى نوع من الدفاع عن الألم والعجز، فماذا تريد النساء الجريحات سوى تغطية أنفتهن واحترامهن وتقديرهن لذواتهن؟ والبورترية الذاتية للنفس فى صورة الضحية لا يتضمن إرادة عجز بقدر ما يتضمن إرادة إعادة تأكيد للذات وإعادة تجديدها. إعادة تشكيل وعى إيجابى للنفس، ومقاومة الحط من شأن الذات، وإعادة اكتساب الثقة والحب وتقدير الذات وإعادة تأسيس معنى إيجابى لهويتهن: فمهما كانت قوة مرجعيات النوع، فإن وضعية الضحية لا تزال تندرج فى مدار التطلعات الفردانية، ومساعدة النفس وتكنولوجيا إنتاج الذات وإعادة امتلاكها. فمن ناحية قد تبدو بلاغة الشكوى وكأنها تحط من قيم المسئولية الفردية؛ ومن ناحية أخرى فإنها تقدم السلوك الجماعى الفردانى برفضها للممنوح، ومطلب الكرامة والتثمين الفردى. وقد نشأ الرجل العصامى من لا شىء؛ وها هو "يتشكل من جديد" انطلاقًا من جراحه[1]. ولم يتلاش المثال الأعلى لامتلاك النفس وبنائها ذاتيًا، بل اشتمل –

---

(1) Michel Feher, "Identites en evolution: individu, famille, communaute aux Etats-Unis », *Esprit*, juin 1995, p.130.

عن طريق علم النفس والقضاء- بتقدير الذات، ومع تفاقم الحقد والاتهامات الموجهة للرجال، تتابعت سيرورة بناء الأنا النسائية.

التحرش الجنسى والديمقراطية

إزالة أحد المحرمات

ظهرت جريمة جديدة فى المجتمعات الديمقراطية المتقدمة، وهى التحرش الجنسى. تم الاعتراف بالتحرش الجنسى وفرض عقوبة على مرتكبه للمرة الأولى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٧٧. ومع التصديق على التعريف الأمريكى، تضمنت الفقرة الأولى من توصيات مجلس الاتحاد الأوروبى فى نوفمبر ١٩٩١ الرفض الكامل للتحرش الجنسى وتعريفه بالابتزاز وبـ"مناخللترهيب، والعدائية، والإذلال". ومنذ عام ١٩٩٢ أصبح لدى بلجيكا نصوص خاصة بالاعتداءات القائمة على أساس التفرقة الجنسية فى العمل، كما شهد العام نفسه إضافة مصطلح التحرش الجنسى إلى قانون العقوبات الفرنسى.

وإذا كانت الإرادة فى ردع التحرش الجنسى باتت منذئذ إرادة مشتركة فى دول عدة، إلا أنها ذات تعاريف وأوضاع تشريعية مختلفة إلى حد ما؛ ففى فرنسا لم يعرف التحرش الجنسى قانونيًا إلا كاستغلال للسلطة بهدف كسب بعض الهبات الجنسية، فقط الأوامر والتهديدات والإرغام وممارسة الضغوط من قبل ذوى المناصب العليا فى الهيكل الوظيفى تقع تحت طائلة القانون. وإذا تناولنا التحرش الجنسى بين الزملاء المتساوين فى الدرجة، فإننا لا نجد وضعًا تشريعيًا له فى القانون الفرنسى. إن الاختلاف مع التشريع الأمريكى لكبير، وإن مفهوم التحرش الجنسى، لاسيما وراء الأطلنطى، لا يمثل فقط السلوكيات التى تهدد بشكل مباشر أو غير مباشر وظيفة شخص ما عن طريق الملاحقات الجنسية، ولكنه مفهوم أكثر اتساعًا بحيث يشمل كل

سلوك له من الهدف أو من التأثير ما يمكن أن "يعكر بشكل أساسى الأداء فى العمل أو أن يخلق بيئة مخيفة أو معينة أو عدائية[١]". وفى أمريكا يجرم التحرش الجنسى بوصفه تفرقة قائمة على أساس الجنس؛ وفى فرنسا يمثل انتهاكًا للكرامة الإنسانية وللحرية الجنسية، وهنا يستخدم القانون لحماية الحرية الجنسية؛ أما هناك فيستخدم لضمان المساواة بين الجنسين فى ميدان العمل[٢].

ومع تعددية الإجراءات التشريعية، هناك تجسيد للإرادة ذاتها فى عدم التسامح من بعد مع سلوكيات كانت حتئذ "مقبولة"، وردعها من حيث المبدأ إلى جانب ردعها عقابيًا[٣]. بات التغير قاطعًا بالمقارنة بعصور سابقة. صحيح أن المنظمات العمالية والنقابية قد أعلنت، منذ نهاية القرن الماضى، تكرارًا، إنهاء "حق التفخيذ"[٤]. إلا أن هذا المطلب لم يصبح أبدًا هدفًا أساسيًا من أهداف النضال النقابى والعمالى، وانتشرت الفكرة القائلة بأن الاعتداء الجنسى الذكورى لهو أمر طبيعى ولا يمكن ضبطه وبأنه يتعين على النساء ألا يثرن الرجال."إذا قالت المرأة: لا، فلن يحدث لها شىء"؛ فالمسئولية كلها تقع على عاتق سلوكيات المرأة." وهذا الأمر يحدث فقط لمن ترغب فى ذلك": إن بيئة ثقافية كتلك لا يمكن أن تنتج إلا تأثيمًا للمرأة وتفرض عليها سلوكيات كالصمت وعدم التنديد[٥].

---

(١) Nadine Zaretzky-Lambert, "Le harcelement sexuel aux Etats-Unis », *Gazelle du Palais*, 21 nov. 1992.

(٢) Francoise Dekeuwer-Defossez, "Le harcelement sexuel en droit francais : discrimination ou atteinte a la liberte ? », *La Semaine juridique*, Edition generale n.13.

(٣) Joelle Pralus-Dupuy, "Le harcelement sexuel : commentaire de l'article 222-33 du nouveau code penal et de la loi n. 92-1179 du2 novembre 1992 », *Actualite legislative Dalloz*, 1993, 6e cahier

(٤) Alain Corbin, *Les filles de noce*, Paris, Flammarion, coll. Champs, 1982, p. 204

(٥) عن إخفاء أدوار المعتدى، انظر Sylvie Cromer, *Le Harcelement sexuel en France*, Paris, La Documentation Francaise, 1995, p.52.

إن مجمل هذه التصورات والسلوكيات قد تعرضت لتحول عميق، لقد تحول التحرش الجنسى من مرحلة المسكوت عنه إلى مرحلة الشىء المرئى وصار موضع إشكالية اجتماعية. وفى وقتنا الحاضر تناقص شعور النساء بالذنب فنجدهن يدلين بشهادتهن ويرفعن دعاوى قضائية؛ كما تقام حلقات نقاشية وندوات، وتلتقط الصحافة والتليفزيون "الفضيحة"؛ كما تتزايد الكتب والمقالات الصحفية التى تتناول هذا الموضوع. إن حاجز الصمت قد كسر: فبعد عملية تأثيم المرأة، جاءت مرحلة التنديد بالرجل، ففى الوقت الراهن، تحدد هوية المعتدى، فالتحرش الجنسى أصبح نوعًا من العنف، واستغلالا للسلطة فى علاقات العمل، واعتداء على حرية المرأة وكرامتها.أما التهديدات والضغوط التى يمارسها الذكورعلى النساء فى ميدان العمل، والتى تمثل "جزءًا من العادات المألوفة" فبات ينظر إليها على أنها جريمة تستوجب العقوبة.

ما من شك فى أن انقلاب الأمر فى الاتجاه المعاكس يرتكز على الدفعة التاريخية الكبرى لحق الإنسان فى امتلاك مصيره وفى التصرف بحرية فى حياته الخاصة. إلى جانب عوامل أخرى كثقافة الاستهلاك والرفاهية حولت المرأة إلى كائن اجتماعى على المستوى النفسى وعلى مستوى علاقاتها بالآخرين، إلى جانب تحرر المرأة جنسيًا والتطور الذى طرأ على مؤهلاتها الدراسية والمهنية، هذه العوامل جميعها قد أوجدت حقًا جديدًا فى الحياة الخاصة، واحتياجًا متزايدًا لاحترام الاستقلال الذاتى للمرأة، إلى جانب تنامى روح عدم التسامح فى مواجهة مختلف أشكال تعدى الآخر على الذات. وتزامنًا مع كل ذلك، فإن تحقيق تقدم على مستوى الوعى بالمساواة قد أفرز رفضًا أو تراجعًا سواء للأدوار الثانوية التى يمكن أن تلعبها المرأة أو لفكرة علو شأن الرجل على شأنها. وفى السياق ذاته الذى يتسم بعدم تثمين البراهين الذكورية وتآكل المفاهيم الاجتماعية التقليدية التى تقصر النساء على أدوار الخضوع والسلبية، فإن الملاحقات الذكورية غير المرغوب فيها لم تعد تحصيل حاصل. وما كان ينظر إليه كتعبير طبيعى عن الرجولة يفرض نفسه باعتباره صورة للهيمنة الذكورية واستغلالا للسلطة لا يتوافقان مع المثل العليا للمساواة والكرامة والحرية الفردية. إن

الرفض الجمعى الجديد للتحرش الجنسى يتماشى مع سيرورة الشرعنة الاجتماعية للاستقلالية النسائية ومع سحب الشرعية من الثقافة التراتبية للجنسين.

نحن نعرف أن قوانين التحرش الجنسى فى فرنسا لم تُكتسب على أثر معارك نضالية كبرى؛ فقد تم إقرارها دون خلافات حقيقية، ودون جدل جماهيرى وبموافقة ساحقة من قبل الرجال. وبشكل لا ينفصل عن مرجعيات المساواة فإن هذا الإجماع يترجم المكانة والدلالة الاجتماعية الجديدتين لعمل المرأة فى المجتمعات الديمقراطية، والاعتراف الحديث بحق النساء فى امتلاك هوية اجتماعية ناتجة عن نشاط مهنى. وطالما كانت هوية المرأة تتشكل وفقًا لما تتحمله من مهام فى قلب العائلة، كانت مظاهر الاعتداء الجنسى فى ميدان العمل لا يمكن أن تتخطى الشائعات الطريفة نوعًا ما، على اعتبار أن المكان الحقيقى لوجود المرأة هو المنزل وليس مؤسسة العمل: هذا الحط التقليدى من شأن عمل المرأة قد ساهم فى إهمال السلوكيات التى تجرح المرأة فى محيط العمل. إلا أن هذا السلوك قد تغير بقدر نجاح المرأة فى فرض عملها أكثر فأكثر كوسيلة تأكيد هوية اجتماعية مستقلة. وبمجرد أن نالت الهوية المهنية للمرأة اعترافًا اجتماعيًا كبيرًا نجد أن الاعتداءات الجنسية على صعيد العمل قد أصبحت أمرًا غير محتمل. فهو يمسّ، ليس فقط الكرامة الإنسانية للمرأة، بل أيضًا حقها فى المساواة والكرامة المهنية، ولا يعتبر التجريم الحديث للتحرش الجنسى الدليل، نوعًا ما، على صعوبة تحديد مكانة كلا الجنسين[١] بقدر ما يعبر عن الاعتراف الجديد بمكانة العمل فى تشكيل هوية المرأة.

إن ما تنتظره مجتمعاتنا من خلق هذا التجريم الجديد بات واضحًا، فالهدف هو حماية المرأة من سوء سلوك الرجال.ولكن وراء هذه المسلمة تقول فكرة إن حقيقة ثقافة التحرش الجنسى لا تكمن فى الدفاع عن النساء بقدر ما هى "حيلة تستخدمها المرأة لبعث الرغبة من جديد، سواء كانت رغبة الرجل أو رغبتها هى نفسها[٢]". فى عصر

---

(١) Alain Ehrenberg, “Le harcelement sexuel, naissance d’un delit », *Esprit*, nov. 1993.

(٢) Jean Baudrillard, “La sexualite comme maladie transmissible », *Liberation*, 4 nov. 1995.

يتميز بالانحراف الجنسى من العاطفة وقصور الذكورة وإخفاق تيارات التحرر، تأتى مسألة التحرش الجنسى لتعبر عن "حالة حنين للمحرم" ومن الممكن فهمها كإستراتيجية تهدف إلى مقاومة تتفيه الجنس، وإلى تأكيد الدفاع عن الفعل الجنسى الذى يهدده تحرره بالذات. إنه لتفسير مستفز، ولكنه غير مقنع. وعلى الرغم من البعد المأساوى الذى تتسم به هذه المحاربة الخرافية لفكرة التحرش الجنسى، فإنها لم تفرز شيئًا ولم تخلق رهانات ولا معانى تكون لصالح الجنس، بل ساهمت فقط فى الإقناع، وضخمت بعض الشىء من الديناميكية المعاصرة لفرض نوع من المسافة على الرجل وتحويل الرغبة الذكورية نحو أشياء أخرى غير اصطياد النساء. ويصاحب التحرش الجنسى انحسارًا فى الثقافة الدونجوانية، وتشكيل هوية ذكورية مرتكزة على الذات أكثر من هوسها بإحراز الغنائم الأنثوية. أما السخرية المريرة للمزايدات ممن ينددن بالتحرش الجنسى فتقول: كان المطلوب هو تحرير المرأة من زحف الرجال العاصف، وما حدث هو أن الرجال هم من استطاعوا أكثر تحرير حياتهم من الاحتياج إلى النساء ومن التركيز عليها .

ولهذا، يصعب مشاركة وجهات النظر "المتفائلة" التى ترى فى التصور المتطرف للتحرش الجنسى حركة قادرة على إثارة "المواهب الفنية"، وعلى إطلاق ديناميكية تحمل "آمالا عظيمة من أجل تجديد الحب فى الغرب[1]". أى فن جديد للحب؟ ربما سوف تكون المبادرات النسائية أكثر تواترًا وحذقًا، ولكن فى جميع الأحوال فإن هذا التوجه هو قائم بالفعل وله حدوده. ولكن الظروف الاجتماعية والثقافية لم تتحد لتسمح بإعادة تشكيل فن عشقى ذى أنماط معقدة. فقد نشأ الحب الكرتوازى فى القرون الوسطى بالتأكيد انطلاقًا من "الصعوبات الخصبة": إن النموذج الكرتوازى بكبحه جماح العدوانية والتهور الذكورى، قد خلق تصورًا جديدًا للحب نابعًا

---

(1) Michel Feher, “Erotisme et feminism aux Etats-Unis : les exercices de la liberte », *Esprit*, nov. 1993, p. 128.

من التسامى عن الاندفاع الجنسى ومن الرقة والغنائية، لكن "الصعوبات" التى أبرزتها النسوية المفرطة، فلا يمكن مقارنتها بتلك التى صاحبت هذا" الحب العذب".

فى العصور الوسطى تطورت البلاغة الكرتوازية على خلفية مجتمع تشكل وفقًا لأنظمة تراتبية وعلى الانفصال الجذرى للأوضاع الاجتماعية للجنسين. فالرقة العاطفية قد أتاحت الفرصة للأسياد كى يبرزوا الفرق بينهم وبين عامة الفلاحين، واستخدم كعلامة تميز اجتماعى مع إضفاء أسلوب مميز على تقسيم الأدوار بين الجنسين. من الذى لا يرى كل ما يفصلنا عن ذلك العصر المفتقر إلى المساواة؟ فضرورة الارتقاء بالكلمات والحركات إلى ما هو أعلى من الشائع، والخضوع للسيدة، والتعبير المفرط عن العواطف، والعهود الخالدة، جميعها أمور قد حلت محلها ثقافة تمجد التكافؤ واستقلالية الأفراد والانتعاش الجنسى وعفوية السلوكيات وصدقها. إن الثقافة الحديثة تميل إلى تبسيط الإشارات ونزع الصفة المسرحية عنها؛ وساد رفض للمسافات فى كل مكان فى الحياة الخاصة، كما تقهقرت الحذلقة الإغوائية أمام المطالبة بالعفوية و"حقيقة" الرغبة. فى ظل هذه الظروف، كيف نتصور إحياء فن أيروتيكى جديد؟ إن مقاومة الاغتصاب والتحرش الجنسى لن تغير هذه الموجة العميقة للعصر الديمقراطى. "إعطاء طابع للحب"، هذا هو ما وصف به "ويزينجا" إنجاز الحب الكرتوازى. إن الزمن قد تغير حتميًا، فنحن لا نزل نتماهى فى مثال الحب الأسمى، ولكن دون الأعراف وأشكال اللعب الجمالية.

من المرأة المتحرش بها إلى المرأة الساخرة

لا يجهل أحد المبالغات الكاريكاتورية التى صاحبت رهاب التحرش الجنسى فى أمريكا. فتعريفه الحالى وصل إلى حد تضمين صفارات المعاكسة والنظرات الملحة والتلميحات والمزحات الجنسية إلى جانب الصور الجنسوية أوالصادمة والتعليقات الفاسقة. هذا الاتساع الذى لحق بالمفهوم هو الذى يفسر لنا بلا شك أن حوالى ٨٨% من

الطالبات فى "برينستون" هن "متحرش بهن"، كما يفسر تصريح "كاثرين ماك كينون" أن ٨% فقط من النساء الأمريكيات لم يتعرضن قط للتحرش الجنسى[١].

تعالت الأصوات الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإجراءات ومفاهيم التحرش الجنسى الأعظمية، والتى تعيد إلى الأذهان نمط الرجل العدوانى والشهوانى ونمط المرأة المحتشمة والهشة، والتى تضفى صفة المؤسسية على صورة المرأة الضحية الطبيعية للرجل، والتى تعيد خلق الرسميات إلى العلاقة بين الأساتذة وتلميذاتهم، كما تجرى "تعقيما" على بيئة ما بين الجنسين[٢].

علاوة على ذلك فإن اتساع تعريف التحرش الجنسى يحمى المرأة من الناحية النظرية أكثر مما يحميها من ناحية التطبيق. ففى الجامعات الأمريكية نجد أن مرتكبى التحرش الجنسى نادرًا ما يعاقبون، وتبقى العقوبات رمزية أكثر منها واقعية[٣]. أما إذا نظرنا إلى الموظفين الفيدراليين، فإن ثلث النساء اللاتى أقمن دعاوى قضائية وجدن أن الأمور قد ساءت أكثر بعد ذلك[٤]. وفى "إلينوى" نجد أن ٦٥% من النساء اللاتى تقدمن بالشكاوى قد فصلن من عملهن؛ وأقل من مرة من أصل ثلاث، حصلت اللواتى كسبن الدعوى القضائية على تعويض مادى متواضع (متوسط ٣٠٠٠ دولار)[٥]. ومن الوقت الذى أصبح فيه التحرش الجنسى يتضمن وجود المرأة فى محيط عدائى، تستطيع النساء فعلاً تقديم الشكاوى، ولكن النتائج النهائية تكون دائمًا

(١) عن Katie Roiph, *The Morning After*, Londres, Hamish Hamilton, 1993, p. 99-100

(٢) *Ibid*

(٣) C. Robertson, C. E. Dyer et D. Campbell, « Campus Harassement : Sexual Harassement Policies and procedures at Institutions of Higher Learning", *Signs*: *Journal of women in Culture and Society*, n.13, 1988, p. 792-812.

(٤) J. A. Livingston, "Responses to sexual Harassment on the Job: Legal, Organizational and Individual Actions", *Journal of Social Issues 38*, n.4, 1982, p. 5-22.

٥Stephanie Riger, "Gender Dilemmas in Sexual Harassment. Policies and Procedures", in Edmund Wall, Sexual Harassemnt: Confrontationsand Decisions, New York, Prometheus Books, 1992, p. 208.

بعيدة جدًا عن مستوى توقعاتهن: وغالبًا فإن ذلك لا يؤدى إلى ارتفاع المرتبات للنساء، ولا يعوضهن عن الضغوط ولا عن الآثار السلبية المرتبطة بالإجراءات القضائية. بل يسير الأمر وكأن الإجراءات القضائية "المفرطة فى حماية المرأة "تصاحبها آثار خبيثة. ووراء حالة الابتزاز الجنسى، يتشوش مفهوم جريمة التحرش الجنسى، فالحكم على المعتدين لم يعد يفرض نفسه بوضوح. وهو ما دفع بعض المراقبين الأمريكيين إلى إلغاء مقولة "البيئة العدائية" عندما يعرفون التحرش الجنسى[1].

إن الحملات الموجهة ضد التحرش الجنسى لا تكتفى فقط بتعزيز الأنماط التقليدية للجنسين، بل على العكس تساعد على إفقاد النساء لأسلحتهن فى علاقتهن اليومية مع الرجال. فمن ناحية، نرى أن النسوية المتبنية لفكرة المرأة الضحية قد شجعت المرأة على كسر حاجز الصمت، ورفع الدعاوى أمام المحاكم، ورفض كون العنف الذكورى قدَّر للمرأة. ومن ناحية أخرى، فإن الثقافة التى تتطلب دائمًا تدخلات عامة متعددة كما تتطلب وضع قواعد، وإجراءات رادعة ووقائية، تتطور على حساب تمام العادات الاجتماعية بين الجنسين، لأنها حتمًا مشوبة بتوترات وهجوم ودفاع بين الجنسين. إن المطلب الدائم للمزيد من الحماية المشروعة والمؤسسية، واعتبار أقل تلميح جنسى إهانة. هما أمران يتحولان ضدها على المدى الطويل، كثيرًا ذلك أن هذا السلوك أدى إلى تجريد المرأة من شتى أسلحتها الدفاعية، ومن قدرتها على الرد المباشر فى مواجهتها الرجال. فالمرأة تمتلك الآن إمكانات متعددة لإقامة دعاوى قضائية، ولكن أليس هذا على حساب قدرتها على تخطى أو على علاج المواقف الإشكالية اليومية التى تواجهها مع الرجل بنفسها؟

لا نفكر إطلاقًا فى إلغاء دور لا يمكن الاستغناء عنه كدور القانون فى حماية حقوق النساء، ولكن الإطار المؤسسى والقضائى، مهما كان عادلا، لن يكفى أبدًا لاجتثاث المواقف الشائكة ولمنع الرجال من منغصاتهم ومهاجمتهم وفظاظتهم تجاه

---

(1) In Edmund Wall, *Ibid.*, "Talking Dirty", p. 227-228.

النساء. فى الواقع، إن ثقافة المرأة الضحية متضمنة فى الفكرة القائلة بأن القوانين والدعاوى القضائية وبرامج التربية هى القادرة على إنهاء ملاحقات الرجال التى لا تطاق. إنه لموقف خاطئ ومقلق على المدى البعيد فى مستقبل التعايش الاجتماعى بين الرجل والمرأة. فمن مصلحة النساء أن يقتنعن بأن الأسلحة التى يمتلكنها لإبعاد التعديات غير المقبولة وأشكال المثابرة الذكورية هى أسلحة لا تقتصر على المحاكم وأشكال حماية الضحية. فيجب التركيز على تربية الحماية الذاتية للمرأة، وإذا كان على الرجال احترام مشاعر المرأة وإرادتها، فعلى النساء أيضًا تعزيز قدرتهن على وضع الرجل فى مكانه الصحيح وعدم التخلى عن مواجهته بشكل مباشر. غير أن النسوية الإجرائية لا تكفى؛ فالقدرة على الرد وسرعة الخاطر والسخرية تمثل أهدافًا يجب توخيها كى تستطيع أن تؤكد على شخصيتها، على الأقل فى بعض مواقفها الخلافية مع الرجل. السخرية من الذكورة، والتمكن من خلق مسافة مناسبة مع الرجال، كل ذلك لا يعنى رد الاعتبار لردود الأفعال الفردية على مشكلات المرأة، بل يعنى التطلع إلى إعادة توجيه الثقافة النسوية نحو توظيف أكبر لسلطة السخرية.

وقد تحرز الأنظمة والقوانين والتعبئات العامة تقدمًا، ولكن هذا لا ينفى وجود مخاطر محددة تتعرض لها النساء لا محالة. هناك خطر فى الدعم المطلق للعقيدة النسائية القائلة بأن:"كل شىء يتعلق بالسياسة". مهما كانت طبيعة القوانين والعقوبات مستقبلا، فالحذر والبصيرة والمسئولية الفردية سوف تظل سلوكيات لا يمكن الاستغناء عنها[1]. ومع إقرارنا بضرورة تسييس المطالبات النسوية، فقد يكون من المفيد ترسيم حدودها. إن التحرر النسوى لا يمكن أن يقتصر على النضال وإدخال النزاعات فى حيز القضاء وأبلسة الذكور، فبعد التسييس الكلى لابد من تعزيز العلاقات الاجتماعية للنساء؛ وبعد الحديث عن نموذج المرأة الضحية، هل من الخيال أن نتوقع وجود المرأة الحازمة والساخرة؟

---

(1) Camille Paglia, "Rape and the Modern Sex War" in Adele M. Stan, *Debating Sexual Correctness*, op. cit., p. 21-25

إن السخرية، كما كتب برودون Proudhon، هى: "خاصية العبقرية الفلسفية والليبرالية، وهى صك الفكر الإنسانى، وهى الوسيلة المضحكة للتقدم". إن ما ينقص هذا الجيل، كما أضاف هو:" لا ميرابو ولا روبسبيير ولا بونابرت: بل فولتير جديد"[١]. ونستطيع بكل سهولة تطبيق هذا المبدأ على التيار النسوى المتطرف والذى، على هذا الصعيد، لم يفعل سوى مط تقليد يتكرر فى كل جيل يميزه "الاحتكار الذكورى للدعابة" و"الازدواجية المبشرة بالأخلاق" التى تنتهجها النساء[٢]. إن الغزوات الاقتصادية والاجتماعية والقضائية للمرأة تمثل خطوات واسعة نحو الحرية، ولكنها تظل فكرة مجردة دون السبب المستقل والساخر، ودون الضحك والتهكم. هل هو تيار نسوية السلطة؟[٣] أجل. شريطة ألا يلغى فرص الضحك النسوى، والقدرة على الحفاظ على مسافة ما فى مواجهة التلميحات والاقتحامات الذكورية. فما من حرية حقيقية دون القدرة على فرضها، ودون القدرة على الدفاع على الهزء لا، بل الضحك من السلوكيات الذكورية. إن السياسة ليست إلا إحدى الطرق التى تؤدى إلى السيادة النسائية: وهى تنتشر بشكل أفضل لاسيما عندما تتمكن من الهزء من "التفوق" الذكورى.

وهو السلوك الذى يؤكد أهمية تخطى تقريع الإباحية وتجنبها. وعلاوة على ظهورها فى صورة الطرف المهان والمتحرش به فقد تثبت المرأة هنا أيضًا أنها قادرة على ممارسة السخرية. هل الأمر بالخطورة التى تمنع ممارسته؟ كلا، أبدًا. فى الحقيقة، إن غالبية الانتقادات التى يوجهها أنصار النسوية للإباحية لا يمكن قبولها. هل يفتح ذلك المجال أمام العنف الجنسى؟ قد نعتقد أن النساء يرين فى الشقاء الجنسى الذكورى متنفسًا. هل يحط ذلك من صورة النساء؟ ولكن كيف يقلل من قيمة

---

(١) Proudhon, *Confessions d'un révolutionnaire* (1849), texte choisis par B. Voyenne, Club Français du Livre, p. 169.

(٢) Evelyne Sullerot, *Demain les femmes*, Paris, Laffont, 1965, p. 232-233.

(٣) حول إشكالية نسوية السلطة، انظر Naomi Wolf, *Fire with Fire*, Londres, Vintage, 1994, p. 147-155.

النساء أكثر من الرجال؟ وهل تعيق الإباحية ترقيهن لأنها تنقل صورة نمطية للنساء الخاضعات؟ ومع ذلك، عندما تكون الإباحية أكثر حرية، نجد النساء يشغلن مكانة اجتماعية ووظيفية أقل ثانوية مما هى عليه فى بلدان أخرى. إن الإباحية بطبيعتها لم تسهم إطلاقًا فى تحرير المرأة، ولكنها فى الوقت ذاته لم تمنع تقدمها. وبعيدًا عن كونها هجومًا إجراميًا وساديًا[1] على النساء، فإنها تعمل كأنها مجال استعراض لا طائل منه؛ فهى لا تدعم تراتبية الجنسين، بل تعرض التوهيم الذكورى الذى لا نستطيع أن نرجعه إلى العلاقات بالسيطرة "السياسية" بقدر ما نرجعه إلى بهلوانية نظرية. حتى هؤلاء الذين يتمتعون بالمشاهد الساخنة قد يحترمون بشدة كرامة المرأة وحريتها، ويساندون دخول المرأة إلى مختلف فضاءات الحياة الاجتماعية والسياسية. إن الإباحية ليست مديحًا للتفوق الذكورى، بل هى عرض للعبة المبالغ فيها التى تمثل الاستيهامات الشبقية الذكورية؛ ومنطقها لا ينبع من الوسواس الذكورى، ولكن من الوسواس الحديث للواقع ومن الرغبة فى اجتياز كل الحدود وفى رؤية كل شىء، وإظهار كل شىء، واستخدام كل شىء. وفى مواجهة المزايدة المتعلقة بالممارسة العنيفة التى تحول الممارسة الجنسية إلى آلة، فإن الإجابة المناسبة لنسوية ناضجة يجب أن تكون هى تحديدًا الضحك أو الاستهزاء ويستطيع عدد من الرجال أن يتقاسمها معهن.

---

(1) Andrea Dworkin, Pornography: Men Possessing Women, Londres, Plume Book, 1979.

الجنس وأمريكا ونحن(*)

من الجنس الطهرانى إلى الجنس السياسى

اعتدنا الربط بين الاستثناء الأمريكى فى علاقته بالحياة الجنسية وبين ماضيه الطهرانى، واعتادت الصحافة على جانبى الأطلنطى تقديم الثقافة الأمريكية باعتبارها ميراثًا من الآباء الحجاج ومن عفة الزهد البروتستانتى؛ وقد حاولت أبحاث عدة إبراز الصلات القائمة بين دين سلبى إزاء كل ما هو حسى وشعورى وبين "الحرب بين الجنسين" التى ازدهرت فى أمريكا. رفض كل وساطة بين الرب والإنسان وتقليد الاعتراف الجمهورى والحط من شأن المتع الدنيوية وكل أشكال الخرافات وتقسيم الناس بين مختارين ولامختارين: جميع ذلك يشكل معالم مميزة للعقلنة البروتستانتية، ويمكن أن يفسر أبلسة الغواية والازدواجية النسوية وتدنى الجنس ومطلب شفافية الحياة الخاصة للشخصيات العامة وارتباط الجنس بالعنف، وهو ما يمثل نمط الولايات المتحدة[١].

ما من شك فى وجود تأثير عميق وطويل المدى للتقاليد الدينية على ثقافة الجنس. وبناءً على ذلك، لا نستطيع التوقف عند هذا الحد: فتفسير الخصوصية الأمريكية من خلال نتاج عمل مجهد وطويل للعقلانية الطهرانية ليس كافيًا، حتى وإن كان صحيحًا. أولا، هل نحن بحاجة إلى أن نتذكر أن الزهد البروتستانتى لم يتطور فقط على الأرض الأمريكية. ففى أوروبا التى ولد فيها، نجد تأثيره على الجنس لا يوازى إطلاقًا ما نلاحظه فيما وراء الأطلنطى. ثانيًا، إن الفرضية الطهرانية لا تجعلنا

(*) المقصود هنا فرنسا (بلد المؤلف).

(١) من البديهى أن التحليل المفصل للعلاقة بين النزعة الطهرانية والثقافة الأمريكية للجنس لا يمكن تغطيته بالكامل من خلال هذا العمل، وكى تقترب من عناصرها، يجب الرجوع على سبيل المثال إلى Robert Dole, *Le Cauchemar americain; essai sur les vestiges du puritanisme dans la mentalite americaine actuelle,* Montereal, VLB, 1996.

نفهم أن الوضع الجديد لم يعد الشهوة الحسية كتلك التى يشنع بها، ولكنه الجنس وعلاقته بالسلطة والجنس باعتباره عبودية وقهرًا للإناث، وخلفًا للتنديد الطهرانى بالمتع الحسية جاء تحريم جميع العلاقات التى يتحكم فيها الرجال بالنساء فى الفضاء الجنسى. إن تسييسًا مماثلا للجنس لا يمكن اختزاله فى بقايا زهد بروتستانتى متوارث.

وهناك حادثتان معاصرتان تظهران بامتياز انزياح موضوع الجنس إلى موضوع السلطة. فليكن، أولا تأتى قضية "أنيتا هيل"Anita Hill ضد القاضى "توماس" Thomas. نلاحظ – والحق يقال– أن الاتهام فى هذه القضية لم يوجه إلى الاشتهاء الحسى، ولكنه وجه فقط إلى استغلال السلطة الذى مارسه ضد موظفة تابعة له: فما من أى تشهير بالشهوانية، بل تنديد بالـ "بيئة العدائية" التى نشأت من الخلاعة والملاحقة المتكررة من شخص يشغل مرتبة وظيفية عليا[١]". الأمر يتعلق بالسلطة وليس بالرغبة"، كما قالت نيويورك تايمز فى عنوانها. ثم تأتى كذلك القضية الشهيرة بقانون "أنتيوك". فى خريف ١٩٩٣، وضع طلاب كلية أنتيوك Antioch بأوهيو Ohio قاعدة صارمة تقضى بأن يسبق كل سلوك جنسى بين رجل وامرأة موافقة شفهية، وأن كل خطوة جديدة فى علاقتهما الحميمة لابد من مصاحبتها بقبول صريح من المرأة. فإذا أراد شاب تقبيل فتاة وخلع صدريتها عنها ومداعبة نهديها، فعليه فى كل مرة أن يطلب ذلك، وأن ينتظر منها ردًا بالإيجاب كى ينتقل إلى الفعل. وعلى عكس ما كان يكتب أحيانا حول هذه المسألة، فهى لا تعبر هنا عن عدائية ولا عن تذنيب المتعة الحسية، ولكنه سعى إلى علاقة جنسية "شفافة" ومنزهة عن أى بعد إخضاعى، وعن كل ضغط، وكل التباس. إن امريكا لم تعلن الحرب على العلاقات بين الجنسين، ولكنها سيستها وأخضعتها للقضاء لدرجة هزلية.

ومن هنا لا يتأكد التراث الطهرانى بقدر ما تتأكد القوة المعاصرة للحق وللعقد الوظيفى، وكما أسس المنطق التعاقدى فى الولايات المتحدة الصلة السياسية لعلاقات

---

(١) Eric Fassin, "Pouvoirs sexuels. Le juge Thomas, la Cour supreme et la societe americaine », *Esprit*, dec. 1991, p. 126-129.

العمل، بالمثل، نجده الآن أيضًا يشمل العلاقات بين الرجال والنساء، وذلك هو المقصود من الإجراءات ضد التحرش الجنسى، والتى تهدف إلى استبدال العلاقات المشوشة بين الجنسين بأخرى تعاقدية وواضحة تضع بصمتها على المنطق القانونى، إن أمريكا قد عبرت، حسب التعبير الموفق لفرانسواز جايار Francoise Gaillard "من الحق فى الممارسة الجنسية إلى الحق المتعلق بالجنس"(١). عملت الروح الجديدة للعصر على إنتاج "قواعد" وأنماط جديدة للسلوك تتطابق ومثال الشفافية والتعاقدية الديمقراطية، ولم تعمل على إدامة الماضى بقدر ما تبحث عن بناء علاقات بين الجنسين قائمة على الأسس الجديدة "للمساواة" بشكل راديكالى. إن تطبيق الأحكام القضائية فى العالم الليبرالى الحديث كسب أرضًا جديدة. وإذا كان هناك انحدار للمجتمعات الديمقراطية قد خلق عدم يقين، وخلطًا فى المكانات والأدوار لدى الجنسين، فإن هناك انحدارًا آخر يعمل، بشكل جلى، على اختزال، لا بل على إلغاء كل أشكال الغموض فى العلاقات بين الجنسين.

إن مبادئ العلاقة التعاقدية لا تقتصر بالتأكيد على أمريكا، ولكنها تكتسب أهمية هناك أكثر من أى مكان آخر، كما تحظى بقيمة رمزية ومؤسساتية محددة. وكما نعلم، فإن أمريكا قد عرفت من الأساس كرابطة تضم مجموعة من الأفراد المتساوين الذين يجمعهم عقد خضع لموافقة جميع الأطراف المعنية(٢). من هنا فإن المساواة التعاقدية واحترام أحكام القانون تمثل الفعل المؤسس للمجتمع الأمريكى. هذه الأولوية للحرية التعاقدية لا تسم فقط الفضاء السياسى، وإنما تحتل مركز الصميم فى إدارة المؤسسات الأمريكية، وهو ما أوضحه فيليب ديريبارن Philipped'Iribarne قائلا إن هذا التفوق قد اتسم بالانشغال بالتحديد الدقيق للحقوق والواجبات لكل فرد، والتطبيق الصارم للقواعد، والترتيبات التنظيمية المشددة والمفصلة، والإجراءت

---

(١) Francoise Gaillard, "La democratie et le sexe », *Les Lettres Francaises*, n.19, 1992.

(٢) Alexis de Tocqueville, *De la democratie en Amerique,* Paris, Gallimard, t. 1, vol. 1, chap.2.

المستلهَمة من التطبيقات القضائية[1]. إن هذا البحث عن الحماية التعاقدية، وهذا التعلق بقيم العدل الذى يقضى بخلق توازن فى العلاقات بين "القوى" و"الضعيف"، هو تحديدًا ما نراه حاضرًا فى سياسات الجنس. وكما أن علاقات العمل، داخل المؤسسة، يجب أن تزيل كل أشكال الغموض والالتباس، كذلك العلاقة بين الجنسين لابد وأن تمنع أيضًا كل الممارسات المخادعة وكل المناورات وكل الالتباسات. وحين حظرت قوانين التحرش الجنسى حتى الإيحاءات والمزاح الجنسى فى مؤسسات العمل وفى الجامعات، فإنها كانت تهدف، نوعًا ما، إلى جعل ما يحدث بين الرجل والمرأة واضحًا تمامًا، وإلى إزالة كل مناطق الغموض، وكل مصادر سوء الفهم، وكل الأشكال غير المتكافئة و"ألاعيب الغواية". تطبيق الأحكام القانونية ضد الغواية: أى أن المثال الأعلى الحديث للحرية التعاقدية يوظف منذئذ لتهذيب الجنس، ولا يعبر التصحيح الجنسى المعاصر عن هاجس متوارث فى الجنس بقدر ما يعبر عن تفاقم الولع الحديث بالمساواة.

إن أهمية الثقافة التعاقدية تشرح وحدها علاقة أمريكا بموضوعات الجنس، بل الأمر أكبر من ذلك، إذ إن خصوصية ثقافتها السياسية هى أس الظاهرة. خلافًا لفرنسا، فإن الأمة الأمريكية تظهر فى الحال كواحدة ومتعددة، فالوحدة السياسية لا تتعارض بل تستند على الاعتراف بتعددية المجموعات ذات المصالح وشتى الجماعات و"الأقليات". والقوة المعتادة للنسوية الأمريكية، ولا سيما أن الحقوق السياسية للمرأة استطاعت أن تفرض نفسها فى وقت مبكر جدًا عن مثيلتها فى فرنسا، تتضح، على الأقل جزئيًا، من خلال هذا الاعتراف بالحقوق الخاصة ومن خلال اعتياد منفعى يصور حقوق النساء على أنها حقوق مجموعة بعينها أكثر من كونها حقوقًا عالمية: فعلى اعتبار أنها امرأة وليس على اعتبار أنها فرد متساوٍ أو مجرد

---

(1) Philippe d'Iribarne, *La Logique de l'honneur*, Paris, Seuil, 1989, p. 133-176.

استطاع الجنس الثانى أن يحصل على حق التصويت[1]، فى أمريكا. يجب ألا نغفل هذا التقليد السياسى لنأخذ فى الاعتبار تعددية المصالح عند تأويلنا للتغيرات التى أثرت منذ ما يقارب الثلاثين عامًا فى الديمقراطية الأمريكية. ومهما كانت جديدة، فإن "ثورة الأقليات" الحالية تبرز على الرغم من كل شىء استمرارية الثقافة السياسية الأمريكية[2].

وتبقى عتبة واحدة قد تم تجاوزها، فحتى تلك اللحظة كان المثال الأعلى يتماشى مع التمازج الاجتماعى الشهير، ومع اندماج وتكيف لتعدديات؛ من هذا المنظور، نجد أن الدفاع عن الهويات الجماعية كان يتم فى حذر نسبى. وعلى العكس، فى أيامنا هذه نجد أن المجتمع الأمريكى يتحكم فيه منطق تقسيم ثقافى، ومعاداة لعالمية حقوق كل من الأقليات وسياسات الكوتة، كما تتحكم فيه البلاغة اللغوية الحادة للاختلاف الثقافى المتعدد. إن أمريكا تقدم نفسها أكثر فأكثر كفسيفساء تتكون من مجموعات ذات شخصيات ومصالح غير قابلة للتوفيق، باعتبارها "ديمقراطية الأقليات"، وجمهورية قائمة على الإعلاء من شأن التعددية والعرقية الثقافية والجنسية. وفى إطار سياسات الهوية يتوجب علينا أن تفهم التطرفية النسوية الأمريكية، وبروز خطابات الحرب بين الجنسين، والإحصائيات الجامحة عن العنف الجنسى، والخطابات العنيفة المنددة بالذكورية؛ فالمجتمع الذى ينظر إلى نفسه من خلال الانتماء الطائفى، وتباين الأعراق، والأنواع يبالغ ويعمق الفروق، كما يؤجج الأحقاد والتعارضات، ويشجع على المواقف الداعمة لشعور المرأة بأنها ضحية، والشكوك والمهاترات التى تنال جميع الفئات.

---

(1) هذه النقطة أثارها بقوة Pierre Rosanvallon فى *Le Sacre du citoyen*, Paris, Gallimard, 1992, p. 395-396.

(2) Philippe Raynaud, "La democratie saisie par le droit », *Le Debat,* nov.-dec. 1995, p. 108-113.

انطلاقًا من هذا المعنى، فإن الحدة الاجتماعية للأمور الجنسية لا تعود إلى أسباب دينية بقدر ما تعود إلى أسباب سياسية، وإلى ثقافة دفعت ازدهارًا للمطالبات الطوائفية وسياسات الهويات، ولمناخ من عدم التسامح وانغلاق المجموعات على أنفسها. وإذا كانت النسوية قد سيست الجنس، فإن التقليد السياسى الأمريكى قد جعل تهويله الجماعى الذى لا مثيل له ممكنًا: وهو ما يفسر بشكل كبير الصدى الاجتماعى "حرب بين الجنسين". إن استثنائية الثقافة الأمريكية فيما يتعلق بالجنس تتوافق مع استثنائية فلسفتها السياسية المتعددة.

انحسار الإمبراطورية الأمريكية

بسبب الوزن الحقيقى والرمزى لأمريكا، وتأثيرها على العالم، كيف نتجنب هذا السؤال التالى: النموذج المثير للجدل للعلاقة بين الجنسين، والذى ساد القارة الجديدة أيمثل هو بنية ثقافية خاصة أم تصورًا مسبقًا لمستقبل الديمقراطيات؟ أيتوجب علينا أن نرى فى أمريكا مرآة لمستقبلنا أم ترجمة فريدة لرغبات ديمقراطية مقدر لها أن تبقى؟

نلاحظ أولا أن الثقافة المتطرفة للتمايز بين الجنسين يتم تصديرها بمنتهى السوء. ففى الولايات المتحدة الأمريكية ازدهرت تيمة الحرب بين الجنسين؛ أما فى فرنسا مثل عدد من الدول الأوروبية الأخرى، فهى تثير الرعب؛ فخارج أمريكا، لم يكن لحركة التصحيح السياسى أى تأثير حقيقى، بل أكثر من ذلك فإنها كانت تثير الضحك والاستهزاء أكثر من حصولها على التأييد. وفى فرنسا، كما فى عدد من بلدان أوروبا، لم تسلك احتجاجات النساء إلا طريق تحريم المذكر، هامشيًا؛ كما لم ينظر للجنس على أنه علاقة للقوة أو للسلطة؛ ولم يشبه الرجل بأنه معتدٍ منذ ولادته أو أنه عدو "بالوراثة". واللافت أن الفرنسيات لا يحببن أن يعرفن أنفسهن كنسويات، ففى أعينهن هذا مصطلح مثقل للغاية بالعدوانية ورفض الرجال. هل يعنى ذلك "تأخرًا" أوروبيًا بالمقارنة بـ"التقدم"الأمريكى؟ لن نسلك هذا الطريق. فأن يكون هناك

نموذج مهجور أكثر من آخر ليس مقبولا، وما يمكن أن يلاحظه المرء هو تعايش متغيرين ثقافيين بعد حداثيين للثقافة الديمقراطية، ومن المستحيل أن نفكر فى إطار نظرية خطية مناوئة للتقدمية ولمذهب المحافظين وللطليعية والأخطاء التاريخية.

تتحكم فى النموذج الأمريكى راديكالية عدوانية رافضة للتقارب بين الجنسين، ولحركات الغواية، ولغموض القوانين التى تدير العلاقات بين الرجال والنساء. وفى مقابل هذا التوجه، يظهر النموذج الأوروبى كحل توافقى بين المثل العليا للمساواة وبين قواعد الماضى الموروثة. فى الواقع أن مطلب المساواة بين الجنسين قد تقدم، لكن دون أن تفقد الألاعيب الإغوائية شرعيتها: ففى أوروبا، لم تنسّق القوانين القديمة وإنما أعيد ترتيبها بناءً على مطالب الفردانية الديمقراطية. إن رواية كهذه تتعلق بالعلاقة بين الجنسين لا تترجم نقصًا فى الحداثة، وإنما تظهر بالأحرى نزعة جديدة للمجتمعات الديمقراطية نحو رد الاعتبار للماضى، ونحو حوار بين الحاضر والذاكرة، ونحو تدوير بعد حداثى للأنماط العتيقة. كذلك فإن النموذج الأوروبى ليس ماضويًا على الإطلاق، بل يجسد الطريقة بعد الحداثية لتغيير العلاقات بين الجنسين دون أن يمحو الماضى. إن النسوية المتطرفة لا ترى فى العلاقات الإغوائية إلا قواعد مجحفة بحق النساء؛ بينما ترى فيها الثقافة الأوروبية دائمًا شكلا من أشكال الإيجابية، ومناسبة للهو، وللتنوع ولهوية غير مناهضة على الإطلاق لحق النساء فى أن يحكمن أنفسهن. وإذا كان النموذج الأمريكى يطالب بشكل متزايد بأن يكون كل ما يدور بين الجنسين واضحًا، ومتساويًا، ويتميز بالشفافية، فإن النموذج الأوروبى قد جعل المساواة تتعايش مع أشكال اللعب والغموض التقليديين فى المشاركة الاجتماعية بين الجنسين. ففى إحدى الحالات، أُنتُقدت معايير الماضى باعتبارها وصمة اجتماعية؛ وفى حالة أخرى، احتفظت بقيمتها شريطة أن يعاد تأويلها لخدمة التوقعات النسائية الجديدة.

أى فرص تتوفر للنموذج الأمريكى كى يُصدَّر؟ على عكس ما يقال أحيانًا، فإنها تبدو ضعيفة جدًا، بلا شك، إننا نرى فى أوروبا تقدم "نزعة الحقوق"، والتشريعات

المتعلقة بالتحرش الجنسي، والمطالبات بحظر الإباحية، وضرورة التكافؤ بين الرجال والنساء، ولكن العلاقات بين الجنسين لم تتبنّ فى أى مكان النموذج الأمريكى للحرب بين الجنسين. وإذا كانت تلك الثقافة تتأصل فى التفرد السياسى الأمريكى، كما رأينا ذلك من قبل، فإن انتشار نموذج كهذا يمثل احتمالا ضئيلا للغاية. من المؤكد أن الترجمة الأمريكية على توافق مع تلك التيارات العميقة للزمن المعاصر، والتى هى الإعلاء من شأن الحقوق كتنظيم الديمقراطيات، ومطلب الشفافية، ورفض التبعية النسائية، وعدم تنميط الطرق، ولكن فى الوقت ذاته فإن التطرف الجدلى لهذا النموذج قد أسدل، بطريقة ما، على هذه اللحظة "البدائية" للديمقراطيات، لحظة الصراعات الكبرى، والازدواجيات الأيديولوجية والسياسية. فمن جانب نجد النموذج الأمريكى يتناغم مع الديمقراطيات القانونية الجديدة؛ ومن جانب آخر نجده متأخرًا بالمقارنة بالانحسار البعد حداثى للأديان السياسية.

أوروبا – أمريكا: يتعين بلا شك عدم تجميد وضع القارتين فى سمات جامدة، ففى أوروبا تتابعت أشكال كفاح المرأة من أجل المساواة، وامتدت إلى نطاقات جديدة، ومن ناحيتها فإن أمريكا بعيدة كل البعد عن أن تكون أحادية التوجه: ذلك أن عددًا من النسويين يرفضون تحريم الإباحية، كما يرفضون أبلسة الرجل وهاجس المرأة الضحية. وفى جميع الأحوال فإن النسوية قد هبت فى اتجاهات متباينة، وتعايشت المفاهيم الأكثر تناقضًا معًا فى خليط واحد مقدر له أن يمتد، بلا أدنى شك. ومن هنا فإن أمريكا ليست معرضة حتميًا للحرب بين الجنسين، ولا لتماثل العلاقات بين الجنسين فى علاقات السلطة، فهناك نوى قائمة باستطاعتها أوربة أمريكا. علاوة على ذلك فإن الهجوم ضد كل أشكال الغموض فى العلاقات بين الرجل والمرأة له حدوده: حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية، كان هناك إجماع ضد قانون أنتيوك Antioch، ولأن المطالبة بالشفافية وبالحرية التعاقدية المعارضة، انطلاقًا من فترة معينة، تتعارض مع انتشار اللعبة الشهوانية ذاتها. وبناءً على ذلك، فلنحذر من المشاركة فى صناعة وهم لمجمل كبير أو لمصالحة نهائية بين العالمين، ومن الواضح أن "الطباع

القومية" والتقاليد الموروثة، والثقافات الدينية والسياسية تواصل وضع بصمتها على العلاقات بين الجنسين، إذا كانت، كما قال توكفيل Tocqueville، "الشعوب دائمًا تستشعر أصولها". وبرغم القوى المتجَانسة للثقافة الحديثة، فإن الموروث السياسى والثقافى لديه كل الفرص، بطريقة أو بأخرى، ليمدّد أصالة النموذج الأمريكى، ولكن أيضًا، وللأسباب ذاتها، ليعرقل الاتساع الحتمى الذى يعد به بعضهم. خبر سار: لن يؤمرك كوكب الجنس فى المستقبل، والعالم القديم لم يقل كلمته الأخيرة فى تأسيس البنية المستقبلية للعلاقات بين الرجال والنساء.

الفصل الثانى

الجنس الجميل

(١)

اختراع الجنس الجميل

لا يحظى الجمال بالقيمة ذاتها عند الرجال والنساء، ذلك ما تظهره الصور، وتثبته السلوكيات، وتؤكده الآمال؛ فالملصقات الإعلانية كما أغلفة المجلات المصورة، واللغة كما الأغنيات، والموضة كما عارضات الأزياء، ونظرة الرجال كما رغبة النساء، تذكرنا جميعها بإلحاح بالحالة المميزة لجمال المرأة وتماهيها مع "الجنس الجميل".

إنها رواية لطيفة، وحكاية قديمة، فلنتذكر الحكايات، والملكات وقلقهن المؤرق: "يا مرآتي، يا مرآتي. قولي لي من هي أجمل امرأة ..." لقرون عدة بهر سحر المرأة الجميلة الشعراء، ومجد الرسامون والنحاتون أعطاف فينوس، ونشرت كتب "الأسرار" وصفات الغواية الأنثوية، وحتى وقتنا هذا، صور الموضة ومعاهد الجمال ومسابقاته، والنصائح ومستحضرات التجميل لم تتوقف عن إعادة تشكيل أولوية الجمال النسائي، وعن نقل أهمية إبراز المرأة لهويتها الأنثوية. أي امرأة تلك التي لم تحلم يومًا بأن تكون جميلة وأي رجل ذلك الذي لم يحلم بالنساء الجميلات؟ فالمرأة ليست دائمًا شديدة الجمال، فكلما ازداد جمالها، تلألأت أنوثتها. ولكن ليس هذا هو الحال بالنسبة للرجال، فصورة الذكورة لا تتعلق بمسألة الجمال. واليوم كما الأمس، نرى أن الآمال المرتبطة بالجمال والقيمة التي تولى له ليست متكافئة عند الرجال كما عند النساء. وبالنسبة لنا تبدو المعادلة بديهية: فالجنس الثاني والجنس الجميل، هما شيء واحد.

إلا أن الأمر لم يكن على هذا الحال دائمًا، فعلى امتداد الجزء الأكبر من تاريخ الإنسانية، لم تمثل المرأة إطلاقًا التجسيد الأعلى للجمال، كما لم يتمتع سحرها بوضع سامٍ ولا بتعامل فني مميز. والدرس الفريد الذي نتعلمه عند الغوص في الماضي السحيق هو أنه لم يكن هناك أي بقاء ولا أي ضرورة فوق تاريخية "للجنس

الجميل"، فهو ظاهرة تاريجية من شتى جوانبها، ومؤسسة اجتماعية، و"بناء" لا يعود أصله إطلاقًا إلى ما وراء فجر العصور الحديثة.

حين لم تكن النساء جنسًا جميلا

فى أشكال التكوين الاجتماعى كافة، عُرف الجمال الأنثوى وقُدر تبعًا للمعايير الفنية المتغيرة نوعًا ما. فى المقابل لم ترفع المجتمعات جميعها الجمال الأنثوى إلى القمة عندما أسست تراتبية الجنسين الجمالية التى تحتل فيها الإناث المرتبة العليا. وعلى مدار تاريخ العالم، يعتبر تقديس كهذا للإناث هو استثناء لافت، وهذا ما نتعلمه من دراستنا لما قبل التاريخ وللمجتمعات الهمجية.

فينوس الممتلئة الردفين والنساء الغجريات

قدم الفن فى العصر الحجرى القديم، كما نعرف، عددًا من التمثيلات والعلامات النسائية، علمًا بأن بعضها كان متدنيًا جدًا على صور الحيوانات. ومنذ العصر الأرينسى ظهرت رسومات تمثل فرج المرأة وأشكال مثلثية تمثل العانة، وعلامات تصور المبيضين محفورة على الحجر الجيرى. كذلك وجدت التماثيل الصغيرة الشهيرة للنساء العاريات، وتماثيل فينوس ذات الردفين الممتلئين، والثديين الضخمين المتهدلين، والبطن والحوض الكبيرين، والمظهر الكروى (فينوس لـ ويلندورف Willendorf، وسيدة دولنى فيستونيس Dolni Vestonice)، فالأرداف وأعالى الجسم الضخمة تتناقض مع الأذرع الرفيعة والسيقان المنتهية بطرف مدبب، كما أن الرءوس الصغيرة الغفلية كانت لا تقدم عمومًا أى إشارة للملامح(١). ولأن هذه

---

(١) Andre Leroi-Gourhan, *Prehistoire de l'art occidental*. Paris, Mazenod, 1971.

الصور تركز على الصدر والخصرين والبطن، فإنها صورت رءوسًا ضامرة، مما يخولنا اعتبارها بمثابة رموز للخصب. وسواء كانت هذه الصور واقعية أو تجريبية، وجهية أو جانبية، مرسومة أو منحوتة، فإن تلك التصويرات لا تبرز من جسد المرأة إلا الأجزاء المتعلقة باستمرار النوع، ولا يدل القاسم المشترك بينها أنها تعبر عن عبادة جمالية للجنس الثاني.

أما فن العصر الحجرى الجديد الذى ظهر منذ حوالى ٨٠٠٠ عام قبل الميلاد فى الشرق الأوسط، فقد شهد تغيرًا مهمًا، وهو أن التصويرات النسائية باتت سائدة بالمقارنة بالتصويرات الحيوانية. ومع عرضها لأرداف وأثداء ضخمة، وعضو جنسى شديد البروز، فإن الأشكال النسائية التى وجدت فى موريبيت Mureybet على سبيل المثال، والتى صنعت من الفخار أو من الحجر لا تختلف جوهريًا عن تماثيل فينوس التى ظهرت فى العصر الحجرى القديم. حوالى ٦٠٠٠ عام قبل عصرنا هذا صنعت تماثيل صغيرة نسائية ذات عيون تميزها خطوط لونية وأخرى مرصعة بالأحجار الكريمة: أى أن الصورة النسائية صارت إنسانية من خلال اهتمام جديد بالوجه والنظرة. انتشرت فى الشرق الأوسط بكامله تماثيل نسائية صغيرة ذات الأشكال السمينة، لدرجة مرعبة أحيانًا، ولا تعتبر المبالغة والتشويه فقط عن تقديس للخصوبة، بل عن نظام هرمى حقيقى، ومرتبة مقدسة تفوق مرتبة الرجل، ونرى تلك الأشكال النسائية وهى تستعد للولادة جالسة فوق عرش من النمور، وهيئتها الضخمة الكهنوتية تمثل الآلهات الأمهات الأول، والربات المعبودات الأول[١]، وهنا أيضًا ليس الصفة اللافتة هو الجمال النسائى وإنما الخصوبة، والمقدرة العليا على الحياة والموت؛ فالإلهة هنا لا يحتفى بها لجمالها، بل لقدرتها على سيادة الحيوانات والقوى التى لا يمكن التحكم بها، أى أن سلطة إلهية للحياة وللموت.

---

(١) Jacques Cauvin, *Les premiers Villages de Syrie-Palestine du 9^e^ au 7^e^ millenaire avant Jesus-Christ*, Lyon, Maison de l'Orient mediterraneen ancien, 1978 ;
وللكاتب نفسه "L'apparition des premieres divinites", *La Recherche*, n., 194, dec. 1987.

وما نلاحظة فى المجتمعات المسماة بالهمجية لا يعبر كثيرًا عن التفوق الجمالى للإناث؛ فلا الأعمال الفنية، ولا الأدبيات، ولا الأغنيات تعبر عن فكرة "الجنس الجميل". وفى القصص والحكايات الواردة فى التراث الشفهى، لا يحتفى بالجمال النسائى، ولا يوصف، ولا يحظى بالإعجاب مثل جمال الرجال، ولم يظهر كسمة خاصة بالإناث. بلا شك يمكن أن تكون أشكال الزينة والوشم والتشويهات الجسدية هنا وهناك أكثر إبهارًا وثراءً عند الإناث منها عند الرجال، ولكن ذلك لا يعرب عن رسالة جمالية للمرأة لكثرة ما تحمله هذه العلامات دائمًا من قيم رمزية وأسطورية وهوياتية وسحرية وطقسية. ومع ذلك، وفى قبائل متعددة، تبدو لمسات التنميق الذكورى متألقة أكثر منها عند النساء. فقد لاحظت مارجيرت ميد Margaret Mead أن الرجال فى قبيلة الـ Chambuli، فى أوكيانا هم من يرتدون الحلى الأكثر جمالا وهم من يهتمون بمظهرهم أكثر من النساء[١]. وعند الماسا Masa والموسىMoussey، فى إفريقيا، " الرجل هو محط الأنظار فى الجمالية الجسدية[٢]"؛ وعند الماورى Maori، كان الرجل يتباهى بالوشم الأكثر زخرفة وكثافة من مثيله عند المرأة[٣]. وعند وودابى Wodabe فى النيجر، نجد أن المرأة فى الاحتفالات هى التى تختار الرجل الأكثر جمالا فى العشيرة[٤]. وفى المجتمعات التى لم تعرف الكتابة، يعترف بجمال الجنسين اجتماعيًا ويشاد به، وتختلف أشكال الزينة وعلامات الجسد عند الرجل وعند المرأة دون أن يحتفى بالمرأة كتشخيص أعلى للجمال.

ولنحذر من الاعتقاد أن هذا "الرفض" الاجتماعى لتقديس الجمال الأنثوى يعد سمة ميزت العصور البدائية من "تاريخ الإنسانية"، والواقع أن هذا السلوك امتد فى

---

(١) Margaret Mead, *Moeurs et sexualites en Oceanie*, Paris, Plon, 1963.

(٢) Igor de Garine, "Massa et Moussey ; la question de l'embon-point », *Autrement*, n.91, juin 1987, p. 108.

(٣) P. et F. De Dekker, *Ta'aroa, l'univers polynesien*, Bruxelles, Credit Communal, 1982.

(٤) Carole Beckwith et Marion Van Offelen, *Nomads of Niger*, Londres, William Collins Sons & Co, 1984.

الثقافات القروية بعد النشوء التاريخى لفكرة الدولة وحتى فجر القرن العشرين. والعديد من الأمثال الشعبية: تطرقت للجمال النسائى تشهد غيابًا لتقديس الجنس الجميل فى العالم القروى التقليدى، ففى كل مكان ساد الاتجاه نحو الحط من شأن السحر النسائى، فكان الاتجاه نحو تحذير الفتيان من الانجذاب الخاطف والخطير للجمال، قبل أى شىء آخر: "الوردة الجميلة تصبح مثل حكة مؤخرة" (بروفنس-لانجيدوك Provence- Languedoc) "الجمال والطيبة لا يتفقان" (أوب Aube-)" الجمال لا يشبع رمقًا ولا يروى ظمأ "(جاسونى Gascogne)[1]. تلك الأمثال العتيقة التى تكشف، بالتأكيد، شدة جاذبية الجمال النسائى، ولكن دون الافتتان به أو إطرائه، كما أن العقلية القروية قد سعت إلى الحط من شأنه، بل وأبلسته: "البنت الجميلة عالية مثل نصف الشيطان" (بريتانيا العليا) أى منطق اجتماعى ذلك الذى يتضمن حالة الجمال النسائى فى المجتمعات البدائية؟ من المستحيل فهم وضع كهذا دون ربطه بالطريقة التى تأسست بها هوية الجنس النسائى، فى هذا السياق. ففى التشكيلات الاجتماعية الهمجية، لا يتعلق كون المرأة امرأة إطلاقًا بالنظام الطبيعى بل دائمًا وفى الوقت ذاته بالنظام الرمزى؛ وخاصة ما يمنح الفتاة وضع امرأة ليس هو الجنس النوعى التشريحى، ولا فقدانها عذريتها، ولا الزواج ولكن بالأحرى هو الخصوبة[2]. وهكذا فالمرأة التى تعرف بأنها عاقر لا تعتبر امرأة حقيقية: لا تكون كذلك إلا بعد أن تنجب. وعند قبائل السامو Samo، المرأة التى لم تنجب كانت تدفن بلا تكريم فى مقبرة الأطفال. وعند النور Nuer، كانت تشكل رأس مال، بل وقد تحصل أيضًا على "زوجة": والأطفال الذين تنجبهم هذه الزوجة كانوا ينادون المرأة العاقر بكلمة "بابا"، ويعتقدون أنها ذات أصل ذكورى. فكون المرأة العاقر ناقصة، أو غير مكتملة، يجعلها محتقرة لأنها تمثل استحالة اكتمال "واجبات الإنسال"، وبلوغ مرتبة الأسلاف[3]. وبما

---

(١) Jean-Louis Flandrin, *Les Amours paysannes* (16e- 19e siècle), Paris, Gallimard, 1993, p. 166-169.

(٢) Francoise Heritier, *Masculin/Feminin*, Paris, Odile Jacob, 1996, p.230.

(٣) *Ibid.*, p. 259-268.

أن وضع المرأة يتماهى فى الخصوبة، فإن جمالها لم يحظ بأى تقدير حصرى وبدا باعتباره ملكية تميّز النساء، وحده الإنجاب هو ما يشكل الفرق بين الجنسين.

لا نجهل أيضًا أن تقسيم المهام بين الجنسين، فى المجتمعات البدائية، يترتب بطريقة تؤكد أولوية الرجل أينما كان؛ فالأنشطة النبيلة والمعتبرة هى التى يقوم بها الرجال، وعلى العكس يعهد بالأعمال الثانوية والوضيعة للنساء. وعلى كلٍ، فالرجل ينظر إليه ويرى نفسه باعتباره كائنًا أعلى مرتبة من مرتبة النساء. مما لا شك فيه أنهن يمتلكن قدرات معترفًا بها، ولكن أى من هذه القدرات لم يسمح لهن بامتلاك الأشكال الرمزية للسلطة ولا الاعتراف الاجتماعى، فعلامات المجد، والتقدير، والنفوذ تخص الرجال حصرًا. والعبادة الاجتماعية للجمال النسائى لن ترى النور، فى هذا السياق، طالما كانت تطلق ربما بؤرة التكريس الأنثوى الذى يتناقض مع مبدأ الاستئثار الذكورى للنفوذ والتفوق الاجتماعى. وفى ثقافةٍ تتسم بإقامة تطابق منتظم وشامل لأبعاد الكون جميعها[١]، وتحظر بالتالى استقلالية كل مجموعة صغيرة، لا نجد أن كل قانون اجتماعى واحد ووارد يسمح بعبادة الأنثى التى ارتبطت فى أنظمة التصنيف بالقيمة الدونية والسلبية هو قانون لا يمكن فهمه. وينبغى منع ظهور الرغبة الذكورية فى امتلاك سلطة سياسية قهرية[٢]، أيضًا ينبغى تلافى ظهور مبدأ يسمح بمنح النساء نفوذًا فائقًا ويرتقى بهن إلى "مقام سيادى" يعلو مقام الرجل. إن المجتمعات الغريبة والنائية تعارض تقديس الجنس اللطيف، والذى بخلقه رصيدًا من التميز التشريفى للنساء، لا يتيح فقط فرض هيمنتهن على الرجال، وإنما يتيح بلوغ أهداف فردية قد تفلت من رقابة النظام الجمعى.

إن غياب العقيدة الجمالية للنساء لا يمكن أن ينفصل كثيرًا عن مكانتهن فى تنظيم العمل. وعلى صعيد النظام الاجتماعى البدائى، لا توجد طبقات متملكة، كما لا توجد نساء عاطلات: فحتى زوجات الزعماء كان لا بد وأن يشاركن فى الأنشطة

---

(١) Claude Levi-Strauss. *La pensee sauvage,* Paris, Plon, 1962.

(٢) Pierre Clastres, *la Societe contre l'Etat*, Paris, Minuit, 1974.

الاقتصادية، فكل النساء مكلفات بإنجاز مهام محددة نظمتها القواعد الاجتماعية، وطالما تعين على النساء تأكيد دور منتج، فالإعلاء من شأن جمالهن كسمة مميزة لم يتمكن من رؤية النور. وكى تتحقق عبادة الجنس اللطيف، فقد وجب- وهو شرط ضرورى لكنه غير كاف بالتأكيد - بروز التمايز الاجتماعى بين الطبقات الثرية والطبقات الفقيرة، والطبقات النبيلة والطبقات الكادحة، ونجم عن ذلك وجود فئة من النساء معفاة من العمل. تلك الظروف الاجتماعية الجديدة سمحت بخلق علاقة أكثر قربًا بين الأنوثة وممارسات الجمال: خلال ساعات الكسل الطويلة التى تمتعت بها نساء الطبقات العليا، بتن يقضينها فى استخدام مساحيق التجميل، والتزين، والاعتناء بجمالهن كى يتسلين ويعجبن أزواجهن. ومنذ العصر الإغريقى القديم، ثم الرومانى، أخذت نصوص عديدة بعين الاعتبار هذا الاستخدام الأنثوى لمساحيق التجميل والذى لا يعبر، بالتأكيد، عن ثقافة "الجنس الجميل"، ولكنه بالأحرى يربط بين النساء والبحث عن تجميل الذات، وظهرت فى الوقت نفسه معايير تقول بعدم إطلاق وصف جميلات إلا على النساء المتحررات من حتمية العمل المنتج. كما نلاحظ فى الصين الولع بالبشرة البيضاء، وتقديس الأقدام الصغيرة، واستخدام مستحضرات التجميل، وتسريحات الشعر المعقدة، والحلى الفاخرة، ومشدات الصدر، والأحذية ذات الكعب العالى: الكثير من الشيفرات والحيل المكرسة للتعبير عن طبقة اجتماعية عالية، والتى تكشف العلاقة بين تقديس الجمال عند النساء وبين القيم الأرستقراطية. نساء جميلات، ونساء كسولات، مذاك سينظر إلى الجمال باعتباره يتعارض مع عمل المرأة. وأكد توريستان فيبلون Thorstein Veblon عدم الفصل بين التقدير الجمالى والتقدير التكريمى، ولاحظ أن: "هناك مفردات للجمال المالى والثقافى انتهى بها الأمر إلى أن تقوم مقام عناصر الأنوثة المثالية(١)". إن ثقافة الجنس الجميل تتطلب عدم المساواة الاجتماعية، والرفاهية واحتقار العمل المنتج بالنسبة للطبقات المرفهة *classesleisured*.

(١) Thorstein Veblen, *Theorie de la classe des loisirs*, Paris, Gallimard, 1970.

دخل الاعتراف الاجتماعى بالجمال النسائى مرحلة جديدة فى تاريخه، مع ظهور الدولة والطبقات الاجتماعية، ويكفى أن نتأمل الثقافة الإغريقية لكى نقتنع بذلك، على الرغم من تميزها بمثلية جنسية ذكورية شرعية ومنتشرة.

فقد احتفى الشعراء الإغريق كثيرًا بالجمال النسائى وأكدوا على سطوته المبهرة والمخيفة فى آن. بداية من آلهات البانتيون Pantheon (هيرا Hera، آرتيميس Artemis، أتينا Athena، أفروديت Aphrodite) واللواتى صورن على أنهن خلاصة الجمال[1]. ومن ناحية أخرى عرض *هزيود* Hesiode، فى كتابه *الأعمال و الأيام*، أسطورة المرأة الأولى، باندورا Pandora، والتى خلقها إيفايستوس Hephaistos بـ"جسد عذراء مشتهى فى صورة الآلهات الخالدات"، زينتها أثينا Athena تزيينًا باذخًا: من هنا نشأ "عرق" النساء. إذا كانت المرأة شرًا، فهى كذلك لاسيما وأنها جميلة ومغرية. وقد ألف باندار Pindare والشاعر الإسبرطى ألاكمان Alacman قصيدة البارثيا *Parthenia*، وهى "أناشيد لجوقة من العذراوات"، وتحتفى بفتيات جميلات تذكر أسماؤهن. كما ونظم سافو Sappho قصائد ولعة احتفت فيها بالجسد النسائى: "يرى البعض أن أجمل شىء على الأرض القاتمة، قد يكون فرقة من الفرسان أو من جنود المشاة؛ وبالنسبة للبعض الآخر قد يكون أسطولا من السفن. بالنسبة لى أجمل شىء هو ما يغرم به كل إنسان[2]". وقد ظهرت أسماء النساء اللواتى عشقهن سافو Sappho فى تلك القصائد الغنائية. إذن فكلمات المديح للجمال النسائى باتت شخصية، وتعود إلى نساء على قيد الحياة مثل، أسباسى Aspasie، المحظية التى عشقها بيريكليس Pericles، وأنجب منها ابنًا، والتى احتفت بها

---

(1) Nicole Loraux, "Qu'est-ce qu'une deesse?", Histoire des femmes, Paris, Plon, 1991, t. 1., p. 39 ; Catherine Fouquet et Yvonne Knibiehler, *La Beaute, pour quoi faire ? Essai sur l'histoire de la beaute feminine,* Paris, Temps Actuels, 1982, p. 18-26 ;
وعن الحوريات وبخاصة الحورية كاليبو باعتبارهن رموزًا للغواية وللموت، انظر Jean-Pierre Vernant, *L'Individu, la mort, l'amour,* Paris, Gallimard, 1989, p. 144-152.

(2) Sappho, *Poesies*, 1, 27. Trad. Reinach.

القصيدة لجمالها وذكائها، ونعرف أيضًا أن مسابقات الجمال النسائى كانت تقام فى ليسبوس Lesbos، وترينيدوس Trenedos، وإيليس Elis[١].

فى الوقت ذاته، احتفى النحاتون، أكثر من أى وقت مضى، بالأشكال الجسمانية للمرأة، أكان الجسد النسائى مدثرًا أم عاريًا، فإنه بلغ أبعادًا مثالية، ستوجِّه أعمال الفنانين حتى نهاية القرن التاسع عشر. ففيها تتناسق الأجزاء مع الجسد بأكمله، ويكون الثديان ممتلئين، والقوام رشيقًا، والأرداف إنسيابية ويميل الخصر جاعلا وزن الجسد يرتكز على ساق واحدة: ذلك أن فن النحت الإغريقى كان يطمح إلى خلق الكمال الجسمانى للنساء؛ فلم يعد التكريم الدينى بالقدرة على الخصوبة، بل أصبح بالنقاء الشكلى للجسد، وهو غاية الجمال المثالى الذى ذكر الكاتب اللاتينى بلين Pline أنه يجب أن يتحقق بالاختيار من بين مجموعة من النماذج المشهورة بأنها الأكثر جمالا. فرض الجمال النسائى نفسه كمصدر لإلهام الفنانين، فهو غاية فى حد ذاته، غاية قادرة على إثارة الحماس لدى جميع عشاق الفن فى العصور القديمة، وبخاصة لدى النحّات براكسيتل Paraxitele وفى تمثال *أفروديت* *Aphrodite* الشهيرة لسنيد *Cnide*.

لكن إذا احتفى اليونانيون بمفاتن المرأة، فإنهم لم يمنحوا المرأة مكانة الصدارة فى الجمال. بلا شك كانت تقام مسابقات للجمال النسائى، ولكن من المهم أن نشير إلى أنه لم يكن الرجال هم من يقيّمون ويوزعون الجوائز. ففى اليونان كانت تعبيرات الإعجاب بالكمال الجسدى الذكورى أكثر تواترًا من تلك الموجهة للنساء، وخير دليل على ذلك قصائد الغلاميات ومحاورات أفلاطون Platon، والموشحات المثلية، والنقوش الأثرية على الجدران إلى جانب أسانيد أخرى[٢]. فقد أظهرت الفنون التشكيلية هذا التوجه، وكذلك نرى أن التماثيل العارية للنساء كانت متأخرة ونادرة حتى

---

(١) Henri-Irenee Marrou, *Histoire de l'education dans l'Antiquite*, Paris, Seuil, coll. Points, t. 1, 1981, p. 67.

(٢) K. J. Dover, *L'Homosexualite grecque,* Grenoble, La Pensee Sauvage, 1982, p. 23-29.

براكسيتل Praxitele، مع أن الفنانين، منذ العصر الحجرى، كانوا قد نحتوا تماثيل عديدة لرجال مفتولى العضلات وعراة. والتمثال الشهير لأفروديت عارية الذى أنجزه براكسيتل، واقتنته مدينة كنيد، قد أثار استنكار سكان كوس ورفضهم، كما تجلى تفوق العرى الذكورى على العرى النسائى فى الرسم على الآنية، فالنساء لم يظهرن متجردات، فى أغلب الأحيان، إلا فى مشاهد الاستحمام. علاوة على ذلك، فإن التصويرات النسائية كانت حتى منتصف القرن الخامس متأثرة جدًا بنموذج الجسد الذكورى، فظهرن مفتولات العضلات، ولهن قامات الرجال ذاتها، مع مناكب عريضة وصدور ذكورية؛ الأثداء فقط هى التى كانت تظهر الهوية الأنثوية[١].

تظهر الصور العديدة لفتيان مطاردين ومرغوب بهم أو أنهم كانوا يمارسون الجنس، وترى أن نماذج الجمال الذكورى كانت محل تقدير أكثر بكثير من النماذج النسائية، أما عن التدوين المحفور على آنية من السيراميك، والتى تتحدث عن جمال شخص ما، فإن أسماء النساء كانت أقل بكثير من أسماء الرجال."قسمًا بزيوس Zeus، إن تيوغنيس Theognis لوسيم"، "ساستراتوس Sastratos هو فائق الجمال": نجد صيحات الإعجاب تنطلق، بشكل أساسى، نحو الغلمان[٢]. هذه المظاهر جميعها تكشف القيمة السامية التى حظى بها جمال الفتيان، والأولوية الجمالية للجسد الذكورى، ونعرف أنهم كانوا يتفاخرون به عاريًا تمامًا فى الرياضات البدنية وحلبات اللعب.

أجل إن الإغريق القدامى قد احتفوا بالجمال النسائى، ولكن الثقافة المفضلة لمعاشرة الغلمان قد نادت بتفضيل جمالهم، أو إلى رفض تماهى النساء مع الجنس الجميل، وبرفض تسيد النساء للتراتبية الجمالية بين الجنسين. فى المجتمع الإغريقى جسّد الرجل الجمال برونق يفوق ما لدى المرأة، وجانيميد Ganymede، الذى ألهب بهاؤه زيوس Zeus نفسه، مثال جمالى هو بلا شك أكثر جاذبية من تماثيل الآلهات.

---

(١) Francois Lissarrague, "Femmes au figure", *Histoire des femmes,* op. cit. t. 1, p. 222-223.

(٢) K. J. Dover, *L'homosexualite grecque*, op. cit., p. 139-154.

ولهذا السبب كانت رموز الجنس الأكثر شهرة تتمثل بالرجال على غرار الأثينى لياغر Athenien Leagre، الذى احتفى بجماله مدة نصف قرن تقريبًا[1]، فهذا الإعلاء البالغ كجمال الذكور لا يقتصر على الجسد. وعلى الآنية المزخرفة كان الرجال يصورون وهم يؤدون تمارينهم الرياضية، على عكس النساء، اللواتى كانت المرآة شيئًا حصريًا لهن، ولكن هذا لا يخولنا بالضرورة أن نقول: "إن جمال الغلمان كان مقصورًا على جسدهم "وإن اهتمام البطل بجسده يقابله الاهتمام بالنظر لدى المرأة[2]"، والدليل على ذلك هذه الفقرة المقتطفة من شارميد Charmide: "ما رأيك فى هذا الشاب، يا سقراط؟ قال لى شيرفون – أليس له وجه جميل؟ وأجبت أنا – بل رائع[3]". بلا شك أن الجسد، بالنسبة للرجال، هو المعيار الراجح للجمال. بقيت حكاية شهيرة تظهر الشاب ألسيبياد وهو يرفض أن يتعلم العزف على المزمار بحجة أنها تشوه له وجهه[4].

إن الثقافة المثلية لا تفسر وحدها غياب غلبة التقديس المظفر للجمال النسائى؛ ففى اليونان كما فى حضارات أخرى عتيقة، يحمل الجمال النسائى دائمًا رنينًا سلبيًا، فمن باندورا Pandora خرجت "فصيلة من النساء الملعونة" كما استخدم جمال هيلين Helene كذريعة لشن الحرب على طروادة. فالمرأة عند الإغريق تعد "كارثة رهيبة استقرت وسط رجال فانين"، وهى كائن يقوم على المكر والكذب، وخطر رهيب يتخفى تحت معالم الغواية. كيف يحتفى بالجمال النسائى فى حين أنه يشبَّه بفخ وبيل، فى زمن كان يسيطر فيه بغض النساء معتبرًا المرأة كائنًا خائنًا ومشئومًا؟ كثيرة هى النصوص التى تعدد عيوب النساء وتندد بالأحابيل التى يستخدمنها لغواية الرجال، ولاسيما اللجوء إلى الغنج النسائى واستخدام مساحيق التجميل[5]. ومنذ القرن

(1) *Ibid.*, p. 148.

(2) Francois Lissarrague, "Femmes au figure", art. cite, p. 220 et 224.

(3) Platon, *Charmide*, 154 cd.

(4) Henri-Irenee Marrou, *Histoire de l'education*..., op. cit., p. 202.

(5) Bernabd Grillet, *Les Femmes et les Fards dans l'Antiquite grecque*, Lyon, CNRS, 1975.

السادس قبل الميلاد تأسس تقليد راسخ من فضح "أحابيل الغنج" و"مخدرات فن التجميل"، والتى نُظر إليها كحيل شيطانية، وكخديعات حسية، يتميز بها الجنس النسائى[١].

واتسم التراث اليهودى- المسيحى أيضًا بتحريم الجمال النسائى حتى وإن اعتقدنا، فى سفر التكوين، أنه لم يردنا شىء عن جمال حواء، نستطيع الظن بأنها بمفاتنها نجحت فى جعل آدم يسلك طريق المعصية. وفى التوراة، يرتبط جزئيًا جمال البطلات (سارة Sarah، سالومى Salome، يهوديت Judith) بالشرك، والكذب، والخديعة"[٢]: فالجمال قوة خادعة ينبغى ألا تثير الانبهار وينبغى الريبة منها. وامتد هذا التراث من العدائية والتوجس إزاء المظهر النسائى طوال العصور الوسطى وما ورائها. إن الإغراءات النسائية - وهى "باب شيطان"، وقوة إغوائية، قد تعرضت لصواعق الكنيسة، ولنذكّر فقط بأشكال هجوم أودون Odon العنيفة، رئيس كهنة كلونى (القرن العاشر الميلادى) عندما قال: "إن الجمال الجسدى لا يذهب إلى ما وراء جلد الإنسان، وإذا رأى الرجال ما تحت الجلد، حينها ستكون رؤية النساء تثير سخط قلوبهم، وإذا كنا لا نستطيع لمس البصاق أو الروث بطرف أصابعنا، فكيف يتسنى لنا أن نشتهى تقبيل هذا الوعاء المليء بالزبل[٣]؟". وإذا وضعنا قانون الحب الكرتوازى جانبًا، فإن ثقافة القرون الوسطى رفضت كل أشكال الاحتفاء بالمرأة، واعتبرتها فخًا نصبه إبليس. وأطلقت اتهامات لا ترحم لإغراءات النساء، ومكرهن، وغرورهن، وغنجهن. وحدها مريم العذراء هى التى استثنيت وحظيت بجمال غير ضار؛ إذ تزايد تقديسها وتصويراتها الأيقونية منذ القرن الثانى عشر. ولكونها عذراء وأمًا للمسيح، فهى تمثل كل شىء إلا رمزًا للمرأة. وتمجيد السيدة العذراء لا يعنى رغبة فى تكريم الجنس النسائى، الذى بقى كأصل للشر، وكـ "سلاح للشيطان".

---

(١) فى التراث اليونانى القديم، اعتبر أوفيد واحدًا من الكتاب النادرين الذين شجعوا النساء على استعمال وسائل التجميل وقوّموها.

(٢) Corine Chaponniere, *Le Mystere feminin*, Paris, Orban, 1989, p. 15-24.

(٣) عن Jean Delumeau, *La peur en Occident*, Paris, Fayard, coll. Pluriel, 1978, p. 409.

إن الفن فى العصور الوسطى ترجم بالصور هذا التشهير المسيحى بالجمال النسائى، ولهذا فإننا نرى فى بعض الصور الجدارية الشيطان يتنكر فى صورة فتاة جميلة، وكذلك ظهرت المرأة فى صورة حية لها شكل إنسان، ومخلوقات ذات وجه شيطانى؛ وصورت أيضًا، بجانب وحوش بشعة بهدف إبعاد الرجال عن مفاتنها الوبيلة؛ فلم يبحث الفن فى العصور الوسطى عن إثارة الإعجاب بالجسد المغرى، بل استخدم لترسيخ الخوف من الجمال النسائى، وللتعبير عن علاقاته بالسقطة وبإبليس. فمن غير الوارد إذن أن تنظم أناشيد تشيد بالجنس الجميل، ما دام أن الفن يتحدد باعتباره رسالة وليس تمثيلا لعالم من المظاهر المرئية، ولكنه يترجم حقيقة الأسفار المقدسة، ويرمز للمقدس اللامرئى، ولكى تتشكل قدسية الجنس الجميل ينبغى، ليس فقط أن يكون الجمال الأنثوى محملا بدلالة إيجابية جديدة، وإنما أيضًا أن يعطى الفن لنفسه غاية أخرى تختلف عن اللغة اللاهوتية الصارمة.

عبادة الجمال الأنثوى

إن عبادة "الجنس الجميل" لهى اختراع ينتمى لعصر النهضة. أجل، يتوجب انتظار القرن الخامس عشر والسادس عشر حتى ترفع المرأة إلى القمة باعتبارها تجسيدًا أعلى للجمال. وللمرة الأولى فى التاريخ حدث ارتباط بين المفهومين المؤسسين للسلطة الثقافية لـ" الجنس الجميل": وهو اعتراف صريح و"مجرد" لتفوق الجمال النسائى، وتمجيد مبالغ فيه لمواصفاتها الجسدية والروحية.

رائعة الرب

"إن المرأة الجميلة هى أجمل شىء يمكن أن يُرى والجمال هو الهبة الإلهية العظمى التى منّ بها الرب على المخلوقات البشرية"، هذا ما كتبه فيرونزويلا Firenzuola فى عمله الشهير *"خطابات عن جمال السيدات" (١٥٤٨)*. وفى أوروبا

خلال عصر النهضة، أصبح الجنس الثانى هو "الجنس الجميل"، والتجسيد المميَّز للجمال، والكمال الملهم للأناشيد المطولة والحارة. وفى فرنسا، قال *ليبو* Liebaut فى مؤلفه "*ثلاثة كتب عن تجميل الجسد الإنسانى*" (١٥٨٢): "يبدو أن الرب عند خلقه جسد المرأة قد جمع فيه كل الفضائل التى يمكن أن يدركها العالم أجمع". بعد ذلك بوقت قصير، ها هو فارس دى ليسكال فى عمل ذى عنوان رنان يقول على لسان الرب: "أنتن أعظم ما صنعت يداى، من حيث الشكل أو المادة"[١] وقبل هذا الوقت اعتبرت المرأة "سلاح للشيطان"، كما لا يمكن فصل جمالها عن الشر، ولكن ها هى الآن، فى الأوساط الأدبية والأرستقراطية، تكرس كانبعاث من الجمال الإلهى، وترتفع إلى مرتبة "الملاك"[٢]، وتتفوق على الرجل بجمالها أو بفضائلها. قال *برانتوم* Brantome فى كتابه "*سيدات رقيقات*": "إن النساء مخلوقات يشبهن الألوهة أكثر منا، بفضل جمالهن؛ لأن من هو جميل يكون أقرب إلى الرب الذى يمثل الجمال كاملا وليس كمن هو قبيح لأنه ينتمى إلى الشيطان". إذن المرأة الجميلة هى امرأة "ربانية": ففى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حصل تطورٌ استثنائى لتكريم المظهر النسائى، والاحتفاء بسموها الجمالى[٣]، وورثناه نحن مباشرة.

من المؤكد أن العداوة السائدة للمرأة لم تلق سلاحها: فاستمرت الهجائيات التى تشبّه الجنس الثانى بـ"سادن الأصنام" وتصفه بأنه "حيوان خطير وبذىء"، ولكن ظهر فى الوقت ذاته أدب يمجد النساء. فمنذ ظهور "*نشيد الأناشيد*" *يحتفى بالأعطاف* الجسدية للمرأة باستعارات لغوية ثرية، ولكن، بداية منذ القرن السادس عشر انتقل

---

(١) *Le champion des femmes, qui soutient qu'elles sont plus nobles, plus farfaites, et en tout plus vertueuses que les hommes*, Paris, 1618، والتى ذكرها Pierre Darmon, Mythologie de la femme dans l'Ancienne France, Paris, 1618, p.18.

(٢) "La femme a ete formee comme les anges dans le paradis terrestre", Henri Corneille Agrippa dans *De l'excellence et de la superiorite de la femme*'(1529).

(٣) إن فكرة تقديس جسد المرأة لم تمنع فنانًا كـ(مايكل أنجلو) من الحديث عن "جسد الرجل" بوصفه "عنصرًا إلهيًا"، ولا النقاشات التى دارت حول حسابات مقاييس الجسد بوصفة عامة (انظر Erwin Panofsky,L'CEvre d'art et ses significations ,Paris,Gallimard,1969,P.83-99)

الشعراء وكتاب الأدب دون جدل إلى مرحلة سريعة جدًا ألغوا فيها خطابات مديح مطنبة على شرف النساء. قال فارس دى لسكال متحمسًا "أنتن أعظم روائع الرب، وأنتن نموذج الكمال، وصورة الربانية، ومعجزة الطبيعة، وخلاصة السماء، وزينة الأرض". وصبا بايبف Baif إلى الاحتفاء بفرانسين Francine" بأسلوب رفيع ... يشهد بذلك، من الآن وحتى السنة الألف القادمة" (*غرامات فرانسين Amours de Francine*) قال رونسار Ronsand منبهرًا بكمال سيدته: "ياالجمالها الذى تغلب رقته الملوك." (*الغابة الصغيرة Le Bocage*). إن انتصار الجنس اللطيف تماشى مع تكاثر الأناشيد التى تتغنى بالنساء، وارتقاء المديح الموجه إلى مفاتن السيدات، ولكن الإفراط ذاته الذى ميز الاتهامات الموجهة إلى الجمال النسائى وضع فى خدمة تمجيده.

وتماشت النزعة الإنسانوية فى عصر النهضة مع دلالة جديدة للجمال الأنثوى بعيدة كل البعد عن أبلسته التقليدية، فنجد إيراسم Erasme وتوماس مور Thomas More ومونتانى Montaigne يعبرون عن تقديرهم وإعجابهم بـ"الجمال الذى يتسم بالقوة والمزايا[1]". ولكن أحدًا لم يسهم فى إطلاق الدلالة الجديدة للجمال أفضل من مارسيل فيسين Ficin، وعرّف الجمال قائلا: "إنه فعل أو شعاع ربانى يمر عبر العالم[2]"، وذلك رغبة منه فى التوفيق بين الفلسفة الأفلاطونية وبين العقيدة المسيحية، وفى إثبات أن حياة كل من الكون والإنسان تسيطر عليها "دائرة روحانية" تسير من الرب إلى العالم ومن العالم إلى الرب. وبعيدًا عن أن يكون الجمال مظهرًا ملموسًا خالصًا، اعتبر "روعة للوجه الربانى"، وتعبيرًا عن كماله وحكمته. أصبح الجمال مجددًا وسيلة للصعود نحو الرب، وصار الدرجة الأولى فى الارتقاء إلى الخالق، مكتسبًا بذلك بعدًا ما ورائيًا كان قد فقده مع توما الأكوينى Thomas d'Aquin. هذا

---

(١) Montaigne, *Les Essais*, Livre 3, chap. 12

(٢) عن Andre Chastel, Marsile Ficin et l'art, Genveve, Droz, 1975, p. 88. Sur le neoplatonisme de Ficin,Commentaire au "Banquet" (1469),

انظر أيضًا Erwin Panofsky, Essais d'iconologie, Paris, Gallimard, 1967, p. 203-211.

التشريف للجمال الحسى بإضفاء صفة الربانية عليه قد أنتج تقديس "الجنس اللطيف"، وفى إطار المسيحية، لم يمجد الشعور بالحب نحو الغلمان، ولكن الجمال النسائى وحده هو من استفاد من الرؤية الماورائية للعالم Weltanschauung حسب الأفلاطونية الجديدة. وبما أن الرجال كادوا يحتكرون الخطابات والفنون، فرضت المرأة نفسها كخلاصة للجمال، فهى الكائن الأكثر جمالا بين مخلوقات الله. ليس تحقيق استقلالية دنيوية للجمال النسائى هو الذى أتاح الفرصة لتمجيده، بل بالأحرى إعادة تأويل دينى تقوم على الرغبة فى إزالة كل حد بين ما هو مقدس وما هو دنيوى. هذا لا يعنى أن الفكر تخلص من التعاليم المسيحية، ولكنها صوفية جديدة تمدد التعريف الأفلوطينى للجمال على أنه "روعة النور الربانى".

بداية من القرن الخامس عشر، فى أوساط مدينة "فلورانسا" التى تميزت بالنزعة الإنسانوية الأفلاطونية المحدثة، نجد الجمال النسائى ينفصل عن ارتباطه القديم بالخطيئة. فحتى تلك الفترة كان ينتمى إلى القدرات الشيطانية الموسوسة، والآن يظهر كانعكاس للطيبة الربانية وعلامة على الجمال الداخلى. ومن بعد فيسين Ficin، احتفى كاستيجليونى Castiglione فى "*كتاب المغازل" Livre du Coutisan* الذى ظهر فى عام ١٥٢٨، والذى حقق نجاحًا عند النشر، احتفى بالجمال كضمان للكمال الأخلاقى: "إن الجمال الخارجى هو العلامة المؤكدة على الجمال الداخلى... كالأشجار التى يعد جمال أزهارها شاهدًا على طيب فاكهتها[1]". حاز الجمال عامة والجمال النسائى خاصة على ألقاب الشرف، وذلك لأن النعمة الإلهية تسكنه ولأنه ملهم للحب وضمان للطيبة وباعث على التأملات الإلهية، ولأنه محاط بروحانية فقد تعلق الرسامون بالتعبير عنه. وفى القرن الخامس عشر أيضًا أصبحت تصويرات فينوس تمثل مرآة للكمال الأخلاقى والروحانى، وانعكاسًا لعالم مثالى، وطريقًا للارتقاء، فلوحة *ميلاد فينوس* لـ *بوتيشيلى* Botticelli تظهر على سبيل المثال تلك الروح الأفلاطونية الحديثة التى تنزع عن

---

(١) بالمثل، نشر Gabriel de Minut فى عام ١٥٨٧ عمل بعنوان *De la beaute, discours, divers,... voulans signifier que ce qui est naturellement beau est aussi naturellement bon.*

الجمال النسائى كل ارتباط بينه وبين الخطيئة، وتقرب بين صورة فينوس ومريم العذراء. وذكر فرانكستال Fancastel أن هذه اللوحة جعلتنا نشهد ميلاد ألوهية جديدة، وانتصار للجمال، وتأليه للمرأة التى تحتل الصورة، وهى عارية، ووحدها التى تشغل اللوحة "لقد حلت فينوس محل العذراء[1]" أثيرية ذات رقة انحناءات خطية وانسيابية، إنها فينوس التى رسمها رسامو فلورنس، والتى تتطبع بالحياء وبالحياة الداخلية والتعبيرية المؤثرة، إن وجهها يشبه كثيرًا وجه مادونا أكثر مما يشبه وجه آلهات الجمال القديمات[2]؛ ولأن جمال المرأة روحانى فقد ترسخ فى وضعية مثالية متجردة من كل دلالة بذيئة وحسية. وكذلك لاحقًا، فى لوحة تيسيان *Titien*، *الحب المقدس والحب الدنيوى*، فإن فينوس ذات الرداء الفخم لا تقل نقاء عن فينوس العارية السماوية. وعلى امتداد مذهب فيسين، نرى أن هاتين الصورتين لفينوس هما "محترمان ويستحقان المديح، كل منهما فى مجاله الخاص[3]".

وفى الماضى لم يقدم أى عصر آخر الجمال النسائى ويتناوله بالتعليق ويحتفى به ويولى له تلك الأهمية، فالسحر النسائى أشعل الجدل الفلسفى وألهم الرسامين والشعراء؛ فتكاثرت الأناشيد المستعرة التى تتغنى بالجمال فى آن مع محاولة جادة لتعريفه وضبطه وتصنيفه. كما تزايدت القوائم المتضمنة لقوانين الجمال، والتى تحدد المعايير لمفاتن النساء، لتنتقل من ١٢ إلى ١٨ ثم إلى ٣٣ قائمة. فقد أولى الكتاب للمرأة اهتمامًا مشبوبًا، ومجدوا سحر المحبوبة فى قصائد المديح. انتشر فى القرن السادس عشر نوع أدبى جديد يتمثل فى قصائد وصفية تتناول جزءًا من جسد المرأة، وهو النموذج الذى أطلقه كليمان مارو Clement Marot فى قصيدته *"حلمة جميلة"*، وأعقبتها قصائد عديدة تسير على النهج نفسه مركزة على مفاتن نسائية

(١) Pierre Francastel, *La Figure et le lieu: l'ordre visual du Quattrocento*, Paris, Gallimard, 1967, p. 280

(٢) Kenneth Clark, *Le Nu*, Paris, Livre de Poche, 1969, t. 1. P. 168

(٣) Marsile Ficin, *Commentaire au "Banquet"*, عن Erwin Panofesky, *Essais d'inconologie*, op. cit., p. 225.

أخرى. وفى عام ١٥٣٦ رسخت مسابقة القصائد الوصفية نجاح هذه التسلية الشعرية الجديدة. فيما حظى موضوع "الجسد الجميل" للمرأة فى عصر النهضة الفرنسى بأولوية، فحثت قصائد شهيرة النساء على الاستفادة من شبابهن وجمالهن الهارب. حتى النساء أنفسهن أخذن اليراع ليعبرن عن انبهارهن بجمالهن:" أو ليست مادة الجسد الحى هى الأجمل، ومنها هذا الجسد الأنثوى الذى بُنى دون نموذج سابق" كتبت مارى دى روميو Marie de Romieu. وقالت مارجريت دى نافار Marguerite de Navarre لسيدة مجتمع مخملى: "إننى أحب جسدى، اسألينى لماذا. لما أراه فيه من رواء وبهجة[1]". وهو العصر الذى أعلن فيه برانتوم:" بلاط بلا سيدات يشبه حديقة بلا أى زهرة جميلة".

وقد عبرت الفنون التشكيلية كثيرًا عن هذه الحساسية الجديدة، وتلك القيمة الجديدة التى أوليت للجمال النسائى، واعتبارًا من النصف الأول من القرن الخامس عشر ظهرت ذائقة عند الأمراء والسادة للرسم الذى يصور النساء عاريات. وبتأثير من فن النحت الإغريقى أعاد عصر النهضة اكتشاف أعطاف فينوس؛ فتزايدت لوحات النساء العاريات، فى أوروبا، وفرضت نفسها كموضوع رفيع لدى الفنانين. وفى عام ١٥٠٠ تقريبًا، أطلق جيورجيونى ثم تيسيان عاصفة من الشهوية والحمى الجسدية على النموذج الكلاسيكى لأشكال فينوس. فآلهات الجمال الإغريقيات كن مقتصدات ورائعات؛ بينما أصبح الجمال النسائى فى القرن السادس عشر مسرحيًا وفاخرًا وغنائيًا أكثر من ذى قبل؛ إذ إن وضعية الأجساد ولواعجها تعبر بشكل متزايد عن أحلام المتعة. وأحدثت لوحات مدرسة فونتانبلو Fontaibleau جوًا من الحسية الجامدة من خلال صور معقدة ذات خطوط أنيقة وسامتة لنساء متدثرات بغلالات شفافة، ومزدانات بحلى ثمينة، ودون أن تفقد نظراتهن لغزيتها فى بعض الأحيان. لوحة *(Sabina Poppaea)*. ومع الرسم التكلفى، باتت كل الأفكار سواء كانت

---

(1) استشهاد مأخوذ من Evelyne Sullerot فى *Histoire et mythologie de l'amour, op. cit.*, p. 90

أسطورية أو تورانية أو تاريخية تمثل ذرائع لتعرية النساء والاحتفاء بجمال أشكالهن[١].

واعتبارًا من القرن السادس عشر بات الرسم الرمزى يفضل، أيضًا، تمثيل النساء الأكثر لدونة تزينًا، كى يمثلن التجريدات الأكثر رواجًا: فعلى مدار القرن بأكمله، كان ثلثا النقوش الرمزية مخصصين للجنس الثانى[٢].

كان تقدير الجمال فى الفن الإغريقى يوجه للجسد الذكورى أكثر منه الجسد الأنثوى؛ وقد قلب عصر النهضة هذا الاتجاه بشكل واضح، وشهد القرن السادس عشر تطورًا فى الميل المفرط إلى كل من فينوس وديانا وربات الإلهام، وهن متخلصات أحيانًا من كل ذريعة أسطورية. ولا تتسم لوحة *الحفل القروى* لجيورجيونى بأنه لا تسرد أى حكاية فحسب، بل وعكس النمط الكلاسيكى طالما كان الرجال يرتدون الملابس بينما النساء عاريات. وفى هذه المرحلة من الرسم التى أغلقها مانيه Manet تأكد تفوق العرى النسائى على العرى الذكورى.

فتترجم حركات ووضعيات وأوضاع النساء بالطريقة ذاتها تفوق الجمال النسائى، وهكذا تزايدت اللوحات التى يَرى فيها امرأة تطالع ذاتها فى المرآة، ومنها لوحات *شابة تتزين* (*بيلينى* *Bellini*)، *سوزانا والمسنون* (*تينتورى*-*Tintoret*)، فينوس *تتزين* (مدرسة فونتينبلو): فالمرأة هى التى تحب صورتها قبل أى شىء آخر، وليست المرأة فقط هى من تطالع نفسها فى المرآة، بل يطالعها الرجال أيضًا. وفى لوحة تينتورى نجد سوزان وهى محاطة بأدوات الزينة ويراقبها عجوزان مغتلمان؛ وفى لوحة "*فينوس وعازف الأورج*"، رسم تيسان أحد المعجبين وهو يغوص بنظراته، بعد أن استدار، فى جسد آلهة مستلقية على مفارش فخمة، ولأنها تجسد الجمال بامتياز، بدت المرأة كشىء خلق "للرؤية"، وكمشهد تتأمله هى بنرجسية، ويتأمله الرجال بنهم.

---

(١) Jacques Bousquet, *La Peinture manieriste*, Neuchatel, 1964.

(٢) Sara F. Matthews Grieco, *Ange ou diablesse : la representation de la femme au 16e siecle*, Paris, Flammarion, 1991, p. 96.

إن لوحات العرى المستلقى يُظهر بطريقة أخرى تكريس الجنس الجميل. فمن المعروف أن مثال الجمال الفلورنسى قد تجلى فى أشكال عمودية، بينما تجسد مثال مدينة البندقية من خلال لوحات فينوس المستلقية[1]، وأتحفنا جيورجيونى بأول لوحة لـ *فينوس نائمة (١٥٠٥)* وهو مثال أصلى تجاهله القدماء، واستخدم كنموذج طوال تاريخ فن الرسم[2]. تلك الثروة من التمثيل الأفقى للمرأة تستحق التوقف عندها. يعد تقديم المرأة المستلقية طريقة للتعبير الزائد عن "الجنس الجميل". ومع الاحتفاء بها فى وضع خامل أو نائم، ظهرت المرأة ككيان مكرس للتأمل والاشتهاء. أفضل من أى وقت مضى، وتترك الجميلة نفسها لنظرة المتفرج وهى مستلقية وهائمة فى أحلامها كما لو كان حلمًا خلابًا. إن فينوس النائمة تضفى طابع الملائكية على الجمال النسائى، فهى تسبغ عليه السلام وتضيف إليه الحسية فى آن، وتعبر المرأة المستلقية والمتراخية والمتحررة من أى مشاريع عن جمال يتحقق بالكامل فى إقصائه كل ديناميكية إرادية، وكل حدث يتطلب طاقة، وكل نشاط مفيد[3]. وعلى عكس الجمال المتوثب الذى خلدته تماثيل الذكور العراة لمايكل أنجلو Michel-Ange، فإن جمال المرأة يتماشى مع الراحة والخمول والرخاوة فى حركاتها. إن فينوس المستلقية هى وسيلة لإظهار هيمنة الدور "التزيينى" للمرأة؛ وهى طريقة للربط بين الجمال النسائى وبين الخمول والكسل، وهى أسلوب تجميل لغز المرأة وتلطيف الفكرة التقليدية القائلة بأنها صعبة المنال، وفى النهاية هى وسيلة لعرض المرأة الحالمة، والتى تترك نفسها عرضة لأحلام الرجال التملكية.

---

(١) Erwin Panofsky, *Essais d'inconologie*, op. cit., p. 222.

(٢) استخدمت صورة المرأة النائمة أو الممددة كنموذج لوصف "المرأة الجميلة" فى الرواية فى القرن الـ١٧.

(٣) Caroline Chaponniere. Le Mystere feminine. op. cit. p. 117-127.

ثقافة الجنس الجميل: ثقافة حديثة

ما هو المغزى الاجتماعى لهذا الارتقاء التاريخى للجمال النسائى، وما الوضعية الثقافية الجديدة التى نجحت فى فرض نفسها كسمة دائمة للحضارة الغربية الحديثة؟ كى نتقدم فى هذا النهج، علينا أن نأخذ فى الاعتبار الإشكالية المهمة التى طرحها آرثر مارويك Arthur Marwick. وتقول فكرتها الرئيسية إن الجمال على امتداد التاريخ تشكل حول تعارض مهم يمكن صياغته على النحو التالى: تصور تقليدى يتعارض مع تصور حديث. استمرت سيادة التصور الأول حتى القرن الثامن عشر، وهو التصور الذى يتسم جوهريًا بعدم الفصل بين الجمال الشكلى وجمال الفضائل الأخلاقية، ولكون الجمال فى الثقافات التقليدية انعكاسًا للطيبة الأخلاقية، فلم تكن له مكانة مستقلة، بل كان جزءًا لا يتجزأ من الخير. ذلك أن كل جمال جسدى يستبعد كل قبح للروح، وكل قبح خارجى يعنى وجود عيب داخلى[١]. وهناك سمتان أخريان اتصفت بهما رؤية ما قبل الحداثة. السمة الأولى هى أن الجمال الإنسانى بدا كسمة لا تحظى بتقدير اجتماعى كبير، فمثلا فى مسألة الرباط الزوجى، لم يلعب تقريبًا أى دور يذكر، وإنما الثراء والمرتبة والوضع الاجتماعى للمرأة هى التى أخذت فى الحسبان. ثانيًا: فرضت تراتبة جمالية للجنسين نفسها، هيمن عليها الإناث والارتقاء الاجتماعى بالجمال النسائى[٢](دون أن ينطبق ذلك على الإغريق القدماء). واعتبارًا من العصر الكلاسيكى بدأ هذا النموذج ينحل تدريجيًا لصالح التصور الحديث الذى يتميز بتعريف الجمال كسمة تنحصر فى الجسد، وقيمة مستقلة تمامًا عن كل قيمة أخلاقية. مذاك، لم يعد الجمال يحيا إلى شىء آخر إلا إلى ذاته، واعتبر كصفة جسدية بحتة لا تحوى إلا قيمة جمالية وجنسية[٣]. إن الديناميكية التى تسعى لجعل مكانة المظهر مستقلة قد أدت بعد وقت طويل أى فى سنوات الستينيات

---

(١) Arthur Marwick, *beauty in History*, Londres, Thames and Hudson, 1988, chap. 3.

(٢) *Ibid.*, p. 60-62.

(٣) *Ibid.*, p.15-17.

تقريبًا(١) إلى تثمين أكبر للجمال الذكورى، وإلى تكافؤ بين الجنسين من حيث القيمة المرتبطة بالمظهر الجسدى.

وإذا تتبعنا هذا التأويل، نجد أن عصر النهضة قد ظل فى معظمه حبيسًا، فى العالم التقليدى للجمال، وقد أنكرت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة طوال ماضى ألفى استقلالية المظهر الجسدى، مع أنها رأت فى الجمال انعكاسًا للطيبة غير المرئية. أما بالنسبة لتقديس الجمال النسائى فما كان منه إلا أن عزز النموذج التقليدى غير المتكافئ للجمال عند الجنسين، وعلى الرغم من الثورات الفنية الهائلة، بقى عصر النهضة يوجه الإطار الفكرى ما قبل الحداثى للجمال.

فلنقُلها صراحة: نحن، جذريًا، ضد هذا التأويل لتاريخ الجمال، ولأنه حد كثيرًا من معنى استقلالية مكانة الجمال، ولأنه أساء فهم المعنى التاريخى لعبادة الجنس الجميل. إن ما حدث فى عصر النهضة ليس تكرارًا للرؤية التقليدية بقدر ما مثل الظهور الأول للعالم *الحديث* للجمال. أما الفكرة القائلة بأن الجمال، كسمة جسدية مستقلة، أصبح هو المعيار الفاصل بين الرؤية الحديثة والرؤية التقليدية فهى فكرة غير مقبولة. ولا شك فى تحرر البعد الجمالى فى مواجهة البعد الأخلاقى على مر القرون، ولكن هذه الظاهرة ذات أهمية تاريخية ثانوية عند مقارنتها بما تمثله عمليتا التثمين والتكريم الاجتماعى للجمال النسائى. لم ترجح كفة الجمال النسائى فى العصر الحديث حين ظهر كملكية جسدية خالصة جردت من أى دلالة أخلاقية، وإنما رجحت فى اللحظة التى تعرت فيها المرأة كتجسيد أعلى للجمال، ومهما كان المنطق غير المتكافئ الذى ينظم بنيويًا قدسية الجمالية النسائية، فإنه لا ينتمى إلى وضعية تقليدية إلا فى ظاهره فقط، فتقديس الجنس الجميل يعبر فى لب حقيقته عن ثقافة وتراتبية ذات أصل حديث.

---

(١) *Ibid.*, chap. 8.

أولا أصبح الجمال النسائى موضوعًا نبيلا للمرة الأولى، وشيئًا يستحق الدراسة والتفكير النوعيين، وحينئذ كانت الكتابات التى تتطرق للجمال النسائى وحده نادرة؛ وعلى العكس، انطلاقًا من القرن السادس عشر، ألهم سحر المرأة أدبًا غزيرًا "متخصصًا". وتشهد على ذلك عناوين الأعمال المتعددة التى تذكر المرأة صراحة(١)، وفى الوقت ذاته بذل جهد لم يسبق له مثيل لتصنيف الألفاظ المستخدمة وتعريفها للتعبير عن الجمال؛ فقد أفرد فيرينزولا Firenzoula صفحات مطولة لتحديد معانى ألفاظ كـ leggiadria,grazia, vaghezza,aria, maesta, venusta، وقد ركزت التصانيف بدقة كبيرة على معايير الجمال النسائى؛ فقد عددت ورتبت، بطريقة نظامية، الخصال التى يجب على المرأة أن تظهرها كى تعتبر امرأة مكتملة، فهى تؤسس قواعد الجمال المتعلقة بأدق التفاصيل وليس القواعد عامة. عند بيترارك Patrarque وبوكاشيو Boccace حظيت الأجزاء "النبيلة" فقط من جسد المرأة بالاهتمام الشعرى: بعد ذلك ومع انتشار موضة القصائد الوصفية التشريحية، لم يفلت أى جزء صغير من جسد المرأة من مشروع التمجيد الأدبى، وكما فتح عصر النهضة المجال، من خلال المنظور الخطى، لفن الرسم نحو عمق اللانهاية، كذلك أخضع الأشكال النسائية جميعها للمديح الشعرى، أما التغير الفاصل فيقوم على أن الجمال النسائى قد دخل عصرًا من التساؤل، ومن تكوين المفهوم ومن التثمين المخصص الذى يشكل سمة العصر الحديث، حتى وإن تأسست ثقافة الجنس الجميل انطلاقًا من مبدأ تراتبى غير متكافئ، وحتى وإن ظل الجمال ينظر إليه، فى عصر النهضة، كتجلّ للفضيلة، فإنه بقى مع ذلك موضوعًا جديرًا بالدراسة، ومثيرًا لوابل من الملاحظات والأوصاف والمدائح والنصائح والتعليمات المعيارية، تلك هى عصرية الجنس الجميل.

---

(١) وكذلك كتاب Firenzco, وتذكر Luigini , *Il Libro della bella donna* (1554) : Nicolo Campani, *Bellezze della donna* (1566) ; Lodovico Domenichi, *La Nobilta della donne* (1549).Feder

حديثة هي ثقافة الجنس الجميل، وحديثة أيضًا بفضل العلاقات التي تربطها بالمسيرة العامة للتخصص والعقلنة والمفاضلة التي تكاثرت بفعل الوظائف الاجتماعية[١]. إن الاحتكار، وتمركز القوات العسكرية والشرطية، والاستخدام المعتاد للحسابات في العمليات التجارية، و"حضارة الأخلاق"، وتصوير الفضاء انطلاقًا من قوانين الهندسة لإقليدس، جميعها ظواهر تنتمي للعقلنة الاجتماعية الحديثة، والتي ترتبط بها ثقافة الجنس الجميل. ومنذ فجر العصور الحديثة، تأرجحت ثقافة الجنس الجميل في منطق من التخصص ومن المعيارية المنتظمة، وتوزع الجنسان تراتبيًا في علاقتهما بالمظهر الجسدي، ومع اعتلاء المرأة لقمة الجمال، تجلت المعايير الجمالية لكلا الجنسين بمنهجية ودقة، وامتد تقسيم مماثل في الأدوار والمكانات الجمالية للجنسين حتى طال ثورة الأزياء في منتصف القرن الرابع عشر فتأسس تمايز قوي في مظهر الرجال والنساء، فالثوب الطويل للنساء والبزة القصيرة المُحكمة للرجال[٢]. بعد ذلك، وفي القرن السادس عشر ظهرت للنساء المشدات الصلبة المدعمة بقطع من عظام فك الحوت، كذلك أتاح نموذج المرأة الممتلئة، والمكتنزة الفرصة لإبراز الفصل بين الجنسين من حيث المظهر، كما حثت كتب التهذيب النساء على تأكيد أنوثتهن. كتب كاستيجليون Castiglione في الباب الثالث من كتاب "*المغازل*" في اعتقادي أنه لا ينبغي للمرأة أن تشبه الرجال في هيئتهم وطريقتهم وكلامهم وحركاتهم وسلوكهم". ومما لا شك فيه أن ثقافة الجنس الجميل التراتبية تمثل جزءًا من الحراك الواسع للتخصص المكثف والمنتظم لأدوار الجنس، والتي تعد سمة لعملية العقلنة الحديثة.

من الواضح أن الانتصار الجمالي للنساء لن يؤثر على العلاقات التراتبية الواقعية التي تقضي بتبعية المرأة للرجل، ومن نواح عدة، من الممكن التأكيد على أنه

---

(١) Norbert Elias, *La dynamique de l'Occident*, Paris, Calmann-Levy, 1975.

(٢) Francois Boucher, *Histoire du costume en Occident de l'Antiquite a nos jours,* Paris, Flammarion, 1965, p. 191-198.

ساهم فى تدعيم النموذج النمطى للمرأة الضعيفة والسلبية، والمتدنية العقل، والتى مآلها تبعية الرجل، زد على ذلك أن أنشودات الجمال لم تحتف إلا بامرأة متخيلة، وظهرت على الرسومات الاستعارية نساء ذوات بشرة ناصعة وتعبيرات مثالية لا تشبه تعبيرات الأفراد مما يقرب الجنس الثانى من صورة الملاك أو الكائن الخرافى أكثر من كونه مخلوقًا واقعيًا(١). ومن جهة أخرى جزأت القصائد الوصفية التشريحية، وقطعت الجسد النسائى على هواها، وكأنه ليس إلا شيئًا خلق ليكون لعبة مصطنعة ولطيفة؛ إنه جمال مفتت، جمال يفك ويركّب، ليس من أجل المتعة فقط، ولكن بالأحرى لتحقيق مجد الفنان. وفعلا، نرى أن كل قصائد المديح هذه لم تحتف بالمرأة كشخص بقدر ما احتفت بالفعل الإبداعى ذاته، ولا بالفردانية النسائية بقدر سلطة الفنان المبدع القادر على تغيير هيئة جسد المرأة على هواه، فهى تعنى أولاً بإبراز الشاعر لذاته بغية كسب شهرة أدبية(٢). "الجنس الجميل" أو استمرار الهيمنة الذكورية والإنكار للمرأة عن طريق وسائل أخرى.

ولكن أو ليس هذا مجرد فخ أدبى نصب لتشيىء النساء؟ إذا تأملنا المسيرة التاريخية الطويلة لوجدنا أن صعود الجنس الجميل لا يمكن أن يقتصر على حركة مكونة لـ"المرأة الذريعة". ودائمًا ما عهد للنساء منذ عمق التاريخ بسلطات محددة، سلطات طقسية وسحرية، سلطات على الحياة والموت، سلطات الأذى والإبراء، ولكن جميع هذه السلطات تمثل السمة ذاتها من حيث عدم إعطاء المرأة أى اعتبار أو اعتراف اجتماعى؛ فكانت أنشطة الجنس الثانى محقرة فى كل مكان ومعتبرة أنشطة دونية بالنسبة للأنشطة الذكورية، وفى كل مكان أقصيت المرأة عن الوظائف النبيلة، واقترنت بالقدرات الخطرة للفوضى، وإذا كانت الوظيفة الإنجابية فى مأمن من الإنقاص الثقافى لقيمتها، فإنها لم تقترن بأى شكل بالمديح ولم تمنح قيمًا تشريفية

---

(١) Sara F. Matthews Grieco, *Ange ou diablesse*..., op. cit., p. 147.

(٢) Jean-Paul Desaive, " Les ambiguites du discours litteraire", *Histoire des femmes*, t. 3, p. 275-277 ; Francette Pacteau, *The Symptom of Beauty*, Londres, Reaktion Books, 1994, p. 26-30.

عليا. فالشأن الاجتماعى قد أسس بشكل لا يتغير لتفوق السلطات الذكورية والاحتكار الذكورى للمكانة الاجتماعية، وبسبب هذا القانون الاجتماعى، قدمت قدسية الجنس الجميل تغيرًا مهمًا: بدأت سلطة نسائية محضة تحظى بالتكريم والاحتفاء والتكريمات التفخيمية؛ إذ قال بلزاك Balzac:" كل امرأة جميلة هى ملكة"، وها هى سلطة نسائية تحظى بتعبيرات الإعجاب الشديد، والإكبار وتعتبر متكافئة وتتجاوز تقريبًا قدرة السلاطين بعد ألفيات من الاحتقار. الجديد فى الأمر هو أن الصفة النسائية باتت قادرة على إضفاء ألقاب النبل والمكانة الاجتماعية والثراء الرمزى على النساء. من هنا فإن الأنشودات التى تتغنى بالجنس الجميل لا يمكن تشبيهها بلا قيد أو شرط بوسيلة استلاب للمرأة؛ فقد حققت اعترافًا وتثمينًا غير مسبوقين بالامتيازات النسائية، وسمحت فى الوقت ذاته بتحقيق ارتقاء اجتماعى ورمزى للنساء، حتى وإن كان استثنائيًا، على غرار سيدات الجمال ومحظيات الملك الأخريات(١).

بلا شك إن هذا الارتقاء بالمرأة كان أدبيًا أكثر منه اجتماعيًا؛ لقد ظل التفوق الذكورى فى القرن السادس عشر على حاله، فساد رفض كل تعليم عقلانى جاد للنساء، كما كانت كل امرأة متزوجة هى امرأة عاجزة، وبات عدد من المهن التى كانت حتئذ نسائية حكرًا على الذكور. والحقيقة أن المرأة حازت مكانة رمزية جديدة تعبر عن تذبذب فى طريقة إدراك التمايز بين الجنسين من خلال وسيط هو مكانة الجمال. فمن جهة، نبعت ثقافة الجنس الجميل من منطق ذى نمط "عتيق" قائم على عدم التكافؤ وعدم التشابه الجذرى بين الجنسين؛ فالقوة والعقل للرجال؛ والضعف العقلى والجمال الجسدى للنساء: فكلا الجنسين ينظر إليهما تحت لافتة تغاير الخصال على امتداد تاريخ سحيق، ولكن من جهة أخرى، ارتبطت قداسة مماثلة بزعزعة الاقتصاد التقليدى للتمايز بين الجنسين، حتى وإن نالت النساء أدوارًا ومكانات معترفًا بها مجتمعيًا، لكنها زجت فى خانة الطبيعة الهمجية والفوضى، وبالتالى أقصيت من الوظائف الثقافية النبيلة. ومع عصر الجنس الجميل لم يعد هذا

Mivhele Sarde, *Regard sur les Francaises*, op. cit., p. 307-317.(١)

الإبعاد مطلقًا، ذلك أن النساء حظين بالتكريم والشهرة الاجتماعيين، وهو تغير لم يكن ليحدث لولا أن التغاير المطلق للمرأة كف عن أن يكون بديهيًا: نشأ ملكوت الجنس الجميل من تلاشى إدراك النساء كـ "فصيلة ملعونة" و"خطيرة نوعًا ما" على الإنسانية. إنه احتفاء جمالى لا يمثل لفتة تطيل أمد العالم التقليدى للانفصال المطلق بين الجنسين بقدر ما هو بداية حديثة لتراجع الآخرية المنفرة للنساء[١]. وعلى الرغم من وجود نمط جمالى أكد على الفصل بين طبيعة كلا الجنسين بشكل مبالغ فيه، فإن المرأة بدت أكثر ألفة، وأكثر قربًا وأقل اتصافًا بالغرابة المهددة؛ فالجميلة لم تعد فخًا من صنع الشيطان، وإنما صارت "صديقة كاملة الأوصاف"، وتجسيدًا رائعًا "للجنس اللطيف"، ولم يتأكد التفوق الجمالى للنساء إلا على أساس من إنقاص عملية التباين جوهريًا، وخلف إعادة تقديم علامات الانفصال بين الجنسين، اختفت برانية النساء الخطيرة، وفى الوقت ذاته اندمجت النساء مع النظام النبيل للثقافة الإنسانية. من هنا ينبغى للهجمة التاريخية للجنس الجميل ألا تفسر باعتبارها صورة جديدة لإبعاد الإناث، بل كخطوة أولى نحو الديناميكية الحديثة التى تعترف بالكرامة الإنسانية والاجتماعية للمرأة.

---

(١) هذا التأويل لتقديس الجنس الجميل يتماشى والتوجه الذى طرحه Marcel Gauchet , Gladys Swain فى تحليلهما لـ "الانغلاق الكبير" للجنون فى العصر الكلاسيكى (*La pratique de l'esprit humain*, Paris, Gallimard, 1980, p. 489-501).

(٢)

طفرة الجمال

انتشرت عبادة الجنس الجميل فى إطار اجتماعى ضيق حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولم تتجاوز التكريمات الجمالية للمرأة ولا الممارسات المتعلقة بالجمال حدود جمهور ثرى ومثقف؛ فخارج الدوائر الاجتماعية العليا، حظى التثمين الشعرى والتجميلى للمرأة، وكذلك الصور المتألقة للنساء بانتشار اجتماعى محدود، وفى المجتمعات الريفية، وحتى الحرب العالمية الأولى تغلبت الاتهامات التقليدية المتعلقة بسحر النساء على تمجيدهن. وخلال ما يقرب من خمسة قرون احتفظ الاحتفاء بالجميلة ببعد نخبوى: فهو تقديس لنمط أرستقراطى يميز الفترة الافتتاحية لتاريخ الجنس الجميل.

هذا المنطق لم يعد يحكمنا؛ ففى القرن العشرين نشرت الصحافة النسائية للمرة الأولى، إلى جانب الدعاية والسينما وصور الموضة، المعايير والصور المثالية للنساء بين قطاع كبير من الجماهير. ومن خلال النجمات وعارضات الأزياء وصور الشابة الجذابة pin-up تركت النماذج النسائية مملكة الندرة لتغزو الحياة اليومية؛ فشجعت المجلات النسائية والصور والدعايات استخدام مستحضرات التجميل لكل النساء، وفى الوقت ذاته انطلقت ديناميكية حتمية لتصنيع منتجات الجمال وتعميمها. ومنذ قرن، اكتسبت عبادة الجنس الجميل بعدًا اجتماعيًا غير مسبوق، وذلك بدخوله عصر الجماهيرية؛ فانطلاق الثقافة الصناعية والإعلامية سمح بقدوم مرحلة جديدة فى تاريخ الجنس الجميل، أى مرحلته التجارية والتعميمية.

الحدود القديمة للانتشار الاجتماعى للجنس الجميل تلاشت جميعها شيئًا فشيئًا، والحدود الاجتماعية: فالصور والمماسات، والنصائح وقوانين الجمال، قد انتشرت فى جميع الأوساط، وحدود طرق الإنتاج: الصناعات اليدوية قد أخلت

المجال لتصنيع مستحضرات التجميل، وحدود المتخيل: فالجمال النسائى قد تخلص فى كل مكان من علاقاته بالموت والرزيلة، والحدود العمرية: باتت ممارسات الجمال مشروعة وتُمارس فى سن مبكرة وتبقى إلى سن متأخرة، والحدود الطبيعية: مع جراحات التجميل ومستحضرات العناية لزم التغلب على العيوب الجسدية وأرذل العمر، والحدود الفنية: كان تمجيد الجنس الجميل هو الشغل الشاغل للشعراء والفنانين على مدار قرون، وأصبح شأنًا اهتمت به الصحافة وصناعة السينما والموضة ومستحضرات التجميل. وهكذا وصلنا إلى المرحلة النهائية للجمال، وهذا لا يعنى أن تاريخه انتهى، بل يعنى أن الحدود القديمة جميعها انهارت أمام انتشاره، وبدأت حلقة تاريخية جديدة مرتكزة على أساس من التزام الحرفية إزاء المثال الجمالى الأعلى (نجمات وعارضات أزياء) وإزاء الاستهلاك الجماهيرى للصور ومنتجات الجمال. إن إدخال الجمال حيز التصنيع والأسواق، ونشر وتعميم المعايير والصور الجمالية النسائية، إن المهن الجديدة التى تتفتح أمام الجمال، وزوال مقولة الجمال الوبيل، وتضخم أشكال العناية بالوجه والجسد، جميعها ظواهر أسست للمرحلة الجديدة فى تاريخ الجمال الأنثوى. وبعد الحلقة النخبوية، أتت مرحلة التعميم؛ وبعد مرحلة الحرفيين، أتى العصر الصناعى، وبعد الفترة الفنية، أتى العصر الاقتصادى-الإعلامى، ولم تلغ المجتمعات الديمقراطية الحديثة ثقافة الجنس الجميل، بل توافقت مع تأليهه التاريخى.

حمى الجمال ومسيرة الجسد

ما من شىء يمكن أن يظهر مسيرة تعميم ثقافة الجنس الجميل أكثر من انطلاقة أشكال العناية وممارسات الجمال. صحيح أن النساء استخدمن مساحيق التجميل والمراهم منذ القدم بهدف إظهار محاسنهن وإخفاء عيوبهن لكن ظلت النخبة

الاجتماعية تستأثر بالعناية التجميلية، عبر آلاف السنين وأيضًا خلال العصر الملكى البائد، ووجب انتظار القرن العشرين كى يزول هذا الطابع الأرستقراطى، فمذاك، وللمرة الأولى، كفت أدوات وممارسات الزينة عن أن تكون حكرًا على الطبقة العليا، وإذا كان هناك معنى للحديث عن عصر ديمقراطية الجمال، لأن أشكال العناية الجمالية انتشرت بين جميع الطبقات.

ازدياد مستحضرات التجميل باعتدال حتى الحرب العالمية الأولى، ثم تسارع خلال سنوات العشرينيات والثلاثينيات، فلاقى أحمر الشفاه نجاحًا هائلا اعتبارًا من ١٩١٨؛ كما انتشرت الزيوت المقاومة لحرارة الشمس وطلاء الأظافر بكثرة فى سنوات الثلاثينيات، ولكن الانطلاقة الكبرى للاستهلاك الجماهيرى لمستحضرات التجميل حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين. وفى فرنسا تزايدت مبيعات صناعة العطور ومنتجات الجمال بمعدل ٢,٥ بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٨؛ ومن عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٩٣ قفزت من ٣,٥ مليارات إلى ٢٨,٧ مليارًا، وخلال هذه الفترة ارتفع استهلاك الفرد من ١٠٦ فرنكات إلى ٨٤٠ فرنكًا. وبسبب التقدم العلمى الذى لحق بالوسائل الصناعية، إلى جانب ارتفاع مستوى المعيشة، أصبحت مواد التجميل فى مجتمعاتنا سلعًا استهلاكية عادية، أى أنها صارت واحدة من "الكماليات" فى متناول الجميع.

وخلال العقود الأخيرة لم تتكثف هذه الدمقرطة فحسب، بل صاحبها انزياح فى أولويات، واقتصاد جديد مبنى على ممارسات النساء فيما يتعلق بالجمال ومؤسس لأولوية العلاقة بالجسد، وبلا شك إن اهتمام النساء بالمحافظة على مظهرهن الفتى ليست ظاهرة حديثة، ولكن طالما كانت العناية المولاة للمظهر يسيطر عليها هوس الوجه، انطلاقًا من منطق *تزيينى* يتجسد فى استخدام مستحضرات التجميل، وفى فنون الموضة وتسريحات الشعر. هذا الاتجاه لم يعد اتجاهنا: بات الجسد والعناية به هما ما يحركان هوى النساء وطاقتهن الجمالية أكثر فأكثر. ومنذئذ لا تسعى ممارسات الجمال إلى تكوين مشهد خادع للعين بقدر ما تسعى إلى الحفاظ على جسد

شاب ورشيق، ولا تهدف إلى التصنع فى المظهر بقدر ما تهدف إلى تجديد الشباب وشد البشرة وتدعيمها. فى عصر مقاومة الهرم والوزن الزائد، انزاح مركز الثقل من تقنيات التمويه إلى تقنيات الوقاية، ومن الطقوس الاصطناعية إلى ممارسات العناية بالجسد، ومن الإخراج المصطنع إلى قواعد الغذاء الإجبارية، ومن الكثافة الزخرفية الزائدة إلى عمليات تجديد البشرة.

شغلت بالتأكيد جمالية النحافة مكان الصدارة فى كوكب الجمال، الجديد، فغزت إرشادات النحافة الجرائد النسائية أكثر فأكثر، كما أسهبت الزوايا الصحفية فى الحديث عن قيمة الغذاء المتوازن، وعن وصفات إنقاص الوزن، وتمرينات اللياقة والقوام، وتكاثرت الدعاية لمنتجات إنقاص الوزن، كما حدث مع كتب الحمية الغذائية، فنشر فى عام ١٩٨٤ ما يقرب من ٣٠٠ كتاب عن الحمية الغذائية فى أمريكا، وأدرج اثنا عشر منها ضمن قائمة الأكثر مبيعًا. كما باع كتاب مونتينياك Montignac *أنا آكل إذا أنا أفقد وزنًا* فى فرنسا ١,٥ مليون نسخة، ونشرت نجمات مثل جين فوندا Jane Fonda وفيكتوريا برينسيبال Victoria Principal طريقتهن فى كيفية العيش جميلات ورشيقات. وكانت تعدّ المنشورات العلمية والتقنية عن السمنة بالآلاف منذئذ بات تقديس الجمال ووصفات النحافة لا ينفصلان.

وأصبح سوق النحافة سوقًا جماهيريًا، حيث حققت الصناعات المتعلقة بالأنظمة الغذائية فى عام ١٩٨٩، أرقام مبيعات تقدر بـ ٣٣ مليار دولار، والإقامة فى المصحات المتخصصة يقدر بحوالى ١٠ مليارات دولار؛ إنه عصر إعدادات الحمية المنخفضة السعرات، وبدائل الأغذية ومنع الشعور بالجوع، وأحصى فى فرنسا حوالى ٥٠٠٠ مرجع لمنتجات إنقاص الوزن و١٥٠٠ منتج جديد خفيف تطلق فى الأسواق سنويًا عبر العالم. وفى نهاية الثمانينيات كان هناك ما يقرب من ٨٠ مليونًا أمريكيًا يستهلكون منتجات إنقاص الوزن، والتى تمثل حاليًا ١٠% من السوق الغذائى فى البلدان الأوروبية الرئيسية.

أى امرأة، فى عصرنا هذا، لا تحلم بأن تكون نحيفة؟ حتى اللواتى لا يمثلن زيادة فى الوزن يحلمن أحيانًا بالنحافة. عام ١٩٩٣ فى فرنسا، تمنت ٤ فرنسيات من أصل ١٠ أن ينحفن، وترغب ٧٠% منهن فى النحافة لأسباب جمالية. وفى الولايات المتحدة الأمريكية ٧٥% من النساء يرين أنفسهن بدينات جدًا، وتضاعف عددهن فى سنوات السبعينيات والثمانينيات، فى حين صرح سيلفستر ستالون SylvesterStallone فى جريدة *التايمز* بأنه يحب النساء ذوات القوام شديد النحافة، كما نرى نسبة ملحوظة من الأمريكيات أكدن أن أكثر ما يبغضنه فى العالم هو أن يصرن بدينات(١). وعرفت الجهود من أجل النحافة تطورًا صاعقًا، فكل امرأة فرنسية من أصل اثنتين، وكل ٨ أمريكيات من أصل ١٠ قد حاولن مرة على الأقل أن يصرن نحيفات. والنساء الأصغر سنًا لسن فى معزل عن المسألة، فنجد ٦٣% من الطالبات الأمريكيات يلتزمن بحمية غذائية؛ و ٨٠% من الفتيات بين ١٠ و ١٣ عامًا صرحن بمحاولتهن أن ينحفن(٢).

ويضاف إلى ذلك كريمات التنحيف؛ لأن الأنظمة الغذائية لا تقوم بتنحيف "المكان الذى ينبغى تنحيفه" فتستخدم النساء بكثافة كريمات المقاومة للسيلوليت، والتى لا تعد آثارها قاطعة، مع ذلك، إذا ما صدقنا محاولات المقارنة التى تجريها المؤسسات على المستهلكين، ففى عام ١٩٣٣ اشترت النساء الفرنسيات ١,٥ مليون عبوة، ولجأت فرنسية واحدة من أصل ٧ إلى كريم للشد، وهذا أكثر بمرتين من المتوسط الأوروبى(٣). لكن، تزايدت ممارسة النساء للأنشطة الجسدية والتمارين، فكل اثنين من ممارسى الرياضة فى فرنسا أحدهما امرأة، وتزايدت فى كل مكان من مجتمعاتنا أنشطة الحفاظ على القوام، واللياقة البدنية المقوية والخفيفة، إلى جانب

---

(١) Kim Chernin, *The Obsession : Reflections on the Tyranny of Slenderness*, New York, Harper Perennial, 1981, p. 36.

(٢) Gerard Apfeldorfer, *Je mange, donc je suis*, Paris, Petite Bibliotheque Payot, 1993, p. 51-53.

(٣) *50 Millions de consommateurs*, mars 1995.

الركض الفردى، وتمرينات العضلات وتدعيمها. إن الجمال لم يعد ليدرك دون شاقة، ودون القيود الغذائية والتمرينات الجسدية.

فى الوقت ذاته، فإن لزوميات النحافة باتت صارمة أكثر فأكثر؛ فتطور مقاييس عارضات الأزياء والمرشحات للقب ميس أمريكا تشهد على ذلك؛ حيث بلغ طول واحدة من أوائل الحاصلات على لقب ميس أمريكا ١,٧٣ متر وكانت تزن ٦٣ كيلو، وذلك فى بداية سنوات العشرينيات؛ وفى عام ١٩٥٤ كان طول المتسابقات يبلغ فى المتوسط ١,٧١ متر ووزنهن ٥٤,٩ كيلو. وبين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٣ بلغ وزن إحدى المتسابقات التى طولها ١,٧٦ متر ٥٣ كيلو[1]. إنه تطور يجعل فينوسات الخمسينيات قد تبدو لنا "سمينات" بعض الشيء. صحيح أن نموذج النحافة النسائى قد بلغ حدوده، ذلك أن عارضات الصف الأول الحاليات بدأن يبتعدن عن جمالية "الخيط المشدود" وأظهرن بعض العودة إلى "القوام" النسائى، لكن فى الوقت ذاته لم تعد تنبذ النساء كما الآن كل ما قد يظهر متهدلا، وسمينًا، ورخوًا، ولم يعدن يكتفين بأنهن لسن بدينات، بل سعين إلى بناء جسد مشدود وذى عضلات، وقوى، وجسد متخلص من كل علامات الانفلاش والرخاوة.

ويهيمن على الأفق النسائى الجديد فيما يتعلق بالجمال معياران هما: مقاومة السمنة ومقاومة الشيخوخة، وتتجلى هذه النزعة فى ارتفاع استهلاك مستحضرات التجميل، وصارت منتجات العناية تحتل المرتبة الأولى بين مبيعات مستحضرات التجميل، فقد مثلت ٢٣,٦% من إجمالى عدد أرقام المبيعات لصناعة العطريات فى عام ١٩٩٥، مقابل ١١,٤% مساحيق التجميل، و١٤,٢% للعطور، و١٦,٢% لمنتجات العناية بالجسم. ووحدها تمثل مستحضرات العناية المقاومة للعمر وللتجاعيد رقم مبيعات بلغ ١,٢ مليار، متجاوزًا مثيله لمساحيق تجميل الشفاه والعيون والوجه.

---

(1) Roberta Pollack Seid, *Never Too Thin*, New York, Prentice Hall, 1989; B. Silverstein, B. Peterson, L. Perdue, "Some Correlates of the Thin Standard of Bodily Attractiveness for Women", *International Journal of Eating Desordrs*, n.5, 1986.

وفى غضون سنوات الثمانينيات تضاعفت مبيعات مستحضرات العناية أربع مرات، ويتشابه التطور ذاته فى الولايات المتحدة، حيث تجاوزت مبيعات منتجات العناية مبيعات مساحيق التجميل.

إن هوس العمر والتجاعيد يتجلى أيضًا فى انتشار جراحات التجميل. ففى الولايات المتحدة، وبين عامى ١٩٨١ و١٩٨٩، تزايدت التدخلات الجراحية بنسبة ٨٠%، وتشير بعض التقديرات إلى ١,٥ مليون تدخل جراحى سنويًا، وتحقن امرأة أمريكية واحدة من أصل ٦٠ ثدييها سنويًا[1]. واعتبارًا من سنوات الستينيات تزايد عدد أطباء التجميل الأمريكيين إلى خمسة أضعاف؛ وفى فرنسا تضاعف عددهم مرتين فى عشر سنوات. ويجرى، فى فرنسا، ما يقرب من ١٠٠،٠٠٠ تدخل جراحى كل عام، وبما يقرب من ٥٠،٠٠٠ سنويًا فى فرنسا و٤٠٠،٠٠٠ فى أمريكا تعد عمليات الشفط الأكثر طلبًا بين التدخلات الجراحية بعد أن كانت الجراجات التجميلية تثير الرهبة، أصبحت الآن أكثر فأكثر ونزع عنها الطابع المأساوى، وصارت وسيلة لتجديد الشباب والتجميل، بعد أن كانت من قبل محظورة، فالتصدى للتجاعيد والكتل غير المرغوب فيها، لم يعد يتوقف عند الأنظمة الغذائية والتمرينات الجسدية وأفانين مساحيق التجميل؛ بل راح يتجه إلى "إعادة تشكيل" وإعادة صياغة المظهر متحديًا آثار العمر.

المعاينة تفرض نفسها؛ فمع تضاؤل توجيه موضة الأزياء وتضاؤل جزء الميزانيات الذى تجتذبه، تمارس المعايير الجمالية للجسد هيمنتها بقوة مضاعفة. كلما كانت الموضة أقل تجانسًا، أصبح الجسد الرشيق والمشدود هو المعيار التوافقى، وكلما قلت بهرجة الأزياء، ازدادت الممارسات الجسدية ذات الهدف الجمالى؛ وكلما تأكدت المُثل العليا للشخصية والأصالة، أصبحت ثقافة الجسد تقنية وإرادوية؛ وكلما فرض مثال الاستقلالية الفردية نفسه، ازدادت المطالبة بالتماشى مع النماذج الاجتماعية للجسد. والمفارقة نرى أن انطلاقة الفردانية النسائية تتواكب مع تكثيف

---

(1) Suasan Faludi, *Backlash*, Paris, Des femmes, 1993, p. 249.

الضغوطات الاجتماعية لمعايير الجسد. فمن جهة تحرر الجسد النسائى إلى حد كبير من عبودياته القديمة، أكانت جنسية وإنجابية وأزيائية؛ ومن جهة أخرى ها هو يخضع لقيود جمالية ممنهجة ولزومية ومثيرة للقلق عن ذى قبل.

جمالية الأعطاف والثقافة الديمقراطية

كيف يتسنى لنا التعبير عن دوامة قيود الجمال هذه، والتى تشكل النحافة مركزها؟ ما معنى طغيان الجمال هذا فى الوقت الذى ترفض فيه النساء بشكل جماهيرى تكليفهن بدور السلعة التزيينية؟

ما من شك فى أن الظاهرة ترتبط بالسياسات الصناعية والتجارية التى تستثمر الجسد كسوق جديد ذى تفرعات لا تحصى، ولكن من الإجحاف الاكتفاء بهذا البعد الاقتصادى للعرض و"الاستهلاك الموجّه"؛ فأصحاب التيار النسوى فهموا ذلك جيدًا، وجاهدوا من أجل كشف المعنى الاجتماعى للظاهرة، وربطها بالتمايز بين الجنسين، فيما وراء هجوم تسويق Marketing الجسد. ونرى، فى هذا المنظور، أن حمّى الجمال- النحافة-الشباب- قد تعنى سلطة ومدى غير مسبوقين للعرض الاقتصادى بقدر ما تعنى رد فعل اجتماعى وثقافى موجه ضد مسيرة المرأة نحو المساواة، وجزء لا يتجزأ من رد الفعل المضاد الذى كانت المرأة ضحيته، والذى تزايدت مظاهره اعتبارًا من سنوات السبعينيات أنه لـ "ثأر جمالى[1]" فعندما تفقد الأيديولوجيات القديمة المنزلية الجنسية والدينية قدرتها على التحكم فى النساء اجتماعيًا، تأتى إيعازات الجمال لتشكل الوسيلة القصوى لإعادة بناء التراتبية التقليدية للجنسين، ولـ"إعادة

---

(1) Ibid., p. 231-257 ; Naomi Wolf, *The Beauty Myth*, Londres, Vintage, 1990.

النساء فى مكانهن الطبيعى"، وزجهن فى خانة المخلوقات اللواتى يعشن بمظهرهن أكثر من تأثرهن "بعَمَلهن" الاجتماعى. ومع تحطيم النساء نفسيًا وجسديًا، وجعلهن يفقدن الثقة فى نفسهن، وإنهاكهن فى انشغالات جمالية – نرجسية، فإن عبادة الجمال قد تعمل كشرطىّ للنساء، وكسلاح مكرس لإيقاف تقدمهن الاجتماعى، وفى أعقاب السجن المنزلى يأتى السجن الجمالى لينتج من جديد التبعية التقليدية للنساء.

تقديس النحافة–الشباب: أهى وسيلة سحق اجتماعى ونفسى للنساء؟ إنه تأويل قاصر إذا لاحظنا أن المعايير ذاتها تفرض نفسها على الرجال أنفسهم فى هذه الأيام. وبالتأكيد كانت النساء "عرضة للطغيان" أكثر من الرجال بكثير، ومعنيات أكثر منهم بنموذج الجسد الخالى من الشحوم. ومع ذلك فإنهم، يريدون أيضًا إنقاص أوزانهم، ويراقبون أوزانهم وتغذيتهم، ويقومون بتمرينات جسدية ليحافظوا على رشاقتهم وقوامهم، وليست النساء فقط هن من عرفن اكتساح ثقافة رهاب الدهن: فعلى مدار الثمانينيات ازدادت نسبة الرجال الشديدى البدانة، فى فرنسا، من ٢٤% إلى ٤٣%.

من المستحيل تأويل روحانية الجمال– النحافة باعتبارها آلة حرب تنطلق ضد تقدمات النساء الاجتماعية الجديدة، بقدر ما تبدو تعزيز اتجاه يدون فى المسيرة الطويلة للثقافة الحديثة. ومنذ بداية القرن ظهرت الاستياءات الأولى من الأجساد السمينة وفيما بين الحربين العالميتين أطلقت دوقة ويندسور شعارها الشهير" لا تستطيع أى امرأة أن تكون نحيفة جدًا أو ثرية جدًا"، وهو ما أعلنه نحفاء Twiggy قبل ذلك بثلاثين عامًا. وطوال قرن من الزمان، نشرت النجمات وعارضات الأزياء المثال الأعلى الجمالى للمرأة الرشيقة والسامقة. واعتبارًا من سنوات الستينيات، بثت الثقافة الفتوية نماذج جمالية شبابية؛ فانتشرت بكثرة النماذج المعبودة ذات الهيئة الشابة والنحيفة واللامبالية، ولم تعد الكلمة الفيصل" اجمع ثروة"، بل باتت "حافظ على شبابك". باتت كل العلامات التى ترمز إلى العمر، و"أرذل العمر"، والثقل البرجوازى بلا قيمة. فما نراه الآن يعبر أولا عن ذروة ديناميكيةٍ مرتبطة بتحولات الثقافة الجماهيرية، وبالموضة وأوقات الفراغ فى المجتمعات الحديثة منذ مائة عام. وفى هذا

الصدد ينبغى ملاحظة الدور المهم لارتقاء أنشطة الشاطئ وأوقات الفراغ، وانطلاقة صيحة الرياضات وتعرية الجسد (الشورت – البكينى– والمونوكينى)، وكذا تحولات الموضة اعتبارًا من سنوات العشرينيات ثم سنوات الستينيات: الفساتين المستقيمة، وارتداء البنطال، والتنانير القصيرة التى تكشف عن الساقين والفخذين، والملابس الملتصقة بالجسد. تشترك هذه التغيرات جميعها فى أنها ساهمت فى النهوض بالجسد المتحرك والنحيف والفتى، وفى أنها استهانت بعلامات الخمول وبقاء المرأة فى البيت، والذى كانت البدانة واحدة من تعبيراته.

كما ساهمت تحولات الفن الحديث، منذ قرن، فى الارتقاء الاجتماعى بـ "القوام"، ودون أن يكون الجمال المستقيم جمالية "مستقلة"، ارتبط جزئيًا بالفن الحديث، إذ ارتكز واحد من اتجاهاته على رفض التزيين، والإطناب، والمبالغات الأسلوبية الأخرى؛ فالأشكال ذات اللون الموحد، والزوايا التكعيبية والمساحات التجريدية والتضاريس البنائية، والتصميم الوظيفى لم تبرز جميعها تبسيطًا للأشكال الفنية فحسب، بل علمت العين خصوصًا أن ترى أشكالا بلا انتفاخات. وتزامن رفض الوزن الزائد تزينيًا مع كره الوزن الزائد. كان مييس فان دير روهMies van der Rohe يقول "الزائد أخو الناقص"، فجمالية القوام بالنسبة للمرأة تشبه التجرد والتجريد بالنسبة للفن الحديث. إن الحط من قيمة المرأة الممتلئة يتوافق مع تقدم فن ذى جوهر ديمقراطى متمرد على اللغة المقعرة وعلى المسرحة التفخيمية. إن الجمال– النحافة يعبر كثيرًا عن انتصار الجمالية "المتقشفة"، فى الفن الديمقراطى للقرن العشرين أكثر من تعبيره عن سياسة ذكورية عنترية.

لا شىء يمكن أن يفسر الالتصاق فوق العادى للمرأة بالنحافة أكثر من تحولات هويتها الاجتماعية التى تتضمن أشكال التطور فى موضوع منع الحمل والدوافع المهنية الجديدة؛ ففى المجتمعات التى سبقتنا، كانت البدانة النسائية ذات قيمة لارتباطها بالخصوبة، التى تمثل المصير الأعلى للوضع النسائى التقليدى. إن انطلاقة وسائل منع الحمل والارتباط المهنى الجديد للنساء فقد بدلا جذريًا ليس فقط ظروف الحياة لدى

المرأة، بل علاقتها بالمظهر أيضًا. فتوارت قيم الفردانية وشرعية عمل النساء المأجور، والتحكم فى الإنجاب وأفقدت الأمومة وضعها القديم فى الحياة الاجتماعية والفردية، أما فى وقتنا الحاضر، لم يعد إنجاب الأطفال وتربيتهم يشكل الهدف الحصرى للوجود النسائى؛ ولم تعد الهوية النسائية تتشكل أساسيًا من خلال وظيفة الأمومة. وتتماشى سيطرة النحافة مع هذه التحولات، وتعبر عن رفض تماهى الجسد النسائى مع الأمومة، وعن تراجع الاعتبار الاجتماعى المرتبط بالمرأة الأم(١)، وعن تلازم التثمين الاجتماعى للمرأة العاملة والمستقلة.

وتعود الحساسية النسائية من الكتل الشحمية، إلى الرغبة الجديدة فى تحييد العلامات الشديدة التفخيم للأنوثة، وإلى التشديد على اعتبارها ردًا قائمًا بذاته أكثر منها جسدًا. إن الولع بالنحافة يعبر، من الناحية الجمالية، عن رغبة النساء فى التحرر من مصيرهن التقليدى كأشياء جنسية وكأمهات، ويعبر أيضًا عن المطالبة بالسيطرة على الذات. فإذا كان السيلوليت والثنايا والأجزاء اللينة والرخوة تثير العديد من ردود الأفعال السلبية من جانب النساء، فإن الرشاقة والجسد المشدود يعبران عن السيطرة على الذات، والنجاح، والتسيد الذاتى *self management* فكل امرأة تريد أن تصبح نحيفة تعبر من خلال جسدها عن إرادة امتلاك عدد من الخصائل كالإرادة والاستقلالية والفاعلية والسيطرة على الذات المنسوبة تقليديًا للذكور. ولئن لم يؤثر قانون النحافة على الرجال كما يؤثر فى النساء، يجب أن ينظر إليه من زاوية المساواة فى الشروط، أكثر مما ينظر إليه كعنصر يقهر المرأة.

---

(١) Jacques Bichot , Philippe Sentis, *Activite feminine et statut social de la mere de famille*, mars 1989 CNAF , رابط Paris,

نحو ثقافة خلاقة للجمال

ينظر إلى الجمال النسائى أكثر من أى وقت مضى كأمر جدى، ليس فقط بسبب الحياة الخاصة للرجال والنساء، وإنما بسبب التنظيم الاجتماعى ذاته، وهكذا أطلق أنصار النسوية فكرة تقول إن ثقافة الجنس الجميل تمثل، فى أيامنا هذه، كل ملامح العبادة الدينية، والترتيبات الشعائرية حتى فى قلب المجتمعات الليبرالية المتحررة من أوهامها. وفى نهاية المطاف، وصل التفكيك الجذرى لأسطورة الجمال إلى هذه النهاية الصاخبة: إن حمى الجمال النسائى المعاصرة هى استمرار للدين، ولكن بوسائل أخرى.

ترى كيم شيرنان Kim Chernin فى هوس النحافة امتدادًا لقيم نسكية موروثة، وتعبيرًا عن بغض الجسد الذى أفصح عنه علماء اللاهوت فى القرون الوسطى[1]. وقد أشارت سوزان باردو Susan Bardo إلى استمرار ممارسات التقشف لدى القديسين فى العصور الوسطى وأشكال الحمية التعسفية التى تفرضها النساء على أنفسهن فى عصرنا هذا[2]. تحدثت ناعومى وولف Naomi Wolf عن "الكنيسة الجديدة" التى حلت محل السلطات الدينية التقليدية، وتحدثت عن "الإنجيل الجديد" الذى يعيد تشكيل شعائر عتيقة فى قلب الحداثة المتطورة جدًا، وأحدثت تنويمًا مغناطيسيًا "للمؤمنات" وأَسَرتهن، ونادت بالإقلاع عن متع الطعام الطيب، مع إشعار النساء بالذنب باستخدام العقيدة الصارمة التى يتمثل مركزها فى أبلسة خطيئة السمنة، وصارت المختارات هن النموذج الأمثل، أما غير المختارات فهن النساء البدينات والمتغضنات، ومثل كل أشكال العبادة الدينية، أصبح للجمال نظامه المذهبى (الدعاية لمستحضرات التجميل)، ونصوصه المقدسة (طرق التنحيف)، وحلقاته فى التطهير (الحمية الغذائية)، وشيوخه الروحانيون (جين فوندا)، وفرقه الشعائرية (ويت

---

(1) Kim Chernin, *The Obsession...*, *op. cit.*, p. 42-44

(2) Sausan Bardo, *Unbearable Weight*, Berkeley, University of California Press, 1993, p. 68.

ووتشرز)، ومعتقداته فى البعث (كريمات تجديد الخلايا)، وملائكته (مستحضرات الجمال)، ومخلصوه (الجراحات التجميلية)[1]. وقد ساهم "لاهوت" الجمال فى تثبيت النساء فى موقف من الدونية النفسية والاجتماعية، شأنه فى ذلك شأن "أفيون الشعب" الشهير، وذلك من خلال زعزعة ثقة النساء بأنفسهن، وإثارة الخوف العصابى من رغباتهن وأجسادهن.

ولنكن واضحين: لكى تكون هذه التحليلات محفزة، يجب أن تكون مقنعة. كيف ندمج "الشعائر" المعاصرة للجمال بـ "أصولية" جديدة إذا كانت الطرق المختلفة "للرشاقة" موضوعًا متنازعًا فيه وخاضعًا للمناقشة على الساحة الجماهيرية، وإذا كانت مؤسسات حماية المستهلك تخضع كريمات التنحيف للاختبار، ووسائل الإعلام تحذر الجمهور من أشكال الغش ومخاطر برامج المعجزات. إن المنطق الحديث للمعلومات والمقارنة هو الذى يؤثر أكثر من منطق "خرافات القرون الوسطى"، ومن جميع الجوانب ظهر الارتياب من نوعيات المنتجات وفاعليتها؛ حتى مستهلكات مستحضرات التجميل غالبًا ما يعبرن عن شكهن فى الوعود البراقة لتجار الجمال. لا يتعلق الأمر بروحانية منتجات الجمال، وإنما استهلاك إرادوى وتفاؤل مقصود لا يستبعد إطلاقًا المسافة والارتباك. وعلى نفس منوال باقى مجالات الحياة الاجتماعية. يتميز عالم الجمال بالديناميكية الحديثة للاختبار الحر والتساؤل النقدى والجدل الجماعى.

لأن النساء يتهافتن على منتجات الجمال، فإن الأمر لا يترجم عادات طفولية، كما لا يترجم تنويمًا مغناطيسيًا جماعيًا، وإنما إرادة ملحة لتكون فاعلة فى علاقتها بجسدها. لا علاقة إطلاقًا بالممارسات الزهدية الدينية عبر العصور، وهى الممارسات التى كانت تهدف فى المقام الأول إلى كمال الروح: لا تهدف الطرق الفعالة للجمال-

---

(1) Naomi Wolf, *The Beauty Myth, op. cit.*, p. 86-130.

النحافة إلا بمثال أعلى للاكتمال الجسدى[١]. وحلت محل النفى الميتافيزيقى للجسد فعالية وظيفية للجسد وتولع بإعادة الأمور إلى نصابها بالمنتجات المنشطة والمغيرة المتوفرة فى الأسواق، ولا يعيد النظام المعاصر للجمال منطقًا "بدائيًا"، بل ينمى المنطق الحديث للاستهلاك. وعلى النقيض من العالم المقدس للمعنى والمطلق، تسيطر على عالم الجمال آليات السوق وكساد المنتجات. إن منطقه يساهم كثيرًا فى تسويقية العالم أكثر مما يساهم فى فرض عقيدة، أو تفعيل"إدارة هادفة" تطبق على الجسد أكثر من تفعيل استبدادية شعائرية، وتنشيط فكر"تجريبى" يتفوق على الفكر الدغمائى.

أهو انبعاث لعقلية قديمة؟ عقيدة إيمانية قصوى شبيهة بالأصولية وبالعبادات الدينية "البدائية" الأخرى؟ لا يمكننا أن نتخيل معنى مغايرًا أكمل من هذا للمسألة. إن ما انتشر من خلال الممارسات النسائية للجمال يظهر فى عمق جوهره انتصارًا للفكر البروميثيوسى ودفعة لثقافة الفاعلية وسيادة تقنية يتميز بها الحداثيون. واعتبارًا من بداية العصور الحديثة انخرطت المجتمعات الغربية فى المشروع اللامحدود لهيمنة الواقع وجعله تقنيًا. هذا المنطق راح يكتسب علاقة مع المظهر. ما معنى الممارسات الجديدة للجمال، إن لم تكن "تسيد وتحرك" الجسد، أو تصحيح عمل الطبيعة، أو تتغلب على آثار تقدم العمر، وتحل جسدًا متشكلا محل جسد مستلم من الطبيعة. بقاء المرأة شابة ورشيقة يعنى أن الفكر الخلاق الناهض ورفض المصير، وعملية العقلنة والتفاؤلية اللانهائية لوسائلنا، تنضوى على الفكر الجمالى، وكما أن العلم التقنى يوظف لامتلاك الأرض، كذلك يوجه الآن إلى تملك المظهر الجسدى. وعلى العكس من الوضعية القديمة، ينبغى تفهم العبادة المعاصرة للجمال وفقًا للسمة الحديثة الرافضة للقدرية، وازدياد قوة قيم الغزو لامتلاك العالم والذات. ومن الآن لن تتجلى الفردانية النسائية فى الأفانين التفاخرية لطلة المرأة، بقدر ما ستتجلى فى إرادوية

---

(١) Joan Jacobs Brumberg, Fasting Girls : *the Emergence of Anorexia Nervosa as a Modern Disease*, Cambridge, Harvard University Press, 1988, p.46.

مصححة وبنيوية، وفى رفض ترك الهيئة لقوانين الطبيعة وحدها، وفى المشاريع الفاعلة *لإدارة الجسد*، ولم يعد نرسيس Narcisse وبروميثيوس Promethe يرمزان إلى المصائر الفريدة، فكلاهما صار الآن يعبر عن الروح الشعبية ذاتها إزاء *العمل* المحول، والمشروع ذاته للهيمنة اللامحدودة على ما يتسلمه المرء من أيدى الطبيعة. ومع مبدأ طفرة الجمال لن يكون هناك بغض عدمى وعتيق للجسد، وإنما اتساع مثل عليا للسيطرة على العالم وامتلاك الذات، وهى المثل المكونة للثقافة الحديثة للفرد.

إن الربط بين دوامة الجمال والثقافة الفردانية يتطلب بعض التوضيحات، إذ لا ينكر أحد أن معايير الجسد تصاحبها امتثالية جماعية ذات اتساع استثنائي. هوس النحافة، ومضاعفة أشكال الحمية الغذائية وأنشطة اللياقة، وطلبات تنحيف "بنطال ركوب الفرس"، وتغيير شكل الأنف ليصبح صغيرًا ومرفوعًا، جميعها أمور تشهد على السلطة المعيارية للنماذج، وعلى الرغبة المتزايدة فى التطابق الجمالى، والذى يصطدم مباشرة بالمثال الأعلى الفردانى واحتياجه إلى شخصنة الأفراد. إنها لنظرة مقصورة على الفردانية إذا ما خلطنا بينها وبين النماذج الاجتماعية وضرورة الابتكار لدى الأفراد. فى الحقيقة، إن ثقافة الفرد هى التى جعلت القواعد الاستقلالية للعالم الإنسانى- الاجتماعى تحل محل القواعد المخالفة للدين والموروث. فى الوقت ذاته، نرى أن الرفض اللامحدود للمعطيات عن طريق الأعمال تغلب على تقبل المصير والأوضاع الموروثة. وما نراه فى أيامنا هذه هو امتداد لهذا المنطق الاصطناعى- الأهلقراطى الذى يشمل الجسد النسائى، فبدلا من الاستسلام والتسيّب فى العلاقة مع الجسد، باتت هناك الآن إرادة للسيطرة، والصراع ضد القانون المخالف للزمن والجسد. إن المثال الحديث لإدارة الذات وامتلاك الجماعة الكامل لذاتها قد امتد إلى العلاقة بالجسد. وبالتطابق مع القيم الفردانية- الأهلقراطية يميل الجسد إلى أن يصبح شيئًا مستحقًّا وفقًا للعمل الدءوب للذات على نفسها. من هنا فإن رغبات المطابقة الجمالية التى تنتشر لا تتعارض مع انطلاقة الثقافة الفردانية إلا فى الظاهر فقط، لأنه كلما تعززت مقتضيات الجسد المشدود والنحيف والفتى، تأكد مطلب السيطرة على أشكاله

الخاصة؛ وكلما فرضت نفسها السلطة التوجيهية للمعايير الجمالية، اجتهدت النساء فى الاهتمام بأنفسهن، ومراقبة ذواتهن، وتحولهن إلى مالكات لذواتهن؛ وكلما تكثفت الوصفات الاجتماعية للجمال، كان الجسد تابعًا لمنطق التسيد الذاتى *self management* والمسئولية الفردية.

الجمال ما بعد الانضباطى

إن العرض الإعلامى المفرط للصور المثالية للجسد النسائى، وطغيان النحافة، وتفاقم النصائح ومواد التجميل، كل هذا يعنى أن ثقافة الاستهلاك والاتصال الجماهيرى تتماشى مع الصعود الشديد عرفته المعايير الجمالية للجسد، وكما كان متوقعًا، لم تسلم هذه الظاهرة من أن تؤول كامتداد رائع لتكنولوجيات السلطة الانضباطية الحديثة[1]. قد تجد العبادة المعاصرة للجمال حقيقتها فى البرمجة الانضباطية للأجساد، من خلال حركات المراقبة الذاتية اليومية، وقسر الجزيئات الجسدية الصغرى، والآليات المتعلقة بتوحيد الشكل ومعيارية المظهر، والتمرينات المتكررة لأجل الحفاظ على جسد فتى ورشيق.

ما من شك فى أن عصرنا يشهد سلطة اجتماعية جديدة لتطبيع الجسد "وترشيده"، ولكننا نجانب الصواب عندما نضع هذا المنطق الاجتماعى فى امتداد عصر الانضباط؛ فقد انتشر ركام من المثيرات والمستحضرات والإرشادات التى توسع مجال الاختيار والمبادرات الفردية والبرامج المنتقاة، والتى حلت محل التعليمات واللوائح الموحدة. ويعد وضع القواعد السلطوية والتوجيهية جاء خلل استهلاكى ورياضى مع ما صاحبه من أنشطة تتعلق بالعناية بالجسم وتحسين شكله ومن توصيات غذائية وطرق إنقاص الوزن الكثيرة ومن أسواق كبرى لمنتجات مقاومة

(1) انظر، على الأخص، Sausan Bordo, *Unbearable Weight, op. cit.*

التجاعيد والسمنة. أى أننا بعيدون كل البعد عن قاعدة الطريق الوحيد الأفضل one best way الانضباطية، أى أننا فى عصر تبعثر الوصفات، وتعدد الرغبات، وازدياد الكتب الإرشادية للرشاقة، وإن كنا لا ننكر أن نموذج الرشاقة قد خلق عملية تجانس فى المظهر، فإن الطرق التى أدت إلى ذلك متباينة.

إن آليات الانضباط تعمل بطريقة تجعل من الممكن إلغاء الوعى والإرادة لصالح طاعة عمياء وآلية للجسد، وخضوع إلى للأفراد: فالجسد المروض يتجرد بشكل مثالى من الفكر والتفكير، ويشبه فى ذلك مسننات آلة متقنة الصنع، ولكن لم يعد ذلك هو المنطق الذى يحكمنا، فى زمن تقتضى فيه المعلومات وتعددية العروض اختيارًا وقرارًا ومشاركة من الأفراد، وكلما فرض النموذج الموحد للجسد الرشيق والفتى نفسه، توجب على الأفراد أن يعرفوا كل ما هو "جديد" وأن ينتقوا بين الخيارات الغذائية والرياضية التى تُعرض عليهم: فالفرد الفاعل قد حل محل الفرد الآلة، حتى وإن ظلت بعض أشكال الحمية الغذائية قاسية وصارمة، فإنها تُثمن أكثر فأكثر من خلال البرامج الشخصية المتناسبة مع الأذواق الغذائية وأنماط الحياة الفردية ومع التخطيط غير المتشدد ومع المسئوليات الشخصية المتعلقة بالغذاء[1]. إن الأمر يتعلق بأشكال حمية غذائية مختارة، وفعالة للتغذية، وإدارة ذاتية للسلوك الغذائى: فكما تتلاشى مرامى الجسد الآلى، كذلك يظهر الجمال- النحافة كظاهرة بعد انضباطية، ويتخلى التأطير الآلى فى كل مكان عن آليات التحكم الذاتى التى – كى تكون إلزامية- تحرك المبادرة والوعى والتحفيز الفردى.

وإذا كان الانضباط هو ما "يصنع الأجساد الخاضعة والمتدربة، والأجساد المطيعة[2]"، فينبغى القول إن معايير الجمال ما بعد الحداثية بعيدة عن أن تكون على قدر هذا الطموح. والشىء اللافت هو فشل ضرورة النحافة فى إنتاج أجساد متحكمة فى ذاتها ومنتظمة ومتطابقة فيما بينها جماليًا، فحتى إن أصبحت النحافة

---

(1) Gerard Apfeldorfer, *Je mange, donc je suis, op. cit.*, p. 234-237.

(2) Michel Foucault, *Surveiller et punir*, Paris, Gallimard, 1975, p. 140.

هوسًا جماهيريًا، فإنها – ووفقًا للدراسات التى أجرتها Metropolitan Life Insurance Company – ١٢% من الأمريكيات ممن تتراوح أعمارهن بين ٢٠ و ٢٩ سنة يتجاوز وزنهن الوزن المثالى بنسبة ٢٠%، وهو الحال نفسه لـ ٢٥% من النساء ممن تتراوح أعمارهن بين ٣٠ و ٣٩ عامًا. أما عند النساء ممن تتراوح أعمارهن بين ٤٠ و ٤٩ سنة فترتفع النسبة لتصل إلى ٤٠%[١]. إجمالا هناك امرأة واحدة من أصل ٣ تتخطى الوزن المثالى. بلا شك، غيرت النساء من طريقة تغذيتهن شيئًا فشيئًا وفرضن على أنفسهن أنظمة غذائية بغرض التنحيف، ولكن على المدى الطويل تستعيد ما بين ٨٠% و ٩٥% منهن أوزانهن الأصلية[٢]. فكلما أصبح المثال الأعلى للنحافة ينبع من الداخل، تجلى فشل بقاء النحافة لوقت طويل. أيتعلق الأمر بتعزيز التحكم الانضباطى؟ من خلال هذا الافتراض، كيف يتسنى لنا فهم هذه الزيادة فى حالات السمنة المفرطة؟ وكيف نعبر عن هذه الظواهر الخاصة بعصرنا هذا والمتمثلة بتعاقب الحميات الغذائية والعودة إلى الوزن الأصلى أى "Kilos YoYo" أى تعاقب الإحجام الغذائى والتهافت على الطعام؟ وصحيح أن معيار الجسد النحيف ولد الكثير من القيود الذاتية والمراقبة الذاتية لدى عدد متزايد من الأشخاص، ولكن فى الوقت ذاته نلاحظ تزايدًا فى هدم طرائق الطعام، والسلوكيات الحائرة والقسرية و Junk Foo وارتباك السلوكيات والعادات الغذائية. وإذا كانت ثقافتنا تشهد انتصارًا لطغيان القوام فإنها تتسم بالقدر ذاته بإلغاء تأطير السلوكيات الغذائية، وانهيار الفروض الجماعية المتعلقة "بالأكل"، وتنجم عن ذلك الفوضى وعادة الأكل بين الوجبات الفوضوية والتغذية المتسيبة والمفككة، وهذه سمة ثقافتنا "المعدية– الفوضوية"[٣]. من هنا تكمن صعوبة الدفاع عن أطروحة تكثيف التدابير الانضباطية، إذا كان الجسد يخضع بالضرورة لقواعد جمالية قسرية، فثمة قيود جماعية، كالتغذية

---

(١) Kim Chernin, *The Obsession..., op. cit.*, p. 36.

(٢) *Ibid.*, p. 30, Gerard Apfeldorfer, *Je mange, donc je suis, op. cit.*, p. 283.

(٣) Claude Fischler, *L'Homnivore*, Paris, Odile Jacob, reed. Coll. Points, 1993, p. 212-216.

مثلا، تتفكك، وتفتح الطريق لسلوكيات عصابية وفوضوية تؤدى إلى استعادة الوزن الأصلى.

والسلوكيات الرياضية مثلها مثل التغذية تعلن بزوغ عصر المعيارية الانضباطية للأجساد، فنحن نعلم أن النساء اللواتى يمارسن أنشطة جسدية ورياضية فى تزايد مستمر، فالجرى الفردى والتنس والتزلج والتمرينات الرياضية باتت أنشطة نسائية جماهيرية، ولكنها أنشطة متقطعة أكثر منها منتظمة؛ فبالنسبة للعدد الأكبر من النساء تتغلب الممارسة الموسمية على التمرينات المنهجية. انتصرت جمالية النحافة بلا شك، ولكنها لم تصل إلى خلق عقلية انضباطية، بل صاحبتها ممارسات متزعزعة ومضطربة وتتراوح بين الفعالية والخمول، بين الامتناع والتجاوز، بين التفعيل واللامبالاة، بين السيطرة والتراخى، وإذا كان نمط النحافة يخلق شعورًا بالذنب والقلق فلن ينجح كثيرًا فى صنع أجساد مطيعة ومنتظمة وتسيطر على ذاتها.

لا يحوى هذا "الفشل" شيئًا مفاجئًا إلا عند ربطه بأشكال المنطق الخلافى الذى يشكل ثقافتنا. فمن ناحية، كثفت مجتمعاتنا الإرشادات المتعلقة بالجسد وعززت المعايير الغذائية والرياضية، كما فرضت فى الوقت ذاته مقاومة لزيادة الوزن، لكن من ناحية أخرى، نرى أن العالم الاستهلاكى يهيج الرغبات ومبدأ "كل شىء والآن"، كما يشجع على الجموح والشهوة العابرة، ويزيد النفور إزاء المجهودات المنتظمة والصارمة. حتى الأنظمة الغذائية فإنها تباع لكونها تَعِدُ بمتعة التطبيق وسرعتها وسهولتها. ومن المعروف أن المعايير المتشددة للجسد الرشيق تتماشى مع الإغراءات الاستهلاكية الواعدة بالمتعة، وتزايد رغبات الرفاهة، وخلخلة القيود الجماعية التى تثقل على السلوك الغذائى. ونجد أشكال الفشل فى التنحيف الطويل الأمد، والمراوحة بين الاستهلاك الزائد والتقنين، والفوضى الغذائية، والممارسات الرياضية المتقطعة، وجميعها تعبيرات عن ثقافة مفارقة تدون معايير التحكم المستمر ومراقبة الذات، ولكنها تفكك، فى الوقت ذاته، البنى الغذائية الاجتماعية، وتحرك الجموح الاستهلاكى، وتجعل من "الإغراء" منظومة.

سياسة الجمال

غالبًا ما نقدم الجمال باعتباره سلطة خاصة بالنساء؛ سلطة أريدها أن تكون هائلة لكثرة ما سمحت بالسيطرة على الرجال، وبالتمتع بأكبر قدر من التكريم، وبالتأثير فى عظماء هذا العالم من وراء الكواليس. أهى سلطة حقيقية أم سلطة وهمية؟ فى أيامنا هذه، وجّه الفكر النسوى ضربات موجعة لأسطورة الجمال النسائى وهى سلطة تابعة لأنها متعلقة بالرجال، وسلطة زائلة لأن مآلها الحتمى هو الفناء بسبب العمر، وسلطة بلا جدارة ومحبطة لأن جزأها الأكبر هو "هبة" من الطبيعة(١). وبعيدًا عن أن تؤسس أسطورة الجمال إمبراطورية الجنس الثانى، فإنها لم تفعل شيئًا إلا أن صدّقت على "سلطة الضعفاء" وعلى خضوع النساء للرجال. من هنا تحمل مسألة الجمال النسائى دلالة سياسية عميقة. وبالنسبة للنسوية المعاصرة، فإن تفكيك الجمال يرجع إلى تحليله باعتباره أداةً لسيطرة الرجال على النساء، ووضعيةً سياسية مآلها فصل الرجال عن النساء، وفصل الأعراق عن الأعراق، وفصل النساء عن النساء(٢).

إن ثقافة الجنس الجميل لا تكتفى بمجابهة النساء بعضهن بعضًا، بل إنها تقسم وتجرح كل امرأة فى الصميم. تُبرز الصور التفضيلية للنساء المنقولة عبر وسائل الإعلام الرعب من خدوش العمر، وتولد عقدة الدونية، والخزى من الذات وبغض الجسد. وفى الوقت الحاضر أعلنت أمريكية واحدة من أصل ثلاث أمريكيات

---

(١) Robin Tolmach Lakoff, Raquel L. Scherr, *Face Value : the Politics of Beauty*, Boston, Routledge & Kegan, 1984, p. 18-20 , 40-43.

(٢) *Ibid.*, p. 277.

و ٨ من أصل ١٠ ممن تتراوح أعمارهن الـ ١٨ عامًا أنهن "غير راضيات إطلاقًا" عن أجسادهن(١). في حين أن غالبية النساء يرين أنفسهن سمينات، هناك ٩٥% منهن يبالغن في تقدير حجم أجسادهن بمقدار الربع(٢)، وكلما نشرت مجتمعاتنا صورًا ونصائح متعلقة بالجمال، استاءت النساء من مظهرهن الجسدي: ذلك أن الجنس الجميل يميل إلى ألا يرى نفسه جميلا. ارتبط الجمال، لوقت طويل، بفخ يهدد الرجال؛ أما اليوم، فأنصار النسوية يحللونه باعتباره وسيلة لاضطهاد النساء. ولأن الكثير من النساء مهووسات بأوزانهن، فإن اللواتي يتبعن حمية غذائية يعانين ويكابدن متاعب ناجمة عن عاداتهن الغذائية: فـ ٩٠% من مرضى القهم هن من النساء؛ و ١٢ الـ ٣٣% من الطالبات الشابات يجاهدن من أجل السيطرة على أوزانهن عن طريق الإقياء، وذلك باستخدامهن للملينات ومدرات البول. وتفيد بعض الدراسات أن سيدة واحدة من أصل ٢٥٠ ممن تتراوح أعمارهن بين ١٣ و ٢٢ يعانين من اضطرابات قهمية(٣). لا بل نرى الآن في الولايات المتحدة الأمريكية فتيات صغيرات بين ٧ و ٨ أعوام يتبعن حمية غذائية. لا توجد سلطة حقيقية للجمال النسائي على العكس من ذلك يمارس هذا الجمال طغيانًا عاتيًا على وضع النساء.

فالنساء يتلفن صحتهن الجسدية والنفسية عندما يفرضن على أنفسهن قيودًا غذائية، وعندما يلجأن إلى أنفسهن وبلجوئهن إلى كل الوسائل كي يفقدن سعرات دخلت إلى المعدة، وتتعدد نتائج النظام الغذائي والاستخدام الخاطئ للملينات والإقياء من إعياء مزمن وهياج ومشاكل متعلقة بالطمث وتناقص في الرغبة الجنسية وتقرحات في المعدة والمرىء ومشاكل معوية وأزمات عصبية. ويضاف إلى هذا أن الفشل المعتاد لوسائل التنحيف يصاحبه إحباط واكتئاب وشعور بالذنب وبالخزى

---

(١) T. Cash, D. Cash, J. Butters, "Mirror-Mirror on the Wall : Contrast Effects and Self-Evaluation of Physical Attractiveness", *Personality and Social Psychology **Bulletin***, vol. 9 (3), sept. 1983.

(٢) K. Thompson, "Larger than Life", *Psychology Today*, avril 1986, p. 39-44.

(٣) Susan Bardo, *Unbearable Weight*, op. cit., p. 140, 154.

والاستهانة بالذات والتقزز منها. وخلف تقديس المظاهر ينشأ مشروع لتدمير نفسية النساء وآلة جهنمية تستهدف زعزعة ثقتهن وتقديرهن لأنفسهن[١]. من هنا تتكشف الوظيفة السياسية لمنظومة الجمال النسائى؛ فالنساء يتحاشين الصراع الاجتماعى والسياسى لأنهن يبخسن صورتهنّ حقها، ولأنهن قلقات ومعقدات، فيرضين بالوظائف الثانوية ويقبلن بتقاضى أجور أقل مما يتقاضاها الرجال، ولا يتطلعن مثلهم إلى ارتقاء الهرم الاجتماعى، كما أن تمثيلهن النقابى أقل من تمثيلهم، ويحترمن الرجال أكثر مما يحترمن بعضهن بعضًا، وينشغلن بأجسادهن أكثر من انشغالهن بالشأن العام. إن عبادة الجمال النسائى تعمل باعتبارها مسارًا موجهًا لإعادة إنتاج اليد العاملة، الطيعة والهشة والأقل تطلبًا، فى حين أن النساء بدأن يقتربن من فضاء السلطة[٢]. تعد أسطورة الجمال النسائى فى مجتمعاتنا بمثابة هجوم سياسى مضاد صفته الأهم هى استمرارية الهيمنة الذكورية والخضوع النسائى، لأنه وسيلة لعرقلة صعود النساء إلى قمة الهرم الاجتماعى.

كيف نشك للحظة واحدة فى أن مسألة الجمال هى مسألة حاسمة وهوياتيه ومقلقة بالنسبة للنساء أكثر منها بالنسبة للرجال؟ ولكن هل تخولنا التأكيد على أنها تولد بغضًا واستهانة بالذات؟ من المفيد أن نشير إلى أن عددًا من الدراسات يؤكد أنه ما من أى علاقة مباشرة بين المظهر وتقدير الذات[٣]. ذلك أن النساء الجميلات لا يبدين بالضرورة تقبلا أفضل لذواتهن من النساء الأخريات، ونقص الثقة بالنفس هو ظاهرة نفسية أكثر تعقيدًا من أن تفسر من منطلق عامل الجمال وحده. حتى وإن ساهمت ثقافة الرشاقة وصور الأحلام التى تنشرها المجلات المصورة ووسائل الدعاية فى ازدياد عدم رضى النساء من أجسادهن، فما من شىء يؤكد فكرة تراجع ثقة النساء فى أنفسهن. فى هذه الحالة كيف نفسر أن النساء لم يعربن قط عن إرادتهن الحصول

---

(١) Naomi Wolf, *The Beauty Myth*, op. cit., p. 49.

(٢) *Ibid.*, p. 20-57.

(٣) Rita Freedman, *Beauty Bound*, New York, Lexington Books, 1986, p. 34.

علـى دبلومـات عليـا وهويـة مهنيـة وترسـيخ أنفسـهن اجتماعيًا وفرديًا؟ كلما تعددت الصور والإغراءات الجمالية، رغبت النساء وشغلن مناصب مسئولية كانت فى بعض الأحيان حكرًا على الرجال. إن عدم التكافؤ فى وضع كلا الجنسين فيما يتعلق بمعايير الجمال لم يمنع إطلاقًا كون تطلعات النساء تقترب أكثر فأكثر مما هى عند الرجال؛ فقد أثبت بحث كندى أجرى فى نهاية الثمانينيات داخل وسط مهنى أن درجة تقدير الذات عند كوادر الموظفين والموظفات متقاربة أكثر منها متباعدة، وكلا الجنسين يدرك صورته بشكل إيجابى[1]. وعندما نراقب مسيرة التطور الاجتماعى، نندهش من ارتفاع الطموح المهنى والتعليمى للنساء أكثر من انحدار مشاعرهن الإيجابية تجاه وضعهن. وعلى الرغم من الأضرار النفسية التى تولدها ثقافة الجمال، فإن ضعف العبارة الشهيرة التى أطلقتها ماتينا هورنر Matina Horner – وهى "الخوف من النجاح" –هو الأكثر بيانًا، كذلك تراجع الفصل التقليدى بين رغبة النساء فى أن يصرن جميلات وبين إرادتهن المهنية. أن تكون المرأة جميلة بغية الحصول على زواج "مناسب" لم يعد يشكل أسّ التطلعات النسائية؛ فالنساء يردن أن يكن جميلات وناجحات على المستوى المهنى.

لكن إذا كان تقديس الجمال لم ينجح فى خنق تطلعات النساء إلى الاستقلالية وإلى الحياة المهنية والدراسات العليا، فيحق لنا عندئذ الظن بأنه يكبح التزامهن بغزو الفضاءات العليا للسلطة؛ فالمرأة قد مُجّدت بصفتها جميلة وليس بصفتها رئيسة، ولهذا السبب نجد معظم النساء يفضلن المهن التى يلعب المظهر فيها دورًا مهمًا، ونادرًا ما يفضلن المهن التى تتطلب ممارسة السلطة. بالتأكيد، قد ظهرت تغيرات عدة مفادها أن مطالبة النساء الآن بشغل مواقع السلطة ورغبتهن فى أن يعجبن الرجال لم يعد يصاحبها خوف من النجاح؛ فنرى ملكة جمال العالم السابقة، وهى Irene Saez،

---

(1) Carole Lamoureux , Line Cardinal, "Femmes cadres et estime de soi », *Tout savoir sur les femmes cadres d'ici*, actes du colloque de Montereal, Montereal, Les Presses HEC, !988, p. 65-73.

تمارس أعلى المهام فى بلدية كاركاس. فى الوقت نفسه، تظهر الاستقصاءات جميعها أن الرجال يتقبلون وصول النساء للسلطة؛ وأن الشابات اللواتى ينخرطن الآن فى قلاع كانت تعتبر ذكورية لم يعدن يعتبرن أقل أنوثة من الأخريات(١). يبقى أن إرادة السيطرة والتصرف السلطوى والعدوانى، وسلوكيات الهيمنة، تبقى دائمًا ذات صدى سلبى حين ترتبط بالنساء أكثر منه عند ارتباطها بالرجال، وذلك لأنها تغاير تمامًا واجب النساء المتمثل فى الغواية ورشاقة الحركة ورهافة الحس النمطية. وفى أحد المواقف التجريبية كان هناك فريق مختلط دعى للتعاون، ولوحظ أن قائد الفريق دائمًا، ووفقًا للإحصاءات، هو رجل؛ وفى كل مكان تعيد المرأة فى هذه الحالة توظيف سلوكيات تحاكى صورة "المرأة – المرأة" التى تشغل مكانة دونية(٢). حتى وإن زالت الصور النمطية التى تجعل السحر النسائى فى تعارض مع السلطة، إلا أنها لا تزال تشكل إعاقة فى سبيل ترقية المرأة فى هرمية المنظمات.

لأن النساء كرست للأدوار الجمالية، فإنهن دفعن "لإثبات" قدراتهن فى ميدان آخر خارج المنظمات، ولتفضيل سلطة الغواية أكثر من سلطة المواجهة العنيفة. إن التثمين الاجتماعى للجمال النسائى ساهم فى تعزيز رؤية نسائية للعالم يتغلب فيها الجانب الخاص على الجانب العام، ومن هنا فإن السعى للمراتب العليا فى المنظمات يحمل معنى متعلقًا بالهوية أقل مما يحمل من "قدرات" المرأة الخاصة. إن منظومة الجمال، باعتبارها آلة سياسية، لا تعمل مطلقًا على زعزعة الثقة بالذات وتقديرها، بل تعمل على توجيه الأحلام والتوقعات وشغف النساء نحو النجاح الخاص أكثر منه نحو النجاح العام، ونحو السلطة غير الرسمية أكثر منه نحو السلطة الرسمية، ونحو

---

(١) H. Lanier, J. Byrne, "How High School Students View Women : the Relationship between Perceived Attractiveness, Occupation and Education" , *Sex Roles, 7,* 1981, p. 145-148.

(٢) Marianne Ehrlich, Genvieve Vinsonneau, "Observation de quelques stereotypes lies au sexe et etude de leur impact sur la prise des roles hierarchiques au cours de l'accomplissement d'une performance de tache » , in *Le Sexe du pouvoir*, Paris, Desclee de Brouwer, 1986, p. 274-278.

العلاقات الاجتماعية أكثر منه نحو السلطة فى مؤسسات العمل. وما من شك فى أن للنساء الآن طموحات مهنية وعملية وسياسية متزايدة، ومع ذلك نرى أن إبراز الجمال النسائى لم يكف عن إعطاء مزيد من القيمة للنجاح الحميمى، أكثر من النجاح التنظيمى، ومزيد من الأهمية للغواية بين الجنسين أكثر من منافسة الرجال. ولم يعد التغنى بالجمال كافيًا فى أيامنا هذه لكسر الإرادة النسائية لإثبات وجودها الفردى والاجتماعى، ولكن لأنه يبرز سلطة الغواية على حساب السلطة الهرمية، ولأنه يميل إلى إعادة صياغة الفصل بين المرأة والشأن الخاص / الرجل والشأن العام؛ لذا لا يزال حتى أيامنا هذه يحرف النساء قصدًا عن ارتقاء القمم.

(٣)
النشاط الجمالى والصحافة النسائية

لا تتوافق المرحلة الديمقراطية للجنس الجميل فقط مع إنتاج واستهلاك جماهيرى للمواد التجميلية، بل إنها تصطحب نظامًا جديدًا للاتصال والترويج لمعايير الجمالية التى تشكل الصحافة النسائية حجر الزاوية بالنسبة له منذ ما يقرب من قرن. وقد غير الانتشار الاجتماعى للنماذج الجمالية من مقاييسه عبر الصحافة النسائية الحديثة، فكفت التصورات والرسائل المتعلقة بالجمال النسائى شيئًا فشيئًا عن أن تكون ذات علامات نادرة، وغزت الحياة اليومية للنساء من كل الطبقات، فما من حضارة سابقة قد أنتجت ونشرت مثل هذا الكم من الخطابات المتعلقة بالعناية بالجمال؛ ولم تحظ صور الجنس الجميل قط ببريق اجتماعى كالتى حظيت به فى هذه المرحلة. وهنا على الأقل، لا يتماشى "انطلاق التقنيات" والفقر الجمالى، وكما تقدم المجتمعات الحديثة ذاتها كـ "تراكم هائل من السلع"، فإنها تتميز كذلك، وعلى صعيد مغاير تمامًا، بالإفراط فى تمثيلات الجمال النسائى، وعلى الصعيد النهائى للجنس الجميل فإن نصائح الجمال ومعلوماته وصوره قد دخلت فى منطق جماهيرى من الإنتاج- والاستهلاك- والاتصال.

ومع ازدهار الصحافة النسائية ذات الانتشار الواسع ظهرت طريقة جديدة للحديث عن المظهر النسائى، فحتئذ كان الحديث عن الجمال النسائى يقوم به إما الشعراء، والروائيون والأطباء، وإما يبقى مهموسًا بين النساء. وانطلاقًا من القرن العشرين، باتت المجلات النسائية المصورة هى القنوات الرئيسية للبث الاجتماعى للتقنيات الجمالية. إذن ظهرت بلاغة جديدة تقرن الجمال بالاستهلاك، وتتبنى لهجة حبورية ودعابية ولغة مباشرة وديناميكية قريبة أحيانًا من الإغراءات الإعلانية، وتتوجه إلى جمهور عريض، ويضاف إلى هذا إخراج للخطابات، وتقديم جمالى للنصوص والصور التى تميز الصحافة النسائية

عن غيرها من المطبوعات، وفيها يكون المضمون التحريرى طريقة لتمجيد النساء، وتعزز الرسائل والصور تعريف النساء كنوع مآله الجمال. تكاثر الصور الرائعة للنساء، والنشر الجماهيرى للمعلومات الجمالية، والربط بين الجمال والاستهلاك، والتثمين الاجتماعى للعناية الجسدية، وإرداوية الرسائل، جميعها عناصر شكلت العصر الديمقراطى للجنس الجميل.

الصحافة النسائية وثقافة الجمال الحديثة

أصبحت الصحافة النسائية، فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، صحافة الانتشار الواسع، وحلّق عدد النسخ، ففى عام ١٨٧٩، ظهرت Le Pctit Fcho de la mode بعدد نسخ تصل إلى ٢٠٠٠٠٠ نسخة فى عام١٨٩٣، وتخطت المليون نسخة فى عام ١٩٣٠. وفى الولايات المتحدة الأمريكية، ظهرت McCall's Magazine فى عام ١٨٧٠ و Harper's Bazaar فى عام ١٨٦٧ و Ladies Home Journal فى عام ١٨٨٣، و Vogue فى عام ١٨٩٢ وارتفع عدد النسخ إلى الملايين. بلا شك لم تقدم تلك المجلات نصائح إلا فيما يتعلق بالأزياء: ولأسباب أخلاقية بقيت الاقتراحات المتعلقة بفن التجميل التى كانت لا تزال نادرة والدعاية لمنتجات الجمال حذرة حتى عام ١٩٢٠. إلا أن ثقافة الجمال النسائى مالت، عبر هذه الصحافة، إلى حلقة من الانتشار الجماهيرى الذى شمل طبقات واسعة بإمكانها مذاك أن تعرف "آخر صيحة" الموديلات وأن تلبس على الموضة، بفضل الباترونات، وصار بإمكانها الإعجاب بمفاتن النساء الأنيقات اللواتى قدمها مصممو الموضة والمصورون الضوئيون. اللقطات الأولى لمصورى الموضة ترجع إلى عام ١٨٩٢، وظهرت فى مجلة La Mode pratique. وفى عام ١٩٠١ ظهرت جريدة Les Modes، والتى نشرت صورًا التقطت فى إستوديوهات متخصصة، بعد ذلك

بقليل أخذ الإخوة سيبرجيه Seeberger لقطات حية للأرستقراطيات في حللهن الفخمة، وأبرز بول نادار Paul Nadar عارضات أزياء Jeanne Lanvin حوالى عام ١٩١٣.

وفي سنوات ما بين الحربين العالميتين شهدت الصحافة النسائية شعبية متزايدة، فتعددت عناوين، متوجهة إلى جماهير شتى، Le Jardin des modes التى ظهرت فى عام ١٩١٨، وModes et Traveaux فى عام ١٩١٩. إن ذلك العصر مثل منعطفًا فى تاريخ الصحافة النسائية؛ فانطلاقة صناعة مستحضرات التجميل أدت إلى ظهور مجلات جديدة تمجد الشباب والبحث عن السعادة والعناية بالجمال. وفى عام ١٩٣٧ فريق Prouvost أطلق المجلة الأسبوعية Marie-Claire التى اقتبست من الدوريات الأمريكية وعرفت نجاحًا غير مسبوق، وبعد أن طبعت ٨٠٠٠٠٠ نسخة دفعة واحدة، تجاوزت المليون قبيل الحرب العالمية الثانية، وينظر إليها باعتبارها ثورة، وتقدم نفسها باعتبارها "المطبوعة الأسبوعية الموجهة للنساء، والتى لم يظهر مثلها من قبل". إنها رخيصة الثمن وتستهدف جمهورًا واسعًا، وتعلن انتماءها للحداثة: فالصفحات مريحة للنظر، والخطوط والطباعة متجددان دائمًا، والإخراج متقن، إنها ابتكار مهم، ويظهر على الغلاف وجه امرأة شابة من خلال لقطة مكبرة، مبتسمة، وجميلة، وتضع المساحيق. أما مجلة "Vogue الفقير" فقد ظهرت، ونصب عينيها هدف هو تعميم وسائل الغواية، وذلك بنشر فلسفة تفاؤلية واستهلاكية للجمال[١].

وخلافًا للتقليد الذى استنكر المستحضرات وبقى حتى القرن التاسع عشر، مجدت الصحافة النسائية فى سنوات ما بين الحربين العالميتين وخاصة فى سنوات الثلاثينيات، استخدام مستحضرات التجميل، وشجعت النساء من جميع الطبقات على استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل إظهار جمال الوجه والجسد، ونرى تعدد الإرشادات المتعلقة بالمظهر الجسدى: فقد حثت المجلات النساء على ممارسة

---

(١) Evelyne Sullerot, *La Presse feminine*, Paris, Armand Colin, 1966, p. 52-56.

الرياضة كل صباح، وعلى تناول وجبات خفيفة للمحافظة على رشاقتهن، وعلى استخدام الزيوت الشمسية لاكتساب اللون البرونزى، وعلى وضع ظل العيون وأحمر الشفاه وحف الحاجبين وطلاء أظافر اليدين والقدمين. وبعد أن كفت أفانين المستحضرات عن ارتباطها بصور المتبرجات والنساء المخمليات، فقد أظهرت كاكتمال مشروع للجمال: فلم تكن محط لوم، بل باتت ضرورة لكل امرأة تريد الحفاظ على زوجها؛ ولم تعد تدل على فساد ذوق، بل على واجب تحضرى. فى عام ١٩٣٢ قالت Colette فى مجلة Beaute متحدثة عن التجميل"إنه ليس إلا واجبًا متأدبًا إزاء الآخر، ومسألة تهذب وخفر تقريبًا".

فرضت الصحافة النسائية نفسها بصفتها عاملاً لنشر الدور الجمالى للمرأة، وواحدة من أهم عناصر تأسيس الجمال النسائى الحديث، إلى جانب نجمات السينما، وذلك بنشرها بين جمهور متزايد من النساء[١] فيضًا من المعلومات المتعلقة بالجمال وصور الموضة والنصائح الخاصة بالمظهر وبالغواية، واحتلت أعمدة: "موضة وجمال" مكانة مهمة فى الصحافة: فإلى جانب الدعاية، خصص ما يقرب من خُمس صفحات مجلات مثل Marie Claire, Elle, Marie-France فى سنوات الستينيات لهذه الموضوعات[٢]. وتضاف إلى كل ذلك القيمة الحاسمة المولاه لكل ما هو مرئى ولصور الجسد والوجوه الخالية من العيوب وصور عارضات الأزياء اللواتى ملن منذ سنوات الثلاثينيات إلى التخلى عن سمة الجمود القديمة التى طالما لازمتهن لصالح

---

(١) بعد الحرب العالمية الثانية كانت ٥ نساء من أصل ٤، وفى إنجلترا، يقرأن بانتظام مجلة نسائية (انظر Cynthia Leslie White, *Women's Magazines* 1693-1968, Londres, Joseph Michael, 1970, p. 216)

وفى فرنسا، فى سنوات ٨٠ كان أقل من امرأة واحدة تقريبًا من أصل ٢ تشترى الصحف النسائية (انظر Samza-Martine Bon-vision , Michele Maignien, *La presse féminine*, Paris, PUF, 1986, p. 75).

(٢) Evelyne Sullerot, *La presse feminine*, op. cit., p.291-295. فى الصحافة النسائية المعاصرة، الجزء المخصص لعبارات "الموضة والجمال" بات أكثر أهمية، واقترب أو تخطى ٣٠% من عدد الصفحات الكلى (انظر Samza-Martine Bonvision , Michele Maignien, *La Presse feminine*, op. cit., p.92).

مظهر أكثر "طبيعية"، وأكثر حركية، وأكثر ابتكارًا، وبالتالى أكثر مناسبة لتيار المحاكاة الاجتماعية للنماذج. وعبر وساطة الصور والصحافة، فإن نماذج الغواية الأكثر جمالا باتت تراها النساء من جميع الطبقات – بانتظام وتهواها. فالجمال النسائى بات عرضًا للتصفح على الأوراق المصقولة، ودعوة دائمة للحلم، وللبقاء فتيًا وجميلا.

كما لا يمكن تجاهل المكانة والدور الذى تشغلهما الإغراءات الدعائية، والتى دائمًا ما تقدم فى الصحافة النسائية. فقد خصصت Ladies Home Journal فى عام ١٩٣٩، ٤٤% من صفحاتها للدعاية وفى سنوات الستينيات كان من ٥٠ إلى ٧٠% من صفحات Vogue ,Elle ,Jardin des Modes مخصصًا لإعلانات دعائية. هذا المنطق هو دائمًا ما يحكمنا، ففى أيامنا هذه وفى فرنسا يعتمد أكثر من نصف التوازن المالى للدوريات النسائية على الدعاية. وبين هذه الدعايات تأتى منتجات العادات الصحية والموضة والجمال فى المقدمة[١]. فالتحقيقات المنشورة والنصائح العملية والصفحات الإعلانية تشجع جميعها على التجميل النسائى، وعلى الربط بين الجمال والأنوثة، والحث على سلوك استهلاكى متعلق بالجمال.

ووفقًا للتقاليد، كانت وصفات الجمال تتنقلها النساء بين الصديقات أو بين الأمهات وبناتهن، كما تقدم مطبوعات أخرى، تحمل عنوان "أسرار" وتتوجه لجمهور محدود، تقدم وصفات للعطور وللتجميل التى يمكن إعدادها فى المنزل[٢]، وجاءت الصحافة النسائية لتخرب هذه الثقافة الحميمة و"السحرية". وتلت "التدبيرات" المهموسة بين النساء عبارات "جمال نظافة صحة"، إلى جانب التحقيقات المنشورة وتعدد

---

(١) Pascal Laine, *La Femme et ses images*, Paris, Stock, 1974, p. 52, 60.
وفى عام ١٩٦٠حققت إعلانات منتجات العادات الصحية والجمال أرباحًا للمجلات الأمريكية ٦٥٠ تقدر بمليون دولار، أى ٦ مرات أكثر من إعلانات منتجات العناية بالمنزل(انظر Naomi Wolf, *The Beauty Myth*, *op. cit.*, p. 65).

(٢) نشر فى عام ١٨٧٩، الكتاب الشهير لـ Lola Montes بعنوان *L'art de la beaute chez la femme : secrets de toilette.*

الماركات والاستهلاك الجماهيرى المباشر والمسلى ذى الطابع الحبورى. إن السياق الاقتصادى والإعلامى الجديد قد أزاح التقاليد العتيقة للأسرار، إذ تخلصت فى العصر الديمقراطى ثقافة الجنس الجميل من غموضها القديم لصالح قوة الهجمة الدعائية والتحفيز الاستهلاكى. من هنا تقدم الصحافة النسائية اتجاهين متغايرين، فمن ناحية هى تعيد تشكيل الانفصال بين عالم المرأة وعالم الرجل: فظهر معادل جديد للحريم، بكل ما يشتمل عليه من بوح، ونصائح جمالية، وأحاديث نسائية، ومن ناحية أخرى كسرت الصحافة النسائية حاجز الثقافة العتيقة الطافحة بأسرار النساء. أدخلت الصحافة النسائية عالم الجمال إلى العصر الحديث القائم على انتشار التعليم بين جميع الطبقات والإعلاء من شأن الاستهلاك التجميلى عبر وساطة الهيئات المتخصصة، فتوجهت إلى النساء كافة، وثمنت وسائل الغواية وجعلت المعلومات تحل محل الأسرار، وإذا ما نظرنا من وجهة النظر هذه فإن ما تفرضه الصحافة النسائية من منطق هو نفسه المنطق الذى أسسته من قبل كبرى بيوت الأزياء انطلاقًا من منتصف القرن التاسع عشر. وفى الحالتين فإن النظام الاجتماعى المستقل قد أفسح المجال لهيئات مهنية متخصصة[1]، وبسبب الصحافة النسائية تأرجح كوكب الجمال من نظام تقليدى- أرستقراطى إلى نظام إعلامى - دعائى- ديمقراطى، وخلف عالم الأحلام الذى أوجدته المجلات النسائية تمت *عقلنة* لعالم الجمال.

سارت الصحافة النسائية والدعاية فى الاتجاه ذاته، فمنذ سنوات العشرينيات، استخدمت الدعاية فى الولايات المتحدة فى تغيير عادات النساء التقاليدية، واستئصال "الأحكام المسبقة" التى تقوض مملكة الاستهلاك. إن الإعلانات الجديدة صنعت لأجل شرعنة الغواية ورغبة الحفاظ على الشباب، والشغف النرجسى، والسعى الاستهلاكى نحو الجمال، ولم يعد سلوك المرأة حين تتزين أو تستخدم مساحيق التجميل أو ترغب فى البقاء شابة، وفى أن تكون محط إعجاب لم يعد من الكماليات كما لم يعد سلوكًا مدانًا إلى حد، بل أصبح *واجبًا* على كل امرأة معنية بضمان

---

(1) Gilles Lipovetsky, L'Empire de l'ephemere, op. cit., p. 107-110.

إخلاص زوجها وبتعزيز حياتها الزوجية. وفى أحد إعلانات العطور فى سنوات العشرينيات نجد عبارة مثل: "إن واجب المرأة الأول هو أن تكون جذابة". وبعد التنديد التقليدى من أحابيل النساء أتى التحريض على الاستهلاك:"عليك باستخدام المساحيق وأحمر الشفاه، مثلك مثل ٩٩٩ امرأة من أصل ١٠٠٠"[1]. إن عالم الإعلانات قد علم النساء رؤية استهلاكية للجمال، وذلك بترسيخه الفكرة القائلة بأن الجمال يمكن أن يشترى.

إن ما تقوم به الصحافة النسائية لصالح الجمال الاستهلاكى لا يتوافق فقط مع مصالح الصناعات التجميلية: ذلك أنه يعبر خفية عن صعود قيم بروميثية حديثة. وفقًا للتقاليد، عرف الجمال باعتباره "هبة إلهية" أو عملا من صنع الطبيعة يستحيل الحصول عليه بوسائل إنسانية[2]. وسط محيط فكرى كهذا، كان استخدام أدوات التجميل مدانًا بوصفه نوعًا من الخداع والفسق الملازم للمرأة المتبرجة: وذلك أن الحكمة لا تكمن إلا فى تقبل ما ورثناه. فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تآكل هذا النظام الفكرى تحت وطأة هجمات لا سابق لها. فى نص "مديح التجميل" لبودلير Baudelaire، أعاد الكاتب الاعتبار لفن الأفانين قائلا: "على المرأة أن تكون برونزية كى يُتَولّه بها... على الماكياج ألا يتخفى ... بل على العكس من ذلك يستطيع أن يعرض نفسه، إن لم نقل فعلى الأقل بشىء من النقاء[3]". وإذا بقى تقدير كهذا للأفانين النسائية حالة منفردة، فعلى العكس تعددت الكتابات والكتب الإرشادية للجمال التى تفانت فى إضفاء الشرعية على الدلال الأنثوى، والاهتمام والعناية بالمظهر

---

(١) عن Stuart Ewen, *Consciences sous influence : publicite et genese de la societe de consommation,* Paris, Aubier, 1983, p. 178, 56.

(٢) لخص يوحنا الذهبى الفم Jean Chrysostome تمامًا هذا السلوك التقليدى بقوله: "المرأة التى تكون جميلة طبيعيًا لا تحتاج لإضافات اصطناعية، أما تلك التى هى قبيحة، فإن استخدام مساحيق التجميل لأمر مشئوم، لأنها ستلجأ إلى ألف حيلة كى يبدو عليها الجمال، ولن تستطيع بلوغه" عن Bernard Grillet, *Les Femmes et les fards,* op. cit., p. 148).

(٣) Beaudelaire, "Eloge du maquillage", *Le Peintre de la vie moderne, Œuvres completes,* Paris, Gallimard, La Pleiade, 1951, p. 905-906.

الجسدى، وغالبية المصنفات تؤكد أن الجمال ليس فقط حقًا طبيعيًا للنساء وإنما *واجب*. كتب Baudelaire : "إن المرأة على حق، بل إنها تقوم بنوع من الواجب حين تسعى لتبدو ساحرة وخارقة(١)". حررت النساء كتبًا متزايدة لتعليم النساء كيف يخفين عيوب مظهرهن، وكيف يضطلعن برسالتهن الطبيعية: أن يكّن جميلات ومحط إعجاب(٢). Blanche de Gery اعتبرت أن "المرأة التى لا تعتنى إطلاقًا بنفسها لا تستحق أن تتواصل مع العالم... من المسموح ألا تكون المرأة جميلة، ولكن من الممنوع أن تكون قبيحة تمامًا(٣)". فكما أن الرجال عليهم مسئولية معنوية للعمل من أجل العناية بأسرهن، كذلك بالمثل يتعين على النساء أن يقدمن صورة للجمال وأن يفعلن كل شىء لأجل الحفاظ على ألق شبابهن. إن إهمال الذات وعدم السعى لإصلاح العيوب الجمالية وتحسينها خطأ، وذلك أولا لأن المرأة خلقت بشكل طبيعى كى تسحر وتعجب، وثانيًا لأن الجمال يعد ميزة كبرى فى الصراع من أجل الحياة، ووسيلة تستخدمها النساء لامتلاك السعادة والمكانة المرموقة والثروة. بلا شك، كان تجمل المرأة منذ عصر النهضة، فرضًا على نساء الطبقات العليا، ولكن مع الحداثة الديمقراطية، امتد هذا الواجب إلى الجنس النسائى بكامله، ومذاك لم تعد "المعاناة من أجل الجمال" هباءً منثورًا أو إدانة، بل أصبح على كل امرأة أن تعمل بلا انقطاع كى تحافظ على مفاتنها وتطورها.

فى الوقت ذاته لم تعد العيوب لاغية بالقدر الذى كانت عليه فى السابق، بالتأكيد استمر اعتبار الجمال الجسدى مرآة للجمال الأخلاقى(٤)، ولكن أصبحت شرعنة الممارسات التحويلية للمظهر وافتراضيتها قائمتين وبتزايد مستمر. أدانت

---

(١) *Ibid.*, p. 905.

(٢) Comtesse de Norville, *Les Coulisses de la beaute,* Paris, 1904 ; O. de Jalin, Les Secrets de la beaute, Paris, 1904 ; marquise de Garches, *Les Secrets de beaute d'une Parisienne,* Paris, 1984.

(٣) Blanche de Gery, *Lecons de coquetterie et d'hygiene pratique*, Paris, 1885, p. 45.

(٤) Philippe Perrot, *Le Travail des apparences ou les Transformations du corps feminin*, 18e-19e siecle, Paris, Seuil, 1984, p. 182-183.

Harriet Hubbard Ayer الفكرة العبثية والمحبطة القائلة بأن على المرأة أن تمتثل لأحكام القدر ؛ وعبرت البارونة Staffe عن قناعتها بـ"علم تقويم الأنف"؛ وأيدت Annie Wolf أن العلم جعل الكمال الجسدى ممكنًا[1]، وأشار عدد من الكتب إلى إقبال النساء على اتباع أنظمة غذائية، وإلى ممارسة تمرينات اللياقة البدنية ورياضات المشى والتنس، ونصح بالإقبال على التدليك واستخدام دهانات وقاية البشرة، وحظى استخدام مساحيق التجميل فى نهاية القرن، ولو جزئيًا، بتقدير جديد، شريطة أن يظل *طفيفًا* وذا مظهر طبيعى[2]؛ وتم استنكاره عند الشابات، أما عند النساء فقد يكون له ما يبرره فى سن معينة. ومع المحدثين أفسح الجمال- القدرى المجال أمام الجمال- المسئولية، فتعززت الفكرة القائلة بأن الجسد قابل للكمال، وأنه من الممكن أن يتغلب على النواقص الجمالية إذا كرسنا أنفسنا لذلك وبحزم، ووفقًا لهذا المنظور، ميز Arthur Lefebvre نوعين من الجمال: أولهما يميل نحو السمات المتصلة بالولادة والآخر منوط بالسعى الفردى[3]. إن ثقافة الجمال النسائى تنخرط فى طريق الإرادوية الحديثة، التى تتسم برفض الخضوع للحقائق المستلمة من الطبيعة.

وفى فترة ما بين الحربين العالميتين، دفعت الصحافة النسائية بتلك الديناميكية النشطة نحو الأمام من خلال تمجيدها استخدام مستحضرات التجميل، وتشجيعها النساء على عمل كل ما يمكن من أجل إبراز مفاتنهن. مذاك قدم الجمال نفسه كنجاح شخصى تستطيع أى امرأة أن تسعى إليه حقيقة. وفى مجلة Claire-Marie حثت Marcelle Auclaire القارئات على أن يمسكن بزمام أقدارهن بأيديهن:"أنتن جميعًا جميلات، ألا تعرفن ذلك[4]؟" وفى مجلةVogue تعددت المقالات التى تحلل الجمال باعتباره إمكانية متاحة لكل امرأة: أن تكون البنت جميلة فهذا حدث لا حيلة لها فيه، "البنت تكون حلوة بمحض الصدفة، أما أن تكون المرأة جميلة فهذا إنجاز".

---

(1) Arthur Marwick, *Beauty in History*, op. cit., p. 222.

(2) Philippe Perrot, *Le Travail des apparences*… op. cit., p. 139-156.

(3) Arthur Lefebvre, *L'Art d'etre belle*, Paris, 1901.

(4) عن Evelyne Sullerot فى *La presse féminine, op. cit.*, p. 237.

A lovely Girl is an accident ;a beautiful woman is an achievement[1].

وبعد ذلك بقليل لخصت Zsa Zsa Gabor التفاؤل الجمالى الجديد فى عبارة شهيرة قائلة:"ما من امرأة قبيحة، وإنما هناك امرأة كسولة" فمع استخدام مساحيق التجميل وتمارين المحافظة على الجسد، ومع أفانين الأناقة لم يعد من عذر للقبح، فبإمكان كل امرأة أن تمنح ذاتها صورة مغرية، ونجحت الثقافة الحديثة فى هدم فكرة القدرية الجمالية: ها هى علاقة النساء بالجمال يعاد تأويلها وفقًا لوجهة نظر الأيديولوجيا الأهلقراطية، فلم يعد الجمال النسائى هبة الطبيعة التى يستأثر بها عدد قليل من النساء ممن ولدن جميلات، ولكنه عمل امتلاك ذاتى وإعادة خلق ذاتية، وهو نصر فردى متاح تبعًا لجدارة وموهبة كل امرأة. فمن خلال "العمل" يصبح بإمكان كل امرأة أن تنجو من محنة القبح. وبعد أن انتهت العوائق الأرستقراطية والطبيعية، بات ينظر إلى الجمال فى العصر الديمقراطى من خلال الإشكالية ذاتها لـ *Self-made man* الرجل العصامى.

تراجعت سطوة الموروث، وشرعنة الاصطناعية الجمالية، والاعتراف بسلطة البناء الذاتى للجمال، وكل تلك التغيرات الأيديولوجية لا تتوافق فقط مع المصالح التجارية للصناعات التجميلية، وإنما مع مرجعيات العصر الديمقراطى- الفردانى. ما من أى تقديس للإرادوية الجمالية دون أن يتحقق سيادة الأفراد المتحررين من العبودية الجماعية. صحيح أن مثال التملك الكامل للذات لم يستهدف، حتى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إلا جنس الذكور؛ فى حين أنه لم يُنظر إلى المرأة كفرد "حقيقى" مستقل، ومع ذلك بقى مثال السيادة الفردية دون تأثير على طريقة إدراك الصفات النسائية: بل وأعاد، بالأخص، بناء أيديولوجيا الجمال، أى الفضاء الخاص حصرًا بالجنس الثانى، فنزع مبدأ الامتلاك الحر للذات الشرعية عن تقبل الموروث، وثمّن الرغبة فى تسيّد المظهر، وأسقط المقاومة القديمة لتوسيع مفهوم الجمال، وأخذت محل الترسيمة القديمة التى عرفت الجمال باعتباره هبة سماوية مقدسة

---

(1) عن Robin Tolmach Lakoff, Raquel L. Scherr, *Face Value*..., *op. Cit.*, p. 81.

وضعية الجمال القابل للتملك، والتعبير الجمالى للمبدأ الحديث القائل بالسيادة اللامحدودة للعالم، وتماشى حق الرجال فى ممارسة سلطتهم الكاملة على المجتمع مع حق النساء فى تحويل المظهر والسيطرة عليه، وكما الحال فى النظام السياسى والاجتماعى الذى تشكل من جديد على قاعدة من السيادة الفردية، نُظر إلى الجمال النسائى وفقًا للمبدأ الحديث للسيطرة الكاملة على الذات.

سلطات الإعلام وسلطة النساء

حظيت الصحافة النسائية طوال القرن العشرين بسلطة تأثير هائلة على النساء؛ فقد عممت الشغف بالموضة وشجعت الانتشار الاجتماعى لمنتجات الجمال، وساهمت فى جعل المظهر بعدًا أساسيًا للهوية النسائية عند القطاع الأكبر من النساء، وأصبحت الصحافة النسائية سلطة سياسية فى المجتمعات الديمقراطية الحديثة: فكما لم تكف السلطة العامة عن النمو وعن التغلغل فى المجتمع المدنى، فى حين أن السلطة الحديثة تقدم نفسها كتعبير عن المجتمع، كذلك تعززت سلطة الصحافة على النساء عندما أصرّت على تنمية سلطتهن على مظهرهن الخاص. وفى الحالتين، تكاثرت السلطة "الخارجية" للهيئات الموجهة للمجتمع والرأى العام، باسم مبدأ السيادة الفردية.

واعتبارًا من سنوات الستينيات، تدنى كثيرًا مدى تأثير المجلات النسائية المصورة، ولنتذكر أبعاد الظاهرة، فلأن الصحافة النسائية مُسخّرة لمتطلبات النظام التجارى، أخضعت الصحافة النسائية لديكتاتورية الاستهلاك؛ وأدخلت النساء إلى عالمهن الجوانى بنشرها صورًا تمثل الحلم، وكثفت القلق المتعلق بالسن، وخلقت الرغبة الواهية فى التشبه بالنماذج النسائية الإغوائية؛ ولأنها خصصت مساحة كبيرة لزوايا "الموضة والجمال"، فقد عززت أنماط المرأة الطائشة والسطحية، إنها آلة هادمة

للفروق الفردية والأخلاقية، وقوة للتوحيد الشكلى والامتثالية، وأداة لإخضاع النساء لمعايير المظهر الخارجى والغواية، فوجه النقد من كل النواحى لصحافة سطحية وخفيفة، وطاغية فى حقيقتها، وجنسوية لا، بل عنصرية لأنها فرضت تفوق قوانين الجمال الغربية.

دون إنكار ذلك: تلك الأسهم المتقاطعة غالبًا ما تصيب الهدف، ولكن لم يتم الإفصاح عن كل شيء، مع ذلك، فإذا كانت الصحافة النسائية تمارس سلطة معيارية جماهيرية بشكل لا يمكن إنكاره، فإنه لا ينبغى حجب الوجه الآخر من عملها. لقد تميزت وسائل الإعلام النسائى بتثمين الفردية والشخصية بالتوازى مع عملها على توحيد المظهر. فنقرأ فى مجلة Marie Claire فى عام ١٩٣٥" لا شيء يصمد أمام الشخصية". وفى العام ذاته دافع مقال فى مجلة Vogue عن الفكرة القائلة بأن نصف الجمال يرجع إلى الشخصية، ويرجع ربعه إلى مستحضرات التجميل، بينما يعود ربعه الأخير إلى الطبيعة[1]. اعتبارًا من سنوات الستينيات سعت المجلات النسائية لجعل الأناقة متاحة أكثر، وعفوية أكثر، وعملية أكثر. فمجدت قيم الخيال الشاطح، والحرية، والنشاط: ذلك أن المرأة "الجديدة" هى تلك التى ترتدى ما تحب، وهى التى تلبس كما تريد. "إن الجمال حر الآن" كان هذا هو عنوان العدد الأول من مجلة Vogue الصادر فى عام ١٩٦٨ فى الولايات المتحدة الأمريكية. لم تكن وسائل الإعلام بالتأكيد هى أصل الحركة المعاصرة نحو مزيد من الاستقلال المتعلق بالأزياء، وإنما صاحبتها معطية إياها شرعية اجتماعية، وأسلوبًا، وموفرة لها إمكانات الانسجام مع متطلبات النساء فى الغواية. وإذا لم يساورنا كثير من الشك فى أن الصحافة النسائية تعد من الوسائل الأكثر فعالية للترويج الاجتماعى لمعايير الجسد الرشيق، إلا أنه ليس من الإنصاف اختزال تلك الديناميكية فى مشروع موحد لإلغاء الذاتية وعدم امتلاك الذات. ونلاحظ، أن مقتضيات النحافة ليست متناقضة فى حد ذاتها مع الثقافة الفردانية، لأنها تقود النساء إلى "الأخذ بأيديهن"، ومحاربة التسيب

---

(1) *Ibid.*, p. 81.

الجسدى، وتأكيد ذواتهن كأشخاص فاعلين إزاء الجسد وحتمية آثار الزمن. من هنا نرى أن المنطق الذى يوحد نمط القوام قد تأكد كوسيلة لتدعيم سلطة النساء على مظهرهن الجسدى، فمن ناحية تدين وسائل الإعلام النسائية النساء لأنهن يرين أنفسهن "كأشياء تزينية"، ومن ناحية أخرى تنشر ثقافة تشجع الشعور بالمسئولية الفردية إزاء الجسد ومبدأ البناء الذاتى للذات. وإذا كانت قد كثفت القلق النسائى المتعلق بالمظهر فذلك لا يعنى كونها تختزل لتكون مشروعًا لخفض معالم الذات وإنكارها.

كانت أمريكا المعاصرة فريسة لسجالات احتدمت بين تيارات ثقافوية متعددة، فاشتعلت الانتقادات الموجهة إلى المجلات النسائية، وتم فضح الإمبريالية الجمالية لتلك المجلات التى تجلت من خلال تمجيد الأنماط "البيضاء البشرة"، وذات الشعر المنسدل، والعيون الفاتحة اللون، والأنوف الدقيقة المستقيمة. ولأن الجرائد النسائية أسست جمالا طاغيًا وجمالا مسيطرًا عليه، ولأنها فرضت نموذجًا عرقيًا مركزيًا للجمال، لذلك استخدمت كآلات ذات سلطة عنصرية وشمولية. ونتج عن ذلك تعزيز الحواجز بين الأعراق، وإبراز الشعور بالشك، والدونية، وكره الذات بين مجموعات الأقليات[1].

لكن هل تستهدف تلك الاتهامات جوهر الثقافة الإعلامية الجماهيرية أم تستهدف فقط مرحلة من مراحل تطورها؟ وكيف نتجاهل تلك التحولات التى حدثت بغتة فى هذا المجال منذ عشرين أو ثلاثين عامًا؟ انتشرت منذ سنوات الستينيات فى المجتمعات الديمقراطية عملية انفتاح وتخفيف للمعايير الجمالية. ووفقًا للمذهب القائل بأن "السمراء هى الجميلة" خصصت مجلة Vogue غلافها فى عام ١٩٧٤، وللمرة الأولى لعارضة سمراء من الصف الأول. وفى التوقيت نفسه أصبح الشكل الإفريقى يمثل الموضة، كما تزايدت الصور التى تمثل جمال السمراوات والآسيويات والمنتميات "للأقليات". وفى عام ١٩٨٣ حصلت فتاة سمراء هى Vanessa

(1) Ibid., p. 245-269, Sauzan Bardo, *Unbearable Weight*, op. cit., p. 24-25, 254-265.

على لقب ملكة جمال أمريكا للمرة الأولى. وحديثًا احتلت Naomi Williams Campbell التى لقبت بـ "Black Magic Women– المرأة السمراء الساحرة" الصفحة الأولى من جريدة " Times ". بلا شك ظل نموذج الوجه "الأبيض" سائدًا، إلا أن سيطرته لم تعد تستبعد الاعتراف بجمال ألوان البشرات الملونة. إن عصر انتصار التمجيد الذاتى الجمالى الغربى أصبح خلفنا، فالتعددية الجمالية تمثل بشكل واضح مستقبل الصحافة النسائية أكثر من اجتثاث الفروق وتوحيد الجمال.

لن ننكر أن صور النساء الفاتنات التى تنشرها دوريات عدة تقدر أن تخلق شكوكًا جمالية حول الذات، وتزرع العقد عند عدد من النساء إزاء أجسادهن. هذا يعنى أن المجلات النسائية لا تتسم بالسلطة الهائلة التى غالبًا ما نعزوها لها. أولا لا تمارس تأثيرها إلا بناءً على مطلب نسائى متعلق بالجمال لم تخلقه تلك المجلات بكل تأكيد، فوسائل الإعلام لا تخلق رغبة النساء فى الجمال بقدر ما تعبر عنها وتعززها. ثانيًا توجد حدود مهمة تحد من قدراتها الانتقاصية؛ كيف نوفق إذن بين القدرة المطلقة المزعومة للصور الإعلامية مع الحقيقة القائلة بأن غالبية النساء يجدن أنفسهن حسناوات، عندما يُسألن عن ذواتهن؟ وإذا طلب منهن اختيار كلمة بين ست كلمات تتدرج من جميلة إلى قبيحة، وأى منها تعبر أفضل عن مظهرهن، فإن الغالبية العظمى تختار "جميلة"، و"مغوية" أو "حلوة"، دون أن تختار واحدة منهن تقريبًا كلمة "قبيحة"[1]. بلا شك تكشف دراسات أخرى فى الوقت ذاته أن عددًا كبيرًا من النساء يكن غير راضيات وقلقات أو محبطات حين يشاهدن أجسادهن فى المرآة، ولكن التناقض بين هاتين المعاينتين أقل عمقًا مما يبدو عليه. لأن النساء كن يطلقن أحكامًا قاسية على أشكال أجسادهن، فهذا لا ينطبق على وجوهن. صحيح أن النساء يرين أنفسهن بدينات جدًا أو "غير متناسقات"، ولكن فى كثير من الأحيان لا يرين أنفسهن قبيحات لأن ملامح الوجه تنقذ اللوحة الكلية بشكل أو بآخر، فهناك حدود للانتقاص الذى تمارسه وسائل الإعلام النسائية، فعلى الرغم من الوجوه الكاملة

---

(1) Robin Tolmach Lakoff , Raquel L. Scerr, *Face Value..., op. cit.*, p.140.

الأوصاف التى تظهر فى الإعلانات وصور الموضة، يبقى المنظور الذاتى للوجه النسائى إيجابيًا.

ليس من الوارد إنكار تأثير التطابق الجمالى فى وسائل الإعلام النسائية، ولكننا لا نعول كثيرًا على الحقيقة القائلة بأن قارئات المجلات النسائية كائنات سلبية بشكل مؤكد، وامتثاليات، وتستهين صور الموضة المتألقة بنظرتهن إلى أنفسهن. تلك الصور تصلح كمقترحات إيجابية، وكمصدر لأفكار تسمح بتغيير المظهر look، وتعلى من شأن الذات، وتختار الأوراق الرابحة فيها، ومن المؤكد أن النساء يقلدن العارضات اللواتى ينشرن فيها، ولكنهن لا يقلدن إلا أولئك اللواتى تتطابق صورهن مع تصورهن لأنفسهن. فعند تصفح النساء الصفحات المصورة للمجلات، فإنهن ينتقين هذا النموذج فى الماكياج، وهذا النموذج فى تصفيف الشعر والأزياء، ويخترن ويستبعدن ويحافظن على ما يتماشى مع شخصيتهن، وطموحاتهن، وأذواقهن. ولأن النساء مستهلكات للصور، فإنهن "فاعلات"، ويستخدمن النماذج المعروضة استخدامًا شخصيًا و"خلاقًا". ولنحذر من أبلسة وسائل الإعلام النسائى، إذ ينبغى تأويل فعلها كوسيلة للتوجيه الجماعى للأذواق وكحافز يجعل الجمال شخصيًا وملائمًا للذات.

(٤)
انحسار صورة المرأة الوبيلة

كانت علاقة الرجال بجمال المرأة فى المجتمعات التى سبقتنا أمرًا جديرًا بالملاحظة دائمًا: فالأنشودات التى مجدت المرأة كانت تصاحبها مسبات واتهامات معادية للنساء بلهجة شديدة الحدة. ومن قديم الزمان، احتفى الفنانون بالجمال النسائى، وشبهوه فى الوقت ذاته بفخ مميت، وأثار الجمال النسائى الخوف لكونه مبهرًا؛ ولكونه يدفع إلى التقديس فهو يثير ريبة الرجال. إن ظهور خطابات تمجد الجنس الجميل، اعتبارًا من عصر النهضة، لم تخف هذه الثنائية؛ ذلك أن موضوع الجمال الخطير استمر - وحتى مدة ليست ببعيدة - فى العادات والفن، وبقى بطريقة منهجية فى الثقافات الريفية.

وبالمقارنة مع هذا الوضع القديم العهد، سجّل القرن العشرون تغيرًا عميقًا. تهاوت وللمرة الأولى جميع الصور المخيفة للجمال، والأمثال الشعبية المحقرة لمفاتن الجنس الثانى، إذ لم يعد أى شكل من أشكال التصور يغذى الشك إزاء الصفات الجسدية للمرأة. تأكد الجمال النسائى باعتباره قيمة لا تشوبها شائبة، وسمة إيجابية تمامًا، متخلصًا من كل علاقاته التقليدية بالتهلكة والشر. فالعصر الديمقراطى للجنس الجميل يعنى، فى هذا الصدد، تمجيدًا كاملا لسلطانه، وتحررًا للجمال من أبعاد الهواجس والتعليمات المعادية للنساء، واستقلالية تامة عن الحيثيات الأخلاقية والدينية. إنها نهاية الثنائية القديمة العهد للسحر الأنثوى: فالقرن العشرون هو عصر انتصار ما بعد المرأة الوبيلة.

من الجمال المؤذى إلى صورة الشابة الجذابة

أبدت المسيحية بقرونها المديدة عدائية شديدة للغواية النسائية؛ فطوال العصور الوسطى، وأحيانًا حتى القرن الثامن العشر، ثار علماء اللاهوت على المرأة باعتبارها "وزير الوثنية"، ومخلوقًا متعجرفًا وفاجرًا، وطعمًا يستخدمه الشيطان للدفع بالرجل إلى الجحيم. كتب جاكوب سبرنجر Jacob Sprenger فى نهاية القرن الخامس عشر عن المرأة قال:" شكلها جميل، ولمسها مقزز، وصحبتها مميتة". وبعد ذلك بقرنين انهالت عليها التحريمات، كما فعل روليه Rolet، ولم تكن أقل تشددًا: "ألا تخجلوا من مضاجعة من هن شنيعات للغاية، ومن التوق آلاف المرات إلى تلك الأرض النتنة[١]؟". ولأن جسد المرأة يعد تجسيدًا للشر، فقد كان يشهر بكل ما يحمله وبأدوات الزينة والمساحيق والحلى التى تزينه؛ وانهال وابل من المسبات على الغواية النسائية وأحابيلها الخادعة باعتبارها هاوية للهلاك، فعند بنات حواء يبشر الجمال الجسدى بالجحيم، ويخفى قبح الروح.

وحتى فى خارج الأوساط اللاهوتية، كان الجمال النسائى يثير الخوف والحذر، أيمكن للزوجة الجميلة أن تظل مخلصة؟ وكيف يمكن حماية الفتيات من فجور المغويين؟ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ارتبطت المفاتن الطبيعية للمرأة بالدمار والهلاك. إذا كان الجمال، بالنسبة للفتاة الثرية، يمثل تاجًا لخصالها الاجتماعية والأخلاقية، فهو بالنسبة لفتاة من عامة الشعب يمثل خطرًا للانحلال: فإذا كانت الفتاة جميلة ولكن دون ثروة، فى هذه الحالة تكون عرضة لتصبح ضحية لعديمى الضمير الذين يريدون إغواءها[٢]. والجمال النسائى ليس خطرًا على الرجال وحدهم، بل هو

---

(١) عن L. S. Rolet, *Le Tableau des piperies des femmes mondaines*, 1685, Pierre Darmon, *Mythologie de la femme*, op. cit., p. 52.

(٢) Veronique Nahoum-Grappe, "La belle femme », in *History des femmes*, t. 3, p. 99-100.

خطر على النساء أنفسهن[1]. فقد كتبت "Rosalinde" فى *Comme il vous plaira*[2] إن الجمال يثير شهية السارقين أكثر مما يفعله الذهب".

ازدهر أيضًا فى القرن التاسع عشر موضوع الجمال الملعون الذى يزرع الدمار بين الرجال، واستكمالا لتقليد أدبى يعود إلى العصور الكلاسيكية القديمة، أبرز كتاب الرومانسية والتيارات "الانحطاطية" نموذج المرأة الوحشية- مصاصة الدماء، التى هى جميلة وغير بريئة، وهى لا إنسانية ومشئومة. من رواية كارمن (لميريميه)(Carmen(Merimee إلى رواية سالامبو (لفلوبير) Salammbo (Flaubert)، ومن سيسيل (لسو) (Cecile (Sue إلى مارى ستيوارت (لسوينبيرن) (Marie Stuart(Swinburne، ومن سالومى (لكل من وايلد ولافورغ ومالارميه) (Salome(Wilde,Laforgue/Mallarme إلى بازيليوتا(لدانونسيو) Basiliola (D'Annunzio) ومن السيدة دى ستاسفيل (لباربى دوريفيلى) Madame de Stasseville (Barbey d'Aurevilly) إلى هيا سانت(هويسمان) Hyacinthe (Huysmans) هناك مجموعة من البورتريهات التى تظهر صورة "السيدة الجميلة بلا رحمة" التى تجمع الشرور والشهوات[3]. ونادى عدد من الشعراء والروائيين والرسامين بـ "جمال الشر" لـ Baudelaire، وكما نادوا بالتوفيق بين السحر والانحلال، والجمال الطاغوتى المشبع بالمأساة والفسق والموت، وتشهد لوحات ,Stuck,Moreau Khnopff, Klimt على هذا الافتتان بالجمال الشيطانى للمرأة. إن فنانى مرحلة نهاية القرن ممن انخرطوا فى تيار الأسلوب الحديث modern style أرادوا التعبير عن الوحشية الشيطانية للمرأة، كمخلوق بلا روح يفعل الشر، ويثير الألم والموت باجتذابه

---

(١) *De La Legende doree a Blanche-Neige* كما كان هناك حكايات وملاحم تشير إلى خطورة أن تكون المرأة جميلة.

(٢) Shakespeare, *Comme il vous plaira,* الفصل ١، مشهد ٣.

(٣) Mario Praz, *La Chair, La Mort et le Diable dans la littérature du 19e siecle,* Paris, Denoel, 1977.

الرجل نحو فوضى الحواس والخواء(1)، فقدموا المرأة جامدة التقاطيع، ذات نظرة مبهمة وملامح باردة وساكنة، وحركات رسمية. وإذا كان الفن الحديث فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر قد نجح فى كسر الفضاء التشكيلى للقرن الرابع عشر، إلا أنه ظل على وفائه، رغم كل شيء، للنموذج الأصلى الموروث للمرأة الشيطانية. إن العصور الأولى لتحول الثقافة من محراب اللاهوت إلى الإطار الدنيوى لم تتوصل إلى تخطى المتخيل التقليدى للغواية النسائية الممزوجة بأحابيل حواء.

وفى القرن الأخير، انضوت تصورات المرأة أساسًا حول تعارض بين نمطين كلاسيكيين: هما النقاء والفجور، الملاك والشيطان، الجمال العذرى والجمال المهلك. لوحات فينوس الطاهرة لـCabanel, Bouguereau من ناحية، ولوحات حواء السامة لـ Stuck أو Felicien من ناحية أخرى. هذه القطبية الثنائية المتعارضة للأنماط النسائية لم تفقد سمتها المحورية إلا انطلاقًا من الثلث الثانى للقرن العشرين، حينها بدأ عصر ما بعد المرأة الوبيلة، وقد أبرزت السينما هذا التغير: فظهر على الشاشة النموذج الجديد للفتاة اللطيفة الشريرة good-bad girl وللمرأة ذات الهيئة المتوحشة والقلب الحنون، والمغوية دون أن تكون منحرفة(2)، ومع الرونق المتألق الذى جسدته Rita Hayworth أو Lauren Bacall تخلص الجمال البركانى من البعد الشيطانى الذى التصق به فيما قبل، فتوارى التعارض التقليدى بين نموذج الفتاة البريئة ونموذج "آكلة الرجال" لصالح نمط جديد يجمع بين الشبقية ونبل المشاعر، والجاذبية الجنسية ونقاء الروح.

لكن لا شيء يظهر نهاية متخيل الجمال الملعون أفضل من الجمالية الشبقية التى ابتكرها الرسامون والمصورون فى سنوات الأربعينيات والخمسينيات. ففى تلك

---

(1) Claude Quiguer, *Femmes et machines de 1990 ; lecture d'une obsession modern style,* Paris, Klincksieck, 1979.

(2) هذا النمط الأنثوى الذى لا سابق له تحقق للمرة الأولى على يد Nathan Leites, Martha Wolfenstein (*Movies*, Glencoe, 1950)؛انظر أيضًا Edgar Morin, *LesStars*, Paris, Seuil, coll. Points, 1972, p. 27-28.

الفترة فرض أسلوب جديد للجمال نفسه، وهو الشابة الجذابةPin –up، والذى اكتسحت صورها شيئًا فشيئًا المساحات الأكثر تنوعًا، من التقويم السنوى إلى ألعاب البلياردو الكهربائية، ومن اللوحات الإعلانية الضوئية إلى البطاقات البريدية. بسيقانهن اليافعة، وتضاريس أثدائهن، وأردافهن المكورة، كانت الشابات الجذابات Pin-Up اللواتى برزن عند Varga, Petty, Driben مغريات دون أن يكن فاسقات، ومستفزات دون أن يكن ملتهمات. لأن الشابة الجذابة ممشوقة، وسليمة، ومبتسمة، فلم تعد شيطانية، بل تشبه دمية مثيرة ولطيفة دون أن تكون حشرة توقع بفرائسها. وللمرة الأولى تتزاوج الجاذبية الجنسية وخفة الظل والمرح: فتظهر الشابة الجذابة فى الملصقات على هيئات تنكرية متعددة أو فى مواقف مضحكة، وتبدو وكأنها سوقية، وسعيدة بالحياة، مع بريق ماكر يتخلل نظرتها؛ فالشابة الجذابة تمثل الرغبة الشبقية، وشيطانية الجسد بدرجة قليلة، وتمثل الحيوية البشوشة فى أعلى درجاتها.

إن الشابات الجميلات اللاتى صممهن Elvgren أو صورهن Bunny Yeager لم يعدن يجدن نماذجهن فى العذراء ولا فى المومس، بل ظهرن كدمى طفلية فاتنة، نساء مثيرات و"لطيفات" ومكرسات لمغامرات الحب أكثر من الغرام المدمر. قبل "الثورة الجنسية" فى سنوات الستينيات والسبعينيات، عبرت الصور "المتفجرة" والملونة، والشبابية للشابة الجذابة عن تطور شبق جنسى نسائى متحرر من كل غموض ومن كل أفكار هدامة. بدأ عصر النساء الرائعات مرتديات الجينز وعصر الجميلات المراهقات اللاهيات دون أن يكن غامضات، واللواتى يحببن موسيقى البوب أكثر من الرومانسية والنشيطات دون أن يكن لغزيات. إن صور الشابة الجذابة تمثل بالنسبة للجمال النسائى ما تمثله موسيقى الروك rock بالنسبة لموسيقى المنوعات: أى أن الغواية النسائية بدأت تنسجم مع العبادة الحديثة للإيقاع، والأثر المباشر، والشباب و"عنف الحياة". إن التعارض بين الجمال الأثيرى والجمال الضار قد انحل لصالح جمال مثير، ومباشر، وحيوى، وبسيط، جمال بلا ظل وبلا عمق.

كرست السينما أيضًا لسلطان الشابة الجذابة، وذلك بإبراز نجمات على الشاشة ذوات شكل متفجر، وجاذبية جنسية، دون اللعب على الغموض، وطرحت كل من Betty Grable,Marilyn Monroe, Jayne Mansfield فى الولايات المتحدة الأمريكية، و Anita Ekberg,Sophia Loren وبالأخص Brigitte Bardot فى أوروبا تلك الأنوثة الجديدة ذات السمات العدوانية وأعربن عن شبقية غير معقدة، وطبيعية، وشبابية، تؤكدها الفساتين الكاشفة للصدور، والتنورات والكنزات التى تبرز تضاريس أجسادهن، ومشاهد التعرى strip-tease والاستحمام، والرقصات "الساخنة". ولنتذكر برجيت باردو Brigette Bardot أو "الحيوان الجنسى الصغير". فى بدايات السينما تجسدت الحسية من خلال أنماط المرأة المتوحشة مثلت heda Bara, Pola Negri, Marlene Dietrich أشكاله الرمزية؛ فأبرزت المرأة المتوحشة نموذج أنوثة متعذرة ومهلكة، بعينيها الغائصتين فى السواد، وزينتها المعقدة، وسجائرها ذات المبسم الطويل. لم يعد شيء من هذا مع جمالية الشابة الفاتنة التى نزعت عنها السمات المأساوية، والتى رفعتها مارلين مونرو Marilyn Monroe إلى مرتبة أسطورية، واختفى الدنس الملتبس للمرأة المتوحشة: فحلت الهشاشة المتألقة محل شيطانية إله الشبق Eros، وتصالح الجمال الحسى مع البراءة، وبهجة الحياة الصريحة والمكشوفة فى توليفة غير مسبوقة من الحسية والبراءة، ومن الجاذبية الجنسية والهشاشة، ومن السحر والحنان، ومن الشبق والحبور، أوجدت Sex goddess الهوليودية النمط الأكثر تألقًا لما بعد المرأة الوبيلة.

واعتبارًا من سنوات الأربعينيات والخمسينيات، تحررت صور المرأة من المرجعيات الموروثة للجمال الشيطانى لصالح نموذج مغوٍ وحديث ولعبى ومستهتر لنساء شابات ذوات سيقان مغزلية، وقامات ممشوقات وانسيابية، وشكل ساذج ومثير. إن حداثة الشابة الفاتنة لم تنتشر إلا واصطحبت معها الملامح الأنثوية النمطية التى تمثل الأولوية عند تطلعات الرجال "الكلاسيكيين" إزاء الجسد الأنثوى، من النهدين الضخمين، والمؤخرة الجميلة المستديرة، والأوضاع المغرية، والنظرة والفم المعبر عن

شهوانية مفرطة، ولأن الشابة الفاتنة هى نموذج حديث، فقد ظل على هذا الصعيد يمثل "المرأة القاصرة" و"شىء جنسى" يستخدم علانية لخدمة الرغبات والتوهيمات الذكورية. ونجم عن ذلك أن الشابة الفاتنة جمعت التباسًا بين منطقين؛ فمن ناحية، منطق حديث يتضح من خلال جمالية الجسد الممشوق والسيقان اليافعة والابتسامة الدائمة والجاذبية الجنسية واللعبية التى تخلت عن المأساوية. ومن الناحية الأخرى، منطق ذو جوهر تقليدى يعيد تشكيل "المرأة الشىء" التى تعرف من خلال شهية شبقية مفرطة (نهود، وأرداف، ووضعيات مثيرة)، إنها أنوثة تذكّر بـ"استراحة المحارب" أكثر من كونها تأكيدًا على هوية أنثوية مستقلة، وإن الجمع بين هذين المنطقين" غير المتجانسين" يشكل فرادة الشابة الجذابة.

إن المرحلة الديمقراطية للجنس الجميل مثلت زوال خرافة المرأة الوبيلة وتلازمت مع ثقافة حبورية للجمال الذى تخلص من كل ازدواجية ومن كل سلبية مفسدة وتجلب الموت، وقد أفسح التحالف العتيق بين المفاتن النسائية والموت المجال للاحتفاء بالجمال دون خطأ. وتشهد السينما والرسم على ذلك، إذ كفا عن تقديم صور الجمال الجهنمي: وحتى فى الأفلام التى عالجت المسألة التقليدية للمرأة الوبيلة، فإن النجمات لم يعدن يظهرن تحت شعار الجمال المدمر[1]، وفى الثقافة اليومية، اختفت تمامًا الاتهامات التقليدية الموجهة إلى السحر النسائى. فيما مضى كان يتردد فى الريف "ما من حذاء جميل إلا ويصير حذاء باليًا"، "من يبحث عن الوردة، غالبًا ما يجد الزبل". لقد طوى النسيان تلك الأمثال جميعها، ولم تعد تفلح إلا فى إثارة الابتسام باعتبارها آثارًا غريبة من زمن بائد، وانتهت الاتهامات الموجهة إلى مفاتن الجسد النسائى، وانتهى تحريم مستحضرات التجميل والغندرة حتى الشابات بات لديهن الحق فى التمكيج دون التعرض لأحكام مستنكرة. ها نحن وللمرة الأولى أمام ثقافة تنشط الجمال وتوسعه على الجمال إلى ما لا نهاية، ثقافة إيجابية، وإيجابية فقط، وتتعلق

([1]) فى فيلم Fatale لـ Louis Malle كان مظهر Juliette Binoche يعبر عن كل شىء إلا عن المرأة الملهبة الملهبة الملتهمة.

بـالجنس الجميـل. لـم تعـد لـدينا صـور عـن المـرأة الغامضــة كـأبى الهـول، بـل لـدينا الأشكال المتفجرة للنجمات والنماذج الراقية للعارضات؛ لم يعد يتوجب أخذ الحذر من أخطار الجمال، بل لدينا دوافع منهجية نحو استكماله. لم يعد الجمال النسائى مؤشرًا نحو الهاوية، ولكن نحو النجاح والرفاهة، والتوازن، والتوفيق، ويتم الآن التعرف على المتخيل الاجتماعى من خلال تعريف ستاندل Stendhal الشهير القائل بأن الجمال فـى عصـر مـا بعـد الحداثـة لـم يعـد إلا "وعـدًا بالسـعادة". وبعـد الرومانسـية السـوداء للجمال المهلك جاءت النهاية السعيدة للجمال الهادئ والناعم والأحادى المعنى.

مـن الواضـح أن ذلـك الوضـع الجديـد للجمـال النسـائى لـم يسـتطع الـتخلص مـن عملية التحـول الحـديث مـن الـدينى إلـى الـدنيوى، وتحـرر التصـورات النسائية مـن التقاليد المسيحية التى اعتبرتها أصلا للشر، ومن التأرجح بين ثقافة تعتبر الجنس الخطيئة إلـى ثقافة الجنس/المتعة، ولكن الظاهرة لا تنفصل كثيرًا عن التطور الرائع لمتخيل المساواة، والـذى اتسـع مـداه حتـى طـال الطريقـة التـى يلاحـظ بهـا الفـرق بـين الجنسـين. ارتبطـت تصـورات الجمال الوبيل بتنظيم المجتمعات القائمـة علـى التبـاين المسـتنكر بـين الرجـال والنساء، وبالثقافات الممايزة التى تنظر إلى الجنسين وفقًا لمبدأ التغاير فى الجوهر. إن الاتهامـات الموجهـة ضـد جمـال المـرأة ليسـت إلا مظـاهر لخـوف الآخـر المنغلـق داخـل اختلافه الجذرى، فنهاية نمط الجمال الشيطانى يعبّر تمامًا عن تقدم ثقافة لم يعد الفرق فيهـا بـين الرجـل والمـرأة يرجـع إلـى انفصـال أنطولـوجى، ولـم تعـد فيـه المـرأة تنظـر إلـى نفسـها كتفكـك خطيـر إلـى حـد مـا، تغلبـت فيـه مشـاعر الانتمـاء الأنثربولـوجى المشـترك علـى هـاجس الآخريـة بـين الجنسـين، وبغـض النظـر عـن التقسـيم الجنسـى الـذى أكدتـه الصـور المعاصـرة للمرأة بشكل مبـالغ فيـه، فإنهـا عبـرت عـن تقدم متخَّيل المساواة أكثر من تعبيرها عن تخليد الثقافة المعادية للمرأة.

نجمات وعارضات أزياء

على المستوى النهائى للجمال، لم يعد السحر النسائى يرتبط بالانحطاط والموت، وإنما بالشهرة والسعادة والثروة، وهناك نموذجان يظهران بجلاء هذا التحول وهما :النجمة وعارضة الأزياء.

اعتبارًا من العقد الأول من القرن العشرين أعلنت السينما مولد ما يمثل النموذج الأعظم للجمال الحديث، ألا وهو النجمة. فما من نجمة إلا وتكون جميلة جمالا خرافيًا؛ وما من نجمة إلا وتكون محط توله وإعجاب من قبل الجماهير. لم يحدث أن ارتبط الجمال من قبل بالنجاح الاجتماعى، والثراء، والازدهار الفردى و"الحياة الحقيقية"؛ فالصورة الكلاسيكية للنجمة لم تنفصل عن الرفاهية، والحفلات، ورحلات السفر، والتولعات غير المعتادة. واعتبارًا من سنوات الثلاثينيات أفسحت الصور الشهيرة للنساء الوبيلات المنحرفات المجال لصالح نجمات أكثر "إنسانية"، وأقل تمنعًا. وبعيدة عن تجسيد الفجور، اندرجت حياتهن العاطفية الصاخبة تحت عنوان البحث الحقيقى عن الولع. إذا كانت النجمة يجب أن تكون جميلة فينبغى أيضًا أن تكون "طيبة"، وهكذا يمكن رؤيتها تهتم غاية الاهتمام بأطفالها، وتشارك فى الحفلات الخيرية، وتخوض المعارك لأجل أهداف نبيلة، وعلى النقيض من الجمال المفسد، تقدم النجمة نفسها كمثل أعلى، وكنموذج للحياة من أجل الجماهير: فهى لم تعد تتوجه نحو الهاوية، بل باتت ترتبط بالقمم السامية.

تميز القرن العشرون بإعلاء غير مسبوق لقيم الجمال، من خلال تأليه النجمات باعتبارها ظاهرة غير مسبوقة، بات الجمال النسائى يسمح بكسب شهرة تساوى، وتزيد أحيانا، عن شهرة بعض رجال الدولة. حتى ذلك التوقيت، إذا كانت المكاسب الرمزية والمادية المستمدة من الجمال النسائى مهمة للغاية، إلا أنها كانت مدينة للنشاط والوضع الاجتماعى للرجل، وكانت تتطلب مقابلا جنسيًا أو علاقة

زوجية. لم يبق شيء من ذلك فى عصر السينما، إذ إن فائض القيمة للجمال النسائى تبلور فى المجال الإعلامى وليس الجنسى. إن صورة الجمال هى التى تباع وتشترى، وليس جسد المرأة، من هنا نشأت سلطة جديدة للجمال النسائى: أى تحقيق شهرة عالمية، والاستمتاع بإعجاب الجماهير، والتمتع بالرفاهة بفضل أنشطة مهنية معترف بها اجتماعيًا، وليس لها صلة بالوصال الجنسى. وإذا كانت النجمة تمثل ظاهرة لا تنفصل عن العصر الديمقراطى، فذلك لا يرجع فقط إلى أن جميع الأشخاص من مختلف الطبقات يستطيعون الوصول إلى المجد الإعلامى وبأقصر الطرق، وإنما لأن القيمة النسائية التقليدية المتمثلة بالجمال تسمح بارتقاء النساء إلى مستوى اجتماعى مساو لمثيله عند الرجال. إن عصر الجمال الحبورى يتماشى مع زمن تتخلص فيه المهنية من كل صورة ضارة ومهلكة، كما يتماشى مع مرحلة باتت فيها الغواية النسائية وسيلة لا مثيل لها لبلوغ الاعتراف الاجتماعى، والنجاح المهنى والمادى.

بالتوازى مع السينما، فإن عالم الموضة، والتصوير، والدعاية قد خلق النمط الآخر العظيم للجمال النسائى الحديث المتمثل بعارضة الأزياء، لأن العارضة خلال عروضها الدائمة هى امرأة متجملة ومتأنقة، فإنها تبدو بشكل كلاسيكى، ذات طلة مترفعة، ونظرة باردة وغير معبرة، لكن تمنعها لا يتعلق مطلقًا بنمط المرأة الوبيلة. فإذا كان تأثير هذه الأخيرة يمارس على الرجال، فإن تأثير عارضة الأزياء يستهدف أساسًا النساء أنفسهن، فهى تجسد جمالا من أجل الموضة، وليس جمالا من أجل إغواء الذكور؛ لذا فإنها بقوامها "المستقيم" تقدم عرضًا مخصصًا لغواية النساء فى المقام الأول، باعتبارهن مستهلكات وقارئات للمجلات المصورة. فلم يعد الرجال هم الذين يؤسسون، فى مجتمعاتنا، الجمهور الأكثر اهتمامًا بالأشكال الرمزية للغواية النسائية، وإنما النساء. حتى وإن أعادت عارضة الأزياء المكانة المرموقة للدور الجمالى للمرأة، أكثر من أى وقت مضى، إلا أنه، ومن خلال وساطتها، تتأكد معايير أقل خضوعًا للتحييل الذكورى، لجمال بعيد عن العلامات التقليدية للغواية النسائية، واعتراف من

جانب النساء. فمن خلال عارضات الأزياء ينتظم الجمال كي يكون محط إعجاب النساء أكثر من كونه شيئًا يسعى الرجال إلى الاستئثار به.

وعلى خلاف الجمال الوبيل، تظهر عارضة الأزياء في صورة نقية، وغواية سطحية، ونرجسية عابثة، وعلى النقيض من نظراتها الزائغة ومظهرها الذي يعكس عدم اكتراث مفرط، إن عارضة الأزياء لا توحي إطلاقًا بأنها "الحيوانة المتوحشة، اللامبالية، وغير المسئولة، والمنعدمة الشعور، والمهلكة لكل من يقترب منها" كما قال Esseintes (بطل رواية A Rebours للكاتب جوريس كارل هويسمانس) عندما رأى لوحة Salome للفنان Gaustave Moreau[1] لأن عارضة الأزياء فاترينة بحتة للموضة، فقد ألغت كل معنى تراجيدي في لعبة المظهر اللانهائية: أي أنه يستحيل العثور على مَعلَم منحرف أو مدمر، عندما لا توجد إلا فتنة الأناقة والجمال الأنيق، والموضة السطحية فقط. فلم يعد الأمر يتعلق بتجلي الجمال الشرير، وإنما غمزة عين من بعيد، ولعبة عابرة مع أنماط المرأة الوبيلة. لا تقدم عارضة الأزياء صورة الجمال المهلك، وإنما تخلق صورة خادعة لعبية وعديمة المشاعر للمرأة الوبيلة، إنه جمال الموضة، وأنوثة محتفى بها ، ولا ترد إلا لظاهرها. إن الجمال الوبيل قد أفسح المجال لأنشودة جمالية، وجمالية فقط، في الأنوثة، والغواية، والسعادة النرجسية في أن تكون المرأة جميلة، وفي أن تعرف ذلك، أن تعرض نفسها للمشاهدة.

عندما كانت عارضات الأزياء الأول يظهرن مع كبار مصممي الأزياء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأ الظهور الأول لفتيات الغلاف قد بدأ في نيويورك في عام ١٩٢٣ بمبادرة من جون باورز John Powers. وفي نهاية الخمسينيات أسست كاترين هارلي Catherine Harle في باريس، ولوسي كلايتون Lucie Clayton في لندن أولى الوكالات الأوروبية، ولكن خلال قرن تقريبًا ظل نشاط عارضات الأزياء مبخوسًا من الناحية الاجتماعية، وغير قادر على بث أي شهرة مهما كانت. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية فقط، بدأت المهنة تثير أحلام

---

[1] Joris-Karl Huysmans, *A rebours*, Paris, Gallimard, coll. Folio classique, 1977, p. 145.

الجمهور العريض، وأصبحت نموذج حياة بالنسبة للشابات، وعندما بلغت بعض عارضات الأزياء درجة النجومية، وعلقت الصحف على قصصهن العاطفية، وذكرت أسماءهن الشخصية دون اللقب. إن.Bettina, Praline, Lucky شاركت فى عرض أزياء، إنها باعت صورتها الجذابة، إلى جانب العديد من الأنشطة التى حازت على الاحترام والاعتراف الاجتماعيين.

ومنذ سنوات التسعينيات خطا التعامل الإعلامى مع عارضات الأزياء بالإضافة إلى شهرتهن مرحلة إضافية؛ فلقاءاتهن الصحفية لم تعد تحصى، وظهرت سيرتهن فى المكتبات؛ وظهرن فى إستديوهات التليفزيون بصحبة وزراء، كما ظهرت أسماؤهن فى الأغنيات، وكرّست مجلة شهرية جديدة بالكامل لعالم عارضات الأزياء، وهى *Elle Top Model* . وفى الوقت ذاته استفادت الشهيرات من عقود مجزية جدًا[١]، فقد صرحت ليندا إيفانجليستا Linda Evangelista منذ وقت ليس ببعيد: "نحن لا نستيقظ فى الصباح أبدًا لأقل من ١٠٠٠٠ دولار". إن آلهات الموضة الجديدات قد ارتقين المنصة التى فى الماضى كانت حكرًا على نجمات السينما، وهن من تمتعن بشهرة توازى، بل وتفوق أحيانًا شهرة رجال السياسة.

إن إعلاء كهذا للصورة الاجتماعية لعارضات الصف الأول لا يمكن أن ينفصل عن مجموعة من الظواهر التى يتضح انحسار هالة التقديس المحيطة بنجمات السينما بالإضافة إلى السياسات الجديدة للإدارة الشخصية التى تنتهجها وكالات عارضات الأزياء[٢]. ومع أهمية تلك العوامل، إلا أنها لا تمثل التفسير الكامل للمسألة، فمن خلال منظومة جعل عارضات الصف الأول نجمات تتجلى ثقافة تثمن أكثر فأكثر نعمة الجمال وشباب الجسد، مثلت نجمات الشاشة الكبيرة والأسماء اللامعة فى عالم مصممى الأزياء الراقية ومجموعات الموضة وعروض

---

(١) وقعت Cindy Crawford, Claudia Schiffer عقودًا مع Revlon تصل إلى ٧ ملايين، و ١٠ ملايين دولار على التوالى.

(٢) Philip Souham, *Top-Models,* ces nouvelles stars, Paris, Zelic, 1994.

الأزياء حلمًا بالنسبة للنساء لوقت طويل. ونلاحظ الآن أن ابتكارات الموضة تحظى بإعجاب أقل من الإعجاب الذى تناله عارضات الأزياء اللواتى يرتدينها، ويناله المصممون الأقل شهرة من عارضات الصف الأول. وإذا لم يعد ارتداء آخر موضة أمرًا لزوميًا، فإن تقديم صورة شابة ورشيقة عن الذات هو أمر تتزايد أهميته أكثر فأكثر. وفى مجتمعاتنا تتراجع مكانة الأزياء، وتكاليف اللبس، والوقت المخصص للتسوق، وسلطة الموضة؛ بينما لا تكف، فى المقابل، الطاقة المبذولة لمقاومة تغضنات الجسم وزيادة الوزن عن الازدياد. إن نجاح عارضات الصف الأول هو المرآة التى تعكس القيمة المتعاظمة التى يوليها مجتمعنا للمظهر الجسدى، ولتقوية الجسد، ولشباب القوام. إن التقديس المعاصر للجسد الفتى والمشدود، الخالى من الشحوم، يتعلق بعبادة عارضات الصف الأول، وكلما كان النموذج الجمالى للجسد النسائى متطلبًا، فرض نفسه كعامل للتكريس الإعلامى: فتمجيد عارضات الصف الأول جاء يتوّج نموذج الجمال الجسدى الذى أصبح فى منأى عن عدد كبير من الناس، كذلك أصبح حلمًا ملحًا أكثر فأكثر للشباب الخالد.

وعلى الرغم من كل ما يفصل النجمات عن عارضات الأزياء، فإن هذين المظهرين المثاليين للإناث يشتركان فى أن جمالهن هو ثمرة جهد استثنائى للتحول، فمن المؤكد أن الحيل أتاحت الفرصة للنساء بالتألق والظهور فى صورة "أخرى"، ولكن ما بدا حنئذ على أنه الذوق والموهبة الشخصيان يعتمدان، فى العالم الإعلامى الحديث، على عمل المتخصصين فى المظهر، وكما جردت الموضة الحديثة النساء، منذ منتصف القرن التاسع عشر، من مبادرة التزين وأسست للسلطة الكلية لكبار مصممى الأزياء، كذلك شكّل النظام المتعلق بالنجمة سيادة الجمال "المصنّع" الذى خلقه كاملا المتخصصون فى الإغواء، ولم تفعل عارضات الصف الأول سوى تطوير تلك العملية الإنتاجية الاصطناعية المفرطة، فقد صرحت عارضة الأزياء الكبرى كلوتيلد Clotilde "إننى خداع بصرى"، وكى نكون أكثر دقة، فإن عارضات الأزياء، شأنهن شأن نجمات الشاشة الكبيرة، لسن من عالم الوهم والتخيل، وإنما أعيد

تشكيلهن وتجاوزن الواقع، وقد أفصحت حديثًا النجمة المشهورة سيندى كراوفورد قائلة: "حتى أنا، لا أشبه سيندى كراوفورد Cindy Crawford حين أستيقظ صباحًا". إن المرحلة المتألقة للجمال تتوافق والمرحلة التى تسمح فيها التقنيات بتشكيل جمال حيوى أرفع من الإبدعات الخيالية، إذ أصبحت أسطورة الجمال صادقة، وصارت أشكال جمال الجسد صورًا أسطورية. لم يعد الجمال متهمًا فى مجتمعاتنا بإنتاج الشر، بل بات يقدَّم كصورة خيالية بهدف الاستهلاك الجماهيرى: ذلك أن إلاهات الجمال لم يعدن يجدن نموذجهن فى باندورا Pandora، وإنما فى غالاتيا Galatee مع التنويه بأنه ينبغى تخيل Pygmalion فى صورة مقاول، وحل محل الجمال المضطرب والملعون جمال تجارى، وجمال وُظف لخدمة الماركات التجارية وأرقام مبيعات صناعات المتخيّل.

الجمال: بأى ثمن؟

إنه جمال اغتباطى، وجمال دعائى. نحن فى مرحلة تفسح فيها التصويرات النسائية الكلاسيكية، التى تسيطر عليها الوظيفة *الشعرية*، المجال للصور *التقادمية*، والتى لم تكرس للبهجة الجمالية بقدر ما كانت مكرسة لتحفيز الاستهلاك، ولا تؤول إلى التأمل بقدر ما تؤول إلى الفعل التصحيحى للمظهر، فالجمال "اللامبالى" للفاتنات Venus قد حل محله جمال "نفعى". ووفقًا للتقاليد، فإن الفاتنات كن يرسمن كى يتم الإعجاب بهن من بعيد، كما لو كن قد وضعن على خشبة مسرح، وبدلا من هذا التقارب المتباعد حلت رؤية قريبة من الأجساد، والوجوه صورت بلقطات مكبرة: أى أن عملية التكبير تمت على الشفاه، والجفون، والنهود والأفخاذ، وأن الدعاية تبرز المرأة فى صورة مقطعة، أو فى صورة Puzzle جمالى. لم يعد هناك جسد يقدّم لمتعة العيون وحدها، ولكنه جسد قابل للتصحيح والفعالية والتميز الجمالى، ومن الجسد

الفسيفسائى الدعائى تصدر الرسالة التالية: هذا ليس إلا صورة؛ فالجمال قابل للتملك، وتستطعين أنت أيضًا أن تشبهى هذا النموذج. كان الجمال الوبيل لغزيًا ومرادفًا للهاوية وللخواء الشبقى، بينما الجمال الاغتباطى يصدر عن فكر ذى برنامج وأدائية جمالية عالية، ويتماشى اختفاء الصور المؤذية للجمال النسائى مع تكاثر النماذج التقادمية، والصور اللافتة التى تدعو إلى تحسين السمات الجمالية المستمر، وهو ما نتج عنه ازدياد حتمى لعدم رضى النساء بمظهرهن الجسدى.

هذا يعنى أن نقد النساء لأجسادهن من الناحية الجمالية يتزايد فى الوقت الذى يخمد فيه التنديد بالجنس الجميل، وفى الوقت الذى يتناقص فيه تعبير الجمال كقوة شيطانية تهدد الرجال، يتزايد فيه الإرهاب الممارس على النساء؛ وكلما قل ارتباطه بالـ "المكر" النسائى، بدت النساء أكثر شراسة إزاء شكلهن. إن نهاية الجمال الوبيل لا تعنى تلاشى بعده التراجيدى، وإنما تعنى استبطان هذا البعد، وتكثيف النقد الجمالى للذات ليحل محل التنديدات الأخلاقية، وإبراز الصورة السلبية التى تفبركها النساء لمظهرهن الجسدى.

يكشف المجال المهنى عن وجه مختلف تمامًا وخفى للجمال الاغتباطى، ويستمر عدد من الأنماط السلبية المرتبطة بجمال النساء: فحين تحقق امرأة جميلة نجاحًا على المستوى المهنى يخلق ذلك أقاويل غير لائقة حول ظروف نجاحها، فالجمال والجاذبية الجنسية، والماكياج غالبًا ما تبدو غير متوافقة كثيرًا مع السلطة، والكفاءة ومهارات القيادة، إن التثمين الذكورى لمفاتن الجنس الثانى ينزع إلى الحط من قيمة العمل النسائى. كى تتمكن النساء من أن يفرضن وجودهن فى عالم العمل ينبغى عليهن أن يحيِّدن مظهرهن، وذلك بالامتناع عن التنورات القصيرة، والأحذية ذات الكعب العالى، والثياب التى تكشف عن صدورهن، والشعر الطويل جدًا، لأن هذه الإشارات تدل على إفراط الأنوثة وشطح الخيال، فالمرأة لا تؤخذ بمأخذ الجد فى مؤسسات العمل إلا عندما تخفى معالم جسدها. إن التناقض بين الإغواء النسائى والعمل المهنى يضع المرأة فى موقف من التقيد المزدوج: فإذا دأبت المرأة على إبراز

مفاتنها، فإنها بذلك تنزع مصداقية صورتها كفاعل مهنى كفء، وعلى العكس إذا اجتهدت لإخفائها، فإن أداءها المهنى لن يلاحظ كثيرًا، وستعانى من ذلك صورتها كأنثى(١). من المؤكد أن الأنماط السلبية المقترنة بالجمال النسائى قد تراجعت، فى مجتمعاتنا: فالرجال الشباب، على الأخص، يرون أن التوافق بين الغواية النسائية وممارسة المسئوليات المهنية يتناقص، ويحصل ذلك أيضًا فى المعاقل الذكورية. ينزع الجمال النسائى، من وجهة النظر هذه، إلى أن يصبح نمطًا *ضعيفًا* لا يقوى على صد التقدم الاجتماعى والمهنى للنساء، ومع ذلك فمن السذاجة بمكان الاعتقاد بأن مسألة الجمال وضعت حدًا للتأثير فى حياة النساء وفى مسيرتهن المهنية.

تسهم عبادة الجنس الجميل أيضًا فى استمرار التقسيم بين المهن الذكورية والمهن النسائية، ونحن لا نجهل أن النساء منحصرات دائمًا فى مجموعة من المهن المحدودة أكثر بكثير مما لدى الرجال، وهى الظاهرة التى لا تنفصل بلا شك عن الأنماط والأدوار الضاربة جذورها فى التاريخ. يبقى أن التثمين المعاصر للجنس الجميل لم يؤدِ إلا استكمال هذا التقسيم الجنسى فى الأنشطة المهنية، وذلك بتشجيع توجيه الفتيات نحو المهن المتعلقة بالجمال والموضة. بالإضافة إلى ذلك نرى أن الأهمية التى تولى للإغواء وللمظهر تساهم بشكل أو بآخر فى إثناء الفتيات عن مجموعة من مهن الرجال التى تجرح كثيرًا صورتهن الشخصية وتطلعاتهن الجمالية. إن الأنشطة التى تحلم بها النساء أكثر من غيرها والأنشطة المجزية ماديًا هى التى يكون فيها المظهر الفردى له الأولوية، (مثل مقدمات التليفزيون، والممثلات، وعارضات الأزياء، والعلاقات العامة). إن مثل هذا التثمين للمهن المرتبطة بالمظهر يعد فخًا للنساء، ولنتذكر أنه فى فرنسا لا نحصى إلا ٣٠٠٠ عارضة أزياء، وأن عددًا قليلا من بينهن هن من يستطعن العيش من وراء هذا العمل. من ناحية أخرى، يستخدم تثمين الجمال النسائى، فى بعض الوظائف، كأداة للتمييز الجنسى: فقد رأينا بعض المؤسسات ترفض تعيين نساء أو حاصلات على شهادات عليا بحجة "أن مظهرهن غير مناسب"

---

(١) Rita Freedman, *Beauty Bound,* op. cit., p. 102-103.

بسبب الوزن أو السن[١]. وهناك بحث أمريكى شهير عن مقدمى التليفزيون أظهر أن ٥٠% من الرجال و ٣% من النساء فقط تجاوزوا الـ ٤٠ عامًا، وأن ١٨% من الرجال تجاوزوا الـ ٥٠ عامًا بينما لا توجد سيدة واحدة بلغت هذا العمر[٢]. وإذا كف جمال النساء عن الارتباط بالشر، فإنه لم يتوقف مع ذلك عن أن يكون عائقًا أمام المساواة المهنية بين الجنسين.

صحيح أن الجمال النسائى فى التصوير الضوئى خلال العصر الديمقراطى قد أصبح مهنة معترفًا بها ومصدرًا لعائدات مالية محترمة. بقى أن الجدل المثار حول الربح المادى والوضع الاجتماعى المرتبطين بالجمال النسائى لم ينته بعد على الإطلاق، وتشهد على ذلك المساجلات الحديثة حول مسألة عارضات الصف الأول. فبعض مصممى الأزياء يرون أنها نجومية مبالغ فيها، والبعض الآخر ثار على الأجور المفرطة، فقد كانت الصحافة صدى لقلق يتعلق بمهنة تستلب الجمهور النسائى، ولا يحظى بها إلا عدد طفيف من المميزات، فلم تكن تلك المجادلات سطحية إلا فى ظاهرها فقط؛ ذلك أنها فى الواقع تنقل السمة الإشكالية لوضع الجمال النسائى فى ثقافة ذات أصل أهلقراطى. فمن ناحية، تعمل الثقافة الديمقراطية والتجارية على تكريم الجمال، وعلى رفع قيمته الاجتماعية، ولكن المجتمعات الديمقراطية من ناحية أخرى، وهذا مبدأ من مبادئها، لا تعترف إلا بالإنتاج والجدارة الفردية كمصدر للاعتراف الاجتماعى: فما نفعله هو ما يستحق أن يحتفى به. إن الجدل المثار حول عارضات الصف الأول يعبر عن الصعوبة التى يلاقيها مجتمع أهلقراطى فى تحديد القيمة العادلة للمواهب التى يمتلكها المرء عند ميلاده، وإذا كان الوضع الحالى لهؤلاء العارضات يثير ردود فعل عدائية لم تعرفها نجمات السينما إلا فى حالات نادرة، فذلك يرجع إلى أن نجمات السينما لا "يبعن" فقط صورة جمالية، وإنما عملا مركبًا. وفى مجتمعاتنا تمثل مسألة الجمال البحت مشكلة لأنها تصطدم

---

(١) Shelley Bovey, *The Forbidden Body*, Londres, Pandora Press, 1944, p. 36-44.

(٢) Rita Freedman, *Beauty Bound*, op. cit., p. 208.

بالمبدأ القائل بأن ما يقوم به المرء من عمل فقط هو ما يستحق التكريس الاجتماعى، وقد خلصت المجتمعات الديمقراطية الجمال النسائى من صلاته بالشر؛ إلا أنها لم تكف عن رؤيته كمسألة مُربكة، وقادرة دائمًا على إثارة الفضائح والتنديد.

(٥)

مستقبل الجنس الجميل

تألق تقديس الجنس الجميل منذ ستة قرون فى بلدان الغرب، والشىء اللافت للنظر فى هذا المضمار هو أن نشوء العالم الديمقراطى لم يؤد إلى تراجع فى مسألة العبادة الجمالية للأنوثة؛ وللمفارقة فقد تسبب فى تكثيفها. فيما تبنى فينكيلمان Winckelmann فى منتصف القرن الثامن عشر فكرة تقول إن العرى النسائي وحده هو القادر على تجسيد الجمال، ونشأ فى القرن التالى "العزوف الكبير"، والكبت الحديث للطيش الذكورى، والذى تجلى من خلال الزى الأسود البرجوازى. ومع عصر المساواة البطولى تعمق التفاوت اللافت للجنسين إزاء الجمال، احتكرت النساء رموز الغواية، والأناقة، واستعراض الذات. بيوت الأزياء الكبرى، والصحافة النسائية، والمؤسسات المنظمة لمسابقات الجمال، وتعميم استهلاك مستحضرات التجميل النسائية، كلها مثلت مظاهر عدة للتعزيز الحديث لثقافة الجنس الجميل. فتأكد الجمال أكثر فأكثر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين كأولوية لافتة للأنوثة.

أين نحن من هذا الأمر فى نهاية القرن العشرين؟ كيف لا نثير القضية فى مواجهة سلوكيات جديدة تعيد قليلا أو كثيرًا توجيه علاقة الجنسين بالمظهر منذ ثلاثة عقود؟ منذ سنوات الستينيات وجه نقد عنيف صادر عن الحركات النسوية ضد طغيان الجمال والأنماط الجمالية التى تنقلها المجلات النسائية المصورة. أحرقت النساء الغاضبات رمزيًا مشدات صدورهن رافضات الوضع المتوارث الذى يمثل "أجمل شىء" عند الرجل، فقد هتف أنصار النسوية الأمريكية[1] فى عام ١٩٦٨: "لا

---

(١) فى الحقيقة، منذ عام ١٩١٤، وأنصار النسوية فى أمريكا، يطالبون فى الاجتماعات، بـ"حق تجاهل الموضة"، (انظر Nancy Cott, *The Grounding of Modern Feminism,* New Haven, Yale University Press, 1987, p. 12).

لملكة جمال أمريكا بعد الآن "No more Miss America ". فى الوقت ذاته، أبدى الرجال اهتمامًا بالغًا بملابسهم، وأصبحت الموضة الذكورية أكثر إغراءً، وبدأت مستحضرات التجميل الذكورية تشق طريقها.

أى دلالة اجتماعية لتلك التغيرات؟ أهى انحراف بسيط أم زعزعة فى عمق علاقة الجنسين بقيمة الجمال؟ من خلال هذا السؤال، فإننا نطرح المصير التاريخى لأيديولوجية الجنس الجميل: هل تلغّم "الثورة الديمقراطية" المنطلقة الوضع غير المتكافئ للجنس الجميل أم تساهم فى إعادة تركيبه؟ كيف ننظر إلى الأولوية التقليدية للجمال النسائى فى ثقافة تعمل بروح المساواة بين الجنسين؟

ديمومة الجنس الجميل

إذا كان العصر البرجوازى الحديث قد دأب على نزع العلامات المتوهجة للغواية عن الرجال، فإن عصر ما بعد الحداثة قد انخرط فى عملية مصالحة بين الذكورة والمظهر، ومثلت سنوات الستينيات نقطة الانطلاق للترويج الاجتماعى الجديد للجمال الذكورى؛ فتعددت المقالات التى عنيت بالموضة والمظهر الذكورى فى المجلات المصورة، وصدرت كتب مخصصة للرجال لتعطيهم نصائح جمالية؛ فبدأت الغواية الذكورية تظهر باعتبارها أداة نجاح وتوفيق اجتماعى: فقد أطلقت الاستطلاعات الأولى حول تأثير المظهر لدى رجال السياسة[1]، وذلك بمناسبة اللقاء التليفزيونى الشهير كيندى- نيكسون Kennedy - Nixon. وفيما كان الرجال يستعيدون "حق" الاهتمام بالموضة والمظهر الجسدى، فإن النساء، من جانبهن، اعترفن أكثر مما فعلن فى الماضى بإيلاء أهمية أكبر للجمال الرجولى.

---

(1) حول أهمية سنوات الستينيات بالنسبة لثقافة الجمال، انظر Arthur Marwiick, *Beauty in History*, op. cit., p. 343-396.

إن ارتفاع معدلات الاستهلاك التجميلى أظهرت العملية الما بعد حداثية لرد الاعتبار للمظهر الذكورى، ففى عام ١٩٦٥ كانت منتجات العطور والتجميل الذكورى تمثل ٥,٧% من معدل المبيعات لقطاع التجميل؛ وبعد ذلك بثلاثين عامًا ارتفع نصيبها لأكثر من ١٠%. كما كانت الكريمات والعطور غير المركزة تمثل ١٠% من إجمالى مبيعات العطريات الكحولية فى عام ١٩٦٥، وأكثر من ٣٠% فى عام ١٩٩٥. ومن ٢٦٦ مليونًا فى ١٩٧٣، تجاوز معدل المبيعات لمستحضرات التجميل الذكورية ٣ مليارات فى ١٩٩٥.

وفى الثلاثين سنة الأخيرة، حظى الجمال الذكورى دون شك بقيمة متعاظمة فى عيون الرجال كما فى عيون النساء، ولكن الظاهرة اللافتة للنظر أيضًا، والتى يتوجب الإشارة إليها سريعًا، تتلخص فى أن هذا الإعلاء الاجتماعى من شأن المظهر الذكورى لم يزعزع التفوق الموروث للجمال النسائى. حتى وإن اعتنى الرجال كثيرًا بهيئتهم لم ينتج عن ذلك أى تساو فى الأدوار الجمالية، وعلى العكس من الفكرة التى عُبّر عنها مرات عديدة، ليس التشوش أو التقارب بين الجنسين فى علاقتهما بقيمة الجمال هما اللذان ميّزا ديناميكية مجتمعاتنا، وإنما ظاهرة استمرار الفارق بينهما. هنا تكمن عمق الظاهرة الذى نميل كثيرًا هذه الأيام إلى تقليل قيمته أو إلى إخفائه: وهى أنه مهما بلغت أهمية التغيرات الطارئة فى هذا المضمار، فإن دلالة الجمال عند الجنسين لا تزال غير متناظرة وممايزة بنيويًا.

أتريدون إثباتات؟ إنها كثيرة، فالجمال سمة ارتبطت أساسًا بالبنات، ومنذ ولادتهن. فعلى الفور آباؤهن يصفوهن بأنهن جميلات ولطيفات، ومليحات، فى حين أنهم يقولون عن الرضع الذكور بأنهم أشداء، وطوال القامة، و"أقوياء". فالرضيع الذى يرتدى الأزرق يوصف بالقوى والنشيط؛ كما يوصف الآخر المرتدى للوردى بالرقيق والمرهف[1]؛ إنها أولوية الجمال الأنثوى التى تمتد إلى ألعاب البنات الصغار من

---

(1) Zella Luria, "Genre et etiquetage : l'effet Pirandello » in *Le fait feminin* تحت إشراف Evelyne Sullerot, Paris, Fayard, 1978, p. 237.

خلال مجموعة أدوات تصفيف الشعر، والعرائس التى تمثل عارضات الأزياء من ماركة Barbie، والدواليب الصغيرة، وإكسسوارات الزينة، وعبوات مساحيق التجميل. وعلى الطرف الآخر من الحياة، يظهر التباين جليًا. صحيح أن الرجال كما النساء يعتبرون أقل جاذبية عند التقدم فى العمر، إلا أن تناقص تقدير المظهر يبدأ عند النساء مبكرًا عمًا هو عند الرجال؛ فتتعدد الأحكام حول هذا الموضوع لم تتغير كثيرًا: فالعمر والتغضنات، كما يقال، تناسب الرجال فى حين أنها تصيب الغواية النسائية بمقتل؛ فالجمال عند النساء يتطلب توافر الشباب أكثر منه لدى الرجال. نجد ممثلين شابوا، ولكنهم يستمرون فى أداء أدوار الإغواء؛ وذلك ليس هو الحال نفسه بالنسبة للنجمات. ومقدمات التليفزيون اللاتى بلغن ٤٠ عامًا هن أقل عددًا بكثير من نظرائهن الذكور، وتتجلى هذه النزعة بوضوح فى مجال الإعلان: فطوال ثلاثة عقود، تظهر الصور الإعلانية ٣ نساء من أصل ٤ لم يتجاوزن الثلاثين عامًا، و ٤% فقط تجاوزن الـ ٤٠ عامًا[١].

لا يحظى الجمال بالمعنى الاجتماعى ذاته عند الرجال والنساء، فأى رجل ذلك الذى لم يحلم بأن يُرى محاطًا بنساء جميلات؟ فجمال النساء يبرز قيمة الرجال ووضعهم، فالرجل الذى يرى بمصاحبة امرأة جميلة يعتبر أكثر ذكاءً، وكفاءة، وأكثر أهمية من الذى يرى بصحبة امرأة متواضعة الجمال[٢]. لا يوجد شيء من هذا القبيل عند النساء: فجمال الرجل لا يحسّن صورة المرأة التى تصحبه، فى الوقت ذاته لا يثمن الرجال والنساء جمال الرفيقة بالطريقة ذاتها، كما لا يظهرن التوقعات نفسها فيما يتعلق بالمظهر الجسدى. بلا شك تعترف النساء الشابات اليوم أكثر من الماضى بأن أجساد الرجال تغويهن، ولكن حين يُطلب منهن ترتيب الصفات التى يبحثن عنها فى الرجل

---

(١) P. England, A. Kuhn, T. Gardener, „The Ages of Men and Women in Magazine Advertisements", *Journalism Quarterly*, n. 58, 1981, p. 468-471.

(٢) H. Sigall, D. Landy, "Radiating Beauty : Effcts of Having a physically Attractive Partener on Person Perfection", *Journal of Social Psychology*, n. 28, 1973, p. 218-224.

من حيث الأولوية، يأتي الذكاء في المقدمة، والجمال في المرتبة الخامسة فقط[١]. أما هرمية التفضيلات الذكورية فليست مماثلة: فالرجال يتمنون أكثر من النساء أن يجدن الجمال في الجنس الآخر، ويولون أهمية أكثر من النساء للسمات الجمالية لرفيقاتهم، وهذا ينطبق على جميع مراحل العمر، ولهذا دائمًا نرى رجالا من الجيل الثالث يتزوجون نساء أصغر سنًا منهم، وأحيانًا يكن أصغر منهم بكثير، أما العكس فاستثنائي، ولا يحظى باستحسان اجتماعي.

ويضاف إلى ذلك، أن الرجال والنساء لا يحكمون على أجسادهن بالصرامة ذاتها، وإذا كانت الانتقادات الجمالية التي توجه للرجال لا تتعدى مناطق محددة من أجسادهم (الكرش، الصلع، تجاعيد الوجه)، فإن النقد يوجه إلى أقل جزء صغير عند النساء، وأقل عيب في وجوههن وأجسادهن: ذلك أن الجسد النسائي في مجمله يمثل مصدرًا للقلق، ويثير رغبات وممارسات التزين. وتبدو النساء أقل رضى عن أجسادهن من الرجال بكثير، فرجل واحد من أصل ١٠ يصرح بأنه غير راض جدًا عن جسده، في مقابل سيدة من أصل ٣. في حين أن الرجال يشوهون بالأحرى صورة أجسادهن تشويهًا إيجابيًا، نرى أن النساء يملن إلى تشويه رؤية أجسادهن بشكل سلبي، خاصة عندما يرين أنفسهن بدينات[٢]. علاوة على ذلك، فإن الوزن المفرط لدى الرجال يحكم عليه برأفة أكثر منه عند النساء، ويصدر هذا الحكم هذا من كلا الجنسين. فالرجال البدناء غالبًا ما يوصفون بأنهم "يحبون الحياة"، وأنهم ظرفاء، وذوو علاقات سهلة ودافئة، أما المرأة البدينة فكثيرًا ما تعتبر بلا إرادة، وتتهم بعدم قدرتها على التحكم في نفسها؛ إنها صرامة "معنوية" تتضاف إليها صرامة جمالية، فالبدانة تعتبر مدمرة للجمال النسائي أكثر منها للجمال الذكوري.

تكشف الموضة أيضًا، مثلها مثل الممارسات التجميلية، دوام التفوق الجمالي للنساء، ومهما كان الولع الكبير الحالي بالموضة الذكورية، فإنها تظل حكيمة وخافتة

---

(١) Jean-Claude Hagege, *Seduire*, Paris, Albin Michel, 1993, p. 62.

(٢) Naomi Wolf, *The Beauty Myth*, op. cit., p. 94.

بالمقارنة مع وهج الموضة النسائية. إن زوايا "موضة" فى الصحافة النسائية ليس لها مقابل ذكورى، صحيح أن السوق الذكورى لمنتجات التعطير والتجميل قد اتسع؛ إلا أنه لا ينبغى إغفال حدود هذه الظاهرة؛ فحتى عام ١٩٨٥، تزايدت مبيعات المنتجات الذكورية أسرع بكثير من المنتجات النسائية (بنسبة ٥% تقريبًا سنويًا). منذئذ تباطأ هذا الإيقاع، وظل الفرق بين السوقين ثابتًا تقريبًا، بلغت مبيعات منتجات التجميل الذكورية، فى عام ١٩٨٢، ١ مليار من أصل ١١ مليارًا تمثل إجمالى المبيعات؛ وفى ١٩٩٥، حققت ٣ مليارات لمعدل إنتاج يقترب من ٣٠ مليارًا، وخلال ١٣ عامًا لم يتغير نصيب الاستهلاك الذكورى بالنسبة للسوق العام، بل استقر حول ١٠% من المجموع. وإذا لم نأخذ فى الحسبان أن "منتجات الجمال" بالمعنى الدقيق للكلمة، فإن تلك النسبة ضعيفة جدًا. ارتفعت معدلات المبيعات الإجمالية فى هذا القطاع فى عام ١٩٩٤ إلى ١٠,٧ مليارات، ولم تمثل المبيعات الذكورية فيها إلا ١١٥ مليونًا، بما لا يتعدى إطلاقًا ١% من الإجمالى! فتزايدت بكثرة منتجات ما بعد الحلاقة، ومزيلات رائحة العرق، والمياه العطرية للرجال؛ فى المقابل ظل الماكياج، كما نعلم، *ممنوعًا* بشكل مطلق تقريبًا بالنسبة للرجال- وهذا دليل بين العديد من الأدلة الأخرى على ثبات التباين البنيوى فى الأدوار الجمالية للرجال وللنساء. وكى ندعم مقولة انحسار الفصل الجنسى فى الأدوار الجمالية أو الصعود الحتمى "لتأنيث الثقافة[١]"، يطيب لنا اليوم التأكيد ليس فقط على الاهتمام الذكورى الجديد بالنحافة والموضة، وإنما بانطلاقة الاستهلاك التجميلى الذكورى أيضًا. وهكذا فإن ٢٥% من الرجال قد يستخدمون الآن كريمات التنعيم، و ٢٠% يستخدمون كريمات الشفاه[٢].فليكن. ولكن بأى تواتر؟ إن هذه الإحصائيات لابد وأن ينظر إليها بحذر شديد حين نعرف أنه من إجمالى مبيعات منتجات العناية عام ١٩٩٥ كان هناك فقط ١١٠ ملايين تخص المنتجات الذكورية من أصل ٧,٣ مليارات. حتى وإن كانت تلك الأرقام لا تتضمن

---

(١) Claude Fischler, "Une feminization des mœurs ? » *Esprit*, nov. 1993, p. 9-28.

(٢) *Le Figaro*, 28 nov. 1996.

الاستهلاك الذكورى لبعض المنتجات المصنفة "نسائية"، فإننا بعيدون جدًا عن ثقافة تتسم بتبنى الرجال ممارسات بقيت حتئذ خاصة بالنساء.

يجب أن نلاحظ أن حركة إعادة الاعتبار المعاصرة للجمال الذكورى لا تعنى إطلاقًا تناقص التباين فى الأدوار والمواقف الجمالية للجنسين. فإذا كان صحيحًا أن الرجال يُظهرون اهتمامًا بالمظهر أكثر من أى وقت مضى، فإن النساء ضاعفن فى الوقت ذاته نشاطهن فى مجال الممارسات الجمالية (حمية غذائية، منتجات العناية، تمرينات رياضية)، ولم يتقلص الفصل فى السلوكيات والتوقعات وعلامات القلق عند الجنس والجنس الآخر، على هذا الصعيد. إن النساء هن من يجسدن دائمًا الجنس الجميل، ومنذ ظهور مسابقات الجمال فى الولايات المتحدة عام ١٩٢١، استمرت حكرًا على النساء، وقد اكتسب عارضو الصف الأول من الرجال اعترافًا اجتماعيًا بالتأكيد، إلا أن شهرتهم لا تقارن بمثيلتها عند عارضات الصف الأول، والدليل على ذلك أنهم يحصلون على أجر يقل بخمس أو ست مرات عن عارضات الأزياء الشهيرات، وتعممت الجراحات التجميلية لكن من ٨٥ إلى ٩٠% من التدخلات الجراحية فى فرنسا، و٧٥% فى الولايات المتحدة الأمريكية أجريت لنساء. اليوم كما الأمس، المجاملات التى توجه للجمال غالبًا ما تكون للنساء أولا: فنادرًا ما نرى رجلا ممن يشتهى الجنس الآخر يبدى إعجابه بجمال رجل آخر. إن امرأة "تتمكيج" علنًا أمام مرآتها لا يثير صدمة؛ أما أن يتوقف رجل مليًا أمام المرآة فهذا أمر يثير الابتسام.

هناك كثير من الملاحظات التى تحد من دلالة التغيرات التى طرأت على صعيد المظهر، حتى وإن كان الرجال يبدون اهتمامًا أكثر من أى وقت مضى بالمظهر إلا أن استمرار الفصل الجنسى فى الأدوار الجمالية ظل سائدًا، إلى جانب إعادة الإنتاج الاجتماعى للمرأة باعتبارها جنسًا جميلا. فمآل النساء دائمًا هو الدور الجمالى، وهن الأكثر استهلاكًا لمنتجات العناية بالجمال منذ وقت بعيد، علمًا بأنهن الأكثر معاناة على المستوى النفسى من العيوب الجسدية، إن تقدم المساواة

الديمقراطية والإعلاء من شأن الجمال الذكورى لم يلغ شيئًا من عدم المساواة البنيوية التى تشكل ملكوت الجنس الجميل.

الجمال أو مستقبل الإناث

كيف نفسر إعادة الإنتاج الاجتماعى للهرمية الجمالية للجنسين فى قلب المجتمعات الديمقراطية بالذات؟ ولماذا تواصل الهيمنة الجمالية للمرأة تأكيد ذاتها بشكل واضح فيما لا تتوقف مطالب المساواة عن كسب أرض جديدة؟ من المستحيل بطبيعة الحال أن نفصل ديمومة الصدارة الأنثوية للجمال عن ثقل ماضوى يمتد آلاف السنين، وعن قوة أدوار الجنسين التى تمد جذورها فى أمد تاريخى طويل، ولكن الموروث لا يفسر كل شىء: فإذا كانت تلك الظاهرة تمتد بمثل هذه قوة، فذلك لأنها متضمنة فى قيم وتطلعات نابعة من الثقافة الحديثة ذاتها. إن السلوكيات العدائية القديمة إزاء حب الجسد، والنرجسية، والماكياج قد تلاشت بكثافة تحت ضغط الصناعات المتعلقة بالجمال من ناحية، ورغبات الاستقلالية والتجّمل الشخصى، من ناحية أخرى. أن يحب المرء ذاته، وأن يروق لنفسه وللآخرين، وأن يحسن من صورة جسده، بات كل هذا منَ السلوكيات والتطلعات المشروعة. وفى مجتمعاتنا تثير المعايير الجديدة للجسد الرغبات النرجسية للمراقبة الذاتية والاعتناء بالذات، وتحسين المظهر، فجميع قيمنا التكنو - برومیثية، والفردانية، والاستهلاكية تؤدى إلى تثمين ما هو أفضل للذات، وإلى تقبل أقل للموروث، وإلى رفض القدرية المرتبطة بالعيوب الجسدية وأشكال الذبول الناجمة عن العمر. من هنا لا ينبغى اعتبار التركيز النسائى الشديد فى مسألة المظهر على أنه بقايا موروثة بقدر ما هو نتيجة للمعايير المعاصرة للجسد وللأنا، وللرفاهة وللسيطرة على الذات.

بـلا شـك تطـول هـذه المعـايير الجديـدة الرجـال أيضًـا، وهـو مـا يفسـر ارتبـاط الرجـال كثيرًا بتحسين مظهرهم إذا ما قورن بالماضـى. ومـع ذلك، يستمر التبـاين بين الجنسين فيما يتعلق بـالمظهر، ويبقـى السؤال هـو أن نـعرف لماذا لا تصـل الديناميكية النرجسية والاستهلاكية إلـى إفسـاد التقسيم الجنسـى التقليدى لـلأدوار الجماليـة، ولمـاذا تواصل ثقافة الجنس الجميل إفشال ديناميكية المساواة؟

ممـا تهـدف إليـه المجتمعـات الديمقراطيـة التـى تتـوخى المسـاواة، لا يـؤدى إلـى اختفاء المطالب الاجتماعيـة الأخرى التـى تتعارض بشكل أو بآخر مـع هذه المساواة، وخاصــة مطلـب تكـوين الهويـات الجنسـية، والتعبيـر عـن الاخـتلاف بـين الجنسـين بعلامـات جلية. لـم يفلت أى مجتمـع حتـى يومنـا هذا من ضـرورة ترميز الفصـل بين الجنسين، ومـن تكـوين نظـام التعارضـات الممنهجـة بـين الـذكور والإنـاث. والهيكلـة الاجتماعية الدائمة فـى هذا الصدد تعنـى أنها مبنية علـى ربط هذا الاختلاف بآليات تصنيف إدراكية كامنة فـى الفكر الإنسـانى، وأنـها تتميز باتجاه عام ماثل بالفعل لدى الأطفـال الصـغار، أى التصنيف وفقًا للجنس، وترميز الآخرين انطلاقًا من مقولات الجنس الثنائية. مع ملاحظة الطريقة التى يتجنب بها الأطفال، مبكرًا جدًا، اللعب مع زمـلاء من الجنس الآخر، ويميلون إلـى تكوين مجموعات لشركاء من نفس الجنس، توصلت الينور ماكوبى Eleanor Maccoby إلـى هذه الخلاصـة: "يمكننا أن نفترض أننـا نتمتـع دومًا برموز ثنائيـة كمـا نتمتـع بصـور نمطيـة[١]". إن مضـامين الفصـل بين الجنسين تتبـاين من ثقافـة لأخـرى، ولكـن عمليـات التغـاير والتمييز الجنسـى عالميـة. حتـى وإن كانـت مجتمعاتنـا تنـدد الآن بأنمـاط التمييـز غيـر المتكـافئ بـين الجنسـين وأشـكالها، فمـن السـذاجة أن نعتقـد أن باسـتطاعتها الإفـلات مـن بنـاء الـدرجات بـين الجنسـين، كـذلك مـن البنـاء المـلازم للأنمـاط الجنسـية. عنـدما يعلـن المجتمـع عـن طموحات المساواة، فذلك لا ينفـى الحاجة إلـى تقنين وتأكيد الهويات الجنسية، بطريقة

---

(١) Eleanor E. Maccoby, "Le sexe, catégorie sociale", Actes de la recherche en sciences sociales, n.83, 1990, p. 16-25.

أو بـأخرى. إن التفـوق الجمـالى للإنـاث، فـى مجتمعاتنـا، يـؤدى وظيفـة قوامهـا إبـراز الاختلاف الجنسى فى حين أن النساء يطالبن أكثر فأكثر بأنشطة الرجال ومسئولياتهم ذاتهـا. إن النمـوذج غيـر المتكـافئ للجمـال النسـائى يمتـد، لأن معـايير المسـاواة بـين الجنسين تتطـور، وذلـك باعتبـاره أداة تـدوين اجتمـاعى للهويـة الجنسـية، وكلمـا قلـت احتمـالات أداء المرأة لزومًـا لـلأدوار الاجتماعيـة "الثقيلـة"، تزايـدت فـرص بقـاء التبـاين فى الأدوار "الخفيفة".

وهكذا فـإن التثمين المبـالغ فيـه للجمـال النسـائى يتيح موازنـة العملية المعاصـرة لزعزعـة أدوار الجنسين، وكيـف لا نـلاحظ أن مطالبـات الاستقلالية الفرديـة تتقدم اليوم فـى حين أن الرموز الجماليـة الممايزة بين الجنسين: ذلـك أن عمليـات حـرق مشـدات الصـدر قد زالـت، وأن الملابس التـى يلبسـها كـل مـن الذكور والإنـاث مـا ذات اتسـاع محـدود. علـى العكـس مـن ذلـك، نشـهد عـودة الملابـس الداخليـة المغريـة، ونجـاح Wonderbra، والتنـورات القصـيرة، واسـتخدام مسـاحيق التجميـل لـدى الشـابات الصغيرات، ونشهد كذلك أن كبريات العارضات المغريات جنسيًا يبتعدن عن الجمالية الناحلة. إن الموضـة، والماكياج، و"العودة" إلـى الأشكال النسائية، تشير جميعها على هذا الصعيد إلى حدود عملية المساواة: فمع استنفاد الأيديولوجيات الثوريـة، أصبحت النساء يردن كل شىء، ما عدا محو أنوثتهن. فالوقت الآن لم يعد وقتًا ينفى العلامات الجماليـة الممايزة، وإنمـا هو وقت التأكيد المجدد علـى الهويات؛ فالنسـاء يـردن سـلطة التصـرف مثـل الرجـال، ولا يـرغبن مـع ذلـك فـى أن يشـبهنهم، وهـن ينـددن باسـتئثارهم فضـاء السـلطة، و"العمـل المـزدوج"، والمرتبـات غيـر المتكافئـة، ولكـنهن يرفضـن عامـة بحـدة أقل الـدور الجمـالى الـذى منـح لهـن. إن الاحتيـاج للمسـاواة قـد توافـق منـذئذ مـع المطالبـات بـالاختلاف الجمـالى، ولا يشـكل اسـتمرار التميـز الجمـالى للنسـاء تعلقًـا بالقديم، فهو لا يمتد بالكسل، وإنمـا بالتلاؤم مـع الاحتياجـات الجديدة المتعلقـة بـالهويـة، وإعادة الاعتبار للاختلافات الما بعد حداثية.

وهناك عوامل أخرى تتأصل فى الوقت الحاضر وتدعم من جديد تميز الجمال النسائى؛ يظهر بينها النشاط المهنى للنساء. ففى بداية القرن، تصور بعضهم أن هناك تعارضًا بين عمل النساء والمثال الأعلى للجمال: "المرأة المستقبلية الغارقة فى مهنتها لن تستطيع، بسبب غياب أوقات الفراغ، العناية بجمالها[1]". لا شىء من هذا قد تحقق فى الواقع؛ فالنساء قد انخرطن أكثر فأكثر فى النشاط المهنى، دون أن تتلاشى اهتماماتهن الجمالية إطلاقًا. وفعلا، كلما تأكدت الدوافع المهنية النسائية، تطورت العناية بالمظهر. فالنساء العاملات يتمكيجن أكثر من النساء غير العاملات، فهن يكرسن وقتًا أطول لزينتهن، ويذهبن كثيرًا إلى صالونات التصفيف، ويمارسن الرياضة وتمرينات اللياقة، ويلجأن أكثر إلى الجراحات التجميلية كى يصرن أكثر شبابًا من ربات المنازل[2]. ومنذئذ صارت الحياة المهنية تستخدم كعامل إضافى يدفع النساء إلى تكريس الوقت والجهد والمال من أجل صورة أفضل لذواتهن، لاسيما وأننا نجد عددًا من المهن المفضلة لدى النساء التى يمثل المظهر فيها أهمية خاصة. وبعيدًا عن أن تؤدى الظروف الحالية لحياة العمل إلى تراجع التركيز النسائى على المظهر، فإنها تمده إلى فئات جديدة من المستخدمات المأجورات. عندما دخلت النساء وبكثافة إلى حيز العمل مقابل أجر، فإنهن يرغبن فى أن يكن مستقلات ماديًا ومغويات فى الوقت ذاته، ومكافئات على الصعيد المهنى، ومختلفات على الصعيد الجمالى، ومتفوقات ولكن جميلات. إن انطلاقة الثقافة الفردانية الأهلقراطية قد أتاحت التوفيق بين القديم والجديد، وألغت قفزتها النوعية نحو الأمام التناقض التقليدى بين الجمال النسائى والعمل، وبين النرجسية الجمالية والنشاط المنتج.

إلى كل هذه الأسباب يضاف أيضًا أن الرجال والنساء لا يمتلكون الأسلحة ذاتها التى تمكنهم من كسب لعبة الغواية، فمنذ العصور القديمة، والرجال يأخذون على عاتقهم وسائل عدة للاستحواذ على النساء، وسائل مثل الثراء، والوضع القانونى،

---

(1) Marcel Braunschwing, *La Femme et la Beaute*, Paris, Armand Colin, 1928, p. 241.

(2) Pierre Bourdieu, *La Distinction,* Paris, Minuit, 1979, p. 226.

والمكانـة الاجتماعيـة، والقوة، والـذكاء، والسـلطة، والدعابـة. وهذا لـم يتـوفر للنسـاء، إذ كـان دائمًا سـلاحهن "الأقصـى" هـو المظـهر، فعند الرجـال قد تحـل السـلطة والشـهرة والمـال محـل الجسـد القليـل الجاذبيـة؛ أمـا عنـد النسـاء فلـيس الحـال كذلك، فـالثروة لا تعـوض العيـوب الجسـدية، والوضـع الاجتمـاعى للمرأة لا يجعلهـا مرغوبـة، ولا مغويـة، وتجدر الإشـارة إلـى أن عدم التكافؤ الإغوائى ظـل ثابتًا بشكل عميق: ففـى أيامنـا هـذه أيضًـا نـرى رجـالا كبـارًا فـى السـن يتزوجـون شـابات، ولـيس العكس؛ واليـوم كمـا الأمـس يتطلـع الرجال ويثمنون جمال شريكاتهم أكثر مما تفعل النساء. إن ديناميكية التكافؤ لـم تغير شـيئًا مـن هذا النظـام غيـر المتنـاظر للغوايـة عنـد الجنسين، ولا توجـد أيـة إشـارة لحدوث تغير فـى هذا المنحـى؛ فالرجال يغوون بمظـهر النسـاء قبل أى شـىء آخر؛ ولـذا تـولى النسـاء أهميـة خاصـة لجمـالهن. وفـى هـذه الظـروف، لا يمكـن رؤيـة مـا يسـمح بتلاشـى التثمـين التقليـدى المبـالغ فيـه للجمـال النسـائى. فـلا ديناميكيـة المسـاواة، ولا تطـور الاسـتقلالية الفرديـة، ولا تقـدم مسـيرة الجمـال تبـدو قـادرة علـى احـتلال مكـان الصـدارة النسـائية بالنسبة للمظـهر. إن الثورة الديمقراطيـة وصـلت لأحـد حـدودها؛ فغـدًا لـن يكـون تثمـين الجمـال متشـابهًا عنـد الـذكور والإنـاث: ذلـك أن لولـب قيـم التكـافؤ لا يحظـى بأيـة فرصـة لإخفـاء عدم المسـاواة الجنسـية فـى الأدوار الجمـالية.



الفصل الثالث
ما بعد المرأة كربّة منزل



(١)

تتويج الأم كربّة منزل

ظهر توجه مهم أعاد تشكيل وجه الديمقراطيات الغربية المعاصرة: ألا وهو تزايد النشاط المهنى للنساء، فمنذ ثلاثة عقود والنساء يتقدمن دائمًا بكثافة ومثابرة فى سوق العمل. فى عام ١٩٦٠، كانت الفرنسيات العاملات أقل من ٧ ملايين، فى حين أنهن تجاوزن الآن ١١ مليونًا؛ أى بما يمثل ٤٣% من إجمالى العاملين، فى مقابل ما يقرب من ٤٥% فى عام ١٩٩٤، وفى أيامنا هذه، هناك امرأة واحدة من أصل ١٠ نساء فى الثلاثينيات من عمرهن بلا وظيفة؛ وقفز إجمالى عمل النساء فى المرحلة العمرية من ٢٥ إلى ٤٩ سنة من ٤٦% فى عام ١٩٦٨ إلى أكثر من ٧٨% فى عام ١٩٩٦. دخول النساء بكثافة إلى سوق العمل ليس ظاهرة فرنسية فقط، ذلك أن الديمقراطيات الغربية تشهد فى كل مكان تطورًا مشابهًا، حتى وإن اختلفت نسبة إجمالى العمل، من دولة لأخرى بشكل ملموس[1].

ليس عمل النساء المأجور هو ما تزايد بقوة، وإنما ظهور سلوكيات جديدة تتعلق بالعمل؛ إذ تزايد عدد النساء اللواتى لا يتوقفن عن العمل بعد الزواج وبعد إنجاب الطفل الأول والثانى، فهناك امرأتان تعملان من أصل ٣ ولديهن طفلان، وعلى خلاف الماضى، فرضت استمرارية الوظيفة النسائية نفسها كمعيار سائد، والعائلات التى يعمل طرفاها تجاوزت عدد العائلات التى يعمل فيها الرجل فقط. فى حين استفاد العمل النسائى من قانون جديد للمواطنة، وصلت النساء مبدئيًا إلى كل القطاعات الوظيفية، وقفزن أكثر فأكثر إلى المعاقل الذكورية، فهناك حلقة تاريخية جديدة أخذت مكانًا فى المجتمعات الديمقراطية: ألا وهى حلقة المرأة العاملة.

(١) فى عام ١٩٩٢، بلغ إجمالى العمالة من النساء فى المرحلة العمرية من ٢٥ إلى ٤٩ عامًا ٨٨% فى الدانمارك، وما يقرب من ٧٤% فى المملكة المتحدة وألمانيا، و٥٦% فى إيطاليا، و٥٣% فى إسبانيا.

هذه الظاهرة لم تزعزع فقط مجال العمل، بل زعزعت أيضًا علاقة البنات بدراستهن، والعلاقات بين الجنسين، والسلطة بين الزوجين، وبالتوازى مع التحكم فى الإنجاب عبّر العمل النسائى عن الإعلاء التاريخى من شأن المرأة التى تتحكم بشئونها، كما عبّر عن وضع جديد يتعلق بالهوية النسائية. وهنا، فإن كل شىء يفصل بين عمل المرأة فى مجتمعاتنا الحالية وعمل المرأة فى الأزمنة الماضية، ولكن يجب التذكير بأن النساء فى الماضى كن يعملن دائمًا. ففى المجتمعات ما قبل الصناعية، كان جميع أفراد العائلة ينخرطون فى أعمال منتجة، حتى وإن اختلفت طبقًا للعمر وللجنس، وفى المدينة كما فى الأرياف، كانت الفتيات غير المتزوجات يعملن إما فى منزل آبائهن أو فى منازل عائلات أخرى، كخادمات أو عاملات فى المزارع أو أجيرات. وفى المزارع كانت النساء المتزوجات يعتنين بالحيوانات والبقول، ويبعن المنتجات والبذور أحيانًا، والمحصول، ويقدن العربات. وفى المدينة، كانت زوجات الحرفيين يساعدن أزواجهن فى إعداد المنتجات وإتمامها، وكن يقمن بعقد الصفقات، وتولى الحسابات[١]. وفى حين كان الزواج يعتبر مؤسسة تحتاج إلى العمل المنتج لكلا الطرفين، فلا أحد يشكك فى أن دور المرأة كان المشاركة فى تحسين الوضع الاقتصادى للعائلة؛ فنقرأ فى كتاب مخصص للمراهقات فى القرن الثامن عشر[٢]:"الأحمق فقط هو من يتزوج امرأة، ويكسب عيشه دون مساهمة منها فى ذلك".

واعتبارًا من القرن التاسع عشر، شجعت عملية التصنيع اتساع العمل النسائى المأجور، وبالنسبة لعدد متزايد من النساء، أصبح العمل مرادفًا للأجر سواء حين تعمل المرأة عاملة، أو خادمة؛ ففى إنجلترا كان ٤٠% من النساء العاملات فى عام ١٨٥١ خادمات[٣]. وفى فرنسا وعلى مدار القرن، تحول إجمالى عمل النساء من ٢٩% إلى ٣٦% فى خلال مائة عام وقبيل الحرب العالمية الأولى، أى أن النساء

---

(١) حول عمل النساء فى مجتمعات ما قبل الصناعية، انظر Louise A. Tilly, John W. scott, *Les Femmes, le Travail la famille*, Paris, Rivage, 1987,1re partie.

(٢) عن Katherine Blunden فى *Le Travail et La Vertu*, Paris, Payot, 1982, p. 134.

(٣) Louise A. Tilly, Joan W. Scott, *Les Femmes, le Travail et la Famille, op. cit.*, p. 90

كن يمثلن عندئذ أكثر من ثلث العاملين فى الدولة. وفى عام ١٩٠٦ كان ٣٦% من النساء العاملات يعملن فى المنازل و١٧% كخادمات، و٢٥% كعاملات، و٨% كموظفات مكاتب. غالبًا ما كان عمل النساء مؤقتًا؛ فعندما يصبحن أمهات يتركن العمل بشكل كامل، ويمارسن نشاطات مساعدة وأعمالا منزلية أو كيفما اتفقت.

صاحب انتشار العمل النسائى خارج المنزل ازدهارًا للخطابات المنددة بعيوبه. نعرف العبارات الشهيرة التى تفوه بها ميشليه Michelet عندما قال:" إن كلمة(عاملة) هى كلمة زندقة"، وعبارة جول سيمون Jules Simon: "إن المرأة العاملة لم تعد امرأة"(١). فعمل المرأة فى المصنع يرتبط بالانفلات الجنسى، وبانحلال الأسرة، ويعتبر منحطًا، ومناقضًا لرسالة المرأة، وفى النظام البرجوازى أثار عمل المرأة الرعب باعتباره مؤشر فقر. بلا شك لم ير الجميع تعارضًا بين الحالة النسائية والعمل المأجور؛ ففى الطبقة العاملة لا تعتبر مشاركة الفتاة فى مصادر دخل العائلة أمرًا مخزيًا، لكن عمل المرأة المتزوجة يعد وضعًا ثانويًا، ونشاطًا مساعدًا لا ينبغى أن يلغى الدور الأساسى للأم والزوجة، لأن عمل المرأة لا يمكن أن يشكل هويتها، فهو يعتبر أيضًا أدنى من عمل الرجل كما يقتصر على وظائف ثانوية. إن المرحلة الأولى للمجتمعات الديمقراطية قد تزامنت مع الرفض الاجتماعى لعمل المرأة، كما تشكلت حول الانفصال البنيوى بين الرجل المنتج والمرأة الملازمة للمنزل، وتكمن الفكرة السائدة فى وجود تناقض بين الأنوثة والعمل، وبين الأمومة والعمل المأجور. وإذا كان المحدثون قد قدسوا قيمة العمل، فإنهم فى الوقت ذاته اجتهدوا للحط المنهجى من قيمة العمل المنتج للمرأة؛ فالمرأة لا ينبغى أن تعمل إلا إذا كان الزوج لا يستطيع توفير احتياجات العائلة، لأن مكانها الحقيقى "داخل منزلها". إن تقديس المرأة ربة المنزل قد بدأ مسيرته التاريخية، ومن هذا الفصل الحاسم من "التاريخ الحديث للنساء" يجب استخلاص المنطق والمعنى، الذين طالما ابتعدنا عنهما.

---

(١) Joan W. Scott, "L'"ouvrier", mot impie, sordid", *Actes de la recherche en sciences sociales*, n.83, juin 1990, p. 2-15,

روحانية ربة المنزل

فـى جميـع المجتمعـات المعروفـة، تتعلـق مسـئولية العنايـة بالأطفـال والمهـام المنزليـة بالنسـاء. كمـا قـال كسينوفون Xenophon إذا كـان الرجل مكرسًـا للوظـائف الخارجيـة، فـالمرأة تضـطلع، طبيعيًـا، بالمهـام الداخليـة، تلـك الاسـتمرارية القديمـة جـدًا للأدوار النسائية لا تخول، مع ذلك، إلى الخلط بين ما نسميه "المرأة ربـة المنزل" وبين الوضـع "الخالد". وفى مجتمعات ما قبل الحداثـة، لا تشـغل الاهتمامات المنزليـة البحتـة مكانـة مرموقـة بين الأنشـطة النسـائية. وفـى الطبقات الشـعبية تتعلـق المهـام الرئيسـية للنسـاء بالخـارج أكثـر مـن تعلقهـا بـداخل المنـزل، فالوجبـات تكـون بسـيطة؛ والكـنس، ونفـض الغبـار، وترتيـب الأسـرة وتنظيـف البيـت جميعهـا تـأتى بعـد أعمـال الحقـول، وتغذيـة الحيوانـات[١]. وحتـى القـرن الثـامن عشـر، خصصـت طـرق المعيشـة الشـعبية سـاعات قليلة لأعمال المنزل[٢]. فى الوقت ذاته ما كانـت الأمهات يولين أهمية كبرى لرفاهة الرضّع، والسهر عليهم وبناء شخصيتهم. ذلك أن الريفيات كن يقضين سـاعات طويلة بعيدات عن المنزل وقليلا ما كن يغيرن حفاضات الرضـع، وكن يتركهن يبكون فـى أسـرتهم، وقليلا مـا كـن يتحـدثن معهـم، وزوجـات الحـرفيين وصـغار التجـار كـن يضـعن أطفـالهن بأعـداد كبيـرة عنـد المرضـعات كـى يسـتطعن مسـاعدة أزواجهـن فـى الورشـة أو المحـل[٣]. العمـل فـى المزرعـة، ومسـاعدة الـزوج فـى النسـيج كانـت لهمـا الأولويـة علـى العنايـة بالأطفـال، وحتـى منتصـف القـرن التاسـع عشـر أيضًـا، كانـت

---

(١) Martine Segalen, *Mari et femme dans la societe paysanne,* Paris, Flammarion, coll. Champs, 1980, p. 100.

(٢) Olwen Hufton, "Women and the Family Economy in Eighteenth Century France", *French Historical Studies,* n.1, 1975.

(٣) Edward Shorter, *Naissance de la famille modern, op. cit.*, p. 210-237.

السيدات البرجوازيات فى شمال البلاد يهتمن بالمحلات والمحاسبة وتنظيم المؤسسة(١). حتى وإن آلت مهام المنزل إلى المرأة، فإنه لا يمكن وصفها بـ "المرأة ربة المنزل"، لأنها وبكلام آخر كانت منهكة بمهام المنزل والأطفال حصرًا.

تشكّل النموذج المعيارى للمرأة داخل المنزل فى القرن التاسع عشر، ففى عام ١٨٥١، كان النموذج منتشرًا جدًا فى إنجلترا بحيث ذكر التعداد العام تلك الفئة الجديدة المسماة "المرأة ربة المنزل". وفى فرنسا، اختلقت الروايات والأعمال الفنية نمط ملاك المنزل فى النصف الثانى من القرن، إلى جانب كتب النصائح ومطبوعات أخرى عن العائلة والمرأة. النموذج الحديث للمرأة ربة المنزل ليس فقط حالة اجتماعية، بل هو حالة أخلاقية، ورؤية معيارية للمرأة، وعقيدة علمانية للأم وللعائلة، إنها ثقافة جديدة رأت النور، ثقافة تكرم المهام النسائية التى طالما كانت فى الظل، وتخلق نموذجًا للزوجة – الأم- مدبرة المنزل التى تكرس حياتها للأطفال وسعادة الأسرة؛ فالمرأة لم تعد تهتم بالأعمال المنزلية من بين الأنشطة الأخرى كما كانت فى الماضى: أصبح يتعين عليها أن تكرس لها جسدها وروحها على غرار الكهنوت. تماشيًا مع هذه العقلية، يقارن روسكين Ruskin المنزل بـ"معبد فستالى"(كاهنة الإلهة فستا فى روما القديمة) وبـ"مكان مقدس" ترعاه الزوجة- النبيّة. إذن ترتيب "العش الوثير"، وتربية الأطفال، ونشر دفئها وحنانها بين أفراد الأسرة، والسهر على راحة وتشجيع الجميع، جميعها تمثل المهام التى صارت تضطلع بها النساء. ومع مذهب "الفضاءات المنفصلة" أصبح العمل والعائلة منفصلين جذريًا، فالرجل مكلف بالفضاء المهنى، والمرأة مكلفة بالبيت والبيت اللطيف.

وإذا كان النموذج يخص فى الأصل الطبقات البرجوازية، فإنه سريعًا ما فرض نفسه كمثال أعلى على جميع الطبقات الاجتماعية، فعبر قرن من الزمان، قدس رجالٌ ونساءٌ، برجوازيون وعمال، ومؤمنون ومفكرون أحرار قدسوا بإجماع النموذج ذاته للمرأة التى لا تعمل. بلا شك حارب أنصار النسوية من أجل تكافؤ الرواتب بين الجنسين، إلا

---

(١) Bonnie Smith, *The Ladies of the Leisure Class. The Bourgeoises of Northern France in the 19th Century*, Princeton, University Press, 1981.

أنهم نادرًا ما شككوا فى الفكرة القائلة بأن المرأة يجب أن تتمم واجباتها كأم ومدبرة منزل قبل أى شىء؛ لقد طرح الماركسيون دخول المرأة نطاق العمل المأجور، واعتبر هذا نقطة عبور حتمى نحو تحررهن، ولكن تأثيرهم ظل طفيفًا، على الأقل حتى حرب عام ١٩١٤. فتتالت المؤتمرات، وتبنى المناضلون العمال الفكرة القائلة بأن "المكان الحالى للمرأة ليس فى الورشة، ولا فى المصنع وإنما فى ترتيب المنزل، وفى داخل العائلة[١]" وحتى فى سنوات العشرينيات، عبر النقابيون عن تعلقهم بصورة الزوجة المنخرطة فى مهام الأمومة وتدبير المنزل. إن ظهور الموضوع الروائى ونجاحها لدى قدم الفتاة كغلامية، وكامرأة متحررة فى سنوات العشرينيات، يجب ألا يخدعنا، فبعض أنصار النسوية الثائرون طالبوا بالاستقلالية المادية. فى الحقيقة كان نموذج الأم ربة المنزل، فى فترة ما بين الحربين العالميتين، مسلمًا به تقريبًا، ومحتفى به فى الجرائد، والروايات، والكتب المدرسية، والخطابات الرسمية، وانتصر أكثر فأكثر مثال الزوجة- الأم التى تكرس ذاتها حصريًا لأطفالها، وتراقب صحتهم، ووعيهم، ودراستهم، وستشهد سنوات الخمسينيات الفترة القصوى والنقطة الحاسمة فى هذا التحول. وفيما تأسست المجتمعات الديمقراطية انطلاقًا من النزاعات الأيديولوجية والاجتماعية الجذرية، فإنها قد أشادت بالإجماع، وطيلة قرن من الزمان، بالمرأة ربة المنزل.

وبينما خلق التصنيع الناشئ مهنة عاملة المصنع، فقد أطلق العمل النسائى المأجور عاصفة من التنديدات باسم الأخلاقيات، والاستقرار الزوجى، وصحة النساء، والتربية السليمة للأطفال. وبالتزامن مع ذلك، تم تمجيد مهام الأمومة أكثر فأكثر باعتبارها رسالة وروحًا مضحية،[٢] ولأن الأم مكرسة لإنجاب الأطفال، وتغذيتهم، وتربيتهم، فيجب أن تتكرس بكاملها لهذه الوظيفة، وأن تتخلى عن طموحاتها الشخصية، وأن تهب نفسها لصالح العائلة. وحتى بداية القرن العشرين، وبخت الكتب

---

(١) عن Congres des travailleurs de 1879, Michelle Perrot, "L'eloge de la menagerie dans le discours des ouvriers francais au 19 siecle", *Romantisme*, n. 13-14, 1976.

(٢) Elisabeth Badinter, *L'Amour en plus*, Paris, Livre de Poche, 1980, p. 342-348.

التى تناولت موضوع النساء، والكتب المدرسية التى تستخدمها الفتيات، وبخت مظاهر الأنانية، وتغنت بواجبات الأم، وحثت على روح التفانى؛ فترتب تكريس ملاك المنزل من خلال بلاغة تدعو إلى وصف الأخلاق والتضحية.

بما أن الزوجة –الأم– مدبرة المنزل لم تخلق لذاتها، فهى لا تعتبر فردًا مجردًا، مستقلا، يمتلك ذاته: "المرأة يمكن أن تكون سعيدة دائمًا بشرط ألا تكون "فردًا"، بل أن تكون الكائن اللطيف الذى يعيش *خارج ذاته* ويعيش للآخرين[1]". إذا كان الرجل يجسد الصورة الجديدة للفرد الحر، والمتجرد، وسيد نفسه، فإن المرأة تظل ينظر إليها ككائن تابع بحكم الطبيعة، يحيا من أجل الآخرين، ويندمج فى النظام العائلى. إن أيديولوجية المرأة فى المنزل تأسست داخل الرفض الذى يعمم مبادئ المجتمع الفردانى الحديث، ولأن المرأة تحدد هويتها من خلال الغيرية والمحيط العائلى، فإنها لا تخضع للنظام التعاقدى للمجتمع وإنما بالنظام الطبيعى للعائلة، ولهذا السبب ستكون المرأة محرومة من الحقوق السياسية إلى جانب حقوق الاستقلالية الثقافية والاقتصادية[2]. إن الاعتراف بالمرأة كفرد مستقل قد يؤدى إلى تشويه طبيعة المرأة، وإلى الإسراع فى انهيار النظام العائلى، وإلى خلق الالتباس بين الجنسين. إن تجريد العمل النسائى خارج المنزل من أهليته، وتعليم الفتيات، والإقصاء عن الفضاء السياسى، وخضوع المرأة لزوجها، وقصور المَرأة والأم: كل هذا يعد تعبيرًا عن رفض تكافؤ الجنسين، وإنكارًا للمرأة – الفاعل، كما يعد سمة المرحلة الأولى للمجتمع الفردانى الديمقراطى.

على الرغم من كل شىء، فإن نموذج المرأة للمنزل لم يرتكز على أيديولوجية توبيخية حصرًا، ففى فترة ما بين الحربين العالميتين، تأسست صورة جديدة للمرأة داخل المنزل، وخاصة فى الولايات المتحدة، لا تتميز بروح التفانى بقدر ما تتميز بالغواية، والسعادة الاستهلاكية، والتحرر من العادات التقليدية، فالمكنسة الكهربائية

---

(1) عن Anne Martin-Fugier فى Yvonne Sarcey, *La Bourgeoise*, Paris, Grassct, coll. Biblio-Essais, 1983, p. 314.

(2) Pierre Rosanvallon, *Le sacre du citoyen, op. cit.*, p. 130-145.

والغسالة الكهربائيتين، وفرن الغاز ، والثلاجة، والأغذية المحفوظة احتفت بها الدعاية باعتبارها أدوات محررة للمرأة[1]. فى الوقت ذاته، احتفت بمنتجات التجميل واعتبرت كوسائل قادرة على المحافظة على الشباب وعلى حياة الزوجين. وبات الاستهلاك، والشباب، والجمال يمثل الواجبات الجديدة للمرأة داخل المنزل. من الطبيعى أن المثال الأعلى للزوجة والأم المخلصة لم يختف، وإنما وجدت بلاغة التضحية الملازمة له حتى وقتها، وكانت محاطة بمعايير فردانية تتعلق بالرفاه والغواية، وبدلا من أخلاق الادخار ، والتفانى، ها هى إغراءات الاستهلاك، والوعود التجارية البراقة، وفتنة الصيحات الحديثة تحل محلها؛ فظهرت حلقة جديدة تخلق اتحادًا وثيقًا بين المرأة داخل المنزل وبين الاستهلاك؛ أى أن تلك القرارات الحكيمة المتعلقة بالشراء، وتوفير الوقت والمجهود، وانتعاش الطفل من خلال المنتجات الاستهلاكية، والغواية الجسدية، ظهرت جميعا كضرورات جديدة للزوجة – الأم الحديثة. وما أصبح سائدًا فى سنوات الخمسينيات هو ما استمد أصله من البلاغة التجارية لسنوات العشرينيات؛ فالشعائر المتشددة أخذت فى التراجع لصالح صورة النساء الفرحات والمتأنقات، والمبتسمات، واللواتى أصبحن سعيدات بفضل "معجزات" الرفاهة براحتهن. هذا الإعلاء من شأن المرأة المستهلكة ذو أهمية كبرى؛ فهو يعبر عن شىء تجاوز صيحة الحياة النسائية، بل ساهم أيضًا، كما سنرى فيما بعد، فى التخطى التاريخى لمثال المرأة ربة المنزل.

حداثة المرأة ربة المنزل

ومع أن نموذج الزوجة ربة المنزل يمثل وضعًا معاصرًا للأزمنة الحديثة، فإنه يحمل علامة المبادئ المميزة للمجتمعات التقليدية، وكما رأينا، فإن أيديولوجية المرأة داخل المنزل تأسست داخل رفضٍ للمرأة الفرد، والمتكافئة والمستقلة، وعلى العكس من

---

(1) Stuart Ewen, *Consciences sous influence, op. cit*

القيم الحديثة التى تحتفى بالسيادة الحرة للذات، فإن سيدة المنزل قد اندمجت داخل نظام المحيط العائلى: فهى لا تمتلك ذاتها، بل تنتمى "غريزيًا" للعائلة، وذلك من خلال المعايير التنامية. من ناحية أخرى، فإن النموذج لم يسبب إلا استمرارية المكانة التقليدية للمرأة ولمبدأ تراتبية الجنسين، وذلك بحصر المرأة فى مهام داخل المنزل وإخضاعها للتبعية المادية. من وجهة النظر تلك، فإن وضعية المرأة ربة المنزل تمثل تعبيرًا عن استمرارية طويلة الأمد لابتكار تاريخى.

ومع ذلك، فإن صورة المرأة التى بلا وظيفة تبدو، من أحد جوانبها، بمثابة تكوين اجتماعى نمطى للحداثة الديمقراطية، حتئذ كان عدم العمل الاقتصادى سمة أرستقراطية تنطبق بلا تمييز على الجنسين فى الطبقات العليا. وبالنسبة لهذا المنطق النبلائى، يمثل وضع المرأة ربة المنزل قطيعة جلية بحيث لم يعد الفصل بين عامل/غير عامل يرتكز إلا على معيار الجنس كنوع. لم تعد ميزة الأكابر تمثل مبدأ للفصل بين المنتجين وغير المنتجين، وإنما فقط النوع بين رجل/امرأة؛ كما يعد يمثل سمات أرستقراطية وإنما معايير عالمية للعقل، الذى يقضى باحترام الحياة الأخلاقية والعائلية، كما يقضى برعاية صحة المرأة وهويتها. استمر فى الأوساط الفقيرة، بلا شك، عمل النساء: ومع ذلك فإن مثال مدبرة المنزل يستهدف من حيث المبدأ كل النساء من شتى الأوساط، وفقًا لقيم عالم يرفض التمييز النبلائى، والامتياز المتعلق بالنظم والأجساد. فمن ناحية، تمثل المرأة ربة المنزل استمرارية لتقليد عتيق، وتجسد من ناحية أخرى وضعية حديثة لمعايير اجتماعية ثنائية الطرف، وواضحة وبسيطة، ذات جذور تترسخ فى متطلبات "العقل" والطبيعة.

ما من شك فى أن عدم إنتاجية المرأة ربة المنزل قد استخدم باعتباره علامة فارقة تسمح بالتعبير عن المسافة الفاصلة بين الطبقات العليا والوسطى وبين الطبقات الكادحة، ومن خلال عدم نشاط الزوجة عبّرت الطبقات الموسرة عن اختلافها الاجتماعى فى نفس الوقت الذى بحثت فيه عن مواصلة التبذير التفاخرى المعمول به

فى الطبقات النبيلة[١]، ولكن دون أن يؤدى ذلك إلى وضع صورة المرأة التى لا تعمل فـى الامتـداد الـدقيق للثقافـة الأرسـتقراطية الخاصـة بـاللهو التفـاخرى. إن المـرأة ربـة المنزل، تلك التـى تصورها النـاس فـى القرن التاسع عشر وفـى القرن العشرين، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمبادئ الإدارة والعمل والفعالية التـى تمثل نمط العصر الحديث، وتشهد المهام الموكلـة بهـا علـى ذلك: فـالأمر يتعلق بـالإدارة الرشيدة للمنزل، وأن تكون المرأة مقتصـدة ومـديرة جيـدة. وأن تجعـل النظـام والنظافـة يسودان المنزل، وأن تحـرص علـى صـحة العائلـة، وأن تفعـل كـل مـا بوسـعها كـى يترقـى الأبنـاء فـى الهـرم الاجتمـاعى، ويجب أن تمتنع عن إعلان التخاذل، ولا يترتب عليها إطلاقًا أن تظل خاملة؛ وبعيدًا عن أن تُظهر أسلوب حياة " لا يكشف عن أى هدف ولا عن أى نيـة بعيدة[٢]"، يعهد إليهـا بمسـئوليات تعتبـر أساسـية تتعلـق بمسـتقبل الأطفـال، والعائلـة، والأمـه. وخلـف منطـق التمثيل التفـاخرى المـوروث مـن الثقافـة الأرستقراطية، يظهر نمـوذج المرأة ربـة المنـزل توجهـات وأولويـات حديثـة، مثـل أهميـة التعليم والقواعـد الصـحية، والاعتـراف والتكثيـف لـدور الأم فـى تربيـة الأطفـال، والاسـتثمار المتنـامى للعـائلات فـى الأطفـال. لأن الزوجة - الأم معفاة من العمل المأجور فإنها مكلفة بمهمة نفعية و"منتجة": أى الحـرص علـى الادخـار وإدارة المنـزل وإعـداد مستقبل أفضـل للأطفـال. مـن هنـا تنشـأ السـمة المركّبـة لهذا التكـوين الاجتمـاعى، فـإذا كانـت قدسـية المنـزل، وعلـى طريقتهـا، امتدادًا للأخلاق الأرستقراطية ذات المعايير الباهظة الثمن من ناحيـة، فإنهـا مـن ناحيـة أخـرى عنصـر ذو أصـل حـديث يهـدف إلـى عقلنـة الحيـاة المنزليـة، وتطبيـق القواعـد الصحية فى المنزل، والحرص على التربية وإيلاء الأولوية للطفل ومستقبله.

غالبًا ما يشار - وبحق- إلى أن المثال الأعلى لسيدة المنزل ساهم فـى حصـر النسـاء فـى المجـال المغلـق للعائلـة، وإقصـائهن عـن الوظـائف العامـة، وإفقـاد قيمـة الدراسـات الطويلـة الأمـد للفتيـات. صـحيح أن هـذا "الانغـلاق" لـم يمنـع إطلاقًا عمليـة

---

(١) عن تلك الإشكالية، انظر: Katherine Blunden, *Le travail et la Vertu*, op. cit., p. 32-34.

(٢) Thorstein Veblen, *Theorie de la classe des loisirs, op. cit.*, p. 55.

مصاحبة له تتعلق بتحرر النساء إزاء العلوم والمهارات التقليدية. أولا بفعل المدرسة وطموحها فيما يتعلق بنزع تأثير الكنيسة عن الفتيات؛ وثانيًا بفعل الهيئة الطبية التى عكفت على ترسيخ قواعد جديدة عند الأمهات لتغذية وتنظيف وتغيير اللفافات للأطفال، واتجه الأمر أكثر فأكثر نحو تثقيف النساء بالمعارف العلمية، وخلخلة المهارات التقليدية، وتوجيه الأمهات بتعليمهن المبادئ الجديدة لتربية الأطفال وللعادات الصحية. ومنذ بداية القرن وخاصة فى فترة ما بين الحربين العالميتين تطورت متابعة الأطباء للنساء للدرجة بحيث تكلم الناس فى هذا الصدد عن مشروع مثاقفة حقيقى للنساء[1]. وكلما تكرست النساء لعالم المنزل، "انتزعن" من الظروف القديمة، وانفتحن على المعايير التى كانت تمليها الهيئة الطبية، وكلما تم الاحتفاء بالدور الطبيعى للأمومة، تأطرت" غريزة الأمومة" وانتظمت من خلال التوجيهات والهيئات العلمية والطبية. إن الحديث عن الانغلاق التقليدى فى موضوع المرأة ربة المنزل ليس هنا إلا نصف حقيقة لاسيما وأنه ترافق مع انفتاح للنساء على الخارج، وانتشار للمعايير "العقلانية"، وإرادة حديثة لإعادة تشكيل سلوكيات الأمومة، وتغيير أنماط التفكير والتصرف الموروثة من الماضى.

إذا كان يتعين رؤية هذه الوضع التاريخى *كاختراع حديث*، فلأنه تصاحب مع عملية استثنائية لأمثلة وتثمين اجتماعى لوظيفة الأم. منذ بداية الخليقة والأنشطة النسائية تحتقر دون هوادة أو تمر فى صمت. لا شك أن الخصوبة هى التى أفلتت من عملة امتهان اجتماعى، أما الرعاية، والتصرفات، والحب الصادر عن الأم لم يستفد من أى تكريم خاص لأنها دمجت بسلوكيات طبيعية، هى تحصيل حاصل. فى منتصف القرن الثامن عشر بدأت القطيعة فأصبحت الأمومة للمرة الأولى محط تمجيد اجتماعى. أطلق كل من روسو وبيستالونى Rousseau, Pestalozzi الأمثلة

---

(1) Catherine Fouquet, Yvonne Knibiehler, *L'Histoire des meres,* Montalba, 1980, p. 290-298 ; Francoise Thebaud, *Quand nos grand-meres donnaient la vie : la maternite en France dans l'entre-deux-guerres*, Presses universitaires de Lyon, 1986.

الجديدة للأم، وذلك بإبراز الدور الذى لا يُبدّل للحب الأمومى فى تربية الأطفال[١].
كثف القرن التاسع عشر ومنهج هذا الوضع الجديد للأم؛ فرأت النور القصائد الأولى المنطوقة عن الحب الأمومى، وكثرت اللوحات التى تصور الأمهات وهن يرضعن أطفالهن ويهدهدوهن، ويلعبن معهم، كما فاضت الكتب التى تشير إلى الأهمية البارزة للأم كمربية "طبيعية". وفى كل مكان كان يشاد بصورة الأم من خلال ملامح الطيبة والرقة والحنان، حتى وإن ظلت الأم تحت سلطة الأب، مبدئيًا، أصبحت التربية وظيفة تديرها الأمهات وتسيطر عليها أكثر فأكثر، وهن اللواتى، مع هذا، كانت تتماهى هويتهن مع هذه المهمة. أعلن ميشليه Michelet أن الأمهات هن "المربيات الوحيدات الممكنات"، وأشاد بالمرأة كما لو كانت "ديانة(...) شعرًا نابضًا للنهوض بالرجل، وتربية الطفل، وتقديس الأسرة وتعظيمها[٢]". ومنذئذ احتفى بتفانى الأم ودورها فى جو مفعم بالغنائية، واعتبرت المؤسسة الأولى للأطفال: ومع المحدثين رفعت الأم إلى مرتبة التقديس العلمانى.

إن الفترات الأولى من الحداثة الديمقراطية لم تمجد فقط الحب الأمومى، بل رفعت من قيمة الأنشطة المتواضعة التى تمثلها مهام تدبير المنزل؛ فالمنزل المرتب، والنظيف، والمزين يجذب الزوج ويحوله عن الملاهى الليلية ومغريات الخارج، بل ويخلق العائلة من جديد. فصحة الأطفال منوطة بالقواعد الصحية، ومنوطة بالأمن المادى للعائلة وقيم الادخار؛ ورفاهة العائلة منوطة بنظام ونظافة "العش"، وبأخلاقيات مواطنى الغد، وبمستقبل الأمة. يحظى العمل المنزلى باعتراف اجتماعى غير مسبوق باعتباره عنصرًا فاعلا فى تهذيب أخلاقيات العائلة والأمة. وخصصت، فى المدارس الابتدائية والثانوية، حصص مدرسية للفتيات فى سنوات ١٨٨٠ لتعليم تدبير المنزل. وفى عام ١٩٠٧ أصبح تعليم الاقتصاد المنزلى إجباريًا فى المدارس

(١) Catherine Fouquet , Yvonne Knibiehler, *L'Histoire des meres, op. cit.*, p. 138-148, 174-189.

(٢) Michelet, *La Femme*, Paris, Flammarion, coll. Champs, p. 119.

الثانوية وإعداديات البنات. وفى منعطف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعددت الحصص العملية للطبخ والكى والخياطة والنظافة المنزلية، وكانت تعطى لفتيات الطبقات الشعبية والبرجوازية(١).

وفى ذلك الوقت، اقترح أنصار النسوية اعتبار أعمال تدبير المنزل والأمومة أعمالا قائمة بذاتها، وبالتالى أعمالا مأجورة، وقد طالبت النقابة المهنية للمرأة ربة المنزل فى فرنسا، فى عام ١٩٣٥، دفع راتب مقابل تدبير المنزل، وعكفت العديد من الخطابات لإقناع النساء بأن الأعمال المنزلية، مع أنها مملة ورتيبة، يمكن أن تكون أنشطة خلاقة وتحث على المعرفة والذكاء والتفكير، ثم تكلموا عن "علم تدبير المنزل" الذى وصل إلى الحركات التى تنادى بعقلنة العمل المنزلى. وفى الولايات المتحدة، نشأت حركة العلم المنزلى قبل عام ١٩١٤، وامتدت فى أوروبا فى سنوات العشرينيات من خلال مؤسسات متعددة، نظمت صالونات للتدبير المنزلى، وناضلت لتطبيق العلم والتقنيات فى الأعمال المنزلية. ومع اهتمام الأيديولوجية الحديثة بحصر النساء داخل منازلهن، فإنها سعت إلى إعلاء شأن العمل المنزلى، وتمجيد "الملاك المدبّر"، والاحتفاء بعمل كانت التقاليد تعتبره دونيًا.

من هنا نشأت الازدواجية التاريخية لنموذج المرأة ربة المنزل، فقد أعاد، من ناحية، تركيب تمايز أقصى بين أدوار الجنسين، وسبح عكس تيار الأمثلة الحديثة للمساواة، ولكنه من ناحية أخرى تصاحب مع عملية اعتراف واحتفاء بالوظائف النسائية، التى لا تنفصل عن مجتمعات المساواة. زوجة، أم، مربية، مدبرة منزل: تلك هى مهام المرأة التى احتفى بها، والتى نظر إليها بإكبار، ومُنحت، من حيث المبدأ، القيمة ذاتها للمهام الموكلة للرجال. فلنعد قراءة توكفيل Tocqueville الذى حلل العمل الرمزى للتكافؤ الحديث؛ إذ قال: "إن الأمريكان لا يعتقدون أن الرجل والمرأة عليهما واجب أو لهما حق تأدية الأشياء ذاتها، ولكنهم يظهرون التقدير نفسه لدور

---

(١) Anne Martin-Fugier, La Place des bonnes : la domesticite feminine en 1900, Paris, Grasset, coll. Biblio-Essais, 1979, p. 374-375.

كل منهما، كما يعتبرونهما كائنين متساويى القيمة مهما اختلف مصيرهما[١]". إذا كان العصر الذى افتتح المساواة قد شرع التنظيم غير المتكافئ للـ "فضاءين"، فإنه في الوقت ذاته قد كرم الصورة الاجتماعية للمرأة وزاد من الاحترام الذى تستحقه. من هنا فإن المرأة ربة المنزل لا تتجلى كنفى صارخ للعالم الديمقراطى، وإنما تتجلى كأحد تعبيراته غير المكتملة.

---

(١) Tocqueville, *De la democratie en Amerique,* Paris, Gallimard, t. 1, vol. 2, p. 222.

(٢)
المرأة فى العمل

صار العصر الذهبى للمرأة داخل المنزل وراء ظهورنا الآن، فبعد قرن من الحط من شأن المرأة العاملة، ظهرت حلقة جديدة يسودها الاعتراف بالمرأة العاملة وتثمينها اجتماعيًا، فكتبت ديموقراطيات ما بعد الحداثة فصلا جديدًا فى تاريخ النساء، إنه فصل ما بعد المرأة ربة المنزل.

أعطت سنوات الستينيات ضربة لافتة لتلك الحلقة الجديدة، ففى عام ١٩٦٣، باع كتاب المرأة الملغَّزة *La Femme mystifye* *لبيتى فريدان* Betty Friedan ١,٥ مليون نسخة، وسبب صدمة ثقافية لإبرازه "الانزعاج المبهم" لمدبرة المنزل فى ضواحى المدن الأمريكية، والعزلة والقلق اللذين تعانى منهما، إلى جانب الفراغ فى حياتها وغياب هويتها، ولم يعد مثال ربة المنزل الساحرة يحظى بإجماع الآراء: وتعددت المقالات الصحفية التى تتناول عدم الرضى الذى تعانى منه المرأة داخل المنزل، والكبت ورتابة الحياة، ولن تكف التنديدات المتعلقة بالمرأة غير العاملة بعد ذلك، وستترسخ من خلال التيارات النسوية الجديدة. فى هذا المناخ من المعارضة المعممة، أصبح الفصل غير المتكافئ فى الأدوار الجنسية وتخصيص النساء بالمهام المنزلية محل توبيخ عنيف. ففى نظر الحركات الراديكالية، لا يمكن للثورة أن تنحصر فى إلغاء العلاقات الرأسمالية للإنتاج، وإنما يتوجب عليها إلغاء كل من تقسيم العمل العائلى وفقًا للجنس، ونمط الأم – مدبرة المنزل، والعبودية المنزلية للجنس الثانى. إن صورة الزوجة والأم فى المنزل التى كانت تجسد حلمًا جماعيًا باتت تمثل كابوسًا للنساء الجديدات الثائرات.

فى هذه الغمرة، تطور الرأى العام بكثافة فى اتجاه الموافقة على العمل المهنى للمرأة، ففى الولايات المتحدة، فى عام ١٩٧٠، كان ٨٠% من النساء البيضاوات

يرين أن الوضع سيكون" أفضل كثيرًا" إذا بقيت الزوجة فى المنزل؛ وبعد ذلك بـ ٧ سنوات، لم يكن أكثر من ٥٠% من رأين ذلك[1]. وفى عام ١٩٦٩، وجد ٤٦% من الفرنسيين أنفسهم فى المثال الأعلى "لعائلة يمارس الرجل وحده مهنة، وتظل المرأة فى المنزل" هذه النسبة انخفضت إلى ٣٠% فى عام ١٩٧٨. مذاك، تزايدت مشروعية العمل النسائى المأجور، وفى الوقت الحاضر، يتفق ٧٧% من الفرنسيين على الفكرة القائلة بأن "الزوج والزوجة يجب أن يتشارك كلاهما فى الموارد المالية للمنزل". والأفضل من ذلك، بالنسبة لهذا الموضوع، أننا لم نعد نلحظ فصلا واضحا بين الجنسين لا من حيث الوضع الزواجى ولا من حيث السن[2]. فتقدم الاعتراف الاجتماعى بالدور المهنى للمرأة، فى كل مكان، على الرغم من وجود بطالة كبرى؛ ففى بداية الثمانينيات، أعلن ٥٩% من الأوروبيين اتفاقهم مع الفكرة القائلة بأنه" فى فترات البطالة المرتفعة يكون للرجل الحق فى الانخراط فى عمل أكثر من المرأة"؛ بعد ذلك بعشر سنوات، رفض ٥٥% هذه الفكرة[3]. بلاشك لا يزال الأمر بعيدًا عن إقرار متكافئ لعمل مأجور يصيب الجنسين، فوجود الأطفال الصغار دائمًا ما يخلق شروطًا تقيد عمل النساء[4]. بقى أن هذا العمل حظى بشرعية لا سابق لها، فما بين ١٩٧٨ و ١٩٨٩، ارتفعت نسبة الأفراد الذين يتركون للنساء حرية العمل حين يرغبن هن فى ذلك من ٢٩% إلى ٤٣%[5]، وردًا على سؤال: "إذا كنت تملكين الاختيار، فماذا

---

(١) Pierre Roussel, *La Famille incertaine,* Paris, Odile Jacob, 1989, reed. Coll. Points, p. 239.

(٢) تحت إشراف Elena Millan Game, "Masculin/féminine", in *Les Valeurs des Français,*Helene Riffault , Paris,PUF, 1994, p.235. ولنتذكر أنه فى سنوات الستينيات كان هناك تعارض واضح بين آراء الرجال والنساء حول موضوع عملهن: حيث استحسنته ٥٦% من النساء مقابل ٢٦% فقط من الرجال. انظر Evelyne Sullerot, *Histooire et sociologie du travail féminin,* Paris, Gonthier, 1968, p. 355.

(٣) Elena Millan Game, "Masculin/féminin", art. cit., p. 243.

(٤) ترى ٦ نساء عاملات من أصل ١٠ أن العمل ليس لوقت كامل هو الحل الأفضل للمرأة العاملة التى لديها أسرة.

(٥) Georges Hatchuel, "Les Francais et l'activite feminine. Travailler ou materner ? », Consommation et modes de vie, Paris, Credoc, n.58, avril 1991.

تفضلين؟: ممارسة عمل مهنى أم لا؟"رد ٨٠% من الفرنسيات بالإيجاب. إن النشاط المهنى للنساء قد تحقق، فهو الآن يمثل قيمة وتطلعًا مشروعين، وحالة طبيعية لحياة النساء، فرفض الهوية التى تتشكل من وظائف الأم والزوجة فقط هو الذى يميز الوضع النسائى الما بعد حداثى.

إن الأهمية التى تولى لدراسة الفتيات تظهر بطريقة أخرى السلوك الإيجابى الجديد إزاء العمل النسائى، انتهى عصر السخرية الموجهة ضد "النساء المتحذلقات". كما انتهى العصر الذى تستكمل فيه الفتيات دراستهن من أجل العثور على زوج، ثم يتركن الجامعة حين يتزوجن. أصبحت الفتيات ينخرطن فى الدراسة كى يعملن، ويؤكدن استقلاليتهن المادية، وعلى خلاف سنوات الستينيات، يعبر الآباء فى هذه الأيام عن إعطائهم أهمية كبرى لدراسة الفتيات أكثر من الفتيان، وغالبيتهم يتمنون أن تلتحق بناتهن بوظيفة مهنية طموحة[1]. حتى وإن استمرت الفروق المتعلقة بطموحات ومشروعات الآباء إزاء الفتيان والفتيات، فإن النموذج الذى يسود علاقتهم بالتعليم الأساسى هو نموذج متكافئ؛ فدراسة النساء نالت مشروعية اجتماعية تعادل رفض نموذج المرأة كربة منزل فقط.

الهوية المهنية والمرأة الفرد الفاعل

حتى وقت قريب، كان عمل المرأة المتزوجة يشبّه بنشاط مساعد تفرضه ظروف مادية صعبة. حتى بداية سنوات الستينيات، كانت النساء يطرحن العلل المادية كى يبررن نشاطهن المهنى: كتحسين الميزانية العائلية، وإعطاء الفرصة للأطفال لإكمال دراستهم. وحدها قلة من النساء اعترفن بالعمل لمزاجهن الخاص أو

---

(1) Marie Duru-Bellat, *L'ecole des filles*, Paris, L'Harmattan, 1990, p. 101.

لأجل الاستقلالية المادية[١]. إن العمل خارج المنزل غالبًا ما اعتبر ثانويًا، وخاضعًا للأدوار العائلية. حتى حين يكون النشاط المهنى النسائى ضروريًا لتحصيل رزق العائلة، فإنه لا يعد ذا قيمة خاصة، ويعتبر غير قادر على تأسيس هوية كاملة.

هذه العلاقة مع العمل النسائى لم تعد تسود المجتمعات الديمقراطية المعاصرة، ويشهد على ذلك عدد من الأحداث. أولا، لوحظ أن الحياة المهنية النسائية لا تتأثر كثيرًا بسبب الزواج والمواليد، على الأقل حتى الطفل الثالث: ذلك أن الاستمرارية للعمل النسائى تترجم ارتباطًا أكثر عمقًا وأكثر تعلقا بالهوية المتاحة فى الحياة المهنية. ومن ناحية أخرى، تعبر النساء أكثر من قبل عن رغبتهن فى التطور الشخصى من خلال النشاط المهنى المأجور، فأصبح "الاهتمام بالعمل" والمبادرة والمسئولية المهنية تطلعات تحظى بالأولوية عند النساء العاملات[٢].ولم يعد العمل النسائى يمثل أمرًا هامشيًا، وإنما يمثل مطلبًا فرديًا وهوياتية، وشرطًا لأجل تحقيق الذات فى الوجود، ووسيلة لتأكيد الشخصية. فى عام ١٩٩٠، اعتبرت ٨ فرنسيات من أصل ١٠ أن المرأة لا يمكن أن تنجح فى حياتها دون أن يكون لديها مهنة. وفى مجتمعاتنا، حظى العمل المهنى للنساء باستقلالية كبيرة إزاء الحياة العائلية، فأصبح قيمة، وأداة استكمال شخصى، ونشاطًا تطلبه النساء دون أن يعانين منه.

وتظهر دراسات متعددة أن الارتباط النسائى بالعمل صار يلبى رغبة فى الخلاص من انغلاق الحياة المنزلية، ويتماشى مع إرادة الانفتاح على الحياة الاجتماعية[٣]، ويضاف إلى ذلك رفض التبعية للزوج، والمطالبة باستقلالية فى تدبير

---

(١) Evelyne Sullerot, *Histoire et sociologie du travail feminine, op. cit.*,p.354-355 ; Menie Gregoire, « Mythes et realites », *Esprit*, mai 1961, p. 749.

(٢) Elena Millan Game, "Masculin/feminin", art. cit., p. 244; Jean-Marie Toulouse, Robert Latour, "Valeurs, motivations au travail et satisfaction des femmes gestionnaires", فى *Tout savoir sur les femmes cadres d'ici*, Montreal, Les Presses HEC, إطار الحلقة النقاشية 1988, p. 132-133.

(٣) Jacques Commaille, *Les strategies des femmes : travail, famille et politique*, Paris, La decouverte, 1992, p. 19-23.

شئون المنزل وفى تأمين "ضمانة" للمستقبل، وكلها دوافع تعبر عن تنامى فردانية نسائية بالتوازى مع سلوكيات تتعلق بالإجهاض، ومنع الحمل، والحرية الجنسية، وتراجع الزواج والعائلات الكبرى، ومبادرة النساء فى طلب الطلاق: فى كل مكان تجلت إرادة المرأة فى فرض نفسها كفرد فاعل لحياتها الخاصة. ويتضمن الاستثمار النسائى فى العمل، أكثر من رغبة فى الإفلات من "الجيتو" المنزلى، ألا وهو المطلب الجديد لتأكيد هوية المرأة كفاعل.

إذا كان صحيحًا أن مسألة المرأة الفاعل تتجلى عبر العمل النسائى، يجب الإشارة إلى النظريات الحديثة التى تخلق بطريقة معطلة معارضة بين **الفرد** و**الفاعل**، وبين الأنا الذات والأنا كضمير. تكون وجهة نظر محدودة إذا اختزلنا الفردانية المعاصرة إلى مجرد نرجسية أو إلى صورة مستهلك سلبى، وذلك بأن نضع فى مقابلة الفرد الفاعل المعرَّف كمقاومة لسلطة الأجهزة، وكنضال ضد متطلبات السوق وكسطوة فى الأدوار الاجتماعية المرسومة[1]. هذا النموذج المزدوج أظهر سريعًا حدوده، طالما اجتهدنا لتفسير الدلالة الجديدة للعمل النسائى. كيف نرى هذه الظاهرة فى إطار التناقض بين الفرد/والفاعل؟ أهو تجل لفردانية ما بعد الحداثة؟ نعم، طالما كان الالتزام النسائى بالمجال المهنى يمثل رد فعل للاهتمام بالذات، وبرغبات التعبير والاكتمال الحميميين. أهو تجلٍ للفاعل؟ نعم، طالما أعرب عن إرادة الاعتراف به كفاعل فردى مسئول عن حياته الخاصة. ولكن يلاحظ أن البحث عن الاستقلالية الشخصية لا يتماشى هنا إطلاقًا مع مقاومة معايير الحياة الاجتماعية وقيودها. ومع مسألة العمل النسائى، فإن الانفصال بين الفاعل والفرد يكون هشًا لأن الفاعل الأنثوى يتأكد من خلال الأدوار الاجتماعية "غير الشخصية"، وليس من خلال الانشقاق وزعزعة النظام القائم؛ إنه من خلال اتساع عقلنة عالم العمل، وليس من خلال نفيه، تتعمم الاستقلالية الذاتية للإناث.

---

(1) Alain Touraine, *Critique de la modernite*. Paris, Fayard, 1992.

إن البحث الاقتحامى عن **أنا** لا يفترض مسبقًا رفض منطق النظام والسلطة، فمع انخراط النساء فى النشاط المهنى، يتبين سلوكيات تُعنى بالبحث عن المعنى للحياة الشخصية، ورغبة فى أن تكون فاعلا لوجودها الخاص حتى، وإن كان فى إطار المنطق غير الشخصى للمجتمع؛ فلم تعد الفردانية مرادفًا للاستهلاك السلبى، كما لم يعد الفاعل يشبَّه بالتمرد. إن الطرح المعاصر لمسألة عمل المرأة يظهر مآزق النظرية التى تضع تعارضًا جذريًا بين التذويت والمجتمعية، ولا تفكر فى الحرية الذاتية إلا كنوع من عدم الخضوع للقواعد الجماعية. وعلى مدار التاريخ، لم تكن قضية العقلنة الاجتماعية المنظّمة لعالم الإنتاج- الاستهلاك- الاتصال الجماهيرى هى ما دمرت أو هددت الـ **أنا**، ولكنها، أكثر من ذلك، كما سنرى، هى التى عممت ووسّعت وجود استقلالية الفاعل الأنثوى.

وإذا كانت تطلعات النساء فيما يتعلق بالعمل تمثل تجليًا جوهريًا للديناميكية الفردانية الجديدة، فمن الإجحاف تشبيهها بمطلب للاستقلالية الفردية وحياة علائقية متسعة، ومع رفض النساء لتعيينهن الحصرى للمهام الطبيعية للإنجاب، يطالبن الآن بوظائف الرجال ذاتها ومرتباتهم، ويردن أن يخضعن للتقييم انطلاقًا من المعايير "الموضوعية" الخاصة بالكفاءة والاستحقاق مثلهن مثل الرجال. وعبر ثقافة العمل الجديدة، تعبر النساء عن الرغبة فى امتلاك هوية مهنية كاملة، بل وعن الرغبة فى أن يُعترف بهن من خلال ما *يؤدونه*، وليس من خلال ما هن عليه "طبيعيًا" كنساء: إن مرحلة ما بعد المرأة ربة المنزل قد أدخلت المرأة إلى العالم التنافسى والأهلقراطى الذى طالما كان ذكوريًا حسب التقاليد؛ فالمرأة تقيّم نفسها وتفرضها على الآخرين، وتكتسب وضعًا اجتماعيًا بالموهبة والاستحقاق، وتتغلب على التحديات الملازمة لعالم مؤسسات العمل، و"تنجح" من خلال عملها: فى حين أن القيم الفردانية- التنافسية- الأهلقراطية امتدت إلى النساء، فأصبحت، فى منافسة مفتوحة مع الرجال، واستسلمن لضرورة إثبات قيمتهن المهنية، وكسب الاعتراف الاجتماعى بواسطة "الأعمال"، وبناء مكانتهن وهويتهن المهنية بنفس القدر لدى الرجال.

لقد نظر إلى عمل المرأة على أنه راتب مساعد، لذا لم ينجح فى إنتاج هوية مهنية قائمة ومعترف بها، ولكن الوضع لم يعد كذلك إذ تنخرط النساء بشكل مستمر فى الحياة المهنية، ويرفضن أن تتشكل هويتهن من خلال الأدوار العائلية وحدها. يكمن التغير الأساسى فى أن العمل، فى مجتمعاتنا، أصبح دعامة مهمة للهوية الاجتماعية للنساء. من هنا تأتى حتمية إبراز الفروق الدقيقة للفكرة القائلة بأن المجتمعات ما بعد الصناعية، فى عصر تنمية القطاع الثالث والوظائف المؤقتة، تتميز بتردى الوظائف الدامجة وإضعاف الهويات المهنية[١]. إنها ملاحظة قلما تعرضت للشك، بسبب تعدد الوظائف التى تغيرت، ودوامة العاملين بلا وضع قانونى محدد، وإضعاف مشاعر الانتماء لطبقة معينة، ولكنها، مع ذلك، لا تأخذ فى الحسبان الدلالة الجديدة للعمل النسائى بشكل كاف – وهو ما يمثل ما يقرب من موظف من أصل ٢ – فى علاقاتها مع عملية التماهى المهنى. وفى ظل هذه المسألة، يتعين الإقرار بأننا لا نشهد تراجعًا للاندماج الثقافى عن طريق العمل بقدر ما نشهد ارتباطًا مهنيًا لا مثيل له، وتشخيصًا أكبر للنشاط الاقتصادى. إن ما يسود عصرنا، فى هذا الصدد، هو الاستثمار النسائى فى الحياة المهنية وما يلازم ذلك من رفض للهوية التى ترتكز حصريًا على الأدوار المنزلية. والخاتمة تفرض نفسها: وهى أن العمل فى أيامنا هذه، يشكل الهوية الاجتماعية للنساء أكثر من أى وقت مضى، حين كانت أدوار الأم والزوجة هى فقط الأدوار المشروعة. وفيما يتعلق بالنساء فهناك تعزيز للهويات المهنية أكثر من "إضعاف قدرات التكيف مع المجتمع[٢]".

هناك بلا شك فروق واضحة فى أنماط الارتباط المهنى للنساء: فهناك فجوة تفصل تركيز مديرة للتسويق عن دوافع مستخدمة صندوق فى أحد السوبر ماركات، وبالنسبة للنساء العاملات بلا مؤهلات، يظل الراتب هو الدافع الوحيد للعمل؛ فغياب

---

(١) Robert Castel, *Les Metamorphoses de la question sociale*, Paris, Fayard, 1995, p. 413-474 ; Bernard Perret , Guy Roustang, *L'economie contre la societe*, Paris, Seuil, 1993.

(٢) Bernard Perret , Guy Roustang, *L'Economie contre la societe, op. cit.*, p. 11.

المكافآت المهنية، وضعف الأجور، والمسئولية العائلية تجعل النساء العاملات أكثر تطلعًا للبقاء في المنزل[١]، ولكن هذا البقاء لنموذج تقليدي من المباعدة المهنية يجب ألا يخفي الاتجاه الجديد للبحث النسائي عن هوية تقوم على بُعد العمل. ففي الوقت الحاضر، تريد الفتيات الحصول على الشهادات العليا كي يجدن وظيفة؛ وترى الغالبية العظمى من النساء في العمل شرطًا أساسيًا لنجاح حياتهن؛ فكبريات الموظفات، والموظفات ذوات سن معينة وحتى العاملات، جميعهن يعشن البطالة بالمشاعر ذاتها من خزي وإخفاق شخصي، وعدم تكيف اجتماعي، مثلهن مثل الرجال[٢]. لم يعد "الاعتكاف" التقليدي للنساء بالنسبة للحياة المهنية[٣] هو ما يميز مجتمعاتنا، وإنما الاستثمار النسائي في العمل. في العصور السابقة، كانت الأنشطة الأمومية والمنزلية تكفي لملء حياة المرأة، لم يعد ذلك هو الحال في هذه الأيام، إذ دخل معيار العمل في الحيز الجواني للنساء، سواء كن شابات أو أصغر سنًا.

عمل المرأة ومجتمع الاستهلاك والتحرر الجنسي

ما مجموعة الظواهر التي يتضمنها هذا القلب في الاتجاه بالنسبة للعمل النسائي؟ سؤال يستحق الطرح، لاسيما وأن حركة شرعنة عمل النساء ظهرت متأخرة بالمقارنة بحركة بحثهن عن الحقوق السياسية. بدأ حق النساء بالتصويت في ١٩١٨ في بريطانيا العظمى وفي بولونيا، وفي عام ١٩٢٠ في الولايات المتحدة وفي بلجيكا، وفي عام ١٩٢٢ في أيرلندا. إن تثمين النشاط النسائي لم ينتشر إلا بعد ذلك بنصف

---

(١) Jacques Commaille, *Les Strategies des femmes,* op. cit., p. 25.

(٢) Dominique Schnapper, *L'Epreuve du chomage,* Paris, Gallimard, coll. Idees, 1981, p. 32-37.

(٣) Renaud Sainsaulieu, *L'Identite au travail,* Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1988, p. 111-112.

قرن. كيف يُفسر هذا التفاوت التاريخى بين التحرر السياسى والتحرر الاقتصادى للنساء؟

من بين العوامل البنيوية التى ساهمت فى الانحسار السريع لنمط الزوجة-مدبرة المنزل، لابد من التأكيد، وفى المقام الأول، على أهمية التعليم. فقد اتسم القرن العشرون، فعلا، بتقدم كبير فى أعداد النساء العاملات والشهادات العليا التى حصلن عليها، فاعتبارًا من ١٩٧١ لحقت الفتيات بالفتيان فى البكالوريا والتعليم العالى. إذن كلما كانت النساء حاملات للشهادات العليا، كن يحبذن العمل النسائى وكلما تمكّن من الحصول على عمل، فى كل البلدان المتطورة تلاحظ تلك العلاقة التبادلية بين المستوى التعليمى وحجم العمل النسائى، وعلى هذا الصعيد ما من شك فى أن الارتفاع المستمر للمستوى التعليمى للنساء لعب دورًا أساسيًا فى تغير سلوكهن تجاه النشاط المهنى.

وبناءً على ذلك، لا يمكننا تأويل النظرة الجديدة إلى العمل النسائى كأثر إلى لانطلاقة التعليم النسائى، ولنتذكر أن التعليم الثانوى والعالى للبنات تزامن مع المثال الأعلى للزوجة فى المنزل لوقت طويل. حتى عندما أكملت الفتيات دراستهن، كان هدفهن هو الزواج والتفرغ لأطفالهن. فى منتصف الخمسينيات فى الولايات المتحدة، ٦ طالبات من أصل ١٠ تركن دراستهن الجامعية من أجل الزواج[1]؛ وفى فرنسا، فى عام ١٩٦٢، ما يقرب من نصف النساء الحاصلات على دبلوم التعليم العالى، ويبلغن من العمر أقل من ٤٠ عامًا لم يمارسن أية مهنة. وإذا قارنا هذا النموذج، فإن ما نشهده الآن هو العكس تمامًا؛ فالفتيات يردن الآن الحصول على دبلومات كى يمارسن عملا دائمًا، وليس للظهور فى صورة المتعلمات والوصول إلى الزواج على قدر طموحاتهن. ليس النساء فقط هن من يعلن أنه يحبذن النشاط المأجور، ولكن الرجال أيضًا. هذا يعنى أن تقدم تعليم الفتيات لا يمثل إلا جزءًا من ارتقاء المرأة التى كانت ربة منزل سابقًا.

---

(1) Betty Friedan, *La Femme mystifiee,* Paris, Denoel, 1964, p. 8.

إن التحولات العميقة فى القطاعات الكبرى للأنشطة الاقتصادية قد شجعت أيضًا عمل المرأة. وخاصة، اتساع القطاع الثلاثى قد خلق أشكالَ عملٍ تناسب أكثر النساء؛ إذ باتت العوائق الجسدية أقل تأثيرًا. إن انطلاقة الأعمال المكتبية والتجارية، والصحة والتعليم، قد ضاعفت عروض الوظائف النسائية: فكلما تقدم القطاع الثلاثى، كثرت النساء فى تلك الوظائف. لكن، هنا أيضًا، لا يمكن لهذا التطور أن يفسر العبور من ثقافة عدائية إلى ثقافة تحبذ العمل النسائى المأجور. لماذا غير الرجال، على الأخص، طريقة تقديرهم للنشاط المهنى لزوجاتهم؟ لم يحدث أن تراجع فى سعى النساء نحو مهن جديدة، بل كان هناك تغير نوعى فيما يتعلق بقيمة العمل النسائى. هذا التغير الكبير لا يعد صدىً للتغيرات التى طرأت على بناء النشاطات الاقتصادية، فقد حملته قيم ثقافية جديدة نجحت فى إيجاد معنى جديد لتأكيد الاستقلالية النسائية.

كيف لا نقارب بين تغير صورة المرأة فى العمل وتفعيله، ثم انطلاق مجتمع الاستهلاك الجماهيرى اعتبارًا من منتصف القرن؟ هنا يكمن لب المشكلة: إن l’affluent society هو الذى وضع نهاية جذرية للوضع المتوارث للمرأة ربة المنزل. هناك سلسلتان من الظواهر التقتا فى هذا الصدد. أولا، اقتصاد قائم على تحفيز وخلق مستمر للاحتياجات الجديدة التى تنزع إلى تحبيذ العمل النسائى باعتباره مصدرًا للإيرادات الإضافية الضرورية للمشاركة فى أحلام مجتمع الوفرة. كلما كثر تقديم الأشياء، والخدمات، والتسليات، تكثف مطلب زيادة الإيرادات للعائلة، وبخاصة عن طريق راتب المرأة، بغية أن تكون على مستوى المثال الاستهلاكى. ثانيًا، إن مجتمع الاستهلاك قد عمم نظام القيم التى تتناقض مع ثقافة المرأة ربة المنزل. إن عصر الاستهلاك قد نشر، لدرجة غير مسبوقة حتئذ، قيم الرفاهة، والمتعة، والسعادة الفردية، وشوه الأيديولوجيا التضحوية التى كانت تتضمن نموذج "مدبرة المنزل النموذجية". إن الثقافة الجديدة التى ركزت على المتعة والجنس والتسليات والاختيار الفردى الحر، قد استهانت بنموذج الحياة النسائية التى تهتم بالعائلة أكثر من اهتمامها بنفسها، كما

شرعنت رغبات العيش من أجل الذات وبها. إن الاعتراف الاجتماعى بالعمل النسائى يترجم الاعتراف بالحق فى "حياة خاصة بالذات"، وفى استقلالية ذمتها المالية على امتداد ثقافة تحتفى يوميًا بالحرية وبالرفاهة الفردية. إنها دوامة من المرجعيات الفردانية هى التى دفعت النساء إلى التنديد بالأعمال المنزلية باعتبارها استلابًا وعبودية للرجال، كما دفعت الرجال أنفسهم إلى الاعتراف بشرعية عمل المرأة المأجور بوصفه أداة للاستقلالية وتحقيق الذات. كان عمل المرأة علامة على وضع فقير: فمع هبة الرغبات الفردانية، بات انفتاحًا على الحياة الاجتماعية، وإثراءً للشخصية، وحقًا فى التصرف الحر. وإذا كان صحيحًا أن عالم الاستهلاك الجماهيرى، ساهم فى المقام الأول فى تعزيز صورة المرأة ربة المنزل، فهذا لا ينبغى أن يحجب أنه، فى الوقت ذاته، قد هدم نظام القيم الذى أسسه.

إنها ثورة الاحتياجات، إنها ثورة جنسية: ذلك أن عصر الاستهلاك الجماهيرى لا يتسم فقط بتكاثر المنتجات، لكن أيضًا بتكاثر علامات الجنس ومرجعياته. وشهدت سنوات الخمسينيات صعودًا شبقيًا للدعاية. فظهرت ملصقات الشبق Eros فى كل مكان تقريبًا فى الأفلام والمجلات[١] المصورة حتى قبل أن تطلق ظهور حبوب منع الحمل وازدياد التيارات المعارضة ثورة العادات والأخلاقيات إبان الستينيات والسبعينيات. هذا الإعلاء من شأن الجنس ذو أهمية كبرى. فإذا كان الرجال، فى الماضى قد بدوا عدائيين كثيرًا إزاء عمل النساء، فهذا يرجع بخاصة إلى ربطه بالإباحية الجنسية، وبـ "ظل الدعارة"[٢]. فكلما كفّت الحرية الجنسية النسائية عن أن تكون علامة على انعدام الأخلاق، حظى العمل النسائى بأحكام أكثر لطفًا. ارتبط الاعتراف الاجتماعى للعمل النسائى بالنزعة التحررية للجنس. وإذا كان "حق" العمل لدى النساء قد فرض نفسه، وتأخر جدًا عن الحقوق السياسية، فذلك يرجع جوهريًا

---

(١) فيما بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٠، تزايدت مرجعيات الجنس فى الإعلام الأمريكى، بنسبة ٢٥٠% (Betty Friedan, *La Femme mystifiee.* op. cit., p. 298).

(٢) Evelyne Sullerot, *Histoire et sociologie du travail féminin*, op. cit., p. 35-37.

إلـى سـبب الخـوف التقليـدى الـذى ألهمتـه الحريـة النسـائية، الجنسـية علـى وجـه الخصـوص، وإلـى رفض الرجـال لاسـتقلالية النسـاء فـى المجـالات "الحساسـة" للحيـاة الماديـة والجنسية، ولإرادتهم التحكم فـى الجسد النسائى وإلـى جعـل مبدأ التبعيـة لـدى الجنس الضعيف يستمر بالنسبة للجنس القوى. من الواضـح أن أشكال مقاومـة التحـرر تتعلق مباشرة بالحياة اليومية وهويات كل من الرجـال والنسـاء، وتظهر أشـد قوة مـن تلك التـى تتعلق بالمشـاركة فـى الحيـاة السياسـية. لا يصـبح العمـل النسـائى شـرعيًا[١] عندما تتراجع قيمة العمل، وإنما يصبح كذلك حين تنجح نزعة التحرر الثقافى الكامنـة فى ديناميكية الاستهلاك والاتصـال الجماهيرى فى جعل الجنس مستقلا عن الأخـلاق، وفى تعميم مبدأ التملك الحر للذات، وفى الاتهانة بترسيمة تبعية النساء للرجال.

---

(١) هذا الافتراض الذى قدمته Evelyne Sullerot فى „Les rles des femmes en Europe a la fin des annees 70“ in *Le Fait féminin,* تحت إشراف Evelyne Sullerot, Paris, Fayard, 1978, p. 491.

(٣)

المرأة الثالثة

بعد المرأة المكرسة للمنزل تحددت الحلقة التاريخية المتوافقة مع الاعتراف الاجتماعى بعمل النساء وعبورهن نحو الأنشطة والتعليم الذى طالما بقى حكرًا على الرجال فى الماضى، ولكن هذه التغيرات تمثل جزءًا من مجموع أكبر تتشكل فيه ثلاث ظواهر عميقة: هى سلطة النساء على عملية الإنجاب، و"إلغاء الطابع المؤسسى" عن العائلة(١)، وإعلاء مرجعية المساواة بين الزوجين. هذا يعنى أن فترة ما بعد المرأة ربة المنزل تمثل أكثر من ساحة جديدة فى تاريخ الحياة المنزلية والاقتصادية للنساء. إن ما نراه وينتشر الآن يجسد بشكل عميق للغاية قطيعة تاريخية فى طريقة تشكل الهوية النسائية، وكذلك العلاقات بين الجنسين. لقد أحدث عصرنا تغيرًا كبيرًا لا سابق له فى نمط التكيف الاجتماعى للنساء وفردانيتهن، وتعميم مبدأ الإدارة الحرة للذات، واقتصاد جديد للسلطات النسائية: هذا النموذج التاريخى الجديد نطلق عليه المرأة الثالثة.

المرأة الأولى أو المرأة المحتقرة

هناك مبدأ عالمى ينظم، منذ العصور الغابرة، التجمعات الإنسانية: وهو التقسيم الاجتماعى بين الأدوار المكلف بها كل من الرجل والمرأة، وإذا كان محتوى هذا التوزيع فى الوظائف يتغير من مجتمع لآخر، فإن مبدأ الفصل تبعًا للجنس لا

---

(١) يمثل هذا المفهوم الانطلاقة لمسألة العيش المشترك والإنجاب خارج إطار الزواج، والذى طرحه Pierre Roussel, *La Famille incertaine,* op. cit., p. 105-132.

يتغير: فدائمًا ما تتميز المواقع والأنشطة التى يقوم بها أحد الجنسين عن الآخر. إنه مبدأ تمايز يتماشى مع مبدأ آخر، عالمى أيضًا: وهو هيمنة الذكر الاجتماعية على الأنثى. منذ فجر التاريخ، يشكل "التكافؤ الممايز بين الجنسين[١]" تراتبية الجنسين مانحًا الذكور قيمة أعلى من قيمة النساء. وفى كل مكان كانت الأنشطة المرموقة هى تلك التى يمارسها الرجال؛ كما كانت الخرافات والخطابات تتحدث عن الطبيعة الدونية للنساء، وفى كل مكان أصاب الرجال قيمًا إيجابية والنساء قيمًا سلبية، وفى كل مكان طبقت الأولية الذكورية على الجنس النسائى. إن التبادلات الزواجية والمهام المثمنة والأنشطة النبيلة المتعلقة بالحرب وبالسياسة كانت فى يد الرجال. وحين شاركت النساء فى الأنشطة الثقافية، غالبًا ما كانت بمثابة فاعلات من الدرجة الثانية. وظيفة واحدة هى التى أفلتت من هذا الانتقاص المنهجى وهى الأمومة، ولكن المرأة بقيت تلك الواحدة "الأخرى" الدونية والتابعة، وحده النسل الذى تضعه هو الذى يحظى بالقيمة، والشعائر التى تحتفى بالوظيفة الإنجابية للنساء لم تصد الفكرة القائلة بأن النساء، فى اليونان القديمة على سبيل المثال، لسن سوى حاضنات للنطف التى وضعت فى أحشائهن، أما الفاعل الحقيقى المتسبب فى الوضع فهو الرجل. تمجيد التفوق الذكورى، وإقصاء النساء من الفضاءات المرموقة، والتركيز على دونية الأنثى[٢]، والخلط بين الجنس الثانى والشر والفوضى: إن القانون الأكثر عمومية للمجتمعات شكل، على امتداد التاريخ، الهيمنة الاجتماعية والسياسية والرمزية للذكور.

هذا لا يعنى أنه لم يكن للنساء سلطة حقيقية ورمزية. أكانت النساء محتقرات أو منتقصات القيمة أو مستبعدات عن المهام النبيلة، فإنهن مع ذلك يمتلكن السلطات المرعبة، وهناك أساطير وحشية عن قصة فى سفر التكوين التى تناولت المرأة ذات

---

(١) Françoise Héritier, *Masculin/ Féminin,* op. cit., p. 24-27.

(٢) حتى الخطابات حول التشريح الجسمانى قد نقلت، منذ الحقبة الإغريقية وحتى فجر القرن ١٨، فكرة تقول إن الجسد النسائى يعد نسخة أقل اكتمالاً، وأقل سخونة، وأقل قدرة من المادة الملائمة التى يحويها الجسد الذكورى. والمقصود هنا هو ما أطلق عليه توما لاكور Thomas Laqueur عبارة: "نموذج الجنس الفريد" *(La Fabrique du sex; essai sur le corps et le genre en Occident*, Paris, Gallimard, 1992).

القدرات الغامضة والشريرة. إن المرأة، بصفتها عنصرًا غامضًا وشيطانيًا، وكائنًا يستخدم المفاتن والأحابيل، ارتبطت بقوى الشر والخواء، وبمشروعات السحر والشعوذة، وبالقوى التى تهدد النظام الاجتماعى[١]، والتى تسبب تعفن المئونة والمنتجات الغذائية، وتهدد الاقتصاد المنزلى[٢]. لا ريب أن مبدأ السلطة والتفوق والأولية الذكورية لم يتعرض للتشكيك إطلاقًا، ولكن الوضع الاجتماعى للجنس الثانى لا يمكن اختزاله، والقول بأنه وضع خضوع مطلق. فى بعض المجتمعات البدائية، تمتلك النساء حقوقًا وسلطات لا يستهان بها فى مجال الملكية والحياة المنزلية والتعليم وإعادة توزيع الغذاء. أحيانا كانت النساء الماجدات يدرن العمل النسائى، ويتمتعن بحق الفيتو فى المشروعات الحربية[٣]. فى المجتمع الريفى، غالبًا ما كانت النساء يضعن أيديهن على مفاتيح خزنات المال، ويقررن المشتريات المتعلقة بالاقتصاد العائلى، ويعطين مصروف الجيب للرجل، وعندما كن يجتمعن فى مغاسل الثياب والأفران، كنا يمتلكن سلطة الكلام والثرثرة والنميمة[٤].

لكن إذا كانت النساء قد مارسن عددًا معينًا من السلطات، فإنهن لم يضطلعن فى أى مكان بالمهام الأكثر رفعة، والوظائف السياسية، والحربية والكهنوتية القادرة على بلوغ قمة الاعتراف الاجتماعى. وحدها الأنشطة التى كانت مخصصة للرجال هى التى كانت مصدرًا للمجد والشهرة. صحيح أن القدماء أشادوا ببعض النساء لفضائلهن المثالية، ولكن الجنس النسائى ظل محصورًا فى المهام التى لا نفوذ لها فى الحياة المنزلية. وفى روما الإمبريالية، حيث حصلت النساء على استقلالية كبرى وتمتعن بأعلى الحقوق، ولكنهن بقين محرومات من الحقوق السياسية، ولم يجتزن عتبة الوظائف العليا؛ وظللن كائنات دونية ومحتقرة، ولا يستحققن أن يظهرن فى سرديات التاريخ الكبرى. وحدها الأحداث السياسية والأعمال الحربية الكبرى هى التى

---

(١) George Balandier, *Anthropologiques*, Paris, PUF, 1974, chap. 1.

(٢) Yvonne Verdier, *Façon de dire, façon de faire,* Paris, Gallimard, 1979, p. 19-74.

(٣) Françoise Héritier, *Masculin/Feminin*, op. cit., p. 130-154.

(٤) Martine Segalen, *Mari et femme dans la societé paysanne,* op. cit., p. 130-154.

تستحق ذلك، وهى التى تستطيع أن تظل عالقة بالذاكرة. فالمجد الذى لا يمحى للرجال، ولهم التشريفات العامة، واحتكار الكمال الاجتماعى. أما النساء فلهن الظل والنسيان المخصصان للكائنات الدونية، وطبقًا للكلمة المنسوبة لبيريلكليس Pericles "الفضلى بين النساء هى تلك التى لا نتحدث عنها كثيرًا". ظل الأمر هكذا على مدار الجزء الأكبر من تاريخ الإنسانية. وحين كان الرجال يتكلمون فى موضوع النساء، غالبًا ما كان ذلك لفضح عيوبهن: من أريستوفان Aristophane إلى سينيكا Seneque، إلى بلوت Plaute وإلى المبشرين المسيحيين ساد تقليد من الهجاء والنقد اللاذع ضد النساء، فصورن ككائنات مخادعة ومتهتكة، ومتلونة وجاهلة وحسودة وخطرة. إذن المرأة هى شر لا بد منه محصور فى الأنشطة الباهتة، وهى كائن دونى ومنقوص ويحتقره الرجال: بشكل منهجى، هذا يرسم الصورة التى كونت عن "المرأة الأولى".

المرأة الثانية أو المرأة المحتفى بها

تعود صورة المرأة الأولى إلى حقبة تاريخية طويلة جدًا، واستمرت فى بعض جوانب مجتمعاتنا حتى فجر القرن العشرين، ولكن منذ العصر الوسيط الثانى ظهر نموذج آخر كان بعيدًا عن إنشاد الموال الأبدى والشتائم للنساء، بل على العكس سعى إلى الرفع عاليًا من شأن أدوارهن وقدراتهن. وانطلاقًا من القرن الثانى عشر طور النمط الكرتوازى من تقديس السيدة المحبوبة وكمال مزاياها؛ وفى القرن ١٥، و١٦ كرمت الجميلة؛ ومن القرن الـ ١٦ إلى القرن ١٨ تعددت خطابات "أنصار النساء" الذين يمتدحون خصائلهن وفضائلهن، وامتدحوا النساء الشهيرات؛ وفى عصر الأنوار إبان القرن الثامن عشر، أعجب الناس بالتأثير الخير للنساء على الأخلاق والأدب وفن الحياة؛ وفى القرن ١٨ وبخاصة فى القرن ١٩ قدست الزوجة- الأم-

المربية. حتى وإن اختلفت هذه التوصيفات فإنها أجمعت على تكريم المرأة وتمجيد طبيعتها وصورتها ودورها. فباتت المرأة المحبوبة هى "المولاة" بالنسبة للرجل، وأعلن أن "الجنس الجميل" يقترب من الألوية أكثر من الرجل؛ واحتفى بالأم بكلمات غنائية فياضة. حتى وإن ظل عدد من المآخذ، لكن المرأة سربلت بالمديح والتكريم، ومن أغريبا Agrippa إلى ميشليه Michclet، ومن نوفاليس Navolis إلى بريتون Breton، ومن موسيه Musset إلى أراغون Aragon. كلهم وقّروا المرأة وعبدوها وأمثلوها: فهى مخلوق سماوى وربانى، وهى " مبتغى الرجل (نوفاليس) وأم سامية و"مستقبل الرجل" أراجون Aragon)، وهى الربة الملهمة " وأعلى فرصة للرجل" (بريتون Breton)، لقد احتفى بالمرأة باعتبارها شعاع النور الذى ينمى الرجل، وينير ويدفئ عالمه الكامد. فبعد الاحتقار الضارى التقليدى برز تقديس المرأة.

بكل تأكيد، إن هذه الأمثلة المفرطة للمرأة لم تلغ واقع التراتبية الاجتماعية للجنسين؛ فظلت القرارات المهمة هى شغل الرجال، ولم تلعب المرأة أى دور فى الحياة السياسية، فهى يجب أن تطيع زوجها، الذى ينكر عليها استقلاليتها المادية والفكرية. فالسلطة النسائية ظلت حبيسة حقول الخيال والخطابات والحياة المنزلية، لكن إذا كانت المرأة لا يعترف بها كفاعل مساو ومستقل، إلا أنها خرجت من الظل والاحتقار اللذين كانا من نصيبها: فكوفئت بتربية الرجل- لقد كتب جوته Goethe: "المرأة الخالدة تجرنا نحو العلى"- وبناء شخصية الشباب، وتهذيب السلوكيات، وممارسة تأثير خفى على الأحداث الكبرى فى العالم. وانتشرت، اعتبارًا من القرن ١٨، الفكرة القائلة بأن قدرة الجنس الضعيف هائلة، وإنه على الرغم من المظهر فإنه يمتلك السلطة الحقيقية، إذ يمتلك اليد العليا على الأطفال، ويمارس سطوته على الرجال المهمين[١]. إنها قدرة تضفى التحضر على الأخلاق وتسيطر على الأحلام

---

(١) فى الحقيقة، فإن هذا التأثير قد تمت الإشارة إليه على الأقل منذ القدم. لقد عبر عنه كاتون Caton فى طرفته الشهيرة التالية: "فى كل مكان يحكم الرجال النساء، ونحن نحكم الرجال جميعًا، ولكننا نطيع النساء" (Plutarque, *Vie de Caton*, 8-2). اعتبر القدماء أن تلك الإدارة الليلية التى تمارسها النساء أمرًا طبيعيًا، وعبروا عنها بمنتهى الصرامة.

الذكورية، إنها "الجنس الجميل"، مربية الأطفال، "حورية المنزل"، وعلى العكس من الماضى فالقدرات المعينة للنساء كانت تحترم، وتحتل مكان الصدارة. فبعد القدرات المهلكة للنساء تأسس نموذج الـ "المرأة الثانية" المرأة المحتفى بها، والمعبودة، والتى من خلالها اعترف أنصار النسوية بأقصى أشكال الهيمنة الذكورية.

المرأة الثالثة أو المرأة غير المحددة

ها نحن أمام نموذج جديد يحكم مكانة المرأة ومصيرها الاجتماعى. نموذج يتميز باستقلاليته إذا ما قورن بالهيمنة التقليدية التى يمارسها الرجال فى تعريفهم المرأة وفى الدلالة المتخيلة والاجتماعية لها. المرأة الأولى كانت مؤبلسة ومحتقرة، وكانت المرأة الثانية مدللة، ومتوجة على عرش، ولكن فى الحالتين كانت تابعة للرجل، تتشكل وفقًا لفكره، ويحددها بنفسه: فهى لم تكن إلا ما أراد لها الرجل أن تكونه. هذا المنطق من التبعية للرجال لم يعد هو ما يحكم لب الظرف النسائى فى المجتمعات الغربية الديمقراطية. فإبطال نموذج المرأة المكرسة للمنزل، وإضفاء الشرعية على الدراسة والعمل النسائى، وحق التصويت، و"التحرر من الزواج"، والحرية الجنسية، وحرية التصرف فى الإنجاب، جميعها ظواهر لعبور النساء نحو التحكم الكامل بأنفسهن فى كل مجالات الحياة، وجميعها أوضاع تشكل نموذج "المرأة الثالثة".

حتى أيامنا هذه، انتظم الوجود الأنثوى دائمًا بناءً على طرق تحددها المجتمع و"الطبيعة" مسبقًا: كأن تتزوج المرأة، وأن تنجب وأن تمارس المهام الثانوية التى حددها لها المجتمع، وانتهى هذا العصر أمام أعيننا: فمع مرحلة ما بعد المرأة ربة المنزل، دخل مصير المرأة، وللمرة الأولى، إلى عصر اللامتوقع أو الانفتاح البنيوى. ما الدراسات التى تقوم بها المرأة؟ وبغية أى مهنة؟ أى مسار مهنى تنتهجه؟ هل

تتزوج أم تعيش مع الشريك خارج مؤسسة الزواج؟ هل تطلب الطلاق أم لا؟ كم طفلا تنجب ومتى؟ هل تنجب فى إطار مؤسسة الزواج أم خارجها؟ هل تعمل بدوام كامل أم جزئى؟ كيف توفق بين الحياة المهنية والأمومة؟ فكل ما يتضمنه وجود المرأة أصبح محل اختيار، ومحطًا للتساؤل والتحكيم: كما لم يعد أى نشاط موصود من حيث المبدأ أمام النساء. ولم يعد ما يثبت وضعهن إكراهًا فى النظام الاجتماعى. وها هن – أسوة بالرجال– يستسلمن للزومية الحديثة لتعريف وابتكار كامل حياتهن الخاصة. وإذا كان صحيحًا أن النساء لم يمسكن زمام السلطة السياسية والاقتصادية، فلا شك أنهن تمكن من التحكم فى أنفسهن دون طريق اجتماعى منتظم مسبقًا. وخلفًا للقوى القديمة السحرية والغامضة والشريرة التى كانت تعزى للنساء، برزت القدرة على ابتكار الذات، وعلى تخطيط وبناء مستقبل غير محدد. الأولى كما الثانية، هى امرأة تابعة للرجل؛ بينما المرأة الثالثة هى التى تخضع لذاتها. كانت المرأة الثانية ابتكارًا مثاليًا للرجال، أما المرأة الثالثة فهى خلق ذاتى نسائى.

وعلى الرغم من أن نموذج المرأة الثالثة الذى يقيم قطيعة كبرى فى تاريخ النساء، لا يصح إطلاقًا، يجب التنويه به، مع تلاشى الفروق بين الجنسين، خاصة فيما يتعلق بالتوجه الدراسى، وبالحياة العائلية، والوظيفة، والأجر. ونحن نسجل إعادة الإنتاج المنتظم للفوارق، فإن بعضهم قد سعوا للدفاع عن أطروحة تقول بـ "ثبات الفصل البنيوى فى الأوضاع بين الرجال والنساء"، وكذلك فإن التغيرات الأخيرة التى أثرت على الحالة النسائية خفضت من "مؤشر التباين" بين الجنسين: فعلى الرغم من الفوارق التى تتقلص تدريجيًا، فإن الفارق المميز بين الجنسين يبقى، بل ويصير أكثر اتضاحًا[1]. وإن كان هذا التأويل يبدو لنا غير مقبول، فذلك لا يرجع فقط إلى تقدم النساء فى مجالات طالما كانت حكرًا على الرجال، لكن أيضًا، وبخاصة، بسبب العلاقة الجديدة بين المرأة الثالثة وعملية عدم التحديد التى تشكلها. ومهما كانت إعادة

---

(1) دافعت عن هذه الأطروحة Rose-Marie Lagrave فى "Une emancipation sous tutelle: education et travail des femmes au 20e siècle", in *Histoire des femmes, op. cit.*, t. 5, p. 431-462.

النظر فى الفصل بين الجنسين، فيتعين أن نقر بأن الجنسين يجدان نفسيهما فى تشابه "بنيوى" فيما يتعلق ببناء الذات، فى الوقت الذى حل فيه الممكن محل الفرض الجماعى. ومن وجهة النظر هذه، نحن لسنا شهودًا على عملية ثابتة لإعادة تشكيل الفجوة اللامتماثلة بين أوضاع كل من الرجال والنساء، وإنما على عملية تساوى ظروف الجنسين فى ظل ثقافة تكرس، لكليهما، سيادة حكم الذات والفردية السيادية، والتى تتحكم فى الذات وفى مستقبلها، دون نموذج جماعى موجه.

لكن إذا كانت المرأة الثالثة تمثل قطيعة تاريخية دون أدنى شك، فلنحذر من دمجها بتحول يلغى الماضى تمامًا، وهناك تفسيران لمستقبل العلاقة بين الجنسين لا ينبغى إقصاؤهما: الأول يتمثل فى مواصلة عدم التناظر بين الجنسين؛ والآخر هو كناية عن إنهاء الفصل الاجتماعى فى أدوار الجنس[1]. فلا نزع لمشروعية مبدأ المكانات غير الملموسة لكلا الجنسين، ولا تحول فى السلوكيات إزاء العمل والمحيط العائلى مما يسمح بتصديق أطروحة عدم التمييز فى أدوار الجنسين؛ فالنساء والرجال اعتبروا مذاك أسيادًا لمصيرهم الفردى، ولكن دون أن يعنى ذلك تبادلا بينيًا فى الأدوار والمكانات. وفى كل مكان تقريبًا تتشكل اختلافات فى المواقف بالتوازى مع انحسار المجالات المخصصة حصرًا لجنس بعينه. إن حدود العمل على المساواة ليست أقل دلالة من تقدمها المؤكد. سواء كان ذلك فى نطاق العواطف أو المظهر أو الدراسة أو العمل المهنى أو العائلة، أو تباينات التوجهات أو الأذواق أو التحكيم، فإن هذه الحدود تكتسب السمات العصرية حتى وإن كانت أقل تجليًا عن ذى قبل. لا يزال متغير الجنس يوجه الحيوات بكل تأكيد، ويشكل الاختلافات فى مشاعر الناس، ومناهجهم وتطلعاتهم. الجديد فى الأمر لا يكمن فى وجود عالم أحادى الجنس، ولكن فى وجود مجتمع "منفتح" تكون فيه المعايير المتعددة والانتقائية متماشية مع إستراتيجيات متباينة، وهوامش من حرية التصرف واللاتحديد. وحيث تكون المحددات آلية، هناك حيز الآن للاختيار والحكم الفردى. إن النماذج الاجتماعية كانت تفرض

---

(1) Elisabeth Badinter, *L'un est l'autre,* op. cit.

حتمًا أدوارًا ومكانات، ولكنها لم تعد تخلق إلا توجهات اختيارية وتفضيلات إحصائية. وبعد الأدوار الحصرية جاءت التوجهات التفضيلية، والاختيارات الحرة للفاعلين، وانفتحت الإمكانات. ليس تماثل الأدوار الجنسية هو ما انتصر وإنما انعدام التوجيه للنماذج الاجتماعية، وذلك بالتلازم مع القدرة على تقرير المصير وعدم التحديد الذاتى لكلا الجنسين. وتنطبق حرية التحكم بالذات منذئذ على الجنسين على حد سواء، ولكنها دائمًا ما تتشكل "وفقًا للموقف"، وانطلاقًا من معايير وأدوار اجتماعية ممايزة، لا يشير شيء إلى اختفائها الوشيك.

(٤)
عمل عائلة التكافؤ المتعذر

إن المكانة المعاصرة للنساء فى عالم العمل والعائلة يُظهر بشكل لافت نموذج المرأة الثالثة باعتبارها مزيجًا بين تقدم المساواة واستمرارية عدم المساواة. فى أيامنا هذه، اكتسبت النساء حق الاستقلالية المادية وممارسة جميع الوظائف والمسئوليات، ولكن بقى فرق شاسع بين عمل ذكورى/ عمل نسائى؛ فمعظم النساء عاملات، لكن رجحان كفة الفضاء المنزلى لا تزال أمرًا صارخًا. ففى عصر ما بعد المرأة ربة المنزل، لا يمنع الاعتراف بمبدأ التكافؤ فى الامتلاك الكامل للذات مطلقًا ظهور أشكال من المنطق غير متشابهة فى مجال الأدوار الجنسية. عندها كيف نحدد تاريخيًا نموذج المرأة الثالثة القائم فى منتصف طريق المساواة وعدم المساواة؟ هل هو من مخلفات الماضى أم هو نموذج للمستقبل؟ كيف نفهم استمرار التمايز الاجتماعى للأدوار الجنسية فى الوقت الذى تسود فيه المطالبات بالمساواة واستقلالية الأفراد؟

عمل ذكورى ـ عمل نسائى

إذا كان صحيحًا أن عمل المرأة قد حظى بشرعية اجتماعية لا يمكن التراجع عنها، فصحيح أيضًا أن وضعها لا يشبه دائمًا وضع الرجال. حتى فى المجموعات الأقل ارتباطًا بنموذج المرأة ربة المنزل، قلما يعتبر عمل المرأة المأجور بنفس أهمية عمل الزوج. وعمومًا فإن التحقق المهنى للرجل يحتل المرتبة الأولى بالنسبة لمثيله عند المرأة؛ فهى التى يتعين عليها ترك العمل إذا كانت وظيفة الزوج تقتضى ذلك؛

وعندما يدخل عمل المرأة فى منافسة مع عمل الزوج، يقول الرأى السائد بأن الأولوية لـه[١]. وتكون النساء أقل استعدادًا من الناحية المهنية بسبب الأعباء العائلية التى يقمن بها، ويكن أقل تحركًا من الرجال؛ فهن يتركن بيوتهن لوقت أقصر من وقت أزواجهن لأسباب مهنية، ويعملن فى مكان أكثر قربًا من بيوتهن على عكس أزواجهن[٢]. وحين يكون الأطفال مرضى فإن الأمهات هن غالبًا من يكن مسئولات عنهم. لهذه الأسباب تتمنى النساء أكثر من الرجال أن يجدن عملا لبعض الوقت: ففى كل ٨ حالات من أصل ١٠ تشغل النساء هذه الوظائف. وحين تتكون العائلة من ٣ أطفال، فإن إجمالى عمل الأمهات لا يتجاوز ٥٠%. هذا يعنى أن نموذج قابلية التبادل بين أدوار الرجل والمرأة متعذر. بكل تأكيد، انحصرت الفجوة فى المواقف الاجتماعية بين الجنسين: وتم الاعتراف بالعمل المهنى للنساء اجتماعيًا، وأصبح يمثل جزءًا من هويتهن. ومع ذلك، لا يعتبر العمل النسائى حتى أيامنا هذه مساويًا لعمل الرجال. فوراء ظاهر قابلية تبادل الأدوار يعاد ضبط المدونات الاجتماعية الممايزة لكل جنس إزاء العمل والعائلة.

لم تتلاش كل أشكال التحفظ والتردد إزاء العمل النسائى. ففى عام ١٩٩٠، رأى١/٣ من الفرنسيات، بشكل أو بآخر، أن أولوية العمل فى أوقات البطالة المرتفعة تكون للرجل وليس للمرأة. وتعتقد غالبية الفرنسيين(٥٣%) أن النساء لا يعملن حين يرزقن بأطفال، ولا يجب عليهن أن يعملن إلا إذا كانت العائلة لا تستطيع العيش براتب واحد، أو يتعين عليهن ألا يعملن أبدًا. وبالنسبة لـ ٤ فرنسيين من أصل ١٠ فإن عمل طرفى الزواج هو "متعارض تمامًا" أو "متوافق بصعوبة" مع مسألة تربية طفل صغير تربية جيدة[٣]. إن مرحلة المرأة الثالثة تجمع هكذا نموذجًا للتكافؤ مع نموذج لعدم التكافؤ: ذلك أن أيديولوجية "فضاءات منفصلة" للجنسين بالية، لكن فى

---

(١) Francois de Singly, *Fortune et infortune de la femme mariee,* Paris, PUF, 1987, p. 138.

(٢) Ibid., p. 64-65.

(٣) George Hatchuel, "Les Francais et l'activité feminine… », art. cite.

الوقت ذاته، تتكرس النساء بشكل أولوى للفضاء المنزلى؛ إن العمل يمثل نشاطًا مشروعًا بالنسبة للنساء كما هو بالنسبة للرجال دون أن تسود علاقة لا تمايزية بين الجنسين فى العمل المهنى.

إن المعدل المتزايد لعمل النساء المأجور، وانفتاح الوظائف أمام الجنسين، وزوال مثال المرأة ربة المنزل، لم يمنع إطلاقًا ظهور اختلاف بنيوى، بين الرجال والنساء، فى التوفيق بين الحياة المهنية/ والحياة العائلية. فعند الذكور، ينفصل القطبان المهنى والعائلى؛ بينما هما مترابطا القطبين عند الإناث. من المعروف أن المشروع المهنى له الأولوية عند الرجال قبل مشروع الأبوة، أما عند النساء الشابات فهو غالبًا ما يتأسس بالتأقلم مع القيود المصاحبة للأمومة(١). بالنسبة للجنس القوى، يكون الفصل فى "الحياة بين الشريكين" بديهيًا؛ وبالنسبة للجنس الآخر، تصحبها نزاعات وتساؤلات وبحث عن المصالحة يكون فى الغالب مصدرًا للإثمية وعدم الرضا. تميل الثقافة الفردانية الحديثة على الأرجح إلى تقليص أشكال الانفصال الراديكالية فى الأدوار الجنسية: فهى تُعلى من أهمية الحياة الخاصة عند الرجل من جانب، وتدفع بالاستثمار النسائى فى الحياة المهنية من جانب آخر، ولكن هذه الديناميكية لا تؤسس التجانس فى أدوار كل من الجنس والجنس الآخر: فالقطب المنزلى يظل أولوية لافتة عند الإناث منه عند الذكور؛ بينما القطب المهنى يظل أولوية ذكورية أكثر منها أنثوية. إن الوضع الاجتماعى لما بعد الحداثة يتوافق ليس مع عدم تمايز الأدوار الجنسية، ولكن مع التمايز الجنسى للمنطق الفردانى ذاته؛ إن ما يحكمنا ليس نموذج تبادلية بين الجنسين، ولكنه *نموذج فردانى مزدوج*، يعيد تدوين الفصل بين المذكر/ والمؤنث اجتماعيًا. بالنسبة للفضاء المنزلى فإن الفردانية النسائية هى أكثر تباعدًا عن المركزية من الفردانية الذكورية.

---

(١) Anette Langevin, "Régulation sociale du temps fertile des femmes" in Le Sexe du travail, Grenoble, PUG, 1984, p. 110 ; Michele Ferrand, « Paternite et vie professionnelle », in *Le Sexe du travail*, op. cit., p. 130.

وبالنسبة لفضاء العمل المأجور، تكون الفردانية النسائية أكثر تقاربًا من المركز من الفردانية الذكورية.

علاوة على ذلك فإن بنى الوظائف والمؤهلات المهنية، والمهن والرواتب يتم توزيعها بشكل غير متكافئ وفقًا للجنس. فالنساء أكثر عددًا فى الوظائف غير الاختصاصية من الرجال: ففى عام ١٩٩٤ كان ٢٨% من النساء العاملات يعملن بدوام جزئى ٤,٦% من الرجال، وكن يشغلن الوظائف الأقل تأهيلا أكثر من الرجال. وفى حالة المؤهلات المتساوية فإن الفرق بين الرواتب المتوسطة بين الجنسين يتراوح من ٥% إلى ١٨%. فى الوقت ذاته، تنحصر النساء فى مروحة مهن محدودة أكثر من مروحة الرجال: فى عام ١٩٩٠ كان ٢٠ مهنة تجمع ٤٧% من النساء العاملات بينما انخفض التمثيل النسائى إلى ١٠% فى ٣١٦ مهنة مجمعة[1]. صحيح أن معاقل ذكورية شتى قد سقطت وأن النساء قد دخلن بعدد أكبر فى بعض فضاءات الحياة الاقتصادية[2]، لكن هذا الاتجاه بعيد عن تحقيق الاختلاط المهنى؛ فأكثر من ٩٧% من مواقع السكرتارية يشغلها النساء، و ٩٠% ممن يعملون فى التمريض من النساء. فى المقابل لم يشغلن سوى ١٦% من العمالة المؤهلة فى عام ١٩٩٤، وشغلن ٧% من مهنة رئيس عمال ومراقب عمال؛ كما انخفض تمثيلهن إلى ٥% فى قطاع البناء. فهناك مهندس واحد من أصل ١٠ مهندسين هو امرأة، كما لم تنفتح وظائف الجيش والشرطة والنقل والتقنيات إلا هامشيًا أمام النساء. الملاحظة تفرض نفسها: رغم ازدهار القطاع الثالث فى الاقتصاد، ورغم التقدم التعليمى للبنات، يقتسم الرجال والنساء الوظائف منذ حوالى ٢٠ أو ٣٠ عامًا بلا تغير كبير بين القطاعات المختلفة فى عالم العمل.

---

(1) Les Femmes, Paris, INSEF, coll. Contours et caractères, 1995, p.120. فى الولايات المتحدة، تشتغل ٨٠% من النساء العاملات بوظائف السكرتارية، ومستخدمات وبائعات.

(2) بين عامى ١٩٨٢ و ١٩٩٠ تزايد تمثيل النساء إلى ٥٥% فى الوظائف الحرة، وإلى ٦٧% فى التعليم، و ٩٠% فى الهيكل الإدارى والتجارى للمؤسسات، و ٤٣% مهن المعلوماتية والعروض.

فى مواجهة هذا الشكل من التباين الجنسى المستمر، فإن التأويلات "المتفائلة" تطرح الفكرة القائلة بأننا أمام تركة تاريخية يسعى الزمن وديناميكية التكافؤ لإزالتها. كل شيء محسوب بدقة، وكل شيء مؤكد: فالتحليل المفصل للمعطيات ينتج أحكامًا أكثر تحفظًا. أولا، نلاحظ أن طرح التكنولوجيات الأكثر تقدمًا، لم يؤد إلى تراجع التمايز الجنسى فى العمل وإلى عدم التأهل النسائى، بل إنه استطاع إعادة تكوينها على أحسن وجه(١). فى ظل هذه الظروف، تكون الفجوة بين المهن الذكورية والمهن النسائية من مخلفات الماضى أكثر من كونها عملية تعمل بنظام كامل فى صميم الزمن الحاضر. من ناحية أخرى، التوجهات الدراسية تظهر أن مسيرة تطلعات الفتيات والفتيان تظل متباعدة جوهريًا. وفى قلب التعليم المهنى، الاختلاط متعذر أيضًا اليوم مثل الأمس. فالهيمنة الذكورية صارخة فى تعليم مهن مثل البناء والصناعة، ولكن الأولوية لدى الفتيات ترتبط بمهن مثل تصفيف الشعر والسكرتارية والأزياء والصحة. وعلى مستوى الدراسات العليا، يتقدم الفتيان بكثرة فى المجالات "البروميثية" المتطلعة إلى السيطرة على الأشياء والأشخاص، بينما تكون الفتيات فى مجالات التعليم والعلاقات والصحة(٢). حتى وإن لم تعد أى مهنة تعتبر معقلا حصريًا للذكور، وحتى وإن خطت الفتيات بأعداد أكبر من الفتيان نحو التعليم الجامعى، فالفصل فى التوجهات وفقًا للجنس هو أمر واضح وضوح الشمس. ولن يتم التخلص من المشكلة إذا طرحت سلوكيات عتيقة بدأت تزول، لأنها مخلفات عصر آخر؛ فى الواقع يتعلق الأمر بتوجهات تتناسب مع تطلعات وأذواق معاصرة. فأنماط الجنس لا ينبغى خلطها بميراث ماضوى يتولى "التقدم" إزالتها بشكل طبيعى: فلأنها حية جدًا، يعاد تشكيلها فى قلب العالم المفتوح المركز على المساواة والحرية المعاصرة. نتوهم كثيرًا إذا اعتقدنا أن ديناميكية المساواة تُعِد لعالم بجنس واحد: فإعادة الإنتاج الاجتماعى للاختلاف الجنسى تظل عملية متواشجة مع أزمنة ما بعد الحداثة.

---

(١) Margaret Maruani, Chantal Nicole, *Au labeur des dames,* Paris, Syros, 1989, p. 17-72.

(٢) Christian Baudelot, Roger Establet, *Allez les filles !*, Paris, Seuil, 1992.

أي زوجين؟ أي أم؟ وأي أب؟

إن الزمن الذي تمثل فيه الأدوار المخصصة لكل من الجنسين داخل الزوج مشكلةً ليس بعيدًا عنا. حتى سنوات الخمسينيات، كان الزوج، أساسًا، هو المسئول عن توفير دخل المنزل، وتأمين توجه العائلة. أما الزوجة فهي مسئولة عن الترابط الشعوري لمجموعة أفراد العائلة والاهتمام بالمنزل والأطفال. أحدهما مكلف بمهام الخارج، والآخر بمهام الداخل؛ أحدهما بالأدوار الأدواتية، والآخر بالأدوار التعبيرية. وكان توزيع الأدوار مقسمًا وحصريًا، المرأة وحدها كانت مكرسة للمهام المنزلية، ولم يكن تدليل الرجل للأطفال أو اهتمامه بالمنزل أمرًا مشرفًا. اعترف القانون بالرجل على أنه "رئيس العائلة"، وكان يتمتع بسلطات ومسئوليات كثيرة، وكان يمارسها على أطفاله كما على زوجته.

هذا النظام من المعايير، وإن كان واقعيًا، ليس إلا جزءًا من واقع اجتماعي أكثر تعقيدًا . وبخاصة، فإن كون الرجل المموّن المادي للمنزل لم يؤد إلى خضوع المرأة وإلى الإمبريالية الذكورية، في كل مكان. في نظام العائلات البرجوازية، صحيح أن الزوج كان سيد القرارات الكبرى، ويتحكم في الإدارة المالية للمنزل، ويعطي في كل شهر زوجته المبلغ الذي يراه ملائمًا للمصاريف الجارية، لكن في عالم العمّال، غالبًا ما كانت الميزانية في يد الزوجة. فمنذ منتصف القرن ١٩، في فرنسا فرضت "الميزانية الأمومية" نفسها، فكان عدد من العمال يسلمون أجرتهم لزوجاتهم اللاتي عرفن بـ"سيدات المنزل"[1]. عندما حلل ريتشارد سينيت Richard Sennett الطبقات المتوسطة في شيكاغو في سنوات ١٨٨٠، اكتشف آباءً تغلب عليهم الرقة واللين والضعف والسلبية، في

---

[1] في بداية سنوات الستينيات، كانت النساء تدير ميزانية العائلة في ١٣% من العائلات البرجوازية، و٥٣% من أزواج الطبقة المتوسطة، و٧٨% من أسر الطبقة العاملة.

حين كانت الزوجات صلبات الشكيمة وديناميكيات وعدوانيات: فهن من يمتلكن السلطة والتحكم فى العائلة[1].إنه نظام جديد للأسرة "للأمومة" تشهد عليه فى فرنسا صور الأمهات المستبدات القامعات اللواتى صورهن كل من جول فاليس وجول رينار وفرانسوا مورياك وهيرفيه بازان Jules Valles, Jules Renard, Francois Mauriac, Herve Bazin.

فى فترة ما بين الحربين العالميتين تجلت الأم أيضًا كأنها الشخصية المركزية للعائلة فى طبقة العمال الإنجليز؛ فهى الشخصية الأكثر سلطة، والشخصية "الآمرة"[2]. وفى العصر ذاته، فى أمريكا، عددت الروايات ووسائل الإعلام صور الأب الطيب، الخاضع، المجتهد فى أداء المهام، الذى تخلى عن ممارسة السلطة داخل العائلة لصالح سيطرة الأم[3]. إن المثال الأعلى الحديث للزوجة المكرسة للمنزل لم يستخدم باعتباره أداة لإقصاء النساء؛ وفعلا صاحبه، على الأقل فى بعض الأوساط، انحسار لسلطة الأب والزوج وهيمنة للزوجة من خلال دورها كأم ومسئولة ومستهلكة[4]. إن تراجع الأسرة الأبوية بدأ داخل النموذج ذاته الذى يفرض الرجل باعتباره السيد الوحيد للمنزل والممون له.

بقى أن ذلك الشكل من إعادة التوزيع غير المتكافئ للأدوار فى قلب الأسرة قد استفاد، طوال تلك الفترة كلها، من مشروعية اجتماعية قوية، وهنا يكمن التغيير: فيشهد عصرنا، منذ ما يقرب من ٣٠ عامًا، عملية غير مسبوقة أعيد النظر فيها بالأدوار العائلية. فما كان بديهيًا دخل إلى عصر المداولات، لا بل النزاعات. وظهر نموذج جديد من العائلات فرض نفسه عندما أصبح العمل النسائى يعتبر كقيمة،

---

(1) Richard Sennett, *La Famille contre la ville*, Paris, Recherches, 1980, chap. 10.

(2) Elisabeth Roberts, *A Woman's Place. An Oral History of Working Class Women*, 1890-1940, Oxford, Basil Blackwell, 1984.

(3) Geoffrey Gorer, *Les Americains*, Paris, Calmann-Levy, 1949, p. 43-69.

(4) فيما بين الحربين العالميتين، أظهرت الإحصائيات الأمريكية أن أكثر من ثلاثة أرباع المشتريات العائلية تقوم بها النساء عن (Geoffrey Gorer, Les Americains, op. cit., p. 61).

وكف مبدأ تبعية المرأة للرجل عن كونه شرعيًا. فلم يعد الرجل هو "رئيس الأسرة"، وأصبحت المرأة تتمتع بعائدات عملها، ورأت تزايدًا فى سلطة قرارها داخل العائلة. إن مثال التكافؤ، وانحسار العنتريات، والتحرر الاقتصادى للمرأة، سعت إلى تأسيس نموذج جديد يتميز بالاستقلالية النسائية، ومشاركة الشريكين فى القرارات المهمة، وأصبحت القرارات المهمة المتعلقة، على سبيل المثال، بشراء شقة، أو تأثيث منزل أو مستقبل الأطفال يأخذها الشريكان بطريقة متكافئة أكثر فأكثر[1]، وأعلنت ٦ نساء من أصل ١٠ أنهن يتحملن وحدهن حسابات الأسرة. إنه تراجع للعائلة الأبوية يظهره أيضًا توجه حديث: فى بعض المنازل فى الولايات المتحدة التى يقبض الرجل والمرأة فيها رواتب مرتفعة، يدير كل منهما موارده وميزانيته بشكل منفصل[2]. هذا الاتجاه نحو جعل كل حساب مستقلا بدأ يظهر فى فرنسا أيضًا عند بعض الأزواج من الشباب. ففى عصر المرأة الثالثة ظهر الثنائى المتكافئ- المشارك كما ظهر نموذج كل- لنفسه، وظهرت الفردانية الإدارية عند الشريكين نفسيهما.

ومن ناحية أخرى، فقد المبدأ الذى يربط بين المرأة والعمل المنزلى بديهيته القديمة تمامًا، عند الشباب المقدمين على الزواج، وتعززت ضرورة مشاركة كليهما فى المهام الأسرية، وفقًا لميله واستعداده. فى العصور السابقة، كانت معايير تقسيم المهام بين الزوجين تؤخذ من التقاليد، وفى الوقت الحاضر هى مثار للجدل والتفاوض بين الرجل والمرأة؛ فنرى أن أنشطة كانت نسائية حصريًا من قبل (الطبخ والغسيل، وتنظيف الزجاج، والكنس، والتسوق) باتت يؤديها الرجال، لا سيما وأنهم حاصلون على شهادات عليا، وأن نساءهم عاملات، وأن الرجل الحاصل على شهادة ثانوية أو أعلى منها يأخذ على عاتقه مرة من أصل ثلاث مرات المهام المسماة "قابلة

---

(١) Michel Glaude et Francois de Singly, "L'organisation domestique : pouvoir et negociation", *Economie et statistique*, n. 187, avril 1986, p. 3-30.

(٢) R. Hertz, *More Equal than Others*, Berkeley, University of California Press, 1986.

للتفاوض"[١]. وفى أوروبا نجد من بين المهام المنزلية التى يقوم بها الرجال على التوالى: التسوق ثم غسل الأوانى ثم تنزيه الأطفال بالعربة[٢]، وظهر اهتمام أكبر للآباء ومشاركة أكبر فى توعية الأطفال والعناية بهم، وخير شاهد على ذلك مصطلح "الآباء الجدد" الشهير، إذا لم يعودوا يجدون حرجًا فى تغيير حفاضات الرضع وهدهدتهم وإعطائهم الرضاعة.

ومع أن هذه التغيرات باتت لافتة للنظر، فإنها تظل رغم كل شيء بطيئة ومحدودة وغير قادرة على تقريب الرجال والنساء من ديمقراطية منزلية. إن اللافت أكثر فى النهاية لا يكمن فى زعزعة الأدوار بقدر ما يكمن فى استمراريتها بقوة، ومن خلال بحث تلو الآخر تتضح الحقيقة ذاتها: النساء هن من يستمررن بكثافة فى تحمل الجزء الأكبر من مسئولية تربية الأطفال والمهام الأسرية، ويستغرق العمل المنزلى ٣٥ ساعة من حياة المرأة العاملة و ٢٠ من حياة الرجل العامل أسبوعيًا. ويوميًا تكون الأمهات أكثر عددًا مرتين من الرجال ويعملن فى تنظيف الأطفال وإلباسهم وإطعامهم[٣]. إن النساء اللواتى يقمن بعمل مأجور يقضين ثلاثة أرباع الساعة فى ترتيب المنزل، وساعة ونصف فى الطبخ والغسيل يوميًا فى مقابل ٧ دقائق، و ٢٥ دقيقة عند الرجال على التوالى[٤]. وفى الولايات المتحدة الأمريكية، تؤدى النساء العاملات ٧٥% من المهام الأسرية دون أن يساعدهن أزواجهن إلا ما يربو قليلا عن نصف الساعة يوميًا[٥]: فعلى مدار عشر سنوات لم تتقدم مشاركة الرجال فى العمل المنزلى إلا ١٠%. وفى الوقت الحاضر فإن ٧٩% من الإسبانيات، و ٧٠% من الإنجليزيات والألمانيات، إلى جانب

---

(١) Bernard Zarca, “Division du travail domestique ; poids du passe et tensions au sein du couple », *Economie et statistique*, janvier 1990, n.228, p. 29-39.

(٢) *Les Femmes*, op. cit., p. 170-171.

(٣) Caroline Roy, “La gestion du temps des homes et des femmes, des actifs et des inacthfs”, Economie et statistique, n. 233, juillet- aout 1989, p. 5-11.

(٤) *Les Femmes,* op. cit., p. 173.

(٥) Arlie Hochschild, The Second Shift : Working Parents and the Revolution at home, New York, Viking Penguin, 1989, p. 4.

٦٠% مـن الفرنسـيات والإيطاليـات صـرّحن بـأن شـركاءهم لا يسـهمون فـى أى مهـام منزليـة[١].وتظـل أعمـال المنزل فـى كل مكـان متأثرة جدًا بـالاختلاف بين الجنسين، فـلا توجد عمليًا مهام منزلية تؤدى بشكل متكافئ من هذا الجنس أو من الآخر، فكل منها تـرتبط باسـتمرار بجـنس مـا أكثـر ممـا تـرتبط بـالآخر مثـل الغسـيل، والكـى، والخياطـة، وتنظيف الحمام والعديد من المهام التى تقع حصريًا على عاتق النساء[٢].

حتـى وإن تـدخل الرجـال أكثـر مـن ذى قبـل فـى الأنشـطة المنزليـة، فـإن إدارة الحياة اليومية دائمًا ما تنصب أولويًا علـى النسـاء، وهذا يحدث فـى مختلف الأوسـاط. إذا ضـاعف الرجـال مسـاعدتهم للنسـاء إلا أنهم لا يأخذون إطلاقًا المسئولية الأساسية للأطفـال أو لتنظـيم المهـام وتنفيذها. فمشـاركتهم مشـروطة بعمـل مـا، ونـادرًا مـا تكـون بنيويـة، ومسـاهمتهم فـى العمـل المنزلـى هـى مـن بـاب المسـاعدة ولـيس مـن بـاب المسئولية الأولى والمستمرة، ومـا تغير لـيس منطق تقسيم الأدوار العائلية وفقًا للجنس هو مـا تغير بقدر ما يندرج التعاون الذكورى فى الإطار التقليدى القائم علـى الهيمنة النسـائية. فترتيـب أنشـطة الأطفـال، وتخطـيط الوقـت، وتنظـيم التـنقلات، وتـدبير الوجبات، والمشتريات والإجراءات كل هذا "العبء الذهنى[٣]"، الذى لا تقدرها كمية الوقت، تقع دائمًا على عاتق النساء بشكل أساسى. إن ديناميكية المساواة نجحت فى إسقاط الاعتبـار عـن ربـط الرجـل بالسيطرة، ولكنهـا لـم تصـل إلـى هـدم ربـاط النسـاء بالمسئوليات المنزلية.

إلا أن النشـاط المـأجور للنسـاء أثـر علـى العمـل المنزلـى الـذى يتحملنـه، ويشـهد علـى ذلك أن النسـاء العـاملات يكرسـن وقتًـا لأعمـال المنـزل وللأطفـال أقـل مـن اللـواتى

---

(١) *Les Femmes, op. cit.*, p. 171.

(٢) Bernard Zarca, "Division du travail… », art. cite, p. 30.

(٣) Monique Haicault, "La gestion ordinaire de la vie en deux", *Sociologie du travail*, n.3, 1984, p. 268-277.

يبقين في المنزل[1]. ونلاحظ أيضًا حركة من التكيف مع الخارج أو التكيف مع المجتمع تصل إلى الوظائف المنزلية التي كانت من قبل تحت ضمانة الأم بشكل أساسي (الطبخ، والكي، والحراسة، والتوعية، وتسلية الأطفال). ونرى أن بعض الصناعات ومؤسسات الخدمة والجمعيات والمؤسسات الأهلية تفوض وتأخذ على عاتقها عددًا من الأنشطة العائلية التقليدية، ولكن ذلك لم يحرر النساء إلا ظاهريًا فقط؛ لأنهن إذا بتن يكرسن وقتًا أقل للطبخ (فهناك الوجبات المطبوخة- والفرن الميكروويف)، فهن يكرسن كثيرًا من هذا الوقت لتثقيف أنفسهن، وتنظيم الأنشطة ما بعد المدرسية والرياضية والثقافية للأطفال. في الوقت الذي قل فيه العبء الجسدي للنساء، زاد فيه العبء الذهني عليهن. فأعمال المنزل صارت تتطلب مجهودًا أقل، ولكن الإجراءات والاتصال بالمؤسسات والبحث عن المعلومات، وتخطيط للأنشطة، والتنقل المتعلق بأنشطة مثل توعية الأطفال قد كثرت. إن التحولات في العمل المنزلي لم تؤثر في جوهر استمرارية الأدوار داخل العائلة؛ فتباين أدوار الجنسين بالنسبة للحياة العائلية: تغلب كثيرًا على تلاقي الأدوار. حتى عندما يكون الزوجان عاملين يتحقق القانون المزدوج الذي يدفع بفشل ديناميكية المساواة: فنجد هيمنة الرجل في الفضاء المهني، وتصدر المرأة في الفضاء المنزلي.

إن علاقة الآباء بالأطفال تظهر بطريقة أخرى استمرارية التباين في الأدوار العائلية. فحين تعمل الأمهات فإنهن يكرسن ساعتين ونصف يوميًا لأطفالهن الذين لم يتجاوزوا السنتين، بينما الأب يكرس ثلاثة أرباع الساعة. بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٦ تغير الوقت الذي يكرسه الأب لطفله الأول من ٣٠ إلى ٤٥ دقيقة. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، أقل من امرأة واحدة من أصل ٣ يرين أن شريكهن يهتم بطريقة منصفة بالأطفال. ودون إنكار لحقيقة "الأبوة الجديدة"، يتعين ألا نستخلص منها نتائج

---

(1) يقدر الوقت اليومي الذي تكرسه الأمهات العاملات للعمل المنزلي بخمس ساعات يوميًا (في حالة وجود طفل واحد) وبست ساعات (في حالة وجود ٣ أطفال)؛ ويصل إلى ٨ أو ٩ ساعات وربع الساعة تقريبًا في حالة الأمهات ربات المنازل (Caroline Roy, "La gestion du temps...", art. Cite).

جذرية تتعلق بالتنظيم الاجتماعى لأدوار كلا الجنسين. يشهد سلوك الآباء المطلّقين بالحدود التى تقابلها الحركة التى يصفها البعض بأنها تأنيث للرجل وتذكير للمرأة. نعرف أن الآباء غير المتزوجين يتزايد اعترافهم بأبنائهم بما يمثل تقريبًا ٨٥% فى نهاية العام الأول. فى الوقت ذاته يطلب عدد متزايد من الآباء عند الطلاق أن يتحملوا مسئولية الأطفال بشكل أساسى. وبناءً على ذلك، بعد الانفصال، لا يرى ما يقرب من نصف الأطفال آباءهم أو يكادون[١]. قبل إجراءات الطلاق، كانت ٢٣% فقط من الآباء يحتفظون بالأطفال معهم، فيما الأمهات يمثلن ٦٢% فى هذه الحالة[٢]. فى البلدان الأوروبية، حضانة الأطفال بالنسبة للأزواج المطلقين تخص الأم فى ٧٥ إلى ٩٠% من الحالات. أهو تعلق للقضاة بالأعراف التقليدية؟ لا. ذلك أن غالبية الطلبات تكون قائمة على موافقة الأبوين و ١٥% فقط من الآباء يطالبون بالإقامة العادية[٣]. كثير من المعطيات تكشف الاستمرار القوى فى فصل الدورين الأبوى والأمومى: فاليوم كما الأمس المرأة " أكثر أمومة من كون الرجل أبًا[٤]". إنها ظاهرة يؤكدها أيضًا أن نسبة الثلث من النفقة التى يدفعها الآباء تدفع فعلا؛ بينما يكون الثلثان الآخران جزأين أو لا شىء على الإطلاق. الأمهات فى العمل، والآباء الأكثر انخراطًا فى عنايتهم بالأطفال: هذا لا يعنى وجود منطق استبدال للأدوار، وإنما وجود عملية تلطيف الفصل فى الأدوار الجنسية.

---

(١) Evelyne Sullerot, Quels peres? Quels fils?, Paris, Fayard, 1992, p. 103-104 , p. 113 ; Henry Levidon et Catherine Villeneuve, « Constance et inconstance dans la famille », INED, Traveaux et Documents, 1994.

(٢) Irene Thery, *Le Demariage, op. cit.*, p. 229.

(٣) عن Hugues Fulchiron فى "Une nouvelle reforme de l'autorite parentale", chronique 25, Sirey, *Recueil Dalloz,* 1993, 16e cahier, p. 121.

(٤) وفقًا للتعبير الموفق لـ Evelyne Sullerot, *Quels peres?..., op. cit.,* p. 258.

نهر الأدوار العائلية الطويل الهادئ

كيف نفسر بقاء كهذا فى أدوار الجنس داخل المجتمعات الديمقراطية؟ لمواجهة السؤال غالبًا ما نقدم الفكرة القائلة بأن "البقاء" أو "التأخر التاريخى" متضمن فى تزمت العادات الثقافية، والذهنيات المحافظة، وعبء الأدوار التاريخية الموروثة، ولأن الموروث العتيق يتعارض مع قيم المساواة والاستقلالية، فإنه لم يكف عن إبراز التقسيم الجنسى للأدوار العائلية، وذلك منذ بداية الممارسة الاجتماعية الأولى للفتيات والفتيان؛ فنجد الفتيات الصغيرات أكثر ميلا من الصبية إلى تنظيف المنزل، وجلى الأوانى والاهتمام بالإخوة والأخوات الصغار[1]. كذلك ألعاب أدوات الطبخ و"الأم الصغيرة" تعد تجهيزًا مستقبليًا لدور الأم – مدبرة المنزل– المستهلكة[2]. وتحت مبدأ استمرارية الأدوار المنزلية، فإن ثقل الاستخدامات والأنماط يتجذر فى التاريخ العريق للمجتمعات.

إذا كان هذا التفسير يحوى جزءًا لا يمكن إنكاره من الحقيقة، فيتعين فى الوقت ذاته الاعتراف بعدم كفايته. فى مجتمعاتنا، هناك العديد من الأدوار الموروثة والتى لم تعد سائدة. ومن هنا يتضح التساؤل. لماذا إذن يستمر التقسيم الجنسى فى الأدوار المنزلية بوضوح شديد فيما تنهار معايير اجتماعية تقليدية أخرى؟ ولماذا –على سبيل المثال– تتلاشى الأخلاقيات الجنسية المزدوجة ويزول نمط المرأة ربة المنزل، بينما تستمر هيمنة المرأة فى الفضاء العائلى؟ إن الاستناد إلى مبدأ الجمود الثقافى لا يمكن أن يكفى فى مجتمعات متحركة تتميز بتوجهها نحو المستقبل، وبالتأسيس الذاتى للمجتمع، وبمعارضة المعايير الموروثة من الماضى.

---

(1) Martine Segalen, *Sociologie de la famille*, Paris, Armand Colin, 1984, p. 253.

(2) Elena Gianini Belotti, *Du cote des petites filles*, Paris, Editions de sFemmes, 1974, p. 107-123.

فيما يتعلق بهذه المسألة، غالبًا ما تصر النساء على "تهاون" الرجال، ورفضهم المتعمد تحمل مسئولية الأعباء المنزلية. وبالتالى، تجد النساء أنفسهن مجبرات على مواجهة التخلى الذكورى عن واجبهم، فيتحملن الجزء الأكبر من تلك الأعباء المنزلية. ينبغى النظر فى أمرين معًا: الالتزام النسائى بالعائلة وعدم تشبث الرجال بـ"امتيازاتهم المكتسبة". فليكن، لكن هل تظهر تلك الأسباب جوهر المشكلة؟ ليس ذلك من المؤكد، فكلما تماهت النساء مع صور ضحايا الأنانية الذكورية، آلت علاقتهن المميزة بالعائلة إلى قيد خارجى. هذا التفسير له الفضل فى أنه يمثل قطيعة مع الصورة الصوفية للمرأة، ولكنها تواجه عقبة فى طريق إخفاء للجزء العامل الذى تأخذه النساء فى إعادة الإنتاج الاجتماعى للأدوار المنزلية. إذا كانت هناك بالتأكيد عوائق وضغوطات خارجية، فهناك أيضًا التزام بالأدوار، وهناك عملية إعادة امتلاك وتشكيل الذات انطلاقًا من مخلفات الماضى. وفى علاقة النساء بمهامهن العائلية، فهن أيضًا فاعلات، ومليئات بمشاريع وإستراتيجيات فردية، وبكثير من الإرادة التى تخلق المصير الشخصى. وراء منطق هيمنة جنس على الآخر وعبء المحددات الثقافية، علينا أن نرى فى الارتباط المنزلى للنساء ظاهرة تتضمن بحثًا عن معنى، وتضمر إستراتيجيات سلطة، وأهدافًا تتعلق بالهوية.

كانت آثار الهيمنة النسائية فى الفضاء العائلى محل دراسات اجتماعية أصبحت كلاسيكية. وهكذا يتضح بخاصة أنه إذا كانت الحياة الزوجية قد ارتبطت بتسريع فى الوظيفة المهنية للذكور، فإنها تمثل إبطاء للمسيرة المهنية للنساء[1].لكن لا لا ينجم عن المسئوليات العائلية التى تمارسها النساء ولها تكلفة على المستوى المهنى، لا ينجم بالتأكيد أى مكسب ذاتى. فسلامة العلاقة بالطفل، ومتعة المشاركة فى توعية كائن ما وإسعاده، والإشباع الناتج عن الشعور بعدم الاستغناء عنك، والشعور بأهمية المهمة، واستطاعة التأثير على حاضر الطفل ومستقبله، واكتمال هوية المرأة – الأم: جميعها تجعل من المستحيل ألا يفوتنا أن وضعية الأم هى أكثر

---

(1) Francois de Singly, *Fortune et infortune...*, *op. cit.*, p. 65-76.

من شكل من أشكال الخضوع لأدوار مفروضة "من الخارج". فالعلاقة المميزة مع الأطفال تقلل من الاستثمار الوظيفى للنساء، ولكنها تثرى حياتهن من الناحية العلائقية والشعورية؛ وتعيق بحثهن عن المواقف التراتبية، ولكنها تثقل وجود معنى مكثف بامتياز. وإذا كانت المكانة الرفيعة للنساء فى الأدوار العائلية باقية على حالها، فذلك لا يعود فقط إلى الأعباء الثقافية والمواقف الذكورية "غير المسئولة"، وإنما أيضًا بسبب أبعاد المعنى والسلطة والاستقلالية التى تصاحب مهام الأمومة.

أجل، نستطيع أن نحلل التدوين الأولوى للنساء فى العائلة باعتباره أداة لإعادة إنتاج السلطة الاجتماعية الذكورية، ولكن ذلك لا يؤدى بالضرورة إلى اختزال الظاهرة فى تلك المهمة الأحادية الطرف. ذلك أن الارتباط النسائى بالفضاء المنزلى يتماشى مع أشكال من السلطة رئيسية مع أنها خاصة، كما أظهره عدد من الروايات فى القرنين ١٩ و٢٠. وفى أيامنا هذه، تحتفظ مسألة السلطة الأمومية بكامل قوتها؛ فنجد عددًا من النساء لا يتعايش جيدًا مع كون أزواجهن يبالغون فى اهتمامهم بالمنزل والأطفال: ففى سنوات ٨٠، كان ما بين ٦٠ و ٨٠% من الأمريكيات لا يهتممن بمشاركة كبرى للآباء، وتكشف أبحاث أخرى عن استمرار الخلافات الزوجية فى قلب المنازل الحديثة، التى يلتزم فيها الرجال بالمهام العائلية، إلى جانب عدم الرضا الذى تشعر به الأمهات[1]. أشارت إليزابيث بادينتر Elizabith Badinter إلى أنه ينبغى تأويل هذه الظاهرة باعتبارها رد فعل على تراجع موقف مميز، ومقاومة لفقد السلطة الأمومية التى كان يتمنى كثير من النساء عدم تقاسمها، ويضاف إلى ذلك أن الأمهات، فى الطبقات الوسطى الجديدة، يعشن أحيانًا بفخر قدرتهن على القيام بأعمال مهنية إلى جانب مهام الأمومة. ومع تحويل النساء لكفاءاتهن المهنية من تنظيم ومبادرة نحو الفضاء المنزلى، صرن يتمتعن بجائزتين خولتهن السيطرة على

(¹) نص ذكرته Elisabeth Badinter فى X Y : *de l'identite masculine*, Paris, Odile Jacob, 1992, p. 270-271.

عالمين: عالم العمل المهنى، وعالم "مؤسسة- العائلة"[1]، لأن مكانة الأمهات فى مجتمعاتنا صاحبتها جوائز وتوجهات وموقف السلطة وتأكيد الهوية والاستقلالية المنظِمة، فلا يمكن تفسيرها باعتبارها من مخلفات الماضى فحسب.

قد نستطيع المحاجاة، وبحق، قائلين إن علاقة النساء بالطفل تنطبق بصعوبة على هذه المهام الأقل إمتاعًا من الأعمال المنزلية. إن أعمال الكنس والغسيل والمشتريات والطبخ اليومى، هى من الأنشطة التى يصعب أن تكون ذات معنى. غير أننا لا يمكننا أن نستخلص من هذا غياب كل بعد للهوية والسلطة والاستقلالية المنظمة. فى الحقيقة، إن مهام تدبير المنزل تعد الفرصة لتشكيل أرضية هوياتية وشخصية، ولفرض معاييرها وطرق خاصة فى التصرف والتفكير، ولتثمين إدراكها للتنظيم المنزلى، وللنظافة، والترتيب، والتغذية أو الديكور[2]. ما من شك فى أن المكانة المركزية للنساء فى الحياة المنزلية يجب ربطها بمعايير خلّفها التاريخ، ولكن إذا استمر هذا الموقف فى أيامنا هذه فذلك لأن النساء يستطعن وضع حدودهن، وترتيب حياة داخل المنزل تطابق ذوقهن، والتسيد على مجموعة من الأنشطة اليومية. ومع أن أنشطة تدبير المنزل غالبًا ما تعتبر أعمال شاقة، فإنها، بشكل أو بآخر، تمثل طرقًا للتحكم فى حيز، ولتأسيس عالم للذات.

وفى ظل هذه الظروف، يحق لنا الاعتقاد أن الموقف الرفيع للنساء فى الفضاء المنزلى لن يزول قريبًا. ففى مجتمعات ما بعد الحداثة، فإن الرموز الثقافية التى كانت تمثل عقبة أمام التعبير عن الذات والتحكم بها، فقدت سطوتها، ولا نتكلم هنا عن الرموز التى تسمح على غرار المسئوليات المنزلية، بالإدارة الذاتية، وامتلاك عالم ذاتى، وتأسيس عالم حميم، وعاطفى وتواصلى. وإذا شكا عدد من النساء من "اليومية المزدوجة" متمنيات تقاسمًا أفضل للمهام فى داخل الزواج، فإن أقلية محدودة جدًا ترى

---

(1) Jacques Commaille, *Les Strategies des femmes, op. cit.*, p. 38-39.

(2) Jean-Claude Kaufmann, *Sociologie du couple,* Paris, PUF, 1993, p. 88-103.

الاهتمام بالأطفال وتغذيتهم وتحميمهم وتربيتهم أمرًا مثيرًا للملل والضيق(١). وكثير من النساء العاملات يعبرن بالأحرى عن ندمهن لعدم استطاعتهن الاهتمام كثيرًا بالأطفال. ففى الوقت الذى تمارس فيه النساء مزيدًا من النشاط المهنى، حيث باتت مسألة الولادات اختيارية، وأصبح حجم العائلة أصغر، لم تعد الأنشطة الأمومية تعتبر عبئًا بقدر ما تعتبر إثراء للذات، كما لم تعد"عبودية" بقدر ما أصبحت ذات معنى، ولم تعد "ظلمًا" يطول النساء، بقدر ما أصبحت تحقيقًا للهوية؛ إذ لم تعد تشكل عقبة أمام الاستقلالية الفردية، فهناك العديد من الأسباب التى تجعل نهاية هيمنة النساء على الحياة العائلية ذات احتمالات ضئيلة.

بلا شك قد تحسد النساء أحيانًا موقف الرجال، ولكن فى الوقت ذاته لا يتماهين مع الوجود الذكورى الأحادى البعد. وإذا احتجت النساء على العبء المزدوج، ترفض أعداد كبيرة منهن أيضًا "غرق" الرجال فى فضاء العمل المهنى، وعدم جاهزيتهم للحياة الخاصة، ونظرت الانتقادات النسائية إلى انحسار مركزية علاقة النساء بالعائلة كأنه فقد مصداقيته. لاسيما وأن المكانة المميزة للنساء فى الفضاء المنزلى أصبح متوافقًا مع الحياة المهنية والاستقلالية الفردية. عندما يستطيع معيار معين – حتى وإن كان تقليديًا– أن يتشكل من جديد نظرًا للتطلعات الفردانية، لا يمكن كثيرًا لهذا المعيار أن يؤول إلى الانحطاط. وحتى إذا تزايد انخراط النساء فى الحياة المهنية وحتى إذا تحمل الرجال مزيدًا من الأعباء المنزلية، فإن أولوية النساء فى الفضاء العائلى تظل السمة المستقبلية الأكثر احتمالا. ففى نطاق المجتمعات الديمقراطية لم يتراءى تبديل الأدوار العائلية بين الجنسين، وإنما تراءى التزاوج بين الموروث والحداثة، وتبدى الطرح المجدد للمعايير الممايزة للجنس، ولكن فى صورة مجددة تعالجها من جديد معايير عالم الاستقلالية. إن ثورة المساواة لا تدفن الفصل فى أدوار الجنسين، وإنما هى التى تجعله متلائمًا مع المثل العليا للحداثة.

---

(١) بحث عن Elisabeth Badinter فى -L'amour en plus, op. cit., p. 458، حيث تم تأويل النتائج بمعنى آخر بواسطة Elisabeth Badinter.

الفصل الرابع

هل نتجه نحو تأنيث السلطة؟

(١)

نساء مديرات أعمال ونساء سياسيات

تلاحق مسألة السلطة النسائية المتخيل الذكورى، فقد أوردت بعض الأساطير البدائية مواقف لحالات فريدة تتميز بتفوق النساء؛ كما قدمت الخرافات الوحوش الأنثوية، والأمهات الغولات، وكذلك القدرة الشيطانية للساحرات. فمثلا المهبل ذو الأسنان Vagina dentata وحصان إبليس الدينى، المرأة الوبيلة: فمنذ أقدم العصور طرحت تيمة القدرة المهلكة للإناث.

اعترف المحدثون أيضًا بالسلطان الأنثوى، من خلال هيمنة الجميلات على عشاقهن، وحكومة الظل، وتأثير الأمهات على أطفالهن، وسيطرة النساء على الأخلاق والموضات، ويضاف إلى هذا، فى القرن ١٩، المذهب البدائى للأسرة الأمومية القائل بأن الأم امتلكت زمام السلطة السياسية فى عصور ما قبل التاريخ. بلا شك، تمسك المحدثون بإقصاء النساء منهجيًا عن السلطة السياسية والاقتصادية، ولكن فى إطار الفضاء الخاص حظيت السلطات النسائية بنفوذ وتكريم اجتماعى غير مسبوقين.

أين نحن الآن من هذا الأمر؟ من الواضح أن المسألة تطرح بمفردات جديدة وبانتشار مكثف لم تبلغه من قبل. فمنذ العصور السحيقة، كان إقصاء النساء عن فضاءات السلطة العليا أمرًا بديهيًا، ولم نعد نتوقف عن الاستياء منه. وكان بقاء النساء "فى المنزل" أمرًا طبيعيًا؛ أما الآن فيعتبر قلة عدد النساء المنتخبات فى البرلمان أمرًا شائنًا، وبينما تعددت المواقف التى تستهدف تحقيق الندية بين الجنسين فى الجمعيات السياسية، انتصرت الفكرة القائلة بأن النساء سيجددن السياسة، ويغيرن من ممارسة السلطة فى المؤسسات. فالعصر الذى يقصر النساء على الأدوار الثانوية قد انتهى. وفى أيامنا هذه، ينادى الرجال، بالمشاركة الكاملة للنساء فى الحياة

السياسية، ولم يعودوا يعتبرون خضوعهم لسلطة امرأة فى إطار النشاط المهنى أمرًا غير مشرف. ظهرت نسوية جديدة تطالب بالسلطة على قدم المساواة مع الرجال، وتسعى للتوفيق بين النساء ومتعة الانتصار وروح المنافسة، وتدعوهن إلى اجتياح التراتبية متخلصات من عقدهن القديمة. فبعد نسوية شعور المرأة بأنها ضحية، جاءت "نسوية السلطة[١]".

بلا شك، نددت خطابات على ضفتى الأطلنطى بالمشروعات الجديدة لإشعار النساء بالذنب، والارتياب من مكاسب السنوات "المنتصرات"، و"عودة العصى" التى كان ضحيتها الجنس الثانى، ولكن فى الوقت ذاته تعلن أصوات أخرى عن"زلزال الأجناس"، وعن التراجع الحتمى للسطوة الذكورية، وصعود النساء إلى فضاءات السلطة الاقتصادية والسياسية. من هنا فإن "الحرب على النساء" التى أشار إليها أنصار النسوية لن تمثل إلا بعض الأوجه لحقيقة أكثر تعقيدًا تتميز بـ"الحرب على الرجال"، ونرى العبارة التالية تتصدر عنوان " The Economist" منذ مدة قريبة: "الشقاء الذكورى: الجنس الثانى مستقبلا"، فى الوقت الذى تنبأ فيه خبراء فى استشراف المستقبل، وبلهجة المنتصرين، بغزو النساء لمراكز صنع القرار: وسنسخر قريبًا من "سذاجة الرجال والنساء فى سنوات ٨٠ الذين يعتقدون أن ثمة سقفًا غير مرئى يحول دون بلوغ النساء القمة، إلى الأبد[٢]". ومع وجود رجال ضعفاء، ونساء متميزات، تكاثر فى مدار المجتمعات الديمقراطية تأنيث السلطة، ويعد هذا مرحلة حتمية فى ديناميكية المساواة الحديثة.

هذا المنظور المتفائل لا يفتقر إلى الحجة؛ فأصبح فى البلدان المتطورة، عدد الطالبات يفوق عدد الطلاب، واخترقت الفتيات، أكثر فأكثر، معاقل طالما كانت حكرًا

---

(١) Naomi Wolf, *Fire with Fire*, op. cit.

(٢) John Naisbitt . Patricia Aburdente. *Mega Tendances 1990-2000; ce qui va changer*, Paris, First, 1990, p. 254.

على الفتيان، وصرن يمثلن ما يقرب من نصف أعداد الطلاب فى كليات التجارة، وفى مؤسسات العمل.

بلغت نسبة كبار الموظفات أو كدن يقتربن من الحد الحرج فى بلدان عدة فى l'OCDE منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، كما تجاوزت نسبة تمثيلهن المئوية فى مناصب الرئاسة والإدارة، فيما بين عامى ١٩٧٤ و ١٩٨٦، من ١٥,٩ إلى ٣٤,٥ فى كندا، ومن ٨,٨ إلى ٢٠ فى السويد، ومن ١٨,٥ إلى ٣٧,٠٥ فى الولايات المتحدة، ومن ١٥ إلى ٢٠,٩ فى RFA جمهورية ألمانيا الاتحادية. وفى فرنسا، على مدار سنوات ٨٠، شغلت النساء ما يقرب من نصف المناصب الإدارية الجديدة. وبين عامى ١٩٦٨ و ١٩٩٠ قفز حجم الإناث فى "المهن الليبرالية العليا" من ١٨% إلى ٣٠,٧%. يضاف إلى هذا انطلاقة مجال التعهدات النسائية. فأسست النساء، فى كندا، مشروعات تفوق ما أسسه الرجال بثلاث مرات؛ وفى نهاية سنوات ٨٠، كانت مؤسسة واحدة من أصل ٣ تمتلكها امرأة، وواحدة من أصل ٢ فى عام ٢٠٠٠.

ويصاحب تقدم النساء تحريضات جديدة تحث على ارتقاء درجات الهرمية، كما تطورت جرائد المرأة فى المواقع التنفيذية *executive women*، وتعددت نجاحات المطبوعات التى تعرض للنساء "وصفات" تتعلق بتقدمهن، كما تقدم لهن نصائح عملية ونفسية كى يصلن إلى مواقع صنع القرار. ونموذج المرأة الممحوة والمسالمة بات ينافسه نموذج "المقاتلة" بشكل متزايد، فدخلت الثقافة التنافسية للتحدى وإستراتيجية الوظيفة إلى عالم النساء، فالنجاح فى المؤسسات واستهداف مناصب المسئولية أصبح هدفًا نسائيًا يروج له إعلاميًا ويحظى بشرعية اجتماعية.

إذن هل يعلن المستقبل عن نفسه بشكل حتمى تحت ملامح تأنيث السلطة؟ إذا لاحظنا المعطيات الحالية، أصبح الأمر مؤكدًا. فى غالبية البلدان، تظل السياسة عالمًا مغلقًا أمام النساء، إلى حد كبير: باستثناء بلدان الشمال، فإن من ٦ إلى ٢٠% ممن تنتخبهم الأمم الأوروبية كنائبات فى البرلمان من النساء. وفى كل مكان فى أوروبا، تمثل النساء ثلث المنتمين للأحزاب السياسية، ولكن تمثيلهن متدنّ فى كل

دوائر إدارة تلك الأحزاب تقريبًا. وفي الحكومات جميعها، ماعدا الإسكندنافية، تمثل النساء أقلية، ولا يعهد إليها إلا بالقطاعات التي تعتبر "نسائية"، فنادرًا ما تحمل النساء حقائب وزارية ملكية، إن الإثبات تافه، فتظل السياسة هي عمل الرجال.

ويتجلى إبعاد النساء في ميدان الأعمال أيضًا. فإذا كان صحيحًا أن مجموع كبار الموظفات في داخل المؤسسات يتزايد، فإن الدرجات العليا للتراتبية تظل ذكورية. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تشغل النساء من ٣٠ إلى ٤٠% من مواقع الإدارة، لكن تلك النسبة تهبط إلى أقل من ٥% على مستوى مجالس الإدارة والإدارات العامة في المؤسسات الكبرى[1]. وفي عام ١٩٨٩، لم نجد سوى ٣ نساء على قمة *Fortune 500* أي أكبر ٥٠٠ مؤسسة أمريكية. وفي الجهاز الإداري العام، لا تمثل النساء سوى ١% في الدرجات العليا من الهرم، وتمثل النساء ١% فقط من كبار الموظفين الذين يتقاضون أكثر من ٢٠٠٠٠٠ دولار سنويًا. تلك الندرة للنساء في مواقع الإدارة تعد سمة لكل البلدان. في كندا كما في ألمانيا أو بريطانيا العظمى، تخطى التمثيل الذكوري في مجالس الإدارة ٩٥%؛ و ٢٦ من أصل ٣٠ امرأة ممثلات في مجالس الإدارة لأكبر ١٠٠ مؤسسة بريطانية لسنا من أصحاب القرارات. هناك ١٢ امرأة فقط بين ٨٠٠ مدير لأكبر ١٠٠ شركة بريطانية، ولا توجد واحدة بين الـ ٢٠ مديرًا ممن يقبضون رواتب عالية.

في فرنسا، كما في ألمانيا وبريطانيا العظمى، لا تدير امرأة أيا من الـ ٢٠٠ مؤسسة الكبرى الأولى، فبالكاد نجد ٥% من الـ ٣٠٠ مجموعة فرنسية الأولى ترأسها امرأة في إدراتها العامة. إن مرتبة الكوادر لا تتضمن سوى ٥% فقط من النساء، وأكثر من ٦٠% فقط من المؤسسات الخاصة لا تحوي نساءً في موقع إدراة، ومن أصل ٢٢٦١ تكليفًا بإدارة الـ ٢٠٠ من المؤسسات الفرنسية الأولى، حصلت النساء

---

(1) A.M. Morrison, "Women and Minorities in Management", *AmericanPsychologist*, fevrier 1990; G. N. Powell, "One More Time: Do Female and Male Managers Differ?"*Academy of Management Executive*, , 3, 1990.

على ٥٨ تكليفًا[١]. وفى شركات القطاع العام، تعد نسبة النساء المديرات قليلة أيضًا: ١% فى SNCF, المؤسسة الوطنية للسكك الحديدية وشركة كهرباء فرنسا EDF وشركة غاز فرنسا GDF و٣% فى الشركة المستقلة للنقل العامRATP[٢]. إن الحضور الهامشى للنساء على قمة الهرم هى ظاهرة عالمية لافتة، فى القطاع العام كما فى القطاع الخاص: فكلما ارتفعنا فى سلم التراتبية، قل وجود النساء.

علاوة على ذلك، لم يحصل أى تقدم ملحوظ منذ ٢٠ عامًا، وعلى عكس اتجاه التأنيث المتزايد فى الدراسات العليا فى الولايات المتحدة، وفى عام ١٩٧٨ كان هناك ١٠ نساء من أصل ٦٤٠٠ من كبار المسئولين والمديرين ممن يتقاضون أفضل الرواتب؛ وفى عام ١٩٩٠ كن ١٩ من أصل ٤٠٠٠. فى العام ذاته مثلت النساء والأقليات ٥% فى المناصب العليا فى الإدارة، مقابل ٣% فى عام ١٩٧٩. وفى وظائف القطاع العام فى الكيبيك، لم يتجاوز التمثيل النسائى فى الإدارة العليا إلا ١% سنويًا، وهذا الإيقاع قد تباطأ منذ عام ١٩٨٣. بلا شك تنشأ النساء أكثر فأكثر مؤسساتهن الخاصة، لكن تلك المؤسسات هى صغيرة بشكل ملحوظ، ونادرًا ما توظف أكثر من ٥ موظفين وتظهر كثيرًا فى قطاع التجارة والخدمات: ففى كندا وفى منتصف الثمانينيات، ٥٠% من تلك المؤسسات حققت رقم مبيعات يقل عن ١٠٠٠٠٠ دولار[٣].

معاينة هذا الواقع تفرض نفسها: على الرغم من زوال نفوذ الثقافة الذكورية، وتأنيث الدبلومات، والإعلاء من شأن القيادة فى التنشيط والاتصال، لم يتغير شىء تقريبًا فى مشاركة النساء فى دائرة صناع القرار. ظل الرجال يستأثرون تقريبًا بمواقع القيادة، كما لو كان هناك سقف زجاجى *(glass ceiling)* يصد النساء بشكل منهجى

---

(١) *Le Monde*, 8 mars 1996.

(٢) Helene Y. Meynaud, " L'acces au dernier cercle", *Revue francaise des affaires sociales*, n. 1, janvier-mars 1988, p. 67-88.

(٣) Helene Lee-Gosselin, Monica Belcourt, "Les femmes entrepreneuses », in *Prendre sa place : les femmes dans l'univers organisationnel*, Ottawa, Agence d'Arc, 1991, p. 55-88.

علـى مسـتوى معـين. والأمـر الأكثـر جـلاءً لـيس وصـول النسـاء للقمـة، وإنمـا بقـاء إقصائهن وإعادة الإنتاج الاجتماعى للسلطة الذكورية.

كيـف نـؤول هـذا الإقصـاء المستمر للنسـاء عـن فضـاءات القيـادة؟ النزعـة العقلانيـة التقدميـة تدعونا لكـى نـرى فـى هذه الظـاهرة قيمـة باليـة مآلهـا، شيئًا فشيئًا، الضمور إثر ضغط قوى الحداثة: فالسلطة، مثلها مثل مجالات أخرى، يجب ألا تبقى حكرًا أبديًا لجنس واحد فقط. وفى الواقع، من الصعب أن نتخيل، بالنظر إلى العقليات وتطـور المهـارات الدراسـية والمهنيـة للنسـاء، أن يشـغلن مكانـة متواضـعة فـى قمـة التراتبيـة: فتقـدمهن فـى مناصـب الإدراة محتمـل بدرجـة كبيـرة. ولكـن أى تقـدم؟ أهـو انطلاق ومد أم تقدم محدود لا يغير موقف كلا الجنسين، إلا بشكل خجول؟ المشكلة كلها تكمن هنا: هل ستنجح "الثورة الديمقراطية" فى إنهاء سيطرة الرجال التقليدية على دوائر السلطة؟ وعلى المدى المنظور هل ستنجح فى إرساء اختلاط حقيقى بين النخبة السياسية والاقتصادية؟

المؤسسة ضد النساء؟

غالبًـا مـا تفسـر ظـاهرة السـقف الزجـاجى Glasse Ceiling انطلاقًـا مـن استمرارية الأنمـاط الجنسية التـى تحـول بين النسـاء وبعض المناصب وتحبسـهن فـى لائحـة السلوك الاجتمـاعى المقبول، وتولد النزاعـات فـى الأدوار بين الأنوثة والكفاءة، وتشوه تقدير أدائهن، فلا يزال كبار الموظفين يربطون النجاح المهنى بصفات عادة ما تعزى للرجال[1]، وهكذا يحكم على النساء بأنهن "شديدات" الانفعال، ومقاتلات بقدر أقل من الرجـال، ومتكيفـات بصـعوبة مـع إطـار وحـدات الإنتـاج، وأقـل اتصـافًا بفكـر

---

(1) V. E. Schein, "Relationships between Sex Roles Stereotypes and Requisite Management Characteristics among Female Managers", *Journal of Applied Psychology*, vol. 31, 1975, p. 259-268; O.C. Brener, J. Tomkiewicz, V. E. Schein, "The Relationship between Sex Roles Stereotypes and Requisite Management Characteristics Revisited", *Academy of Management Journal*, vol. 32, n.3, 1989, p. 662-669.

المبادرة، وأقل التزامًا بالمؤسسة. العديد من الصور الجنسوية تمنع، على الأخص، أصحاب القرار من تقدير كفاءة النساء وأدائهن[1] "بشكل موضوعي". شوهت الأنماط الجنسية منظور الرؤساء لإمكانات النساء واستهانت بها، وجعلتهن يكابدن ممارسة "الكيل بمكيالين، والمعايير المزدوجة"، وكلفوهن بوظائف أقل قيمة وأقل تنوعًا، وأقل اتخاذًا للقرارات. لأن المديرين أيضًا يصعب عليهم انتقاد أداء المرأة عن أداء الرجل[2]، فالنساء الإداريات يحصلن على عائد معرفي – عائد راجع feed back بشكل أقل، وبالتالي يكن أقل إمكانية للتعلم ولتصحيح أدائهن وللتقدم.

إن الأفكار المسبقة المتعلقة بالجنس كنوع لم تضع الحواجز على الحركة العمودية للنساء فقط، وإنما شكلت أيضًا حواجز على حركتهن الجانبية، وأظهر عدد من الدراسات أن كبار الموظفات يعينّ ويمركزن في المناصب الوظيفية للمؤسسة (المواردالبشرية، الاتصالات، المعلوماتية، التخطيط، والمالية) التي تعتبر تقليديًا تناسب النساء، وقلما يعيّن في الوظائف التشغيلية (الإنتاج، والتجارة)، والتي ترتبط تحديدًا بالصفات الذكورية من طاقة، وروح قتالية، واتخاذ قرار، والتزام أقصى. ويمثل مجال التسويق الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة؛ إذ تشغل النساء فيه مكانة مهمة. في أمكنة أخرى نرى أن منطق العزل واضح: ففي أكبر ٥٠٠ مؤسسة أمريكية، النساء اللواتي يشكلن الكوادر العليا هن ١٠ مرات أكثر في أقسام **الموارد البشرية** مما هن في وظائف **الإنتاج. لأن النساء** يعتبرن انفعاليات للغاية، وغير متكيفات مع العالم العدواني، ولا يتقبلهن زملاء عديدون في المؤسسة، فإنهن يكلّفن بالوظائف الإدارية، وتكون مسيرتهن نحو المواقع التشغيلية قليلة جدًا. والحال أن الخبرة المكتسبة في

---

(1) E. D. Pulakos , K. N. Wexley, "The Relationship among Perceptual Similarity, Sex and Performance Ratings in Manager-Subordinate Dyads", *Academy of Management Journal,* vol. 26, n. 1, 1983, p. 129-139; T. L. Ruble, "Sex Stereotypes", *Americain Behavioral Scientist,* 27, 3, 1984, p. 339-356.

(2) A. Harlan, C. L. Weiss, "Sex Differences in Factors Affecting Manage-rial Career Advancement", in P. A. Wallance, *Women in the Work Place*, Boston, Auburn House, 1982.

المواقع التشغيلية تعتبر بشكل عام الطريق الملكى لتسلق الدرجات العليا للتراتبية: فهنا يكمن أحد الأسباب المحددة لتجميد النساء فى الهرم المؤسساتى(١)؛ لأن النساء محصورات فى المسيرة المهنية الإدارية، ومحرومات من خبرة واسعة وثرية تضعهن فى صميم المؤسسة، فإنهن لم يرقين إلى قمة التراتبية إلا استثنائيًا، وذلك أن السقف الزجاجى glass ceiling هو أولا الحائط الزجاجىGlass wall(٢).

إذا كانت الأحكام الاجتماعية التى لا تحبذ النساء لها أصل جوهرى فى التاريخ، فإنها من الممكن أن تتعزز أيضًا، لا بل أن تنتجها تقريبًا البنى والممارسات التنظيمية. ندين للأبحاث التى صارت كلاسيكسة، والتى قام بها روزابيث موس كانتر Rosabeth Moss Kanter أنها كشفت النقاب عن الحتمية الخاصة بالمؤسسات المتعلقة بسلوكيات النساء أو بسلوكيات الرجال إزاء النساء. وكون النساء يظهرن بنسبة ضئيلة جدًا فى أعلى مستوى من تراتبية الإدارة لا يرجع إطلاقًا إلى شخصياتهن الأصلية، وإنما إلى الاتجاه المؤسسى الرافض تباين المجموعات. فلأن المؤسسات تجتهد لتقليص فرص عدم التأكد من التقييم والاتصال فى فضاءات المسئولية، نراها تبحث عن التجانس بين أعضائها، وتوظّف وتختار الذين يشبهونهم فى النوع والعقلية والسلوك والمظهر ومساعدتهم على الاجتهاد، وإقصاء من يبدون "مختلفين". إن تذبذب القرارات يخلق ضغطًا على التشابه فى القمة، وتكون النساء ضحيته إذ يعتبرن "أخريات"، وأقل التزامًا بالمؤسسة، ولا يمكن فهمهن. ولا يمكن التكهن بتصرفاتهن. إن ندرة النساء فى مواقع القيادة ربما نشأت من تلك الآليات لـ

---

(١) كشف تحقيق أمريكى أجرى على النساء اللواتى كسرن "الحاجز الزجاجى" أن ٣ نساء من أصل ٤ بينهن شغلن فى عام ١٩٩٠ وظائف تشغيلية (انظر Terri A. Scandura, *Breaking the Glass Ceilling in the 1990s*, Departement of Labor, Woman's Bureau) ; L. Larwood, V. E. Gattiker, "A Comparison of the Career Paths Used by Successful Women and Men", in B. A. Gutek, L. Larwood, *Women's Career Development*, Newbury Park, Sage, 1987, p. 129-156.

(٢) On the Line : Women's Career Advancement", Catalyst, 1992, p. 12-20.

"إعادة الإنتاج المثلى الجنس والاجتماعى المثلى" الخاص بالمؤسسات الحديثة الكبيرة[1].

كذلك فإنه يتعين من خلال التوزيع العددى المتشدد لهن فى داخل المؤسسات، وبالتحديد من موقعهن كأقلية، أن نفهم صعوبة بلوغ النساء مواقع التوجيه. هذا الطرح أقلية/ أكثرية الذى يتقاطع مع الفرق بين نساء/ رجال، والذى يدفع بالرجال إلى المغالاة فى تقدير فروقهم مع النساء، وحصرهن فى بعض الأدوار، وتصنيفهن واعتبارهن كثيرًا رموزًا لجنس نسائى أكثر من اعتبارهن شخصيات فردية[2]. لأن النساء مجموعة أقلية؛ لذا فتكون النساء محطًا للرؤية أكثر من الرجال، وسلوكهن يوضع تحت المجهر بشكل منهجى، ويلاحظ، ويحكم عليه. عدد من النساء يتفادى المواقف الخلافية والمخاطر، ويحافظن على أداء متواضع، وباهت، ومطابق لنمط الإناث التقليدى، لأنهن يخشين أن يكنّ هدفًا للجميع، وأن يشهدن هجومًا على هويتهن كنساء، وهذا يؤدى إلى تجاهلهنّ، وإلى تكوين صورة منقوصة عن كفاءاتهن، وأن يعبرن قرب مكاتب الرؤساء دون أن يلاحظهن أحد. إن التمثيل العددى المنقوص للنساء يسبب اتجاها نحو العزلة، والاعتكاف، فليس "الخوف من النجاح" هو ما يؤرق النساء، ولكن "الخوف من أن يصبحن محط الأنظار".

إن نتائج البنية العددية للمجموعات لا تتوقف عند هذا الحد؛ فالموقف الأقليوى قد صعّب تأقلم النساء مع عالم الإدارة، التى تعد ذكورية فى الأساس، بما فى هذا العالم من طقوس مبادرة، ومعايير سلوك وقيم وأسلوب فى الحياة. فلأن النساء غريبات عن "العشيرة" الذكورية فى الإدارة[3]، فإنهن يحرمن من نماذج التماهى، فيشتبه بهن فورًا،

---

(1) Rosabeth Moss Kanter, *Men and Women of the Corporation*, New York, Basic Books, 1977, p. 63.

(2) سمات "المرأة التى تمثل عذرًا". فى موقف الأقلية، كما وصفها Rosabeth M. Kanter, ibid., p. 206-242.

(3) حول النساء والثقافة الذكورية فى الإدارة (انظر Gladys Symons, " Coping with the Corporate Trible : How Women in Different Cultures Experience the Managerial Role", *Journal of*

ويجبرن على إبراز كفاءاتهن أكثر من زملائهن الرجال كي يؤسسن مصداقيتهن، وحيث إن النساء يترقين في عالم يقوده الرجال، فإنهن يجدن أنفسهن مستبعدات من الشبكات غير الرسمية للسلطة، ومحرومات من المعلومات الخاصة، وغير معدات لألعاب المؤسسات وإستراتيجياتها السياسية، وللتحالفات والمفاوضات (الفِصال) lobbying, bargaining التي تعتبر شروطًا للعبور إلى مناصب القيادة. وبما أن النساء مبعدات عن الصلات غير الرسمية للاتصال والحماية، فهن يستفدن أقل من الرجال من دعم المرشدين والرعاة التي غالبًا ما تكون للذكور، ومنذ وقت طويل، ظهرت العلاقة بين النجاح المهني والرعاية. ففي سنوات ٧٠ اعترف مسئولان من أصل ثلاثة في أكبر المؤسسات الأمريكية باعتمادهما على راعٍ واحد على الأقل مما أدى إلى حصولهن على راتب أعلى، وبشكل أسرع[1]. لم تفلت النساء من هذه القاعدة؛ فقد كشف تحقيق عن النساء الرئيسات في المستويات العليا في عام ١٩٩٠ أن ٧٢% من بينهن استفدن من حماية ونصائح لمرشد واحد على الأقل، وأن ٣٩% اعتمدن على ٤ رعاة على الأقل في وظيفتهن[2]، ولكن النساء لديهن فرص أقل من الرجال من حيث الاستفادة من راع رجل، بسبب ما تجره تلك التقاربات من أحكام تتعلق بالنمط الجنسي، لأن

Management, 12, 3, automne 1986, p. 379-390 ; "Corporate Culture, Managerial Women and Organizational Change", in *Proceedings of the International Conference on Organizational Symbolism and Corporate Culture,* vol. 2, Montereal, UQUAM, 1986, p. 95-108.

(1) بحث ذكرته Mary Ann Devanna, *Male/Female Careers. The First Decade,* Columbia University, 1984, p.50.

(2) Terri A. Scandura, *Breaking the Glass Ceiling in the 1990s,* Department of Labor, p. 28. حول أهمية المرشدين والصعوبات المتعلقة بها فيما تخص النساء، انظر K. E. Kram, "Phases of the Mentor Relationship", *Academy of Management Journal,* 26, 1983, p. 608-625 ; G. F. Dreher , R. A. Ash, "A Comparative Study of Mentoring among Men and Women in Managerial, Professional and Technical Positions", *Journal of Applied Psychology*, L25, 1990, p. 531-546 ; D. J. Brass, "Men's and Women's Networks : A Study of Interaction Patterns and Influence in an Organization", *Administrative Science Ouarterly,* 1985, p. 327-343.

النساء معزولات، وأقل اعتيادًا على حيل المُؤسَسَّة corporate games وعلى كواليس المؤسسة، فإنهن مقيدات فى علاقاتهن الاجتماعية بدور المدير.

نحو أنماط ضعيفة

إذا كانت الكليشيهات الجنسية تشكل حواجز مستدامة أمام الارتقاء الهرمى للنساء، فذلك لا يعنى أنه ما من شىء قد تغير. فى الواقع، لم تتزعزع الأدوار الجنسية، ولم توجه لها الاتهامات إلى هذا الحد من قبل. لأن النساء لم يعدن النساء يعرفن أنفسهن من خلال المثال الأعلى للمرأة المكرسة للمنزل، يطالبن الآن بالمساواة المهنية بالرجال، و"الحق فى الوظيفة المهنية" والحق فى ممارسة كل الوظائف وكل المسئوليات، فامتلاك الطموح المهنى وممارسة السلطة لم يعد يتناقض مع التطلعات النسائية. وبالتوازى، لم يعد التفوق التراتبى يرتبط "طبيعيًا" بجنس الذكور. فحتى سنوات الستينيات، كان ٨٠% من الرجال فى فرنسا يرفضون فكرة أن يكونوا تحت سلطة امرأة[١]. فى الوقت ذاته أعلن رجلان من أصل ٣، فى الولايات المتحدة، أنهما يجدان صعوبة بالغة فى العمل تحت سلطة امرأة؛ ويؤكد ٥٠% من الرجال أن النساء غير ملائمات بطبعهن لمواقع الإدارة[٢]. حتى وإن لم تكن تلك الأنماط جميعها بالية، كيف لا نرى أنها قائمة على انحدار مائل: هناك ٦٦% من الكيبيكيين و٦٠% من الفرنسيين (كوادر وطلبة من الجنسين) أعلنوا أنهم لا يبالون بالنوع الجنسى لرؤسائهم الإداريين. ويؤكد هذا التطور، أن ٢% فقط يعتبرون أن " السلطة الإدارية، تعد من عمل الرجال"؛ ولا يوجد إلا ٥,٥% فقط من السكان الذين تمت دراستهم يرون أن المرأة عندما تصل لموقع التوجيه فإنها "تعرف كيف تستخدم وضعها أنثى لصالحها "،

---

(١) P. H. Chombart de Lauwe, *Images de la femme dans la societe,* Paris, Les Editions Ouvrieres, 1964.

(٢) عن Rosabeth Moss Kanter, *Men and Women of the Corporation, op. cit.*, p. 198.

وعلى العكس، فإن العدد الأكبر يرى "أنها كفء[١]". وأثر الانحسار المتزايد للمبادئ العنترية ولدوامة قيم المساواة والتنافس- ولكن دون تغيير فى التوزيع العددى للنساء فى السلطة- باتت معادلة السلطة = فقد الذكور بعضًا من تألقهم القديم. نجحت المساواة الأهلقراطية فى الحط من شأن نموذج التراتبية بين الجنسين ونمط الرجل الرئيس. نحن نعيش هذه الحقبة التاريخية الاستثنائية التى لم تعد السلطة فيها للرجال حصرًا، والتى لم يعد فيها النفوذ المؤسسى للنساء يثير الرفض المبدئى من جانب النساء كما من جانب الرجال. ومع ذلك، لم تكن الصور الجنسوية أمورًا عفى عليها الزمن وتستبعد آليًا، كلما تقدمت العادات الفردانية وكلما تزايد عدد النساء فى مواقع الإدارة العليا. إن اعتبار الأنماط كـ "مخلفات" لعصر منتهٍ يعود إلى استعراض يوتوبيا لمجتمع مفرط فى العقلنة، ويتألف من أفراد وظيفيين قطعًا، من مجتمع يتقلص فيه الفرق بين الجنسين ليكون فقط فرقًا تشريحيًا. تخلص من كل ترميز اجتماعى "تعسفى". إنه افتراض مستبعد الحدوث ما دام يظهر عزو السمات المطابقة للجنسين باعتبارها ظاهرة عالمية، ومتلازمة مع مؤسسة المجتمعات الإنسانية بالذات. كيف نتخيل أن التقدم الدراسى والمثل العليا فى المساواة، حتى التى صاحبها عدد النساء المتزايد فى مؤسسة العمل، يكون قادرًا على أن يضع نهاية لقانون تجاوز تاريخ التمييز الاجتماعى بين الجنسين؟ إن العصر الذى تسوده عقلانية أدواتية وأهلقراطية لن يلغى التوقعات التفضيلية والصور الممايزة المرتبطة بالجنس. إن المؤسسة الشفافة التى تتجاوز التقسيم المتخيل والرمزى للجنسين هى خرافة حديثة مثلها مثل المجتمع الذى لا يتألف من طبقات.

هناك تغير حديث يرتبط بتمثيلات السلطة يكشف قوة عملية التركيب الاجتماعى المتجدد للأنماط الجنسية داخل مجتمعاتنا. ظهر منذ بضع سنوات نمط جديد للخطابات يتسم بالاحتفاء بخصوصية السلطة النسائية فى المؤسسات. النساء

---

(١) Francoise Belle, *Les Femmes cadres : motivations au travail et images du pouvoir. Une comparaison France/ Quebec* إدارة التعليم العالى، تقرير غير منشور ١٩٩٤.

اللواتى يمارسن وظائف الإدارة يملن إلى إدارة أكثر "ديمقراطية"، فهن يتصرفن بطريقة أكثر جماعية من الرجال، ويأخذن كثيرًا فى الاعتبار البعد الإنسانى للمشاكل. إرادة تقاسم السلطة، ومجهود لتثمين الأشخاص، وتحسس العلاقات البينية بين الأشخاص، تلك هى الإدارة بصيغة المؤنث[1]. وتتشكل أسطورة جديدة مؤداها أن النساء سوف يؤنسن المؤسسة، ويخلقن أماكن للعمل أكثر انسجامًا وأكثر انشراحًا وأقل استبدادية وأكثر تواصلا. المهم أن الأسطورة تنشأ انطلاقًا من سمات تقليدية عادة ما تعزى للنساء، من حساسية، وحدس، واهتمام بالآخرين، وتوجه نحو الأشخاص. أما موضوع "تديره امرأة " فيبدو باعتباره متخيلا اجتماعيًا نشأ على أرضية الأنماط الجنسية، ليس لأنه حقيقة تعتمد على ملاحظات واقعية[2]. عندما تكتسب القيادة النسائية شرعية اجتماعية، لا تزول كليشيهات التمايز، بل تتشكل: فيخفت نمط المرأة الخاضعة طبيعيًا للرجل، ليعاد تدوين نمطٍ آخر سريع للاختلاف بين الجنسين فى فضاء السلطة المفتوح عندئذ أمام النساء، ولو من حيث المبدأ. كل شىء يحدث كما لو كانت الشرعية الجديدة للسلطة النسائية لا يمكن أن تتأكد اجتماعيًا إلا بامتزاجها بالصورة الأصلية للإناث. لم يستطع عالم العقلانية الأهلقراطية إخفاء خرافات الجنسين، وإنما

---

(1) *Gere au feminine,* تحت إشراف Micheline Plasse , Carolle Simard, Montereal, Agence d'Are, 1989 ; Jury B. Rosener, "Ways Women Lead", Harvard Business Review, nov.-dec. 1990, p. 119-125.

(2) إن نتائج الأبحاث التجريبية حول الموضوع غالبًا ما تكون متناقضة. أشارت بعض الدراسات إلى وجود أسلوب نسائى فى الإدارة، بينما لم تظهر دراسات أخرى أى أسلوب خاص بالنساء، وحين تظهر اختلافات، فهى لا تكون متجانسة من دراسة لأخرى؛ انظر G. H. Dobbins, S. J. Platz, " Sex Differences in Leadership : How Real Are They? ", *Academy of Management* Review, 11, 1986, p. 118-127 ; A. M. Morrison, R. P. White , E. Van Velsor, " Executive Women : Substance Plus Style ", *Psychology Today,* aout 1987, p. 18-26 ; W. R. Todd-Mancillas , Ana Rossi, "Gender Differences in the Management of Personnel Disputes", *Women's Studies in Communication,* 8, 1985, p. 25-33 ; G. N. Powell, "One More Time...", art. Cite, p. 68-74.

نجح بالأحرى فى أن يعيد تدويرها كمراحل مع المثل العليا الجديدة للديمقراطية النسوية.

هل من جديد تحت الشمس؟ من الواضح أنه لا يوجد، إذا كانت فكرة اختفاء الأنماط الجنسية ضحلة، فى المقابل كل شيء يشير إلى أن نمط حركتها، وقوتها فى التأثير والتمييز لم تعد كما هى. فأصالة العصر لا تكمن فى ترتيب مؤسسات شفافة، ولكن فى ظهور بنى للسلطة تقل فيها قدرة الكليشيهات المتعلقة بالجنس على التسفيل ووضع التراتبية والإقصاء. فالقيادة النسائية قليلا ما تحرك أحكامًا حاسمة وعدائية؛ تلك الحركة يجب أن تتميز بتأنيث الشهادات العليا، وكذلك صعود مرجعيات المساواة والأهلقراطية. وبدلا من الإدراك المسبق المدوّن بحروف كبيرة، نجد أمامنا تمثيلات ضعيفة لم تعد تغلق، بطريقة معطلة، وصول المرأة إلى قطاعات ومواقع كانت ذكورية بشكل تقليدى، فثقافة ما بعد الحداثة تتميز بعملية تخفض من سطوة الطروحات "الجاهزة للفكر" المتعلقة بالأجناس، وتتوافق مع انطلاقة أنماط *mous*. وتحل ثقافة تفضل أكثر فأكثر شخصية الفاعلين محل عصر الإقصاء وإعادة التقسيم المتشدد القائم على الجنس. كلما قلت سطوة كليشيهات الجنس النوعى، زادت القيمة المخصصة للفردية ومواهبها، ذلك هو منحدر الأزمنة الفردانية الجديدة. هذا التحول لا يعنى إطلاقًا أن إعاقة ارتقاء المرأة نحو الدرجات الأكثر علوًا قد زالت، ولكنه يعنى أن هذه الدرجات لم تعد عصية على التجاوز، وإذا كانت مكانة النساء فى المناصب العليا يجب أن تتعرض أيضًا، طويلا، لحواجز واعية وغير واعية يقيمها الرجال، فإنها ستكون منوطة بالحوافز والأذواق وأشكال التحكيم واختيار الحياة عند النساء أنفسهن.

هذا لاسيما وأن الأنماط الجنسية تصمد فى القاعدة أكثر من صمودها فى القمة: فمهمات الأداء لا تزال متأثرة بالأنماط الجنسية أكثر من تأثرها بالوظائف العليا. وتكون دهشتنا أقل إذا رأينا سيدة فى موقع رئيس دولة أكثر من أن نراها تعمل بنّاءة أو عاملة تحديدات صحية؛ فامرأة تدير مؤسسة تكون مصدرًا للدهشة أقل من

امرأة تعمل فى طلاء المنازل؛ وطالبة فى المدرسة العليا للإدارة ENA لا تلفت النظر مثل فتاة تعد شهادة تأهيل مهنى CAP فى الكهرباء أو الميكانيكا. بلا شك يتم تمييز الاختصاصات الجامعية من خلال الفصل بين الجنسين(فالاختصاصات التقنية تكون ذات أكثرية ذكورية؛ والاختصاصات فى العلوم "الإنسانية" تكون ذات أكثرية نسائية)، ولكن بدرجة أقل منها فى التعليم المهنى. كانت الفتيات يمثلن ٥% من فعاليات مدارس الهندسة فى عام ١٩٦٨، ولكن نسبتهن وصلت إلى ١٩% فى عام ١٩٨٩ . بدأ دخول الفتيات إلى المعاقل الذكورية العليا يتبلور، مع أنه بطىء ومحدود. كلما ازدادت المداولة على الرموز واللامادية، ضعفت الأنماط؛ وكلما تأكدت مادية عملية الإنتاج، سادت الآليات الجنسوية؛ فالأنماط صارت أقل تمييزًا فى أعلى التراتبية مما فى أسفلها.

إن الصور الكارهة للنساء فى المؤسسة لن تزول، وإنما ستكبح أقل فأقل عوائق وصول النساء إلى مناصب الإدارة. ليس التطور الأكثر تكافؤًا فى العادات هو الذى يتيح هذا الافتراض فقط، وإنما المتطلبات الجديدة للإدارة الحريصة على الاحتفاظ بأصحاب المواهب. وعلى توظيف أفضل العناصر والمحافظة عليهم. إنها لازمة متكررة حالية تقول بأن المؤسسة المتفوقة لابد وأن تكون مرنة، وأن تعالج صعوبات النساء، وتزيد من تمثيلهن فى الدرجات العليا للتراتبية، وتعدّل من بنيتها، وثقافتها، وممارستها الإدارة بغية الوصول لأقصى طاقات مواردها البشرية. مؤسسات أمريكية عديدة وضعت سياسات "تمييز إيجابى"، لصالح النساء من الكوادر. وأخرى نظمت برامج لتوعية المستخدمين بضرورة محاربة الأنماط الجنسية، وتغيير الآراء والقيم، وتقليص التوترات بين الرجال والنساء. وهناك مؤسسات أخرى حبذت تنقيل النساء وتحركهن فى المناصب الوظيفية إلى مناصب عملانية كى تثرى خبرتهن، ويتاح لهن التقدم. فتظهر هنا وهناك برامج المحاسبة *mentoring programs,* accountability programs, تربط أجور المسئولين بقدرتهم على تجسيد الإعلاء من شأن النساء، فتنتشر ديناميكية لصالح تقدم المسيرة المهنية للنساء وتتناسب مع

الحاجات الجديدة للمؤسسات فى حين تكون هذه المؤسسة مضطرة لبناء شرعيتها المؤسساتية، وإلى تجميل صورتها الخارجية والداخلية، واستغلال مصادر إبداعها إلى أقصى حد.

هذه التوجهات الجديدة للمؤسسات هى بمثابة أعراض مرضية: فهى تعنى أن أنماط الجنس كنوع تظهر الآن باعتبارها تحديات إدارية، و"أكلاف خفية"، وصرامة تقف عائقًا أمام مقتضيات الاستبصار والتكيف للمؤسسة. واستطاعت لوقت طويل أنماط تراتبية الجنسين أن تتصالح مع العقلية البيروقراطية للمؤسسات الحديثة: تحصل النساء المكلفات أولا بالمسئوليات العائلية على وظائف ثانوية، وتعود مناصب القيادة الآمرة للرجال، وبالتناقض مع المثال الأعلى للتراتبية العقلانية القائمة على قواعد غير شخصية وعلى الكفاءة الوحيدة للفاعلين دون النظر فى وضعهم الجنسى كنوع، يؤكد هذا التقاسم الذى يوفر التفوق الذكورى بأنه يستطيع مع ذلك أن يكون شرعيًا من الناحية العقلية بسبب الأدوار المختلفة التى تعزى للجنسين "طبيعيًا". إن المؤسسة التى هى حيادية وأهلقراطية من حيث المبدأ، أعادت الترسيمة التقليدية لتبعية المرأة للرجل. إن تلك الحلقة وصلت إلى نهايتها، فالأنماط الجنسية تفرض نفسها باعتبارها حواجز "لاعقلانية" تتعارض مع واجب توصيل الأداء إلى الإتقان. وإذا كان التنديد بالسقف الزجاجى glass ceiling يعبر عن طفرة جديدة فى المطالبة بالمساواة، فإنها تعبر أيضًا عن الديناميكية الجديدة للعقلية الأدواتية القادرة على المنافسة، والتى راحت تسلك طريق التخلص من المبدأ "العتيق" لتراتبية الجنسين. على الأقل من حيث المبادئ، نجحت العقلية الإدارية فى إملاء قانونها على المنطق الاجتماعى للفرق بين الأدوار الجنسية.

هل نجح تزايد كبار الموظفات، والصراع ضد الأنماط الجنسية وإجراءات التمييز الإيجابى فى كسر "الحائط الزجاجى؟ لا يقين فى ذلك. أولا المكان المحدود الذى تشغله النساء فى المؤسسات، كما ذكرت روزابيت موس كانتر Rosabeth Moss Kanter لا تفسر وحدها الأنماط التى أعاقت تقدمهن: فهذه الأنماط تضرب

عميقًا فى منطق هوياتى وثقافى أكثر من كونها تقاسمًا عدديًا جديدًا للجنسين سيزيله آليًا. ثانيًا إن برامج العمل الإيجابى المكرسة لتوصيل النساء إلى مناصب الإدارة لا تشكل حلا أحاديًا لا للمؤسسة ولا للنساء أنفسهن. وتستطيع أنظمة الحصص فعلا أن تثير ضغينة الرجال وتجعل بعضًا منهم يهرب معتبرًا أنه تعرض لعقوبة ظالمة. هل ستلتزم المؤسسات بهذا النهج الذى سيتيح مبدئيًا مكافأة الأفضل بينهم؟ إنه أمر قابل للشك؛ لأن المسئولين مجبرون على احترام الأهداف الكمية، فإنهم يستطيعون دائمًا أن يشغلوا مواهب النساء الواعدات دون أن تستحق، معتبرين أن تقدمهن يعود إلى إمكانية البرنامج أكثر مما يعود إلى مؤهلاتهن الحقيقية. وفى النهاية، النساء اللواتى يستفدن من سياسات المعاملة التفضيلية لا يجدن أنفسهن فى أفضل الظروف النفسية المرتبطة بالنجاح التنظيمى، وأحيانًا يسيطر عليهن الشعور بالذنب، وامتهان الذات، ويملن إلى الاستهانة بمواهبهن والتقدير المبالغ فيه[1] لتوقعات الإدارة. هناك أسباب عديدة تدفع إلى الاعتقاد بأن الإجراءات الإرادوية التى تتخذها المؤسسة لن تكون كافية لتوصيل النساء، بأعداد كبيرة، إلى وظائف أصحاب القرار. إذا كانت مسئولية المؤسسة، فى هذا الصدد، ملزِمة، فمسئولية المرأة ليست أقل منها إلزامًا؛ فليست "النية الطيبة" للمديرين هى ما ستجعل السقف الزجاجى glass ceiling يتراجع، وإنما تصميم النساء على الغزو الهرم. فالحصص لا تخلق النخب، فقط حين تجد النساء معنى فى غزو المواقع الإدارية الأكثر علوًا، وحين ينخرطن تمامًا فى هذا الطريق، حينها فقط يبدأ "السقف الزجاجى" فى الانحسار. وعلى صعيد، الدائرة الأخيرة للسلطة، لن ينجح أى إجراء تنظيمى فى تغيير التوزيع الجنسى للأماكن، ولن يبدل إرادة المرأة – الفاعل للارتقاء بذاتها نحو الوظائف العليا.

---

(1) Carole Lamoureux et Line Cardinal, "Femmes et gestion : du success organisationnel au success psychologique", *in Prendre sa place, op. cit.*, p. 269-270 ; J. D. Yoder, « An Academic Women as a Token « , *Journal of Social Issues*, vol. XLI, n.4, 1985, p. 61-72.

وإذا كان الرجال والنساء، فى أيامنا هذه، لا يتموضعون فى مكانات متكافئة فى المنافسة على السلطة، فهذا الوضع لا ينتج عن نزعة جنسوية فى المؤسسات بقدر ما ينتج عن معايير التكيف الاجتماعى والأدوار المنزلية التى تعزو للنساء. من هنا، كما سوف نرى، فإن عدم التناظر ليس فى طريقه إلى التلاشى، ومع ذلك فالتحولات البنيوية والثقافية التى نشهدها تسمح بأن نرى عبرها إمكانية وجود ثغرة، وإن كانت ضيقة، فى القلعة الذكورية للـ glass ceiling. عصرنا هو ذلك العصر الذى تتجه فيه المؤسسات نحو فتح فرص المسيرة المهنية للنساء، والذى لم يعد فيه الرجل هو الحائز الحصرى على النفوذ المشروع، والذى لم تعد فيه الأنماط الجنسية معطلة، والذى تمتلك فيه النساء المؤهلات ذاتها للرجال، وحيث النساء تستبطن القيم التنافسية. إنها زعزعات متجلية للدرجة التى تجعل من غير المحتمل استمرارية تجميد النساء فى المستوى الأعلى للتراتبية فى تلك النسبة الضئيلة للغاية، لوقت طويل.

النساء والتمثيل السياسى

لأن النساء مستبعدات من دائرة القرار الاقتصادى، فهن أيضًا مستبعدات من عالم التمثيل السياسى. فلم يعد ضروريًا الإصرار على الموقف المحزن لفرنسا فى هذا الصدد. فمع ٥,٥% من النساء فى **الجمعية الوطنية** و٤,٩% فى مجلس الشيوخ، ضم البرلمان الفرنسى نسبة من النساء فى عام ١٩٩٦ أقل منها فى عام ١٩٤٦، وتبدو فرنسا فى آخر الصف فى القارة العجوز، حيث تجىء، على هذا الصعيد، فى المرتبة ٧٢ عالميًا بعد عددٍ من البلدان الإفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية. وبناءً على ذلك، وحتى بين الدول "النامية"، فرنسا ليست إلا استثناءً نسبيًا، فالبرلمانات لا تتألف البتة بتكافؤ مطلقًا بين الرجال والنساء. فى عام ١٩٩٣ أحصت الولايات المتحدة ١٠,٨% من النساء فى الجمعيات المنتخبة؛ وارتفعت النسبة إلى ٩,٢% فى

بريطانيا العظمى. وإلى ١٦% فى إسبانيا، وإلى ٢٠,٥% فى ألمانيا. بلدان الشمال فقط هى التى تمتعت بوضع أفضل كثيرًا، لكن فى كل مكان يسود التمثيل السلبى النسائى فى الجمعيات السياسية.

إزاء تلك المصادرة التى يمارسها الرجال على تمثيل السياسى، تتجلى الفكرة القائلة بأن عالم السياسة هو آخر المعاقل الذكورية، وهو الفضاء الأكثر عنترية، والأكثر انغلاقًا أمام النساء. تتلاقى شهادات النساء المنخرطات فى السياسة لتصنع حالة من ردود الأفعال الأبوية أو العدائية من زملائهم الذكور، وتهذيبهم المتعالى، وطريقتهم فى اعتبارهن نساءً أكثر منهن مسئولات سياسيات. وتضاف إلى هذا العوائق التى يقابلنها فى أثناء الترشح والتنصيب فى الانتخابات. وهذه التصرفات العديدة تجعل عالم السياسة أشبه بعالم "بائد"، "ومتأخر جدًا إذا ما قورن بعالم الأعمال[١]". ويعزز هذا الحكم كون النساء المديرات والنساء المنخرطات فى السياسة لا يقدّرن عالمهن الخاص بالطريقة ذاتها. فالأخيرات ينددن، بلا هوادة، بالنزعة العنترية لحزبهن. أما كبار الموظفات، الشابات، المتعلمات جيدًا، فلا يظهرن القسوة ذاتها ويصرحن بأنهن لم يلاحظن أى تصرف تمييزى إزائهن[٢]، على صعيد العمل. وفى عالم الأعمال كذلك لا ينقص النساء المديرات، اللواتى يعترفن بأن مسيرتهن المهنية لا تمثل أى اختلاف ملحوظ عن مسيرة الرجال[٣]. من هنا تأتى الفكرة القائلة بأن عالم السياسة هو الأكثر تمردًا فيما يتعلق بترقية النساء الزعيمات، وأنه سيكون الأخير فى القائمة التى تتحقق فيها الندية بين الرجال والنساء.

وجهة النظر هذه تحتمل النقاش؛ فترى جنفييف فريس Genvieve Fraisse أن النساء يمارسن السلطة المدنية بيسر أكبر من ممارستهن السلطة السياسية وأن

---

(١) قول منقول عن Mariette Sineau فى *Des femmes en politique*, Paris, Economica, 1988, p. 26.

(٢) L. E. Falkenberg, "The Perceptions of Women Working in Male Dominated Professions", *Canadian Journal of Administrative Sciences*, 5, 2, 1988, p. 77-83.

(٣) Terri A. Scandura, *Breaking the Glass Ceilling in the 1990s*, rapport cite, p.26

دخولهن الحكومة وإدراة الأعمال ليس مغلقًا أمامهن مثل التمثيل السياسى [١]. إن الوقائع لم تثبت تحديدًا هذا النوع من التقدير، حتى فى فرنسا. فما من سيدة واحدة تتولى إدارة أى من أكبر الـ ٢٠٠ شركة فرنسية. وفى الإدارات العامة لأكبر المجموعات الفرنسية تحتل النساء أقل من ٥% من المواقع، ويمارسن بالأخص مسئوليات فى مجال الاتصال، والموارد البشرية، والبحث. وفى مجالس الإدارة، يعد الوجود النسائى طفيفًا. وفعلا، فإن عالم المؤسسات الكبرى يظهر بجلاء بقاء الهيمنة الذكورية أكثر من الفضاء السياسى. فى حين يشهد التهميش السياسى للنساء بعض الاستثناءات، تكون ظاهرة السقف الزجاجى glass ceiling ظاهرة عالمية. أحيانًا ما تضع الأمم الديمقراطية نساء على رأس حكومتها؛ بينما لا يوجد ما يكافئ ذلك فى عالم الشركات الكبرى. فى السويد، تشغل النساء ٤٠% من مقاعد البرلمان وتتألف الحكومة منذ عام ١٩٤٤ من رجال ونساء على حد سواء وتكلف النساء فيها بحقائب مهمة. فى المقابل لا توجد مؤسسة كبرى واحدة فى هذه البلدان تديرها سيدة. فى النرويج، تمثل النساء ٣٥% من المنتخبين، ويشغلن أكثر من نصف المقاعد الوزارية، ولكن إدارة المجموعات الخاصة الكبرى لا تزال حصنًا ذكوريًا. فكم هو عدد النساء المديرات العامات اللواتى وصلن لمنصب رئيس ومدير عام، فى PDG مجموعة المشاريع والشركات المتعددة الجنسيات؟ أين نجد المقابل النسائى للمواطن **كين Citizen Kane**؟ وعلى العكس من الفكرة السائدة، فالنساء يصلن للسلطة السياسية أكثر مما يصلن إلى قمة عالم الأعمال، ولم يستبعدن إلا من قمة السلطة الاقتصادية، وذلك فى جميع البلدان.

وكما قلنا سابقًا، هذا الموقف لا يحظى بفرص كثيرة للبقاء فى الدولة؛ فالنساء سيكنّ لا محالة بأعداد كبيرة فى هيئة أركان الشركات وفى البرلمانات، ولكن كل شىء يشير إلى أن التقدم سيكون سريعًا ولافتًا فى الفضاء السياسى منه فى الفضاء

---

(١) Genvieve Fraisse, *Muse de la Raison : democratie et exclusion des femmes en France,* Paris, Gallimard, coll. Folio, 1995, p. 321-354.

الاقتصادى، ويرجع هذا إلى عوامل نفسية وأيديولوجية وسياسية. العوامل النفسية – وهذا للطمأنة–: ليس موضوع هذا الكتاب رد الاعتبار لأيديولوجية "الطبيعة النسائية"، ولكن فقط أخذ بعض النتائج السياسية لظواهر يمكن ملاحظتها فى ثقافة وزمن معينين. وعلى الصعيد الذى يهمنا هنا، فإن غالبية شهادات نساء السياسة تتلاقى: فهن لا يمتلكن نفس الدوافع التى يمتلكها زملاؤهن الرجال، فليس لديهن العلاقة نفسها بالسلطة السياسية. تلك الاختلافات طالما تم وصفها: فنساء السياسة أكثر براجماتية وأقل اهتمامًا بالمناصب من الرجال وأقل افتتانًا منهم بألاعيب السلطة، وأقل انشغالا بالحصول على مناصب من نقل أفكارهن وتحقيق تقدم ملموس[1]. هذا لا يعنى أن النساء بلا طموح، ولكنه يعنى بالأحرى أن طموحهن يتعلق أكثر بإرادة الوصول وليس بالحصول على "مواقع" وتكريمات: فالسلطة تعتبر وسيلة أكثر منها غاية فى حد ذاتها.

إذا كان ولع السلطة من أجل السلطة ليس هو ما يحرك غالبية النساء الزعيمات، فمن الممكن الافتراض أن النساء سيُظهرن، فى المستقبل، مزيدًا من الميل نحو الاحتفاظ بمواقع المسئولية السياسية التى تمارس لخدمة الصالح العام، أكثر منها للانخراط فى صراعات من أجل الدائرة الأخيرة فى المؤسسات، خاصة تلك التى تحمل قدرًا أقل من المثال الأعلى. فكلما تقلصت مسئوليات المدير فى الحياة الخاصة بشكل ملحوظ، استطعنا القيام برهان كبير على أن النساء سيتقبلن بشكل أفضل تلك "التضحية" باسم الأسباب التى تحمل معنى التقدم "من أجل الآخرين" أكثر من الوظائف التى تحمل تذوّق النفوذ من أجل النفوذ. ومهما كانت وعورة السباق نحو المناصب، ومهما كانت السيطرة الذكورية التى تسود عالم السياسة، فلهذا العالم فرص يحرك فيها انخراط النساء أكثر مما تفعله المنافسة على قمة الشركات الكبرى.

---

(1) Mariette Sineau, *Des femmes en politique, op. cit.*, 3 ; Evelyne Tardy, « Regards critiques de militantes sur des organisations syndicales et politiques », in *Prendre sa place, op. cit.*,p. 293-340 ; Francoise Giroud, *La Comedie du pouvoir*, Paris, Fayard, 1977 ; وحديثًا Elisabeth Guigou, *Etre femme en politique*, Paris, Plon, 1997, p. 150-160.

الفضاء السياسي والحياة الاقتصادية للمجموعات الكبرى ستتيح غدًا مكانًا أكثر اتساعًا للنساء، ولكنه سيكون مجالا أبطأ للتقدم، وذلك لا يرجع إلى مقاومة ذات نزعة ذكورية بقدر ما يرجع إلى وجل نسائى أقل، ولا إلى انسحاب نسبى من الوظائف التى تتغلب فيها القدرة كثيرًا على منطق المعنى.

هناك ظواهر أخرى تؤدى إلى النتيجة ذاتها. فقد ظهر حدث جديد فى المجتمعات الغربية: التمثيل الضعيف للنساء فى الأحزاب السياسية أصبح أمرًا شائنًا، وشيئًا مثيرًا للجدل وللتنديدات الصاخبة. فحين يعلن العدد الأكبر ترحيبه بالأفعال الإراداوية من أجل الارتقاء بالنساء إلى الحياة السياسية، تجد الأحزاب نفسها مرغمة بشكل أو بآخر، وبصورة إجبارية، على اقتراح إجراءات لتغيير هذا الموقف الصادم. لا شيء من هذا القبيل فيما يخص السقف الزجاجى glass ceiling. فالظاهرة تستمر دون إثارة عواصف، فقط بعض العبارات المهدئة للمسئولين الاقتصاديين الكبار تؤكد أن الأمر سيتغير عما قريب. جدل جماهيرى كبير حول تكافؤ الجنسين فى السياسة؛ وصمت حول غياب النساء عن هيئة أركان الشركات الكبرى: إنه لتناقض صارخ يصب فى مصلحة النساء اللواتى انخرطن فى الحياة السياسية، ولأن الأحزاب السياسية لابد أن تخضع لحكم صناديق الاقتراع، ولأنه لا يمكن تجاهل المطالب المنادية بمجتمع مدنى، يتعين تأكيد الإعلاء من شأن النساء بطريقة أسرع وأكثر فاعلية مما هو الحال فى عالم المجموعات الخاصة الكبرى، لأنها تخضع بشكل مخفف للضغوط الأيديولوجية والجماعية.

يضاف إلى هذا فكر نسوى جديد. إذا كانت النساء، فى أيامنا هذه، فى فرنسا، يوجدن بأعداد قليلة فى الجمعيات التمثيلية، فذلك لا يرجع فقط إلى احتكار ذكورى تقليدى للحياة العامة، وإنما أيضًا، وبأقل تقدير، إلى سلوكيات النسوية الجديدة التى مع انشغالها بالمشكلات المتعلقة بحقوق النساء فى الحياة الخاصة، لم تطالب بالمشاركة فى السلطة، معتبرة إياها ساحة قذرة، وتتميز بطابع الهيمنة والضغط الأبوى. هذا العصر قد تم تجاوزه: لقد حان وقت الكفاح النسوى لأجل التكافؤ بين

الرجال والنساء في مجال السياسة. هذا التغير السلوكي ذو تأثير على مكانة النساء في الحياة العامة، فستكون نسبة النساء في الفضاء السياسي أكبر في المستقبل، ليس فقط بسبب زوال القيم الذكورية، ولكن لأن النساء يكافحن الآن لأجل هذا الهدف. لا نلاحظ أي مطالبات جماعية مشابهة تستهدف النخبة الاقتصادية: ذلك أن الربح هو من جديد لصالح الفضاء السياسي.

الندية والمرأة الثالثة

إنه موقف جديد؛ فلم يعد مقبولا اليوم أن يسيطر الرجال على الساحة السياسية. فالمثال الديمقراطي الأعلى قد أدى مهمته، فأغلبية ساحقة من المواطنين تتمنى بشدة مشاركة النساء في القرارات المهمة للشأن العام. يبقى سؤال واحد جوهري حول هذا الشأن الخلافي في بلدنا: وهو كيف نحقق الإعلاء من شأن النساء في الحياة السياسية؟ أيجب إعادة النظر في الدستور، وإدراج الندية في القانون الانتخابي، وتحديد كوتة إجبارية، أم يتعين رفض ما يبدو كمخالفة لتقليد التكافؤ في الحقوق؟ طرحت اعتراضات واسعة ضد المطالب السياسية لنزعة التمايز النسوية(١). وسنجعلها لنا، لأننا متعلقون بفكرة وحدة الجنس البشري باعتبارها أساسًا للمواطنة الحديثة، وللنزعة العالمية لإرساء قاعدة الحقوق. فالندية أمر منشود، أما الندية في الحقوق فليست كذلك. هل نفرض عددًا متساويًا من الرجال والنساء في الجمعيات المنتخبة؟ لماذا في هذه الحالة لا نفرض عما قريب تطبيق المبدأ ذاته للجماعات الأخرى وفي القطاعات الأخرى من الحياة الاجتماعية، وفي جميع المهن وكل الدرجات؟ وكيف نتبنى إجراء ينظم مسبقًا توزيع النخبة السياسية للأمة؟ إن فرز النخب في مجتمع ديمقراطي يرتكز على الموهبة، والمنافسة، والتكافؤ الأهلقراطي، وليس على الانتماء لجماعة أو نوع، وإذا لم نستطع توقع نخب سياسية قادرة على الكفاح وتحمل الأعباء، فعلى من نعول في ذلك؟

(١) Evelyne Pisier, "Universite contre parite", Le Monde, 8 fevrier 1995 ; Elisabeth Badinter, "Non aux quotas des femmes", *Le Monde*, 12juin 1996.

وماذا ستكون صورة المنتخبات اللواتى لهن موقف ناتج عن نوع من "العائد" المرتبط بالنوع، وعن نظام من التأكيد والحماية؟ ستسمح الحصص بمشاركة عدد أكبر من النساء فى الجمعيات السياسية، إلا أنها لن تفيد فى قهقرة أنماط المرأة المغلوبة على أمرها التى تحتاج إلى الحماية. وسيواجه عدم المساواة فى تصورات النوعين نفسًا جديدًا، باسم المساواة. وهناك عدد من النساء يرين أن عدم قدرة النساء على فرض أنفسهن بأنفسهن على المشهد السياسى أمرًا يحط من شأنه، لا بل أمرًا مخزيًا، وهو بالطبع وضع له أسبابه. وفى عصر نشهد فيه إصرارًا على أهمية تقدير الذات والاعتراف بها، تأتى المطالب النسوية الجديدة لتعيد رسم صورة الإناث كـ "جنس ضعيف"، وهى صورة لا تتلاءم كثيرًا مع الاعتراف المتكافئ للجنسين، ومع انطلاقة وعى هوياتى جديد، وتراجع للأنماط الجنسية.

مهما يكن من أمر، أصبح التهميش السياسى للنساء صادمًا، وغير مقبول، وعتيقًا لأنه يبدو غير متواكب مع تطور المجتمع المدنى. وكى نصحح هذا الوضع دون الوقوع فى شرك النزعة التمايزية، فإن أنصار التقاليد الجمهورية يقترحون ألا تكون الندية مبدأ دستوريًا وإنما إجراءً استثنائيًا محدود المدة[1]، ومن هذا المنطلق، فلم يعد المشروع التكافؤى يصطدم فعلا بالأساس العالمى. هذا التنوية بأننا لا نرى نوع الحكومة التى ستتحلى بالشجاعة السياسية، فى غضون عشر سنوات، لتصدر مرسومًا بإلغاء الحصص التى سبق وأقرت، ذلك أن قانون الاستثناء سيصبح القاعدة المعمول بها. وإذا كان المراد هو تقاسم السلطة السياسية بين الجنسين، فربما يتعين البدء بالتصدى لهذا الاستثناء الفرنسى المتمثل فى تعدد المناصب، والذى يعد الرجال هم المستفيدون منه. والمطلوب هو وضع حد فاصل للمدد والوظائف: وسيكون للقانون الفضل فى تحرير المواقع التى كانت حكرًا على الرجال دون إنكار للأساس العالمى للجمهورية ودون اعتبار النساء المنتخبات منتخبات من الدرجة الثانية.

---

(1) Olivier Duhamel, "Guerir lr male par le mal », *L'Express*, 6 juin 1996.

إن الندية الملزمة تشكل تراجعًا طبيعيًا لفكرة المواطنة الحديثة، وهى لا تفرق بين رجل وامرأة، ولا بين أسود وأبيض، وإنما تركز على الكائن البشرى بذاته، بغض النظر عن خصوصياته. ويجب الإضافة أن هذا التراجع القانونى الفلسفى يتواكب مع تراجع هوياتى بدرجة ما واجتماعى وتاريخى. إن الندية فى سياسة الكوتة تعنى فعلا إعادة تعريف النساء كجماعة، وإدراجهن كفئة يتحدد مكانها مبدئيًا من خلال التنظيم السياسى. وبكلام آخر، المبدأ التقليدى للتحديد المسبق من خلال المجتمع يتجلى عندما ينتشر نموذج المرأة الثالثة وفقًا لمنطق الخلبية الاجتماعية والهوياتية. فالمجتمع المدنى خرج، بشكل أو بآخر، من العالم القائم على نظام التحديد الجماعى، والديمقراطية الندية تعيدنا إليه مرة أخرى، حتى ولو حصل ذلك باسم المساواة بين الجنسين. إن نظام الكوتة والندية يعيد التمايز بين الجنسين إلى حيز الواقع، وينقل الصورة القديمة للمرأة "المحمية" التى تكون على النقيض من نموذج المرأة الثالثة القائم على المنطق المفتوح على عدم التعريف الهوياتى والمتعلق بالإنتاج الذاتى للنفس؛ إنها ندية مفروضة أو طريقة نعيد بها إنتاج "تأخر" الشأن السياسى بالنسبة للمجتمع المدنى.

(٢)

السلطة أو العودة الأبدية للمذكر

لا نجازف كثيرًا إذا أكدنا أن النساء سيشغلن عددًا أكبر من مواقع المسئولية العليا مستقبلا، والموقف الراهن يتميز بانفصال كبير بين مؤهلات النساء وبين موقعهن في التراتبية، حيث يكون التقدم نحو القمة أمرًا حتميًا، ولكن ذلك يغفل الاتساع الذى ستبلغه الظاهرة. أينبغى توقع قفزة كبيرة نحو الأمام، قفزة منتظمة وقادرة على زعزعة التفوق الذكورى أم توقع تقدم بطيء ومحدود في المحصلة؟ عند تحليل الأسباب الجوهرية التى تفسر تباين المواقع بين الرجال والنساء فى مراكز اتخاذ القرار داخل المنظمات الكبرى، هناك سيناريو يتغلب على باقى السيناريوهات الأخرى، وهو سيناريو يقتضى تخفيف حدة بعض الطروحات التى تبشر بانتصار تأنيث السلطة.

نجاح خاص فى مقابل نجاح عام

المهنة النسائية والحياة العائلية

أشرنا كثيرًا إلى الآثار المعيقة للزواج والأمومة على المهن النسائية. فأن تكون المرأة زوجة وأمًا هذا له ثمن على الصعيد المهنى. ففى كل مكان نلاحظ أن النساء المتزوجات ينتفعن من شهاداتهن العليا منافع مهنية أقل من النساء العازبات، ويشغلن فى كل مكان مواقع الإدارة العليا أقل من النساء العازبات. ففى الولايات المتحدة، هناك ٧٠% من المديرات هن نساء عازبات، وبين أعضاء المعهد البريطانى للإدارة British Institute of Management هناك ٩٣% من الرجال متزوجون، مقابل ٥٨% من النساء، ويزيد الإنجاب من صعوبة بلوغ المرأة الدرجات العليا فى التراتبية؛

إذ نجد فى الولايات المتحدة أن ٩٠% من الرجال، فى مواقع الإدارة العليا، لديهم أطفال، فى مقابل ٣٥% فقط من النساء. كلما ازداد عدد أولاد المرأة، عوقبت فى مهنتها؛ وفى حالة التعليم المتكافئ، فإن متوسط راتب النساء المتزوجات واللواتى رزقن بأولاد عديدين هو أقل مما عند النساء المتزوجات دون أطفال[١].

بلا شك استنكرت بعض الدراسات الآثار السلبية للزواج والأطفال على مستوى راتب النساء فى الإدارة العليا[٢].وفى الكيبيك، تذكر دراسات أخرى أن النساء اللواتى يشغلن مواقع الإدارة العليا فى الجهاز الإدارى للدولة لديهن مؤشرات زواج وخصوبة أعلى من مؤشرات متوسط السكان[٣]. غير أن، تلك المعطيات لا تلغى فكرة الإعاقة النسائية بسبب الأعباء العائلية. ففترات التوقف الوظيفى بسبب الأمومة، والوقت المخصص للأطفال وللأعباء المنزلية، والمجهود الذهنى المتعلق بمسئوليات الأمومة يؤثر سلبًا على تقدم المهنة لدى النساء. وبما أن النساء ممزقات بين مسئولية الأم ومسئوليتها المهنية، فإنهن يضعن حدًا لمشروعاتهن المهنية، ويتبنين إستراتيجيات تسوية تلغى نصف قدرتهن على التحرك، والجاهزية مقارنة بالرجال، كما تجعلهن أقل وجودًا فى موقع العمل[٤]، وأقل سعيًا وراء المناصب العليا داخل المنظمات. يرجع التمثيل المنقوص للنساء فى القمة إلى رغبتهن فى إيجاد توازن بين الحياة العائلية والحياة المهنية، قبل أن يكون ذلك ناجمًا عن الحاجز المعادى للنساء.

كلما تعهد للنساء الأولوية فى المسئوليات العائلية، ضعفت احتمالية تحقيق ندية بين الرجال والنساء فى مستويات الإدارة للمنظمات الاقتصادية الكبرى. هل تمت

---

(١) Francois de Singly, *Fortune et infortune..., op. cit.*, p. 65-76.

(٢) Mary Ann Devanna, *Male/Female Careers...*, rapport cite

(٣) Sylvie Paquerot, "Les femmes cadres dans la function publique du Quebec", *Actes du colloque "Tout savoir sur les femmes cadres d'ici"*, Montreal, Les Presses HEC, 1988, p. 243-256.

(٤) خريجات المدارس العليا للتجارة والهندسة يعملن بمتوسط ثلاث وأربعين ساعة عمل ونصف فى الأسبوع حين يرزقن بأطفال، فى مقابل تسع وأربعين ساعة للرجال. (استفتاء Le Monde/Media PA, *LeMonde*, 16 juin 1993).

تحولات عميقة فى تقاسم المهام المنزلية وفقًا للجنس؟ إطلاقًا لا. إن ديناميكية ما بعد الحداثة لتحرر النساء لا تعنى تحقيق تجانس فى الأدوار بين الجنسين، وإنما بقاء للدور الأولوى للمرأة فى الفضاء المنزلى متماشيًا مع المتطلبات الجديدة للاستقلالية الفردية. ويشير كل شىء إلى أن النساء مستمرات الآن ومستقبلا فى الاحتفاظ بالمكانة المهيمنة فى الفضاء العائلى. سبق وتناولنا أن فى التطلعات الجديدة للنساء فى مجتمعاتنا، لا تلغى مسئولياتهن المنزلية التقليدية. هناك أدوار جديدة وأخرى "قديمة" تتعايش سويًا، وذلك لأن الاستثمار النسائى فى الشأن العائلى يصاحبه استقلالية ومعنى وسلطة وحميمية علائقية. إن الوضع السائد لدى المرأة فى قلب المجموعة المنزلية مُؤهلة للبقاء؛ لأنها صارت متوافقة مع مرجعيات الفردانية. وفى ظل هذه الظروف، فإن عدم التكافؤ بين الرجال والنساء فى الدرجات الوظيفية العليا فى عالم الاقتصاد ليس على وشك الزوال.

بلا شك قد تسمح الحضانات والإعانات العائلية والعمالة المنزلية لكبار الموظفات بالالتزام المكثف بتقدم فى المهنة، يضاف إلى ذلك أن المؤسسات وضعت سياسات اجتماعية لمساعدة النساء على التوفيق بين متطلبات العمل والعائلة (مراكز رعاية للأطفال، وخدمات عاجلة للأطفال المرضى، وعمل مشترك). ونشك فى قدرة تلك الإجراءات، حتى وإن تعززت، على إزالة العائق الذى تمثله المسئوليات العائلية، وعلى خلاف الرجال، فالارتباط الكامل للنساء فى المهنة يكون- على الأقل جزئيًا- على حساب دورهن العائلى. فالقيادة عند الذكور لا تتطلب أى تضحية بدور الأب؛ أما مثيله عند النساء فتصاحبه صراعات وشعور بالذنب إزاء دورهن كأمهات. كيف نتخيل، فى ظل هذه الظروف، تحقيق منافسة على قدم المساواة بين الرجال والنساء؟ فالغلبة للرجال، وستدوم لأجيال عدة، إذا بقى الاستثمار فى الفضاء المنزلى يميز الإناث أكثر من الذكور.

انغلاق المرأة فى الدور العائلى مهم جدًا لدرجة أنها تحرمها من المواقع الإستراتيجية، فالنساء اللواتى لديهن أطفال لا يتعلقن كثيرًا بفرصهن فى الترقى،

ويظهرن أقل رغبة فى تغيير المؤسسة التى يعملن بها، وأقل جرأة من اللواتى ليس لديهن أطفال يتحملن مسئوليتهم[١]. وبسبب مسؤلية المديرات المزدوجة، فهن يتركن المؤسسات بنسبة أعلى من نسبة الرجال، ويخترن ممارسة مهنتهن على مسئوليتهن ومن المنزل[٢]، بهدف تأكيد دورهن كأمهات وكنساء عاملات بشكل يميزه الانسجام. وإذا كانت النساء هن السبب فظهور عدد كبير من المؤسسات، إلا أنهن يبقين أصحاب أعمال صغيرات ذوات عوائد متواضعة ولا يتمنين، فى أغلب الأحيان، أن يشهدن تطورًا كبيرًا فى مؤسساتهن. إن تفجر الإدارة النسائية لا يعنى بحثًا عن السلطة بقدر ما يعنى رغبة فى الاستقلال، واليسر المادى والتحقق الشخصى، وتحكمًا أفضل فى الدوام، وطريقة جديدة للتوفيق بين الحياة المهنية والحياة العائلية[٣]: فى الولايات المتحدة الأمريكية، نصف المشروعات التى تديرها وتمتلكها نساء يكون مقرها فى المسكن. وإذا صار للنساء استثمار مهنى قوى، فإن رغبتهن فى ضبط الشأن العائلى والشأن المهنى تبدو باعتبارها اتجاهًا أكثر عمقًا من هوس المهنة والسلطة.

نجاح اجتماعى ونجاح عاطفى

إن قيود وأدوار الحياة العائلية ليست السبب الوحيد لعدم تقدم النساء نحو المستويات الأعلى فى المنظمات. فالمعايير التى تحكم علاقة كلٍ من الجنسين بالطموح الاجتماعى، وبالنجاح الاقتصادى والمهنى، تلعب دورًا من الطراز الأول. ومن المعروف أن السلطة لا تختزل فى وظيفة تراتبية عليا، وإنما هى رغبة إنسانية،

---

(١) Terri A. Scandura, *Breaking the Glass Ceiling in the 1990s*, rapport cite, p. 32.

(٢) Marie-Francoise Marchis-Mouren , Francine Harel Giasson, "Faire carriere autrement : quitter l'organisation pour se lancer a son compte", in *prendre sa place, op. cit.*, p. 119-145.

(٣) Helene Lee-Gosselin , Monica Belcourt, " Les femmes entrepreneuse", art. cite, p. 60-61 , p. 77-79.

وصفت التراث الفلسفى منذ القدم على أنها *شهوة مسيطرة* *libido dominandi*، وولع بالمجد، ورغبة فى تملك أشكال التكريم والشهرة. من المؤكد أن الاحتياج إلى العظمة والإكبار الاجتماعى ليست حصرية عند الذكور، ولكن الرجال والنساء، فى المجتمعات البشرية وفى مجتمعاتنا أيضًا، لا" يقدمون" بنفس الطريقة على الانخراط فى سباق الألقاب والأوضاع القانونية، والمنافسة على النفوذ الاجتماعى لا تتسم بالصورة ذاتها عند الذكور والإناث. إن أنظمة التثمين الممايزة والمتعلقة بالنجاح الاجتماعى هى التى تتضمن التفاوت بين الجنسين فى "مصائر" السلطة.

بعد عقود عدة من الهجوم النسوى على السلطة القضيبية، يبدو النجاح المهنى والمادى دائمًا أكثر إيجابية وأكثر تثمينًا، ويضفى قيمة عند الرجال أكثر منه عند النساء. فأن يكون وضع الزوج الاجتماعى أعلى من وضع زوجته لهو أمر طبيعى، بينما العكس ليس بديهيًا، وتذهب التوقعات المتعلقة بالزواج فى الطريق ذاته: فالرغبة فى الزواج من رجل ثرى هى أكثر انتشارًا، وتحظى بشرعية اجتماعية أكثر من التزوج بامرأة ثرية. فى الوقت ذاته يثمن كبار الموظفين من الرجال الرواتب المرتفعة والأهداف المهنية ذات المدى الطويل وفرص التقدم أكثر من النساء؛ بينما تفضل النساء كثيرًا عملا مثريًا فى محتواه، إلى جانب نوعية بيئة العمل، والمناخ العام، والعلاقات بين الزملاء[1]. أجل، أظهرت دراسات عدة، أن تشابه الدوافع بين كبار الموظفين والموظفات تغلب على الفروق بينهم. بقى القول إن النفوذ الأكبر الناتج عن النجاح الاجتماعى للرجال غالبًا ما يدفعهم إلى إعطاء قيمة أكبر للدوافع الظاهرية فى العمل مثل (الوضع القانونى، الراتب) بشكل أكبر مما تفعل النساء.

---

(1) Jean-Marie Toulouse , Robert Latour, "Valeurs, motivation au travail et satisfaction des femmes gestionnaires", in "Tout savoir sur les femmes cadres d'ici", colloque cite, p. 123-137 ; O. Brenner, A. Blazini, J. Greenhaus, « An Examination of Race and Sex Differences in Managerial Work Value », *Journal of Vocational Behavior,* 32, 1988, p. 336-344.

استمر تقدير النجاح اجتماعيًا وفقًا لمنطق يتعلق بالجنس كنوع. توجه ملامات خافتة إلى الاستثمار الذكورى المفرط فى الفضاء المهنى؛ وتتناول الانتقادات الموجهة إلى النساء الضرر الذى يحمله طموحهن المهنى لتحقيق توازن فى الزواج وتعليم الأطفال. وغالبًا ما يعتبر نجاح الإناث قيمة خاصة فى المقام الأول، وفيما يعرف المراهقون الحياة الناجحة من خلال النجاح الاجتماعى، فإن المراهقات يميل معظمهن إلى *النجاح العاطفى*[1]. وكما يولى الآباء أهمية كبرى للمستقبل السعيد عاطفيًا وعائليًا لبناتهن أكثر من نجاحهن المادى، فإنهم يعززون الطموح المهنى لأبنائهم أكثر من بناتهم؛ فهم يتمنون لهن عملا لطيفًا يتوافق مع أمومتهن، ويتمنون لأبنائهم أمانًا فى العمل ومستقبلا زاهرًا فى الوظيفة. وتقبع وراء ثقافة المساواة حالة من التباين فى التوقعات والأدوار لكلا الجنسين، وانفصالا تقليديًا بين رجل للشأن العام/وامرأة للشأن الخاص.

ما من أى احتقار. إن العصر الذى كان يقصر النساء على الفضاء المنزلى ويفصلها عن المجتمع السياسى قد ولّى تمامًا، ولكن تلك التحولات الهائلة لا تعنى إطلاقًا إمكانية تبادلية بين الجنسين إزاء ثنائية الخاص/العام. ومع الوضع الجديد يستمر القديم، فإذا كان الفصل الجنسى بين الخاص/العام لم يعد بارزًا، فإنه لم يكف مع ذلك عن أن يحكم عددًا من التطلعات والسلوكيات بين الجنسين. فى الحقيقة، لا تزال النساء يسيطرن على الحياة العائلية، والحميمية، والعلائقية؛ بينما يفضل الرجال الوضع القانونى، والدور المهنى، والسلطة، والنجاح. فى الظاهر، كسبنا بسبب عكس الأدوار بين الجنسين؛ وفى الحقيقة، ظل التقسيم الجنسى للأدوار الخاصة والعامة على حاله، حتى وإن كان من خلال نمط جديد، ملطف ومفتوح، ودون تخصيص حصرى.

---

(1) Bianca Zazzo, *Feminin-masculin a l'ecole et ailleurs,* Paris, PUF, 1993, p. 175.

كما يتضح هذا التباين من خلال المشروعات، والطموحات والتطلعات المهنية لدى الجنسين، فمن المعروف أن النساء عادة ما يطرحن مشاريع مهنية أقل طموحًا من الرجال، ويندفعن بتلقائية أقل منهم فى الدرجات العليا للمنظمات. واعتبارًا من نهاية الدراسات الثانوية غالبًا ما تختار الفتيات أكثر من الفتية مهنًا ذات وضع اجتماعى متواضع نسبيًا[١]. كذلك فإن طالبات مدارس التجارة أو الهندسة يكن أقل عددًا من زملائهن الذكور فى تصور أنفسهن رئيسة ومديرة عامة P-DG، أو فى التفكير فى إنشاء مؤسساتهن[٢]. وفى الشركات الكبرى، تبدى كبار الموظفات ميلا أقل نحو اختراق مواقع الدائرة العليا[٣]. ذلك لا يعنى بالطبع أن النساء يفتقرن إلى الطموح الاجتماعى والمهنى، ولكن هذا الطموح يستثمر فى أنهن عازمات على خوض المنافسة المهنية، وفى مجال نوعى ونادر جدًا فى المشروعات "السياسية" التى تتطلب قدرة كبرى. عند كبار الموظفات، يبدو الطموح المهنى تعويضًا، ومتنفسًا لعدم الرضى فى الحياة الخاصة أكثر من كونه نموذج حياة ومشروعًا وجوديًا أوليًا[٤]. تهدف التطلعات المهنية النسائية، فى الواقع، إلى المساواة بالرجال[٥] أكثر من استهدافها للعظمة والنفوذ والسيطرة المفرطة. إن الأنماط الجنسية، وتفوق النجاح الخاص على النجاح العام لها أكبر الأثر على الحد من سقف الطموحات النسائية، وعلى ثنيهن عن المشروعات الجبارة والتسلط على الآخرين. تميل النساء اجتماعيًا إلى إعطاء الأولوية إلى القيم الخاصة، فلا يجدن أنفسهن فى البحث عن السلطة،

(١) Marie Duru-Bellat, *L'ecole des filles, op. cit.*, p. 88.

(٢) Sondage *Le Point,* 25 avril 1992.

(٣) Nicole Aubert, *Le Pouvoir usurpe? Femmes et hommes dans l'entreprise,* Paris, Laffont, 1982.

(٤) Ibid., p. 193-195. ولنتذكر العبارة الشهيرة لـ Germaine de Stael التى تقول:" المجد ربما لا يأتى للمرأة إلا كمأتم براق من السعادة".

(٥) Jacqueline Huppert-Laufer, *La Feminite neutralisee?,* Paris, Flammarion, 1982.

ولكن هناك بعض الاستثناءات؛ فالقدرة من أجل القدرة لا تتمكن من فرض نفسها كغاية وجودية عميقة.

ولهذا فلا يمكن الأخذ بالنظريات التى ترى "الخوف من النجاح" كمبدأ يفسر توقف النساء عند عتبة محافل القيادة، وتستطيع العبارة الشهيرة الخوف من النجاح *fear of success*[1]، التى تقدم كملمح لشخصية النساء أن تؤسس بلا أدنى شك لعائق أساسى لطموحهن المهنى، ما دامت التراتبية الذكورية تقدم كبديهية، وما دام النجاح النسائى يوجد أشكالا من الرفض الاجتماعى وصراعات على الأدوار لا يمكن تجاوزها، ولكننا لم نعد فى هذه المرحلة. فقد ولّى الزمن الذى كان ينبغى فيه على الفتيات أن "يلغين أنفسهن"، ويتخلين عن الدراسات العليا الطويلة وعن مواقع المسئولية. لم يعد النجاح النسائى يتعرض للنبذ الاجتماعى، حتى وإن صاحبته بعض التحفظات، ويجب تحليل الخوف النسائى من النجاح لا كمعطى دائم، بل كأثر نفسى لثقافة بدأت تنحسر. وفى أيامنا هذه، لا تخشى النساء من النجاح: لا يتمتعن بالدوافع الاجتماعية ذاتها التى يتمتع بها الرجال لارتقاء القمة. لم يعد العائق النفسى هو ما يبعد النساء عن السلطة، وإنما الحافز الاجتماعى الصغير على الساحة العامة، والتكيف الاجتماعى الذى يثمن كثيرًا النجاح الخاص على النجاح التنظيمى، والتعزيز العلائقى على السيطرة التراتبية.

وإذا لم تبد النساء كثيرًا من التصميم على اعتلاء الدرجات القصوى فى المنظمات، فإنهن ينظرن نظرة نقدية أيضًا على سباق المناصب والتكريمات، وحول النزعة المتعلقة بالمهنة واقتناص الفرص، وتلك النزعة تتحكم بالجنس القوى. لا يمكن الفصل بين تلك المسافة التى تبعد النساء عن صراعات السلطة وبين محيط اجتماعى ذى هيمنة "خاصة"، ومتمحور حول القيم العلائقية والشعورية. إن التوجه نحو الشخصيات الذى يشكل المحيط الاجتماعى النسائى يجعل النساء تقاوم

---

(1) Matina S. Horner, "Toward an Understanding of Achievement-Related Conflicts in Women" *Journal of Social Issues*, vol. 28, 2, 1972.

الصراعات على المنصب والسلطة، كما يفرغ البحث عن السلطة من أجل السلطة من *المعنى الوجودى*، ويدفع بالنساء إلى مواجهة التضحية بمهنتهن إذا تعارضت مع حياتهن العائلية، على عكس الرجال. إن ثنائية رجل للشأن العام/ امرأة للشأن الخاص تعمل كآلة تبث المعنى فى البحث عن السلطة بالنسبة للبعض، وتخلصه من المعنى بالنسبة للبعض الآخر، وحين يتماهى المعنى الوجودى أولا مع نوعية الصلات بين الأشخاص، حينها يكون إنشاء إمبراطورية صناعية، وتأسيس مجموعة رائدة على مستوى العالم، والارتقاء إلى دائرة كبار القادة تفرض نفسها بصعوبة كمثل عليا أولى: وكى لا تكون رغبة القدرة مجهولة فإنها تخلو من معنى عميق، وترتبط بأسلوب حياة أحادى البعد، ومسيطر، ودون علاقة بالعاطفة، ولا يرجع عدم افتتان النساء بممارسة السلطة إلى أن النجاح الاجتماعى أقل نفوذًا من النجاح الذكورى فقط، وإنما لأن تكيفهن الاجتماعى قائم على قطب "تعبيرى" للشخصية يؤدى بهن إلى الحكم بتفاهة التزام الذات بمشروعات السيطرة والقدرة. حتى وإن استطاعت الصور السلبية الغزيرة عن تصارع النساء، أن تفسر جزئيًا الرقابة الذاتية النسائية إزاء السعى وراء السلطة، يبقى الأساس فى مكان آخر. وقبل أن تسبب العلاقة التى تبعد النساء عن السلطة حواجز نفسية (نزاعات فى الأدوار، خوف من إثبات الشخصية، صور جردت من الأنوثة)، فإنها تبدو ناجمة عن *انغلاق فى المعنى*، وتضخم فى القيم الخاصة والاتصالية والتعبيرية التى تحط من المعنى الوجودى للهيمنة المؤسساتية.

ولنحذر كثيرًا من تأويل الصعوبة التى تقابلها النساء فى تصور أنفسهن على رأس المنظمات من خلال ضوء مبهر نفسى، ويحلل ويبرز النير الأوديبى الدافع النسائى نحو السلطة باعتباره "فعلا مستحيلا وواحدًا من المحرمات التى لا يمكن تجاوزها[١]". فالنظرية، هنا، لم تعد مرحلة مع المصير التاريخى. و"المستحيل" المزعوم حصل فعلا، وها نحن فى زمن نقد السقف الزجاجى glass ceiling والاحتياجات النسوية للندية بين الجنسين فى الجمعيات السياسية. كيف نوفق بين تلك

(١) Nicole Aubert, *Le pouvoir usurpe?..., op. cit.*, p. 234.

العملية التاريخية للشرعنة والمطالبة بالسلطة من قبل النساء وبين اقتصاد اللاوعى والقضيب وأوديب، ومما تفصلها عنهن أنطولوجيًا، من حيث المبدأ؟ يتعين علينا التخلى عن البعد الميتاسيكولوجى غير القادر على تفسير عدد من التحولات الجارية. فإذا كانت النساء، فى أيامنا، يرين أنهن يمسكن نادرًا بالسلطة العليا، فذلك ليس إطلاقًا بسبب "محرمات السلطة الأبوية" التى تعتبر مقدسة ومنيعة، ولكن بسبب معايير اجتماعية – تاريخية تثمن استثمار الأنا النسائية فى الأبعاد الخاصة للوجود. ومنذئذ تبدأ أبواب السلطة بالانفراج كما لم تعد الموانع لعبور النساء نحو مواقع صناعة القرار مطلقة. بقى أن التعيين الأولى للنساء فى القطب الخاص من الحياة، والذى يستمر فى صرف النساء، بتأثير نزعوى، عن البحث عن المستويات العليا فى التراتبية.

إن التقسيم القائل بنساء للشأن الخاص/ رجال للشأن العام لا يزال يستهين بطريقة أخرى بالنساء فى منافستهن مع رجال السلطة؛ فكل موقع من مواقع السلطة يقتضى اختيارات صعبة، وتحديات ومخاطر. بالتأكيد نتحدث عن مخاطر محسوبة. بقى أن الفكر التعهدى لا يمكن أن يتخلص من روح الجرأة والمغامرة، وحب التحدى، وإرادة الرابح و"اللاعب". ويمكن أن نتساءل، مع أخذنا بعين الاعتبار الأنظمة الممايزة للتثمين الاجتماعى، إذا كان الرجال والنساء يواجهون هذا البعد من الفعل والقرار على قدم المساواة. وقد لاحظت تحليلات عدة هذا الأمر منذ وقت طويل: فالمدراء والمديرات لا يتبنون، كما يبدو، المنهج ذاته إزاء المخاطر[1]، فإذا كان الرجال منقسمين أمام قيمة المخاطرة، يبدو على النساء أنهن يمتلكن صورة سلبية جدًا، ويفسرن الأمر كإمكانية فشل أكثر من كونه فرصة لتحقيق شىء من الاعتراف والسلطة. واليوم أيضًا، نرى عددًا من مديرى الموارد البشرية يعتقدون أن الرجال أكثر

---

(1) Margaret Hennig , Anne Jardim, *The Managerial Woman,* New York, Pocket Books, 1976, p. 47-50

استعدادًا للمخاطرة أكثر من النساء[1]. أيجب أن نندهش من ذلك؟ كلا بالطبع، فطالما تلازمت العلاقة الإيجابية بالمخاطر وتقييم النجاح الاجتماعى، ويجب ألا ننسى الدرس الهيجلى القائل: بسبب الاعتراف والنفوذ يتصارع الرجال فيما بينهم ويواجهون المخاطر والموت. وها هى الفكرة تتبلور: إذا أردت أن تفرض ذاتك على الآخرين، وأن يقدرك الناس هذا يقتضى مبادرات مشوبة بالمخاطرة. كلما كان الاحتياج للاعتراف الاجتماعى مُلحًا، حمل التحدى والمخاطرة معنى إيجابيًا. ولنا كل الحق فى أن نعتقد، حتى فى أيامنا هذه، أن النفوذ المعترف به للوضع الاجتماعى والمهنى الذكورى يدفع بالرجال إلى الانخراط بشكل مفتوح جدًا فى سلوكيات التحدى والمخاطرة. وعلى العكس، فإذا بدت النساء أقل تماشيًا مع الميل نحو المخاطرة، فذلك يرجع، على الأقل فى جزء منه، إلى دورهن الخاص الذى لا يدفعهن كثيرًا نحو الارتقاء والكسب. ومع تحقيق النساء مكاسب نفسية من النجاح أقل من الرجال، فإنهن يبدين رغبة أقل فى التصدى لمجرى الأحداث والأمور.

الرجل العام/ المرأة الخاصة: وأى مستقبل؟

ما المنظور التطورى للتباين المتمثل فى رجل عام/ امرأة خاصة؟ هل نجح اكتساح متخيل المنافسة والأهلقراطية فى فك هذا التقسيم، أى أنه وضع الرجال والنساء على قدم المساواة إزاء قيم النجاح المهنى والاجتماعى؟ هذا أمر مؤكد. فمن الواضح أن وظيفة الأمومة ستشكل، ولوقت طويل، عقبة جوهرية أمام مجانسة الأدوار الجنسية. فأقل قيمة عظيمة للنجاح المهنى للمرأة تتعلق بشكل صارم بالدور النسائى لمتابعة العناية بالأطفال. بما أن النساء مكلفات أولا بمهام الأمومة، فإن أداءهن المهنى ودورهن العام يحظيان بأقل نفوذ اجتماعى، ذلك أن الظاهرتين تتلازمان. لقد كان الأمر كذلك فى كل المجتمعات المعروفة؛ وسيظل هكذا فى

Women in Corporate Management", Catalyst, 1990, p. 13.(1)

المستقبل أيضًا. إن التغيرات الكبرى التى طرأت على الوضع النسائى، والتى شهدت اتساعًا استثنائيًا (التحكم فى الإنجاب، انخفاض فى عدد المواليد، التعليم العالى، شرعية العمل النسائى المأجور) لن تغير هذا الوضع الثابت. وكما رأينا، يجب ألا تختلط هيمنة النساء على الفضاء المنزلى مع حالة التأخر التاريخى، فالقيم الفردانية نفسها تقود النساء نحو إعادة الاستثمار وإعادة تملك "موقعهن" الخاص التقليدى. أهو انحسار تدريجيا للدور الأمومى لصالح القيم المهنية؟ لا شىء يؤكد ذلك، ما دام أن كبار الموظفات مستمرات فى تحمل المسئولية الأولى عن تربية الأطفال، ويتطلعن للتوفيق بين الدور المهنى ودور الأم. هناك إعادة تدوير تاريخى لدور الأم، فالنموذج لا يزال مهملا. حتى وإن اكتسبت الشهادات الجامعية والمهنة أهمية فى حياة النساء، فلا يمكن أن نتصور تثمينًا متكافئًا عند الجنسين للنجاح والطموح، ما دامت تشكل الأمومة مصدر ارتباط رمزى بين المرأة والحياة الخاصة. حتى وإن خصصت النساء وقتًا أقل للأطفال، فإن "القيد" الاجتماعى الذى يبرز العلاقة الاختصاصية بين الأم والطفل لن يزول مع ذلك. كيف يمكن لثقافة ألا تعطى معنى جوهريًا لوظيفة الأمومة، وألا تترجم مسألة الإنجاب من خلال القيم وأسلوب الحياة؟ إن تأثير المرجعيات الأهلقراطية، وتقدم التجهيزات لاستقبال الأطفال، والمشاركة الممكنة النشطة للآباء فى الحياة المنزلية ربما لا تعدل بشكل عميق التعيين التقليدى للنساء فى الأدوار الخاصة للحياة.

وعلى هذا الصعيد، يبدو أفق المجتمعات الديمقراطية أكثر تمايزًا وأقل تأرجحًا مما نؤكده أحيانًا. وينبغى التخلى عن اعتبار التعارض القائل امرأة خاصة/ رجل عام بأنه تقسيم عتيق للشأن الاجتماعى؛ فقد أعاد عصر ما بعد الحداثة تشكيله، بطريقة ما، وبحركته الخاصة. بالطبع لا يمكن إنكار أن النساء لم يعدن محصورات فى الفضاء الخاص؛ وأن دورهن العام والمهنى حظى بشرعية اجتماعية كبيرة فى الوقت الحاضر. وبالتالى، فإن "تقدم" النساء فى درجات تراتبية السلطة لا تزال فى بدايته، ولكن القوى التى تسجل النساء فى الدور "الخاص" لديها قناعة راسخة تقول بأن

التفوق الذكورى فى المنظمات ليس فى طريقه إلى الزوال، ولم يعد عدم التقسيم الجنسى للسلطة هو مستقبل المجتمعات الديمقراطية بقدر ما سيكون المجتمع بلا طبقات؛ فهناك فرص عديدة لأن تبقى السلطة، والسلطة الاقتصادية فى جميع الحالات، فى صيغة المذكر بحيث لن تقسم بتكافؤ مع الإناث. هذا ليس نهاية تاريخ الفصل بين الجنسين، ولكنه بالأحرى بداية جديدة أبدية للهيمنة الذكورية، حتى وإن كانت أقل تباهيًا مما مضى وأكثر انفتاحًا على المنافسة-من حيث المبدأ- مع الطموح النسائى الجديد.

الرجال يلعبون ويربحون

هناك عوامل أخرى تجعل بقاء التفوق الذكورى فى المؤسسات ممكنًا ولوقت طويل. يتعلق الأمر بالمثل العليا للجنسين وبالمعايير الناظمة لملامح الشخصية، وبالأذواق والسلوكيات الملائمة لكلا الجنسين؛ فحين نعلم الفتية أن يتصرفوا كفتية، والفتيات أن يتصرفن كفتيات، فإن نماذج التكيف الاجتماعى تخلق سلوكيات وحالات فكرية تحضر لجنس بشكل أفضل من الجنس الآخر فيما يتعلق بالصراعات القادمة للسلطة والنفوذ الاجتماعى. فمع *sex typing* تبدأ عملية الإنتاج الاجتماعى للتباين بين الجنسين إزاء السلطة.

وأظهرت ملاحظات عدة كيف أن فكر الاستقلالية والتنافس يتطور بشكل أفضل من خلال تربية الفتيان أكثر من تربية الفتيات؛ فهن يعشن فى ظل الحماية والمراقبة، على اعتبار أنهن مغلوبات على أمرهن وضعيفات أكثر من الفتيان، فالفتيان يتلقون عقوبات وانتقادات أكثر منهن؛ وأمام أى مهمة صعبة، لا يعرض آباؤهم عليهم المساعدة مثلما يحدث مع الفتيات. وفى الوقت ذاته، يسمح لهم بالتنقل مبكرًا وبحرية فى محيط أكثر اتساعًا مما لدى الفتيات؛ وفى سن المراهقة يترك الآباء

أبناءهم يخرجون بيسر أكثر مما يفعلون مع الفتيات. العديد من المعايير الممايزة، والتى تسبب تأخر الفتيات فى الوصول إلى الاستقلالية والتى، على العكس، تشجع الفتيان على روح المخاطرة، وعلى قدر أكبر من الثقة فى النفس، وسلبية أقل، وخوف أقل من الإقدام.

انطلاقًا من هذا المنطق التربوى الذى يدفع بالفتيان نحو الاستقلالية يتطابق تكيف اجتماعى وتوظيف نفسى ذكورى موجه نحو المنافسة، والعدوانية، وتأكيد الذات فى تحدى الآخرين ومواجهتهم. وعلى العكس من الفتيات، فالفتيان يتشاجرون ويستفزون بعضهم، ويحاولون أكثر منهن أن يسيطر بعضهم على بعض، ويؤسسون تراتبيات انطلاقًا من معيار "الأقوى"، ويخشون من أن يوصفوا كـ"أرانب"، ويقومون بحركات التبجح، ويستخدمون فى المجموعات لغة الأوامر والتهديدات(١). عند المراهقين، فإن ضغط مجموعة السابقين وممارسة الرياضات الجماعية تتحد لتخلق مناخًا من المنافسة والرغبة فى تجاوز الآخرين. ويتبارى الفتيان فيما بينهم لإثبات قوتهم، وتفوقهم، ورجولتهم، بغية أن يعترف بهم الرفقاء، وأن يجذبوا انتباه الفتيات، ويؤكدوا قيمتهم. ومن الألعاب العدوانية إلى الثقافة الرياضية، ومن المشاجرات إلى الصور الرجولية التى تنقلها وسائل الإعلام، ومن المآثر الجنسية إلى المغامرات العاطفية المعلنة، كلها أمور تشير إلى أهمية قيم التنافسية والتبارى فى بناء الهوية الذكورية. فأن تتغلب على الآخر، وأن تكون الأقوى، وأن تتجاوز الآخرين تمثل لُب المثال الأعلى الرجولى. كيف نندهش فى ظل هذه الظروف من المكانة المهيمنة للرجال فى فضاءات السلطة؟ فالرجال مُعدون مسبقًا وبشكل طبيعى للعدوانية أكثر من النساء، ويتكيفون اجتماعيًا وفقًا لثقافة المنافسة، ويشعرون بالفخر عندما ينتصرون على الآخرين، ومتحمسون لإثبات تفوقهم، ويجدون تثمينًا لذواتهم فى صراعات السيادة أكثر من الجنس الثانى.

---

(١) Eleanor Maccoby, "La psychologie des sexes : implications pour les roles adultes", in *Le Fait feminine, op. cit.*, p. 243-257.

وقد تكون الميزة الذكورية مزدوجة. فنحن نعرف أن الرجال غارقون فى ثقافة تنافسية أكثر، وتطور الطموح والثقة والتقدير الزائد للذات، وهى السمات المطلوبة لممارسة القيادة، أما النساء فيجدن أنفسهن "معاقات" بسبب المحيط الاجتماعى الذى يمارس عليهن حماية زائدة مما لا يعزز كثيرًا مستوى تقدير الذات. أرجع عدد من الأبحاث المشاريع النسائية المتواضعة الطموح، وتمثيلهن الضعيف فى درجات الإدارة العليا، إلى افتقادهن للثقة فى النفس. إلى جانب نقطة مهمة، وهى أن مستوى الثقة فى النفس يبدو كأنه السمة الفارقة أكثر من غيرها فى نتائج الدراسات التى أجريت على كبار الموظفين والموظفات[1]. وكبار الموظفات أنفسهن غالبًا ما يعتبرن هذا البعد النفسى هو أحد الأسباب الرئيسية لنجاحهن. ومع ذلك، فالملاحظة الدقيقة للظاهرة تسمح بالشك فى تلك التأكيدات. فإذا كانت للمراهقات صورة سلبية عن ذواتهن أكثر من المراهقين، فالأمر ليس كذلك بالنسبة لكبار الموظفات. فى الحقيقة، فإنه فى حالة تساوى الراتب، يبدى الرجال والنساء مشاعر المنافسة ذاتها؛ وفيما يخص إدراكهم لقوتهم الشعورية، وكذلك إدراكهم لذواتهم فى علاقتهم بالرؤساء والمرءوسين، فالتشابه بين الجنسين لافتًا للنظر أكثر من الاختلاف: حيث تنظر كبار المديرات إلى أنفسهن إيجابيًا بنفس قدر نظرائهن من الرجال[2]، وإذا كان تمثيل النساء فى قمة التراتبية لا يزال محدودًا، فذلك لا يرجع إلى افتقار فى الثقة بالنفس- وهو شعور متغير فى جميع الأحوال، يمكن أن يتطور من خلال النجاح المهنى، ولكن بالأحرى بسبب دورهن الاجتماعى المتميز بطابع الشأن الخاص وبنمط من التكيف الاجتماعى قلّمَا يتوجه نحو تأكيد الذات فى المجابهات التنافسية.

من المؤكد، أن الفتيات، فى مجتمعاتنا، قد استبطن أفضل فأفضل القيم التنافسية. بقى أننا لم نتوجه إطلاقًا نحو نموذج وحيد للتكيف الاجتماعى؛ فالإناث

---

(1) Carole Lamoureux , Line Cardinal, “Femmes cadres et estime de soi”, in “Tout savoir sur les femmes cadres d’ici”, colloque cite, p. 66.

(2) Ibid., p. 69-74 ; Francoise Belle, Etre femme et cadre, Paris, L’Harmattan, 1991, p. 198
(أكثر من ٩ نساء من أصل ١٠ يرون أنفسهن أكفاء بقدر زملائهن الرجال)

يتـوجهن بقـوة نحـو العلاقـات، وعلـم الـنفس، والحميميـة، والانشـغالات الشـعورية، والمنزليـة، والجمالية؛ بينمـا يتوجـه الـذكور نحـو "الأدواتيـة"، والعلـوم التكنولوجيـة ولكـن أيضًا نحو العنف والنفوذ. حتـى الرياضـة، والتـى عرفت تأنيثًا واسـعًا، لم تشـهد انتشـارًا لمرجعيات المنافسـة بالطريقة ذاتها عند الذكور وعند الإنـاث. فالفتيـان يعبـرون دائمًـا عن تفضيلهم لرياضـات المنافسـة والفتيـات لأنشـطة التمرين واللياقـة والقوام. بـالتوازى، فإننـا نشـجع كثيـرًا أداء الـبعض وأسـلوب الآخـرين. فـالبطلات اللـواتى بلغـن أعلـى المستويات لا يحظين بالمجد ولا الشـهرة التـى يحظـى بهـا نظـراؤهن الـذكور؛ ويفرضـن أنفسـهن فـى أعين الشباب، بدرجـة أقل كثيرًا من نظرائهن، كنمـاذج للتمـاهى[1]. *Last but not least* كمـا أن الأبطـال الـذكور يتعـاطون المنشـطات الرياضـية أكثـر مـن البطـلات[2]، ويتعين الإقـرار بأنـه إذا كانـت النسـاء يمارسـن الأنشـطة الرياضـية أكثـر فـأكثر، إلا أنـهن لا يـولين المعنـى ذاتـه، والأهميـة ذاتهـا لـروح التنـافس مثـل الرجـال. وبالنسبة للنسـاء، يبدو الانتصـار علـى الآخرين أقل أهميـة من النشـاط الجسدى ذاتـه؛ أما بالنسبة للرجال؛ فالمنافسة فى حد ذاتها تمثل ولعًا، فالتنـافس مـع الآخرين، والفوز، والظهور فى صورة الأفضل تبدو كغاية أو قيمة فى حد ذاتها.

تلك المعـايير الاجتماعيـة والهوياتيـة التـى توجـه تفضـيليًا الـذكور نحـو المنافسـة والنتـائج، وتوجـه الإنـاث نحـو العلائقيـة والحميميـة تمـنح للرجـال الفرصـة فـى ارتقـاء درجات التراتبية. فأن تتغلب، وتتسيد الآخرين هو هدف فى حد ذاتـه، ومثـال هويـاتى أعلـى بالنسـبة للرجـال ولـيس بالنسـبة للنسـاء. إن الرجـال المتسـابقين علـى السـلطة مـدعوون للاحتفـاظ بهـذا الجـوكر. حتـى وإن كانـت الثقافـة الأهلقراطيـة تبسـط إمبراطوريتهـا أكثـر فـأكثر، فـلا يمكـن تخيـل أن القيم التنافسـية تسـتطيع أن تسـتبطن هوياتيًا بواسطة كلا الجنسين، وأن تنجز بنجاح معايير المحيط الاجتماعى التـى تـدرج

---

(1) Michele Metoudi, "Les femmes dans l'heroisme sportif", *Esprit*, nov. 1993, p. 29-40.

(2) Sauzanne Laberge , Guy Thibault, "Dopage sportif : attitudes de jeunes athletes quebecois et significations dans le context d'une ethique postmoderne", *Loisir et societe*, Presses de l'Universite du Quebec, n.2, automne 1993, p. 366-371.

النساء فى صفوف العائلة والعلائقية والغواية. ومن الوهم أن نفكر أن المرجعيات النفسية والاتصالية الجديدة تستطيع إلغاء المحور التنافسى فى الهوية الذكورية. فكل شىء يقول بأن الأمومة تعد عاملا دائمًا يربط الإناث بالفضاء الخاص، كما أن الجنسانية الذكورية والقوة الجسدية الرجولية- وإن كانت غير مثمنة فى تجلياتها الواضحة- تعمل باعتبارها مؤشرات "بنيوية" للتثمين التخيلى الاجتماعى للكفاح والحرب *agon* والسيطرة. وفى المجتمعات الإنسانية، تعد جميع الفروق مادة لإضفاء التضخيم والاستعارة. ومن غير المحتمل أن الفروق "الموضوعية" التى تخص القوة، والعدوانية، والجنسانية الذكورية تبقى خالية من المعنى اجتماعيًا ونفسيًا، دون أن تفسح مكانا للارتباط، والتثمين، والتمايز الاجتماعى. وكلما ارتبطت علاقة الهوية القتالية بمتخيل القدرة الجنسية والجسدية الذكورية، أعاد المستقبل بلا شك هيمنة المثال الرجولى، المصارع والمتنافس، ولن تضع ضغوط المساواة نهاية للرموز الاجتماعية، والأنماط والارتباطات المتخيلة التى تمس الاختلاف بين الجنسين. ومن المؤكد أن الثقافة الفردانية- الديمقراطية زعزعت أدوار وواجبات الجنسين، ولكن تلك العملية تجد تعارضًا فى المطلب الاجتماعى والهوياتى لتمايز الأدوار والسلوكيات عند الذكور وعند الإناث. لا شىء يسمح بتصور حالة اجتماعية متخلصة من هذا القيد.

وعلى ضوء الاتجاهات الحالية، لا تفعل مقولة "هزيمة الرجال" إلا إثارة النزعة الارتيابية؛ فلم يفقد الرجال وضعهم المميز لكسب لعبة القدرة والمجد، لأنهم معدون اجتماعيًا لتأكيد ذواتهم فى المواجهة مع الآخرين. وحدها القيم العنترية وعلامات الرجولة الأكثر تبجحًا هى التى فقدت قيمتها. ليست أزمة الذكورة هى الظاهرة الأكثر تميزًا، وإنما بقاؤها الهوياتى بغض النظر عن الأشكال المخففة التى تتضمنها. إن الرغبة فى السيطرة، والاحتياج إلى لفت الانتباه، والميل إلى الكسب من أجل الكسب تظل مبادئ يستبطنها الرجال أكثر من النساء. وكما رأى هيجل Hegel من قبل، تتشكل الذاتية الذكورية فى الصراع بين البشر من أجل الاعتراف والنفوذ. هذا النموذج ليس باليًا، بل باقيًا، حتى وإن كان بدون أبعاد حربية. فمنذ "بداية" التاريخ

وحتى أيامنا هذه، يثبت الذكور أنفسهم من خلال المجابهات والمنافسات الطبقية؛ لأن الهوية الذكورية ليست مجروحة بقدر ما أعيد تدويرها، فهى دائمًا ما تسمح للرجال، فى المجتمعات المفتوحة، بتأكيد هيمنتهم على محافل السلطة[١]. أما عن "أزمة الرجولة" فهى صورة أدبية أكثر منها ظاهرة اجتماعية عميقة؛ فالرجل هو مستقبل الرجل والسلطة الذكورية، والأفق الملِحّ للأزمنة الديمقراطية.

---

(١) حتى عندما تصل النساء إلى مواقع اتخاذ القرار، خاصة فى الإدارة العليا، فإن القليلات منهن من يدفعن بأنفسهن إلى أعلى مستوى، ويبقين فى المستويات الدنيا للتراتبية.(انظر Sylvie Paquerot, art. Cite, p. 250). وكما رأينا، فإن تلك التراتبية التى أدت إلى التفوق الذكورى توجد فى عالم المؤسسات وفى أغلب الحكومات.

المؤلف فى سطور:

جيل ليبوفيتسكى

ولد فى عام ١٩٤٤ بفرنسا، وهو فيلسوف، ومفكر، وكاتب، وأستاذ فى جامعة "جرينوبل". بدأ حياته العملية بالتدريس الجامعى للفلسفة، واشتهر اسمه مع نشر كتابه الأول "زمن العدم" فى عام ١٩٨٣؛ حيث عرض ما أسماه" الثورة الفردانية الثانية". وطوال ١٣ مولفًا يمثلون جملة أعماله تعرض المؤلف بلا كلل للمجتمع الغربى الحديث، فارتبط اسمه بفكر ما بعد الحداثة ومفاهيم مثل "الفردانية المفرطة"، و" الحداثة المفرطة". وفى كتابه "La troisieme Femme " يعرض المؤلف أفكاره حول الحالة النسائية بشكل خاص، وما تعرضت له من تغيرات فى نصف القرن الأخير بشكل يفوق ما تعرضت له طوال قرون متوالية.

يقسم المؤلف المصير النسائى إلى ثلاث فترات كبرى: المرأة الأولى كانت محتقرة ومؤبلسة بسبب جمالها، ثم بدأ تمجيد هذا الجمال، وبخاصة فى التعبير الفنى، لكن فى الحالتين لم يتشكل الكيان النسائى إلا من خلال نظرة الرجل له، أما المرأة الثالثة فهى تلك التى تتواكب مع النموذج الحديث الذى ينادى بأن تحيا المرأة بذاتها، لكن هل اختفت تمامًا النماذج القديمة وإلى الأبد؟ وهل حققت " الحالة الثالثة" التى بلغتها المرأة ازدهارها التاريخى؟ يطرح المؤلف من خلال هذا الكتاب ما يشكل، وفقًا له، الحدود والمعوقات التى تعترض النموذج الغربى الديمقراطى المعاصر.

المترجمة فى سطور:

دينا فتحى مندور

ولدت عام ١٩٧٨، وتخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية(١٩٩٩)، وواصلت دراساتها فى المعهد الفرنسى بالقاهرة(٢٠٠٠)، اهتمت أولا بالصحافة فعملت صحفية بالأهرام إبدو التى تصدر باللغة الفرنسية بالقاهرة(2002)، ثم آثرت الترجمة فترجمت رواية "فاديت الصغيرة" للكاتبة جورج صاند، وصدرت فى عام ٢٠٠٨، كما ترجمت كتاب "مذكرات حمار" للكونتيسة دى سيجور فى عام ٢٠٠٩، وهى حاصلة على دبلوم إدارة الموارد البشرية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠١٠، كما أنها حصلت على منحة المركز القومى للكتاب بباريس عام ٢٠١١، واجتازت دورة "مصنع المترجمين " بكلية المترجمين الأدبيين بآرل/فرنسا.

المراجع فى سطور:

جمال شحيّد

أستاذ أدب مقارن ومترجم وناقد أدبى، من ترجماته الجزءان السادس والسابع من سباعية مارسيل بروست، دار شرقيات (٢٠٠٣، ٢٠٠٥)، ورحلة لامارتين إلى الشرق، مؤسسة البابطين للإبداع الشعرى بالكويت (٢٠٠٦)، والمفكّرون الأحرار فى الإسلام لدومينيك أورفوا، دار الساقى (٢٠٠٨)، وتاريخ الجمال لجورج فيغاريللو، المنظمة العربية للترجمة (٢٠١١). ومن أعماله النقدية فى البنيوية التكوينية. بيروت، دار ابن رشد (١٩٨٢)، خطاب الحداثة فى الأدب، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٥)، الذاكرة فى الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (٢٠١١).

التصحيح اللغوى: أيمـن صابر
الإشــراف الفنــى: حسن كامـل





إن الأسباب التى تدفع رجلا من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى التفكير والكتابة عن المرأة فى عصره ليست سرًا. كيف لا نتساءل حول المكانة الجديدة للنساء وعلاقتهن بالرجال فيما غيّر نصف القرن الأخير الوضع النسائى أكثر مما فعلت الألفيات السابقة؟ فالنساء كن "أمات" مخلوقات للإنجاب، ثم تجاوزن هذه العبودية الأزلية. وكانت النساء يحلمن بالأمومة والبقاء فى المنزل، ثم رغبن فى ممارسة نشاط مهنى. وكن خاضعات لأخلاقيات صارمة، ثم حظين بالحرية الجنسية كحق من حقوق المواطنة. كما كن محصورات فى القطاعات النسائية، وهاهن يفتحن ثغرات فى القلاع الذكورية، ويحصلن على الشهادات نفسها، ويطالبن بالندية فى مجال السياسة.

وهكذا لم يقع فى هذا العصر تزعزع اجتماعى يماثل التحرر النسائى فى عمقه وسرعته وثراء مستقبله.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح